

تأليف العلامة المفسر أبي القاسم

محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الأندلسي الغرناطي

رحمه الله وتقبله في الشهداء - (٦٩٣ - ٧٤١ هـ)

ومعه تقريرات لفضيلة الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن ناصر البراك

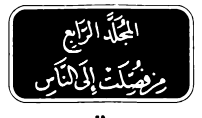
حفظه الله تعالى ونفع به

على المواضع المشكلة في العقيدة والسلوك

تحقيق

علي بن حمد الصالحي

عضو هيئة التدريس بجامعة أم القرى



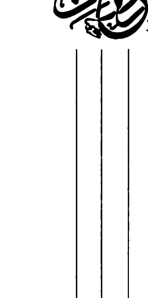






الطَّبْعَة الأولى

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م





دار طيبة الخضراء

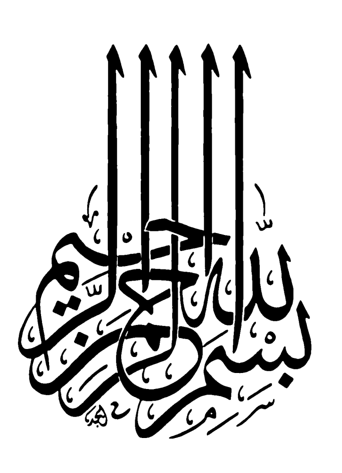
للنشر والتوزيع | علم ينتفع به

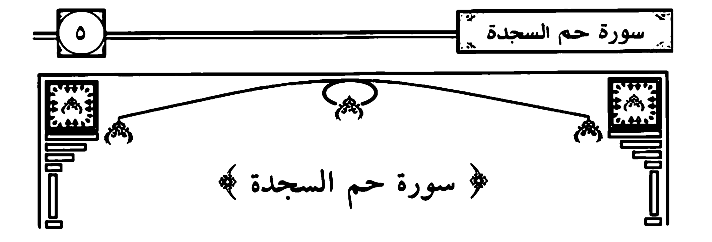
0125562986 I yyy 01@hotmail com

dar talbaa @dar_tg dar talbagreen123 dar talba

مكة المكرمة - العزيزية - خلف مسجد فقيه

0503568771 I 0550428992 I yyy.01@hotmail.com I 0125562986


بسم الله الرحمن الرحيم



﴿ سورة حم السجدة ﴾

[﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝٥ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ۝٧ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾].

﴿فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي: بُيِّنت.

وقيل: قُطِّعت إلى سورٍ وآيات.

﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا﴾ منصوبٌ بفعل مضمر على التَّخصيص.

أو حالٌ.

أو مصدرٌ.

﴿لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ﴾ معناه: يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل إذا نظروا فيها، وذلك هو العلم الذي يوجب التكليف.

وقيل: معناه: يعلمون الحق، وهو الإيمان.

فالأول عام، وهذا خاصٌّ، والأول أولى؛ لقوله: ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾؛

لأن الإعراض ليس من صفة المؤمنين.

وقيل: يعلمون لسان العرب فيفهمون القرآن؛ إذ هو بلغتهم.

وقوله: ﴿لِقَوْمٍ﴾ يتعلَّق: بـ ﴿تَنزِيلٌ﴾، أو بـ ﴿فُصِّلَتْ﴾.

والأحسن أن يكون صفة لـ ﴿كِتَٰبٌ﴾.

﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي: لا يقبلون ولا يطيعون، وعبَّر عن ذلك بعدم السماع على وجه المبالغة.

﴿فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ جمع كِنانٍ، وهو الغطاء.

﴿وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ عبارةٌ عن بُعْدِهم عن الإسلام.

﴿فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ قيل: معناه: اعمل على دينك؛ إننا عاملون على ديننا، فهو مُتارَكةٌ.

وقيل: اعمل في إبطال أمرنا؛ إننا عاملون في إبطال أمرك، فهو تهديدٌ.

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ هي زكاة المال، وإنما خصَّها بالذكر؛ لصعوبتها على الناس، ولأنها من أركان الإسلام.

وقيل: يعني بالزكاة: التوحيدَ، وهذا بعيدٌ، وإنما حمله على ذلك أن الآيةَ مكيةٌ، ولم تُفرض الزكاة إلَّا بالمدينة.

والجواب: أن المراد: النفقة في طاعة الله مطلقًا، وقد كانت مأمورًا بها بمكة.

﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ أي: غير مقطوع، من قولك: مننتُ الحبل: إذا قطعتَه.

وقيل: غير منقوص.

وقيل: غير محصور.

وقيل: لا يُمَنُّ عليهم به؛ لأن المنَّ يُكدِّر الإحسان.

* * *

[﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾].

﴿أَندَادًا﴾ أي: أمثالًا وأشباهًا من الأصنام وغيرها.

﴿رَوَاسِيَ﴾ يعني: الجبالَ.

﴿وَبَارَكَ فِيهَا﴾ أكثرَ خيراتها.

﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ أي: أرزاقَ أهلها ومعايشَهم(١).

وقيل: يعني: أقوات الأرض من المعادن وغيرها من الأشياء التي بها قِوام الأرض.

والأول أظهر.

---

(١) في ج: «ومعاشهم».

﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ يريد: أن الأربعة كمُلت باليومين الأولين، فخلَق الأرض في يومين، وجعل فيها ما ذكر في يومين، فتلك أربعة أيام، وخلَق السموات في يومين فتلك ستة أيام، حسَبما ذكر في مواضع كثيرة من القرآن، ولو كانت هذه الأربعةُ الأيام زيادة[1] على اليومين المذكورين قبلها لكانت الجملة ثمانيةَ أيام، بخلاف ما ذكر في المواضع الكثيرة.

﴿سَوَآءٗ﴾ بالنصب: مصدرٌ، تقديره: استوت استواءً. قاله الزمخشري[2].

وقال ابن عطية: انتصب على الحال[3].

﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ قيل: معناه: لمن سأل عن أمرها.

وقيل: معناه: للطَّالبين لها، ويعني بالطلب على هذا: حاجةَ الخلق إليها.

وحرف الجر:

يتعلَّق بمحذوف على القول الأول، تقديره: يبيِّن ذلك لمن سأل عنه.

ويتعلَّق بـ ﴿وَقَدَّرَ﴾ على القول الثاني.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: قصَد إليها.

ويقتضي هذا الترتيب: أن الأرض خُلقت قبل السماء.

فإن قيل: كيف الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ٣٠﴾ [النازعات: ٣٠]؟

---

(١) في ب: «زائدة».

(٢) الكشاف (١٣/ ٥٧٣).

(٣) المحرر الوجيز (٧/ ٤٦٦).

فالجواب: أنها خُلقت قبل السماء، ثم دُحِيت بعد ذلك.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ﴾ روي: أنه كان العرش على الماء، فأخرج اللهُ من الماء دخانًا، فارتفع فوق الماء، فأيبس الماءَ فصار أرضًا، ثم خلق السماء من الدخَان المرتفع.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ هذه عبارةٌ عن لزوم طاعتهما، كما يقول الملِك لمن تحت يده: «افعل كذا شئتَ أو أبيت»، أي: لا بدَّ لك من فعله.

وقيل: تقديره: ائتيا طوعًا وإلَّا أتيتما كرهًا.

ومعنى هذا الإتيان: تصوُّرُهما على الكيفية التي أرادها الله.

وقوله لهما: ﴿ائْتِيَا﴾ مجازٌ، وهو عبارةٌ عن تكوينه لهما.

وكذلك قولهما: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ عبارةٌ عن أنهما لم تمتنعا[1] عليه حين أراد تكوينَهما.

وقيل: بل ذلك كلامٌ حقيقةً، وأنطق الله الأرض والسماء بقولهما: ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾.

وإنما جَمع ﴿طَائِعِينَ﴾ جمع العقلاء؛ لوصفهما بأوصاف العقلاء.

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ أي: صنعهنَّ، والضمير للسموات السبع، وانتصابُها على التمييز؛ تفسيرًا للضمير.

---

(١) في أ، ب، هـ: «يمتنعا».

وأعاد عليها هنا ضمير الجماعة المؤنثة؛ لأنها لا تعقل، فهو كقولك: «الجذوعُ انكسَرْنَ».

وجمعهما جمع المذكَّر العاقل في قوله: ﴿طَآئِعِينَ﴾؛ لأنه وصفها[١] بالطَّوع، وهو فعل العقلاء، فعاملها[٢] معاملتهم، فهو كقوله: ﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤].

وأعاد ضمير التثنية في قوله: ﴿قَالَتَآ﴾؛ لأنه جعَل الأرض فرقةً والسماء أخرى[٣].

﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ أي: أَوحى إلى سُكَّانها من الملائكة، وإليها هي نفسها[٤] ما شاء من الأمور، التي بها قِوامها وصلاحها.

وأضاف الأمر إليها؛ لأنه فيها.

﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ يعني: الشمس والقمر والنجوم، وهي زينةٌ للسماء الدنيا، سواءٌ كانت فيها أو فيما فوقها من السموات.

﴿وَحِفْظًا﴾ تقديره: وحفظناها حفظًا.

ويجوز أن يكون مفعولًا من أجله على المعنى، كأنه قال: وخلقنا المصابيح زينةً وحفظًا.

---

(١) في أ، ب، هـ: «وصفهما».

(٢) في أ، ب، هـ: «فعاملهما».

(٣) في ب، ج: «فرقة».

(٤) في ب، ج: «بعينها».

﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ﴾ الضمير لقريش.

﴿صَٰعِقَةً﴾ يعني: وقْعةً وأخْذةً[١] شديدة، وهي مستعارةٌ من صاعقة النار.

وقرئ ﴿صَعْقَةً﴾ بإسكان العين، وهي الوَقْعة، من قولك: صَعِقَ الرجلُ.

﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ معنى ما بين الأيدي: المتقدِّم، ومعنى ما خلف: المتأخِّر.

فمعنى الآية: أن الرسل جاؤوهم في الزمان المتقدِّم، واتَّصلت نِذارتهم إلى زمان عاد وثمود، حتى قامت عليهم الحجة، فذلك ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، ثم جاءتهم رسلٌ آخرون عند اكتمال أعمارهم، فذلك ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾، قاله ابن عطية[٢].

وقال الزمخشري: معناه: أتوهم من كل جانب، فهو عبارةٌ عن اجتهادهم في التبليغ إليهم[٣].

وقيل: أخبروهم بما أصاب مَنْ قبلهم، فذلك ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾، وأنذروهم ما يجري عليهم في الزمان المستقبل وفي الآخرة فذلك ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ «أنْ»:

حرفُ عبارةٍ وتفسير.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «واحدة».

(٢) المحرر الوجيز (٧/ ٤٦٩-٤٧٠).

(٣) الكشاف (١٣/ ٥٨٣).

أو مصدريةٌ، على تقدير: بأن لا تعبدوا إلّا الله.

﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ ليس فيه اعترافُ الكفار بالرسالة، وإنما معناه: بما أرسلتم على قولكم ودعواكم، وفيه تهكُّمٌ.

﴿رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ قيل: إنه من الصِّرِّ وهو شدة البرد، فمعناه: باردةً.

وقيل: إنه من قولك: صَرَّ يَصِرُّ: إذا صوَّت، فمعناه: لها صوت هائل.

﴿فِيٓ أَيَّامٖ نَّحۡسَاتٖ﴾ معناه: مِن النَّحْس، وهو ضد السَّعْد.

وقيل: شديدة البرد.

وقيل: متتابعةٌ.

والأول أرجح.

وروي أنها كانت آخرَ شوال من الأربعاء إلى الأربعاء.

وقرئ ﴿نَّحۡسَاتٖ﴾ بإسكان الحاء وكسرها:

فأما الكسر: فجمع نَحِسٍ، وهو صفة.

وأما الإسكان: فتخفيفٌ من الكسر، أو صفةٌ على وزن فَعْلٍ، أو وصفٌ بالمصدر.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بيَّنا لهم، فهو بمعنى البيان، لا بمعنى الإرشاد.

* * *

[﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾].

﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي: يُدْفعون بعنفٍ.

﴿وَجُلُودُهُم﴾ يعني: الجلودَ المعروفة.

وقيل: هي كنايةٌ عن الفروج.

والأول أظهر.

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ﴾ الآيةَ؛ يحتمل أن يكون: من كلام الجلود، أو من كلام الله تعالى، أو الملائكة.

وفي معناه وجهان:

أحدهما: لم تَقدِروا أن تستتروا من سمعكم وأبصاركم وجلودكم؛ لأنها ملازمةٌ لكم، فلم يمكنْكم احتراسٌ من ذلك، فشهدت عليكم.

والآخر: لم تتحفَّظوا من شهادة سمعكم وأبصاركم وجلودكم؛ لأنكم لم تبالوا بشهادتها، ولم تظنُّوا أنها تشهد عليكم، وإنما استترتم لأنكم ظننتم أن الله لا يعلم كثيرًا مما تعملون، وهذا أرجح؛ لاتِّساق ما بعده معه، ولما جاء

في الحديث الصحيح عن ابن مسعود أنه قال: «اجتمع ثلاثة نفر قرشيان[١] وثقَفي، أو ثقَفيان وقرشي[٢]، قليلٌ فقهُ قلوبِهم، كثيرٌ شحمُ بطونِهم، فتحدَّثوا بحديثٍ، فقال أحدهم: أترى الله يسمع ما قلنا؟ فقال الآخر: إنه يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا، فقال الآخر: إن كان يسمع منَّا شيئًا فإنه يسمعه كلَّه، فنزلت الآية»[٣].

﴿أَرْدَىٰكُمْ﴾ أي: أهلكَكم؛ من الرَّدَى بمعنى الهلاك.

﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ هو من العُتْبى بمعنى الرضا؛ أي: إن طَلبوا العُتْبى ليس فيهم من يُعطاها.

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ﴾ أي: يسَّرنا لهم قرناءَ سوءٍ؛ من الشياطين وغُواة الإنس.

﴿فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما تقدَّم من أعمالهم، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: ما هم عازمون عليه.

أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمر الدنيا، ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ من أمر الآخرة، والتكذيبِ بها.

﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: سبَق القضاءُ بعذابهم.

﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ أي: في جملةِ أممٍ.

وقيل: ﴿فِىٓ﴾ بمعنى: «مع».

(١) في ج، د، هـ: «قريشيان» والمثبت موافق لما في الرواية.
(٢) في أ، ج، د، هـ: «وقريشي» والمثبت موافق لما في الرواية.
(٣) أخرجه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).

[﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ روي أن قائل هذه المقالة أبو جهل لعنه الله.

﴿وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ المعنى: لا تسمعوا إليه، وتشاغلوا عند قراءته برفع الأصوات، وإنشاد الشعر، وشبه ذلك؛ حتى لا يسمعه أحد.

وقيل: معناه: قَعُوا فيه وعِيبُوه.

﴿أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾ يقولون هذا إذا دخلوا جهنم، فقولهم مستقبلٌ ذُكِر بلفظ الماضي؛ لتحقُّقه.

ومعنى ﴿ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا﴾: كلٌّ من أغوانا من الجن والإنس.

وقيل: المراد: ولدُ آدم الذي سنَّ القتل، وإبليسُ الذي أمر بالكفر والعصيان، وهذا باطل؛ لأن ولدَ آدمَ مؤمنٌ عاصٍ، وإنما طلبَ هؤلاء من أضلَّهم بالكفر.

﴿تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ أي: في أسفل طبقةٍ من النار.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ قال أبو بكر الصديق: **المعنى**: استقاموا على قولهم: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فصحَّ إيمانهم، ودام توحيدهم.

وقال عمر بن الخطاب: **المعنى**: استقاموا على الطاعة وترك المعاصي.

وقول عمر أكملُ وأحوط، وقول أبي بكر أرجح؛ لما روى أنس أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «**قد قالها قوم ثم كفروا، فمن مات عليها فهو ممن استقام**»(١).

وقال بعض الصوفية: معنى ﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾: أعرضوا عما سوى الله، وهذه حالة الكمال، على أن اللفظ لا يقتضيها.

﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يعني: عند الموت.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا﴾ الضمير للآخرة.

﴿مَا تَدَّعُونَ﴾ أي: ما تطلبون.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٥٠).

[﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: لا أحدَ أحسنُ قولًا منه، ويدخل في ذلك: كل من دعا إلى عبادة الله أو طاعته على العموم.

وقيل: المراد محمد ﷺ.

وقيل: المؤذِّنون، وهذا بعيد؛ لأنها مكية، وإنما شُرِع الأذان بالمدينة ولكنِ المؤذِّنون يدخلون في العموم.

﴿وَمَا يُلَقَّنهَآ﴾ الضمير يعود على الخُلُق الجميل الذي يتضمَّنه قوله: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾.

﴿ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ أي: حظٌّ من العقل والفضل.

وقيل: حظٌّ عظيم في الجنة.

﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ﴾ «إنْ» شرطيةٌ دخلت عليها «ما» الزائدة.

ونَزْغُ الشيطانِ: وساوسه وأمره بالسوء.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضمير يعود على الليل والنهار والشمس والقمر؛ لأن جماعة ما لا يعقل كجماعة المؤنث، أو كالواحدة المؤنثة(١).

وقيل: إنما يعود على الشمس والقمر، وجمعهما؛ لأن الاثنين جمعٌ، وهذا بعيد.

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ يعني: الملائكةَ.

﴿لَا يَسْـَٔمُونَ﴾ أي: لا يملون.

﴿ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ عبارةٌ عن قلة النبات.

﴿ٱهْتَزَّتْ﴾ ذكر في «الحج»(٢).

﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ تمثيلٌ واحتجاجٌ على صحة البعث.

---

(١) فيقال: خلقهن، أو خلقها، كما يقال: الأقلام بريتها وبريتهنَّ. انظر: الكشاف (١٣/ ٦١٠).

(٢) انظر (٣/ ١٧٩).

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: يطعنون عليها، وهذا الإلحاد هو بالتكذيب.

وقيل: باللَّغْوِ فيه، حسَبما تقدَّم في السورة.

﴿أَفَمَن يُلۡقَىٰ فِي ٱلنَّارِ﴾ الآيةَ؛ **قيل**: إن المراد بالذي يُلقى في النار: أبو جهل، وبالذي يأتي آمنًا: عثمان بن عفان.

وقيل: عمار بن ياسر.

واللفظ أعم من ذلك.

﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ تهديدٌ، لا إباحةٌ.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ الذكر هنا: القرآن باتفاق.

وخبر ﴿إِنَّ﴾ محذوفٌ، تقديره: ضلُّوا، أو هَلَكوا.

وقيل: خبرها: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾، وذلك بعيد.

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ﴾ أي: كريمٌ على الله.

وقيل: منيعٌ من الشيطان.

﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ أي: ليس فيما تقدَّمه ما يبطله، ولا يأتي بعده ما يبطله.

والمراد على الجملة: أنه لا يأتيه الباطل من جهةٍ من الجهات.

﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: ما يقول الله لك من الوحي والشرائع إلَّا مثل ما قال للرسل من قبلك.

والآخر: ما يقول لك الكفار من التكذيب والأذى إلَّا مثل ما قال الأمم المتقدِّمون لرسلهم، فالمراد على هذا: تسلية النبي ﷺ بالتأسِّي.

والمراد على القول الأوَّل: أنه ﷺ(١) أتى بما جاءت به الرسل، فلا تُنكَر رسالته.

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ يحتمل:

أن يكون مستأنفًا.

أو يكون هو المقول في الآية المتقدِّمة.

وذلك على القول الأوَّل(٢).

وأما على القول الثاني: فهو مستأنَفٌ منقطعٌ مما قبله.

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ الأعجمي: الذي لا يُفصِح ولا يبين كلامَه، سواءٌ كان من العرب أو من العجم.

والعَجَمي: الذي ليس من العرب، فصيحًا كان أو غير فصيح.

ونزلت الآية بسبب طعن قريش في القرآن.

فالمعنى: أنه لو كان أعجميًّا لطعنوا فيه وقالوا: هلَّا كان مُبيَّنًا؟، فظهر أنهم يطعنون فيه على أي وجهٍ كان.

﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ هذا من تمام كلامهم، والهمزة للإنكار.

---

(١) في د زيادة: «إنما».

(٢) أي: هذا الاحتمال إنما يجيء على القول الأول من القولين الواردين في معنى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾.. الآيةَ.

والمعنى: أنه لو كان القرآن أعجميًا لقالوا: أقرآن أعجمي، ورسول عربي، أو مُرسَلٌ إليه عربي؟

وقيل: إنما طعنوا فيه؛ لما فيه من الكلمات العَجَمية، كسِجِّين وإستبرق، فقالوا: أقرآن عَجَميٌّ وعربيٌّ؟، أي: مختلط من كلام العرب والعجم، وهذا يجري على قراءة ﴿أعَجَمِيٌّ﴾ بفتح العين.

﴿فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ﴾ عبارةٌ عن إعراضهم عن القرآن، فكأنهم صمٌّ لا يسمعونه.

وكذلك ﴿وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ عبارةٌ عن قلة فَهمهم له.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ﴾ فيه قولان:

أحدهما: عبارةٌ عن قلة فهمهم، فشبَّههم بمن يُنادَى من مكان بعيدٍ، فهو يَسمع الصوت ولا يَفقه ما يُقال.

والثاني: أنه حقيقةٌ في يوم القيامة؛ أي: ينادون من مكان بعيدٍ؛ ليسمع أهل الموقف توبيخَهم.

والأوَّل أليق بالكنايات التي قبلها.

* * *

[﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّـٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾].

﴿كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ يعني: القدرَ.

﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علم زمان وقوعها، فإذا سئل أحدٌ عن ذلك قال: الله هو الذي يعلمها.

﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ جمع كِمٍّ - بكسر الكاف -، وهو غلاف الثمرة قبل ظهورها.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ محذوفٌ والمراد به: يوم القيامة، والضمير للمشركين، وقوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ توبيخٌ لهم.

وأضاف الشركاء إلى نفسه على زعم المشركين، كأنه قال: الشركاء الذين جعلتم لي.

﴿قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ المعنى: أنهم قالوا: أعلمناك ما منا مَن يَشهد[1] اليوم بأن لك شريكًا؛ لأنهم كفروا يوم القيامة بشركائهم.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي: ضلَّ عنهم شركاؤهم، بمعنى: أنهم لم يروهم حينئذ، فـ ﴿مَا﴾ على هذا موصولة.

أو: ضل عنهم قولهم الذي كانوا يقولون من الشرك، فـ ﴿مَا﴾ على هذا مصدرية.

﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ الظنُّ هنا: بمعنى اليقين، والمحيص: المهرب، أي: علموا أنهم لا مَهرب لهم من العذاب.

وقيل: يوقف على ﴿وَظَنُّواْ﴾، ويكون ﴿مَا لَهُم﴾ استئنافًا، وذلك ضعيف.

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: لا يملُّ من الدعاء بالمال والعافية وشبه ذلك.

ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة.

وقيل: في غيره من الكفار.

واللفظ أعم من ذلك.

---

(١) في ب، ج، د: «مِن شهيد».

﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ أي: هذا حقِّي الواجبُ لي وليس تفضُّلًا من الله، ولا يقول هذا إلَّا كافر، ويدلُّ على ذلك قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾.

وقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ معناه: إن بُعثت تكون لي الجنة، وهذا تخرُّصٌ وتكبُّرٌ.

وروي أن الآية نزلت في الوليد بن المغيرة.

﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ ذكر في «الإسراء»[١].

﴿دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ أي: كثير.

وذكَر اللهُ هذه الأخلاقَ على وجه الذَّمِّ لها[٢].

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الآية؛ معناها: أخبروني إن كان القرآن من عند الله ثم كفرتم به؛ ألستم في شقاق بعيد؟ فوضع قوله: ﴿مَنْ أَضَلُّ﴾ موضعَ الخطاب لهم.

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ الضمير لقريش، وفيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الآيات في الآفاق: هي فتح الأقطار للمسلمين، والآيات في أنفسهم: هي فتح مكة، فجميع ذلك وَعْدٌ للمسلمين بالظهور، وتهديدٌ للكفار، واحتجاجٌ[٣] عليهم بظهور الحق وخمول[٤] الباطل.

---

(١) انظر ٢/ ٨٢٧.

(٢) في ب، ج: «لهم».

(٣) في أ، ب، ج، هـ: «فجمعَ ذلك وعدًا للمسلمين بالظهور وتهديدًا للكفار واحتجاجًا».

(٤) في د: «وخمود».

والثاني: أن الآيات في الآفاق: هي ما أصاب الأمم المتقدمين من الهلاك، وفي أنفسهم: يوم بدر.

والثالث: أن الآيات في الآفاق: هي خلق السماء وما فيها من العبر والآياتِ، وفي أنفسهم: خِلْقة بني آدم، وهذا ضعيف؛ لأنه قال: ﴿سَنُرِيهِمْ﴾ بسين الاستقبال، وقد كانت السماء وخِلْقةُ بني آدم مرئيةً.

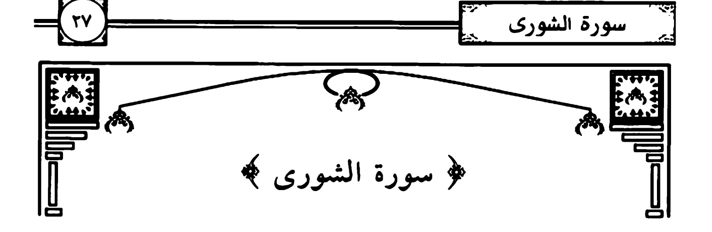
والأول هو الراجح.

﴿أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضمير للقرآن و[1] الإسلام.

﴿مُّحِيطُۢ﴾ أي: محيطٌ بعلمه وقدرته وسلطانه.

* * *

(١) في أ: «أو».



﴿ سورة الشورى ﴾

[﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٣ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ۝٤ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ۝٦ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ۝٨ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾].

﴿عٓسٓقٓ﴾ الكلام فيه كسائر حروف الهجاء حسَبما تقدَّم في «البقرة»[(١)].

وحكى الطبري أن رجلًا سأل ابن عباس عن ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾، فأعرض عنه، فقال حذيفة: إنما كرهها ابن عباس؛ لأنها نزلت في رجلٍ من أهل بيته اسمه عبد الله يبني مدينةً على نهر من أنهار المشرق، ثم يَخسف الله بها في آخر الزمان[(٢)]. والرجل على هذا أبو جعفر المنصور، والمدينة

(١) انظر (١/ ٢٦١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ٤٦٤).

بغداد، وقد ورد في الحديث الصحيح أنها يُخسف بها[١].

﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ﴾ الكاف: نعتٌ لمصدر محذوف، والإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ما تضمَّنه القرآن أو[٢] السورة.

وقيل: الإشارة لقوله: ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ ۝٢﴾؛ فإن الله أنزل هذه الأحرف بعينها في كتاب أنزله، وفي صحة هذا نظرٌ.

﴿ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ اسم ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعلٌ بـ﴿يُوحِيٓ﴾.

وأما على قراءة ﴿يُوحَى﴾ بالفتح فهو فاعلٌ بفعل مضمر، دلَّ عليه ﴿يُوحَى﴾، كأنَّ قائلًا قال: «من الذي أوحى؟» فقيل: «اللهُ».

﴿يَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ﴾ أي: يتشقَّقْنَ من خوف الله وتعظيم جلاله.

وقيل: من قول الكفار: «اتخذ الله ولدًا»، فهي كالآية التي في «مريم».

قال ابن عطية: وما وقع للمفسِّرين هنا من ذكر الثِّقَل ونحوه مردودٌ؛ لأن الله تعالى لا يوصف به[٣].

﴿مِن فَوۡقِهِنَّۚ﴾ الضمير للسموات، والمعنى: يتشقَّقن من أعلاهن، وذلك مبالغةٌ في التهويل.

وقيل: الضمير للأَرَضين، وهذا بعيد.

---

(١) لعله يقصد الحديث الذي عند مسلم (٢٩٠١): «إن الساعة لا تكون حتى تكون عشر آيات: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف في جزيرة العرب..» الحديث.

(٢) في ب، ج: «و».

(٣) المحرر الوجيز (٧/ ٥٠٠).

وقيل: الضمير للكفار، كأنه قال: من فوق الجماعات الكافرة التي مِن أجْلِ أقوالها تكاد السموات يتفطَّرن، وهذا أيضًا بعيد.

﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِۗ﴾ عمومٌ يراد به الخصوص؛ لأن الملائكة إنما تستغفر[1] للمؤمنين من أهل الأرض، فهي كقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [غافر: ٧].

وقيل: إنَّ ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نَسخ هذه الآية، وهذا باطل؛ لأن النسخ لا يدخل في الأخبار.

ويَحتمل أن يريد بالاستغفار طلَبَ الحِلم عن أهل الأرض مؤمنِهم وكافرهم، ومعناه: الإمهال لهم، وأن لا يُعاجَلُوا بالعقوبة، فيكون عامًّا.

فإن قيل: ما وجه اتِّصال قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ﴾ الآيةَ بما قبلها؟

فالجواب: أنَّا إن فسَّرنا تفطُّر السموات بأنه مِن عظمة الله؛ فيكون تسبيحُ الملائكة أيضًا تعظيمًا له، فينتظم الكلام، وإن فسَّرنا تفطُّرَها بأنه مِن كفر بني آدم؛ فيكون تسبيح الملائكة تنزيهًا لله تعالى عن كفر بني آدم، وعن أقوالهم القبيحة.

﴿أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ هي مكة، والمراد: أهلها، ولذلك عَطف عليه ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يعني: من الناس.

﴿يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يعني: يوم القيامة، وسمِّي بذلك؛ لأن الخلائق يجتمعون فيه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة، والأولياء هنا: المعبودون من دون الله.

---

(١) في أ، هـ: «يستغفرون».

[﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾].

﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي: ما اختلفتم فيه أنتم والكفار من أمر الدين فحكمه إلى الله؛ بأن يعاقب المبطلَ ويثيب المحقَّ.

أو ما اختلفتم فيه من الخصومات فتحاكموا فيه إلى النبي ﷺ، كقوله: ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

﴿مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يعني: الإناث.

﴿وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا﴾ يَحتمل أن يريد: الإناث، أو الأصناف.

﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ معنى ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾: يخلقكم نسْلًا بعد نسل، وقرنًا بعد قرن.

وقيل: يكثِّركم.

والضمير المجرور يعود على الجَعْل الذي تضمَّنه قوله: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾، وهذا كما تقول: كلمتُ زيدًا كلامًا أكرمتُه فيه.

وقيل: الضمير للتَّزويج الذي دلَّ عليه قوله: ﴿أَزْوَاجًا﴾.

وقال الزمخشري: تقديره: يذرؤكم في هذا التدبير، وهو أنْ جَعَل الناس والأنعام أزواجًا[1].

والضمير في ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ خطابٌ للناس والأنعام، غلَّب فيه العقلاء على غيرهم.

فإن قيل: لم قال ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ وهلَّا قال: «يذرؤكم به»؟

فالجواب: أن هذا التدبير جُعِلَ كالمَنبَع والمعدِن للبثِّ والتكثير. قاله الزمخشري[2].

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ تنزيهٌ لله تعالى عن مشابهة المخلوقين.

---

(١) الكشاف (١٤/ ٢١).

(٢) الكشاف (١٤/ ٢١).

قال كثيرٌ من الناس: الكاف زائدة للتأكيد، والمعنى: ليس مثلَه شيء.

وقال الطبري وغيره: ليست بزائدة، ولكن وضع ﴿مِثْلِهِۦ﴾ موضع «هو»، والمعنى: ليس كهو شيء(١).

قال الزمخشري: وهذا كما تقول: «مثلُك لا يَبخلُ»، والمراد: أنت لا تبخل، فنفَى البخل عن مثله والمراد نفيُه عن ذاته(٢).

﴿مَقَالِيدُ﴾ قد ذكر(٣).

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ اتفق دين محمدٍ ﷺ مع جميع الأنبياء في أصول الاعتقادات، وذلك هو المراد هنا، ولذلك فسَّره بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ يعني: إقامة الإسلام الذي هو توحيد الله وطاعته، والإيمان برسله وكتبه وبالدار الآخرة.

وأما الأحكام الفروعية؛ فاختلفت فيها الشرائع، فليست تراد هنا.

﴿أَنْ أَقِيمُوا۟﴾ يَحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾:

في موضع نصبٍ، بدلًا من قوله: ﴿مَا وَصَّىٰ﴾.

أو في موضع خفضٍ، بدلًا من ﴿بِهِۦ﴾.

أو في موضع رفعٍ على خبر ابتداء مضمر.

أو تكون مفسِّرةً لا موضع لها من الإعراب.

---

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٤٧٦).

(٢) الكشاف (١٤/ ٢٣).

(٣) انظر (٣/ ٧٦٣).

﴿ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أي: صَعُبَ الإسلامُ على المشركين.

﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِيٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾: يعود على الله تعالى.

وقيل: على الدين.

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ﴾ يعني: أهل الأديان المختلفة من اليهود والنصارى وغيرهم.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾ يعني: القضاء السابق بأن لا يُفصَل بينهم في الدنيا.

﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني: المعاصرين لمحمد ﷺ من اليهود والنصارى.

وقيل: يعني: العرب، و﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ على هذا: هو القرآن.

﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ الضمير: للكتاب، أو للدين، أو لمحمد ﷺ.

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ أي: إلى ذلك الذي شرَع اللهُ ادعُ الناسَ، فاللام بمعنى «إلى».

والإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

إلى قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾.

أو إلى قوله: ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾.

وقيل: إن اللام بمعنى: «مِن أجْل»، والإشارة إلى التفرُّق والاختلاف؛ أي: لأجل ما حدث من التفرق ادعُ إلى الله.

وعلى هذا: يكون قوله: ﴿وَٱسۡتَقِمۡ﴾ معطوفًا.

وعلى الأول: يكون مستأنفًا، فيوقف على ﴿فَٱدۡعُ﴾.

﴿وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ﴾ أي: دُمْ على ما أمرت به من عبادة الله وطاعته وتبليغ رسالته.

﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾ الضمير للكفار، و﴿أَهۡوَآءَهُم﴾: ما كانوا يحبُّون من الكفر والباطل كله.

﴿وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ﴾ قيل: يعني: العدلَ في الأحكام إذا تخاصموا إليه.

ويَحتمل أن يريد العدل في دعائهم إلى دين الإسلام، أي: أمرتُ أن أحملكم على الحق.

﴿لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ﴾ أي: لا جدال ولا مناظرة؛ فإن الحق قد ظهر وأنتم تعاندون.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: يجادلون المؤمنين في دين الله.

ويعني: كفار قريش.

وقيل: اليهود.

﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ﴾ الضمير يعود على ﴿ٱللَّهِ﴾؛ أي: من بعد ما استجاب الناس له ودخلوا في دينه.

وقيل: يعود على الدين.

وقيل: على محمد ﷺ.

والأول أحسن وأظهر.

﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ﴾ أي: زاهقة باطلة.

﴿أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ يعني: جنس الكتب[١].

﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالواجب، أو متضمِّنًا الحقَّ.

﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ ابن عباس وغيره: يعني: العدل، ومعنى إنزال العدل: إنزال الأمر به في الكتب المنزلة.

وقيل: يعني: الميزانَ المعروف.

فإن قيل: ما وجه اتصال ذِكْر الكتاب والميزان بذكر الساعة؟

فالجواب: أن الساعة يوم الجزاء والحساب، فكأنه قال: اعدلوا وافعلوا الصواب قبل اليوم الذي تحاسبون فيه على أعمالكم.

﴿لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ جاء ﴿قَرِيبٌ﴾ بالتذكير؛ لأن تأنيث الساعة غير حقيقي، ولأن المراد به وقتُ الساعة.

﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا﴾ أي: يطلبون تعجيلها؛ استهزاءً بها، وتعجيزًا للمؤمنين.

﴿يُمَارُونَ﴾ أي: يجادلون ويخالفون.

﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: الرزقَ الزائد على المضمون لكل حيوان في قوله: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] أي: ما تقوم به الحياة، فإن هذا على العموم لكل حيوانٍ طولَ عمره، والزائد خاصٌّ بمن شاء الله.

* * *

(١) في ب، هـ: «الكتاب».

[﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْأَخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾].

﴿حَرْثَ ٱلْأَخِرَةِ﴾ عبارةٌ عن العمل لها، وكذلك ﴿حَرْثَ ٱلدُّنْيَا﴾.

وهو مستعارٌ من حرث الأرض؛ لأن الحارث[١] يعمل وينتظر المنفعة مما[٢] عمل.

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ عبارةٌ عن تضعيف الثواب.

---

(١) في أ: «الحراث».

(٢) في أ، د: «بما».

﴿نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ أي: نؤته منها ما قُدِّر له؛ لأن كل أحدٍ لا بد أن يصل إلى ما قُسِم له.

﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ هذا[1] للكفار، أو لمن كان يريد الدنيا خاصةً، ولا رغبة له في الآخرة.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُا۟﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعة للإنكار والتوبيخ.

والشركاء: الأصنام وغيرها.

وقيل: الشياطين.

﴿شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ الضمير في ﴿شَرَعُوا۟﴾: للشركاء وفي ﴿لَهُم﴾: للكفار.

وقيل: بالعكس.

والأول أظهر.

و﴿لَمْ يَأْذَنۢ﴾ بمعنى: لم يأمر.

والمراد: ما شرعوا من البواطل[2] في الاعتقادات، وفي الأعمال، كالبَحيرة والوصيلة وغير ذلك.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي: لولا القضاء السابق بأن لا يُقضَى بينهم في الدنيا لَقُضِي بينهم فيها.

---

(١) في ب، ج: «تهديدٌ».

(٢) في ب، ج، هـ: «الباطل».

﴿تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يعني: في الآخرة.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ﴾ تقديره: يبشر به، وحُذف الجار والمجرور.

﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: أن ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بمعنى القرابة، و﴿فِى﴾ بمعنى: «مِن أجْل»، والمعنى: لا أسألكم عليه أجرًا إلَّا أن تودُّوني لأجل القرابة التي بيني وبينكم.

فالقصد على هذا: استعطاف قريش، ولم يكن فيهم بطنٌ إلَّا وبينه وبين النبي ﷺ قرابة.

الثاني: أن ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ بمعنى الأقارب؛ أي: ذوي القربى، والمعنى: إلَّا أن تودُّوا[1] أقاربي وتحفظوني فيهم.

والقصد على هذا: وصيةٌ بأهل البيت.

الثالث: أن ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قرابةُ الناس بعضهم من بعض، والمعنى: أن تودُّوا أقاربَكم.

والقصد على هذا: وصيةٌ بصلة الأرحام.

الرابع: أن ﴿ٱلْقُرْبَىٰ﴾ التقرُّب إلى الله، والمعنى: إلَّا أن تتقربوا إلى الله بطاعته.

والاستثناء على القول الثالث والرابع: منقطعٌ.

---

(١) في ب: «أن لا تؤذوا».

وأما على الأول والثاني:

فيَحتمل الانقطاع؛ لأن المودَّة ليست بأجر[١].

ويَحتمل الاتصال على المجاز، كأنه قال: لا أسألكم عليه أجرًا إلَّا المودة، فجعل المودة كالأجر[٢].

﴿يَقْتَرِفْ﴾ أي: يكتسب.

﴿نَزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًاۚ﴾ يعني: مضاعفةَ الثواب.

﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ منقطعةٌ للإنكار والتوبيخ.

﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَۗ﴾ في المقصد بها[٣] قولان:

أحدهما: أنه ردٌّ على الكفار في قولهم: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، أي: لو افتريتَ على الله كذبًا لختم على قلبك، لكنك لم تفترِ على الله كذبًا؛ فقد هداك وسددك.

والآخر: أن المراد: إن يشأ الله يختم على قلبك بالصبر على أقوال الكفار، واحتمال أذاهم.

﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ هذا فعل مستأنَفٌ غير معطوف على ما قبله؛ لأن الذي قبله مجزومٌ، وهذا مرفوعٌ؛ فيوقف على ما قبله ويبتدأ به.

---

(١) في أ: «بأجرة».

(٢) في أ: «كالأجرة».

(٣) في ب، ج، د: «بهذا».

وفي المراد به وجهان:

أحدهما: أنه من تمام ما قبله، أي: لو افتريت على الله كذبًا لختم على قلبك ومحا الباطل الذي كنت تفتريه لو افتريتَ.

والآخر: أنه وعدٌ لرسول الله ﷺ بأن يمحوَ الله الباطل وهو الكفر، ويحقَّ الحق وهو الإسلام.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ ﴿عَنْ﴾ هنا: بمعنى «مِن»، وكأنه قال: التوبةَ الصادرة عن عباده.

وقَبول التوبة على ثلاثة أوجه:

أحدها: التوبة من الكفر، فهي مقبولة قطعًا.

والثاني: التوبة من مظالم العباد، فهي غير مقبولة حتى يردَّ المظالم أو يستحلَّ منها.

والثالث: التوبة من المعاصي التي بين العبد وبين الله، فالصحيح: أنها مقبولة؛ بدليل هذه الآية.

وقيل: هي في المشيئة.

﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ العفو مع التوبة: على حسَب ما ذكرنا.

وأما العفو دون التوبة: فهو على أربعة أقسام:

الأول: العفو عن الكفر، وهو لا يكون أصلًا.

والثاني: العفو عن مظالم العباد، وهو كذلك.

والثالث: العفو عن الذنوب الصغائر إذا اجتُنبت الكبائر، وهو حاصلٌ باتفاق.

والرابع: العفو عن الكبائر:

فمذهب أهل السنة: أنه في المشيئة.

ومذهب المعتزلة: أنها لا تغفر إلا بالتوبة.

﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معنى ﴿يَسْتَجِيبُ﴾: يجيب، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مفعول، والفاعل ضمير يعود على الله تعالى، أي: يُجيبُهم فيما يطلبون منه.

وقال الزمخشري: أصله: «يستجيب للذين آمنوا» فحذف اللام[1].

والثاني: أن معناه: يجيب، و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ فاعل؛ أي: يستجيب المؤمنون لربهم باتّباع دينه.

والثالث: أن معناه: يطلب المؤمنون الإجابةَ من ربهم، و«استفعَلَ» على هذا: على بابه من الطلب.

والأول أرجح؛ لدلالة قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾؛ ولأنه قول ابن عباس ومعاذ بن جبل.

﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ أي: يزيدهم ما لم يطلبوا زيادةً على الاستجابة

---

(١) الكشاف (١٤/٥٦).

فيما طلبوا، وهذه الزيادة روي عن النبي ﷺ أنها الشفاعة والرِّضوان[١].

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بغى بعضهم على بعض وطغَوْا؛ لأن الغنى يوجب الطُّغيان.

وقال بعض الصحابة: فينا نزلت؛ لأنا نظرنا إلى أموال الكفار فتمنَّيناها.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ قيل لعمر رضي الله عنه: اشتدَّ القحط وقنط الناس، فقال: «الآن يُمطَرون»[٢]، وأخذ ذلك من هذه الآية، ومنه قوله ﷺ: «اشتدِّي أزمة تنفرجي»[٣].

﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ قيل: يعني: المطر، فهو تكرارٌ للمعنى الأول بلفظ آخر.

وقيل: يعني: الشمس.

وقيل بالعموم.

﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ لا إشكالَ أنَّ الدواب في الأرض، وأما في السماء:

فقيل: يعني: الملائكة.

---

(١) ذكر ابن عطية في تفسيره (٧/ ٥١٦) قال: «وروي عن النبي ﷺ أنه قال: هي الشفاعات في المؤمنين والرضوان». ولم أقف على إسناد له.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ٥١١).

(٣) قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص: ١١٦): «حديث: اشتدي أزمة تنفرجي: العسكري في الأمثال، والديلمي، والقضاعي، كلهم من حديث أمية بن خالد حدثنا الحسين بن عبد الله بن ضميرة عن أبيه عن جده عن علي، قال: كان رسول الله ﷺ يقول، وذكره، والحسين كذاب».

وقيل: يمكن أن يكون في السماء دوابٌّ لا نعلمها نحن.

وقيل: المعنى: أنه بثَّ في أحدهما، فذكر الاثنين، كما تقول: «في بني فلان كذا» وإنما هو في بعضهم.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ يريد: جمْع الخلْقِ للحشر يوم القيامة.



[﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ٣٠ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٣١ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ٣٣ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ٣٤ وَيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ٣٥ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيۡءٖ فَمَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٣٦ وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ ٣٧ وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣٨ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ٣٩ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ٤١ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٤٢ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾].

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ المعنى: أن المصائب التي تصيب الناس في أنفسهم وأموالهم إنما هي بسبب الذنوب، قال رسول الله ﷺ: «لا يصيب ابنَ آدم خدْشُ عودٍ أو عثرةُ قدم ولا اختلاج عِرْق إلّا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر»[(١)].

وقرئ ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾ بغير فاء، على أن يكون ﴿مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ بمعنى: «الذي».

وقرئ بالفاء على أن يكون ﴿مَآ أَصَٰبَكُمۡ﴾ شرطًا.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ٥١٣).

﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ قد ذُكِر[١].

﴿الْجَوَارِ﴾ جمع جارية، وهي السفينة.

﴿كَالْأَعْلَامِ﴾ جمع علَم، وهو الجبل.

﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيَاحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ﴾ الضمير في ﴿فَيَظْلَلْنَ﴾ للجواري، وفي ﴿ظَهْرِهِ﴾ للبحر؛ أي: لو أراد الله أن يُسكن الرياح لبقيت السفن واقفةً على ظهر البحر.

فالمقصد: تعديدُ النعمة في إرسال الرياح، أو تهديدٌ بإسكانه.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا﴾ عطفٌ على ﴿يُسْكِنِ الرِّيَاحَ﴾، ومعنى ﴿يُوبِقْهُنَّ﴾: يهلكهن بالغرق من شدة الرياح العاصفة، والضمير فيه للسفن، وفي ﴿كَسَبُوا﴾ لرُكَّابها من الناس.

والمعنى: أنه لو شاء لأغرقها بذنوب الناس.

﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾﴾ أي: يعلمون أنهم لا مهرب لهم من الله.

وقرئ ﴿وَيَعْلَمَ﴾:

بالرفع: على الاستئناف.

وبالنصب، واختُلف في إعرابه على قولين:

أحدهما: أنه نصبٌ بإضمار «أنْ» بعد الواو؛ لما وقَعت بعد الشرط والجزاء؛ لأنه غير واجب.

---

(١) انظر (٣/ ٤٦٧).

وأنكر ذلك الزمخشري وقال: إنه شاذٌّ؛ فلا ينبغي أن يُحمَل القرآن عليه[١].

والثاني قول الزمخشري: إنه معطوف على تعليلٍ محذوف تقديره: «لِيَنتقمَ منهم ويعلمَ»، قال: ونحوُه من المعطوف على التعليل المحذوفِ كثيرٌ في القرآن، ومنه قوله: ﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ [مريم: ٢١][٢].

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ذكرنا الكبائر في «النساء»[٣].

وقيل: كبائر الإثم: هو الشرك، والفواحش: هو[٤] الزنا.

واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ﴾ **قيل**: يعني: الأنصار؛ لأنهم استجابوا لما دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان.

ويظهر لي أن هذه الآيات إشارةٌ إلى ذكر الخلفاء الراشدين ﷺ؛ لأنه بدأ أوَّلًا بصفات أبي بكر الصديق، ثم صفات عمر بن الخطاب، ثم صفات عثمان بن عفان، ثم صفات علي بن أبي طالب، فكونه جمَع هذه الأوصاف، ورتَّبها على هذا الترتيب يدلُّ على أنه قصد بها مَن اتَّصف بذلك.

فأما صفات أبي بكر: فقوله: ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، وإنما

---

(١) الكشاف (١٤/ ٧٠-٧١).

(٢) الكشاف (٦٩-٧٠).

(٣) انظر (٢/ ٤٦).

(٤) في أ: «هي».

جعلنا هذا صفةَ أبي بكر وإن كان جميعهم متصِفًا بها ؛ لأن أبا بكر كانت له فيها مزيةٌ لم تكن لغيره، قال رسول الله ﷺ: «لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجح[1]»[2]، وقال ﷺ: «أنا مدينة الإيمان، وأبو بكر بابها»[3]، وقال أبو بكر: «لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقينًا»[4]، والتوكُّل إنما يَقْوى بقوة الإيمان.

وأما صفات عمر: فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ﴾ ؛ لأن ذلك هو التقوى، وقد قال ﷺ: «أنا مدينة التقوى، وعمر بابها»[5]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُواْ هُمۡ يَغۡفِرُونَ﴾ ؛ لأن قولَه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغۡفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية: ١٤] نزلت في عمر.

وأما صفات عثمان: فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ ؛ لأن عثمان لما دعاه رسول الله ﷺ إلى الإسلام تبعه، وبادر إلى الإسلام وقوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ؛ لأن عثمان كان كثير الصلاة بالليل، وفيه نزلت: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ [الزمر: ٩] الآيةَ. وروي أنه كان يُحيي الليل بركعة يقرأ فيها القرآن كلَّه، وقوله: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ ؛ لأن عثمان ولي الخلافةَ بالشورى، وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ﴾ ؛ لأن عثمان كان كثير النفقة في سبيل الله،

---

(١) في ب، ج: «لرجحهم».

(٢) أخرجه ابن عدي في الكامل في الضعفاء (٥/ ٣٣٥) مرفوعًا، وأخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١/ ٤١٨) من قول عمر بن الخطاب ﷺ.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لم أقف عليه.

ويكفيك أنه جهَّز جيش العسرة.

وأما صفات عليٍّ: فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾؛ لأنه لما قاتلته الفئة الباغية قاتلها انتصارًا للحق، وانظر كيف سمَّى رسول الله ﷺ المقاتلين لعليٍّ بالفئةَ الباغية، حسَبما ورد في الحديث الصحيح أنه قال لعمار بن ياسر: «**تقتلك الفئة الباغية**»[1]، فذلك هو البغي الذي أصابه.

وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى فعل الحسن بن عليٍّ حين بايع معاوية، وأسقط حقَّ نفسه ليُصلحَ أحوال المسلمين، ويحقن دماءهم، قال رسول الله ﷺ في الحسن: «**إن ابني هذا سيِّد، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين**»[2].

وقوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾﴾، إشارةٌ إلى انتصار الحسين بعد موت الحسن، وطلبه للخلافة وانتصاره من بني أمية.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ إشارةٌ إلى بني أمية، فإنهم استطالوا على الناس كما جاء في الحديث عنهم: «**أنهم جعلوا عباد الله خَوَلًا، ومال الله دُوَلًا**»[3]، ويكفيك من ظلمهم أنهم كانوا يلعنون علي ابن أبي طالب على منابرهم.

وقوله: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ﴾ الآيةَ؛ إشارةٌ إلى صبر أهل بيت النبي ﷺ على ما نالهم من الضُّرِّ والذُّلِّ طولَ مدَّة بني أمية.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧)، ومسلم (٢٩١٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٠٤).

(٣) أخرجه أحمد (١١٧٥٨).

﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ سمَّى العقوبة باسم الذنب، وجعلها مثله[١]؛ تحرُّزًا من الزيادة عليه[٢].

﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ هذا يدلُّ على أن العفو عن المظلمة أفضل من الانتصار؛ لأنه ضمِن الأجر في العفو، وذكر الانتصار بلفظ الإباحة في قوله: ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ۝٤١﴾.

وقيل: إن الانتصار أفضل.

والأول أصح.

فإن قيل: كيف ذكَر الانتصار في صفات المدح في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ۝٣٩﴾ والمباح لا مدح فيه ولا ذمّ؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن المباح قد يُمدح؛ لأنه قيامٌ بحق لا بباطل.

والثاني: أن مدح الانتصار لكونه كان بعد الظُّلم تحرُّزًا ممن بدأ بالظلم، فكأن المدحَ إنما هو بترك الابتداء بالظلم.

والثالث: أنه إن كانت الإشارة بذلك إلى علي بن أبي طالب حسَبما ذكرنا فانتصاره ممدوح[٣]؛ لأن قتال أهل البغي واجبٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ [الحجرات: ٩].

---

(١) في أ، ب، ج: «مثلها».
(٢) في أ: «عليه».
(٣) في ب، ج، د: «محمود».

[﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾].

﴿يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ أي: على النار.

﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ عبارةٌ عن الذل والكآبة.

﴿مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ يتعلَّق:

بـ ﴿خَٰشِعِينَ﴾.

أو بـ ﴿يَنظُرُونَ﴾، وعلى هذا عوَّل الزمخشري[1].

---

(١) الكشاف (١٤/ ٨١).

﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه عبارةٌ عن الذلّ؛ لأن نظَر الذليل بمهانة واستكانة.

والآخر: أنهم يحشرون عُمْيًا فلا ينظرون بأبصارهم، وإنما ينظرون بقلوبهم، واستبعد هذا ابن عطية[١] والزمخشري[٢].

والطَّرْف يَحتمل:

أن يريد به: العينَ.

أو يكون مصدرًا.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ يتعلَّق بـ ﴿قَالَ﴾، أو بـ ﴿خَسِرُوٓا۟﴾.

﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يحتمل أن يكون:

من كلام الذين آمنوا.

أو مستأنفًا من كلام الله تعالى.

﴿لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ ذكر في «الروم»[٣].

﴿مِّن نَّكِيرٍ﴾ أي: إنكارٍ، يعني: لا تنكرون أعمالكم.

﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا﴾ قدَّم الإناثَ اعتناءً بهنَّ، وتأنيسًا لمن وَهبهنَّ[٤] له.

---

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٥٢٧).

(٢) الكشاف (١٤/ ٨٢).

(٣) انظر (٣/ ٤٩٨).

(٤) في ب: «وُهبْنَ».

قال واثلة بن الأسقع: مِن يُمْنِ المرأة تبكيرُها بأنثى قبل الذكر؛ لأن الله بدأ بالإناث.

وقال بعضهم: نزلت هذه الآية في الأنبياء عليهم السلام، فشعيب ولوط كان لهما إناثٌ دون ذكور، وإبراهيم كان له ذكور دون إناث، ومحمد ﷺ جمَع الإناث والذكور، ويحيى كان عقيمًا.

والظاهر: أنها على العموم في جميع الناس؛ إذ كل واحد منهم لا يخلو عن قسم من هذه الأقسام الأربعة التي ذَكَر.

وفي هذه الآية من أدوات البيان: التقسيم.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ الآيةَ؛ بيَّن الله تعالى فيها كلامَه لعباده، وجعله على ثلاثة أوجه:

أحدها: الوحي المذكور أوَّلًا، وهو الذي يكون بإلهام أو بمنام.

والآخر: بأن يُسمِعه كلامَه من وراء حجاب.

والثالث: الوحي بواسطة الملَك، وهو قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ يعني: ملَكًا، ﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ إلى النبي، وهذا خاصٌّ بالأنبياء.

والثاني خاصٌّ بموسى، وبمحمد صلى الله عليهما وسلم؛ إذ كلَّمه الله ليلة الإسراء.

وأما الأول؛ فيكون للأنبياء والأولياء كثيرًا، وقد يكون لسائر الخلق، ومنه ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨]، ومنه: منامات الناس.

﴿أَوْ يُرْسِلُ رَسُولًا﴾ قرئ ﴿يُرْسِلُ﴾ و﴿يُوحِي﴾ :

بالرفع : على تقدير : أو هو يرسلُ.

وبالنصب : عطفًا على ﴿وَحْيًا﴾ ؛ لأن تقديره : «أن يوحيَ» فعطفت «أنْ» على «أنْ» المقدَّرة.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ الروح هنا : القرآن، والمعنى : مثلَ هذا الوحي، وهو بإرسال ملَكٍ، أوحينا إليك القرآنَ.

والأمر هنا يحتمل :

أن يكون واحد الأمور.

أو يكون من الأمر بالشيء.

﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ المقصد بهذا شيئان :

أحدهما : تَعداد النعمة عليه ﷺ، بأن علَّمه الله ما لم يكن يعلم.

والآخر : احتجاجٌ على نبوته ؛ لكونه أتى بما لم يكن يعلمه، ولا تعلَّمه من أحد.

فإن قيل : أمَّا كونه لم يكن يدري الكتابَ فلا إشكال فيه، وأما الإيمان ففيه إشكالٌ ؛ لأن الأنبياء مؤمنون بالله قبل مبعثهم[١]؟

فالجواب : أن الإيمان يحتوي على معارفَ كثيرةٍ، وإنما كَمُل له معرفتُها

---

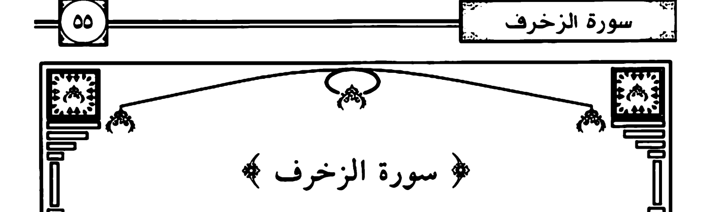
(١) في د : «بعثهم».

بعد بعثه، وقد كان مؤمنًا بالله قبل ذلك، فالإيمان هنا يعني به: كمالَ المعرفة وهي التي حصلت[١] له بالنبوة.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا﴾ الضمير للقرآن.

* * *

(١) في ب، ج: «جُعلت».



﴿ سورة الزخرف ﴾

[﴿حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا۟ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا۟ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾)].

﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾﴾ يعني: القرآن.

و﴿ٱلْمُبِينِ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى:

البيِّن.

أو المبيِّن لغيره.

﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ ﴿أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾: اللوح المحفوظ.

والمعنى: أن القرآن وُصِف في اللوح بأنه عليٌّ حكيم.

وقيل: المعنى: أن القرآن نُسِخَ بجملته في اللوح المحفوظ، ومنه كان جبريل ينقله، فوصفه الله بأنه علي حكيم؛ لكونه مكتوبًا في اللوح المحفوظ.

والأول أظهر وأشهر.

﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ الهمزة للإنكار، والمعنى: أنمسك عنكم الذكر؟.

و﴿نَضْرِبُ﴾ من قولك: أضربتُ عن كذا: إذا تركتَه.

و﴿ٱلذِّكْرَ﴾ يَحتمل أن يريد به: القرآنَ، أو التذكير والوعظ.

و﴿صَفْحًا﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه بمعنى الإعراض، تقول: صفحْتُ عنه: إذا أعرضتَ عنه، فكأنه قال: أنترك تذكيرَكم إعراضًا عنكم؟

وإعراب ﴿صَفْحًا﴾ على هذا:

مصدرٌ من المعنى.

أو مفعول من أجله.

أو مصدر في موضع الحال.

والآخر: أن يكون بمعنى العفو والغفران، فكأنه يقول: أنمسك عنكم الذكر عفوًا عنكم وغفرانًا لذنوبكم؟

وإعراب ﴿صَفْحًا﴾ على هذا:

مفعول من أجله.

أو مصدر في موضع الحال.

﴿إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ قرئ:

بكسر الهمزة: على الشرط، والجواب في الكلام الذي قبله.

وقرئ بالفتح: على أنه مفعول من أجله.

﴿أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ الضمير لقريش، وهم المخاطَبون بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾.

فإن قيل: كيف قال: ﴿إِن كُنتُمْ﴾ على الشرط بحرف «إنْ» التي معناها الشك، ومعلوم أنهم كانوا مسرفين؟

فالجواب: أن في ذلك إشارةً إلى توبيخهم على الإسراف، وتجهيلهم في ارتكابه، فكأنه شيءٌ لا يقع من عاقل، فلذلك وضع حرف التوقُّع في موضع الواقع.

﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: تقدَّم في القرآن ذكرُ حال الأولين وكيفية هلاكهم لما كفروا.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآيةَ؛ احتجاجٌ على قريش؛ لأنهم كانوا يعترفون أن الله هو الذي خلق السموات والأرض، وكانوا مع اعترافهم بذلك يعبدون غيره.

ومقتضى جوابهم أن يقولوا: «خلقهن الله»، فلما ذَكر هذا المعنى جاءت العبارة عن الله بـ ﴿الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾؛ لأن اعترافهم بأنه خلق السموات والأرض يقتضي أن يعترفوا بأنه عزيز عليم.

وأما قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ﴾ فهو من كلام الله، لا من كلامهم.

﴿مِهَادًا﴾ أي: فراشًا، على وجه التشبيه.

﴿سُبُلًا﴾ أي: طرقًا تمشون فيها.

﴿مَآءَۢ بِقَدَرٍ﴾ أي: بمقدارٍ ووزن معلوم.

وقيل: معناه: بقضاء.

﴿كَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ﴾ تمثيلٌ للخروج من القبور؛ بخروج النبات من الأرض.

﴿ٱلۡأَزۡوَٰجَ كُلَّهَا﴾ يعني: أصناف الحيوان والنبات وغير ذلك.

﴿لِتَسۡتَوُۥاْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ﴾ الضمير يعود على ﴿مَا تَرۡكَبُونَ﴾.

﴿ثُمَّ تَذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ رَبِّكُمۡ﴾ يحتمل أن يكون هذا الذكر: بالقلب، أو باللسان.

ويحتمل أن يريد:

النعمةَ في تسخير هذا المركوب.

أو النعمةَ على الإطلاق.

وكان بعض السلف إذا ركب قال: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، ثم يقول: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا﴾.

﴿وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقۡرِنِينَ﴾ أي: مُطِيقين وغالِبين.

﴿وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ١٤﴾ اعترافٌ بالحشر.

فإن قيل: ما مناسبة هذا للركوب؟

فالجواب: أن راكب السفينة أو الدابة متعرِّضٌ للهلاك بما يخاف من غرق السفينة، أو سقوطه عن الدابة، فأُمر بذكر الحشر؛ ليكون مستعدًا للموت الذي قد تعرَّض له.

وقيل: يَذكر عند الركوب ركوبَ الجِنازة.

* * *

[﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾] .

﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ الضمير في ﴿جَعَلُوا۟﴾ لكفار العرب، وفي ﴿لَهُۥ﴾ لله تعالى.

وهذا الكلام متصل بقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ الآيةَ.

والمعنى: أنهم جعلوا الملائكةَ بناتِ الله، فكأنهم جعلوا جزءًا من عباده نصيبًا له وحظًّا دون سائر عباده.

وقال الزمخشري: معناه: أنهم جعلوا الملائكة جزءًا منه وبعضًا منه، كما يكون الولد بَضْعةً من والده وجزءًا منه(١).

وقال بعض اللغويين: الجُزء في اللغة: الإناث، واستشهد على ذلك ببيت شعر.

---

(١) الكشاف (١٤/ ١١٠).

قال الزمخشري: وذلك كذبٌ على العرب، والبيت موضوع[١].

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ﴾ ﴿أَمْ﴾ للإنكار والردِّ على الذين قالوا: إن الملائكة بنات الله.

ومعنى ﴿وَأَصْفَاكُم﴾: خصَّكم؛ أي: كيف يتخذ لنفسه البنات وهنَّ[٢] أدنى، وأصفاكم بالبنين وهم أعلى.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ أي: إذا بُشِّر بالأنثى.

وقد ذُكر المعنى في «النحل»[٣].

والمراد: أنهم يكرهون البنات؛ فيكف ينسبونها إلى الله؟ تعالى الله عن قولهم.

﴿أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾ المراد بـ ﴿مَن يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ﴾: النساء.

والحلية: هي الحَلْيُ من الذهب والفضة، وشبه ذلك.

ومعنى يَنْشَأُ فيها: يكبر وينبت في استعمالها.

وقرئ ﴿يُنَشَّؤُا﴾ بضم الياء وتشديد الشين: بمعنى يُربَّى فيها.

والمقصد: الردُّ على الذين قالوا: الملائكة بنات الله، كأنه قال: أجعلتم لله من يَنْشَأُ في الحلية؟، وتلك صفة النقص، ثم أتبعها بصفة نقص أخرى،

---

(١) الكشاف (١٤/ ١١٠).

(٢) في ب، ج: «وهذا».

(٣) انظر (٢/ ٧٥٥).

وهي قوله: ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ يعني: أن الأنثى إذا خاصمت أو[١] تكلمَّت لم تَقدِر أن تُبِينَ حجَّتها؛ لنقص عقلها، وقلَّما تجد امرأةً إلَّا تُفسد الكلام وتَخلط المعاني، فكيف يُنسب لله من يتصف بهذه النقائص؟

وإعراب ﴿مَن يُنَشَّؤُا﴾:

مفعولٌ بفعل مضمر تقديره: أجعلتم لله من يَنشأ.

أو مبتدأ وخبره محذوف، تقديره: أَوَمَنْ يَنشَأ في الحلية خصَصْتم به الله.

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِندَ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ الضمير في ﴿جَعَلُوا﴾ لكفار العرب، فحكَى عنهم ثلاثة أقوال شنيعة:

أحدها: أنهم نسبوا إلى الله الولد.

والآخر: أنهم نسبوا إليه البناتِ دون البنين.

والثالث: أنهم جعلوا الملائكة المكرَّمين إناثًا.

وقرئ ﴿عِندَ الرَّحْمَٰنِ﴾ بالنون، والمراد به: قرب الملائكة وتشريفهم كقوله: ﴿الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦].

وقرئ ﴿عِبَادُ﴾ بالباء جمع عبدٍ، والمراد به أيضًا: الاختصاص والتشريف.

﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ هذا ردٌّ على العرب في قولهم: إن الملائكة إناثٌ.

والمعنى: أنهم لم يشهدوا خلق الملائكة، فكيف يقولون ما ليس لهم به علم؟

---

(١) في أ، د، هـ: «و».

﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ أي: تكتب شهادتهم التي شهدوا بها على الملائكة، ويسألون عنها يوم القيامة.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ الضمير في ﴿قَالُوا۟﴾: للكفار.

وفي ﴿عَبَدْنَٰهُم﴾: للملائكة.

وقال ابن عطية: للأصنام[(١)].

والأول أظهر وأشهر.

والمعنى: احتجاجٌ احتجَّ به الذين عبدوا الملائكة، وذلك أنهم قالوا: لو أراد الله أن لا نعبدهم ما عبدناهم، فكونه يمهلنا وينعم علينا دليلٌ على أنه يرضى عبادتَنا لهم، ثم ردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني: أن قولهم بغير دليل وحجة، وإنما هو تخرُّصٌ منهم.

﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ أي: مِن قبل القرآن.

وهذا أيضًا ردٌّ عليهم؛ لكونهم ليس لهم كتاب يستمسكون[(٢)] به.

﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي: على دين وطريقة.

والمعنى: أنهم ليس لهم حجة، وإنما هم يقلدون آباءهم.

﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ الآيةَ؛ معناها: كما اتبع هؤلاء الكفار آباءَهم بغير حجة؛ كذلك اتبع كل من قبلهم من الكفار آباءهم بغير حجة، بل بمجرَّد التقليد المذموم.

---

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٥٤٠).

(٢) في ب، د: «يتمسكون».

﴿قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ هذا ردٌّ على الذين اتبعوا آباءهم.

والمعنى: أتتبعونهم ولو جئتكم بدين أهدى[1] من الدين الذي وجدتم عليه آباءكم.

وقرئ: ﴿قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ﴾، والفاعل ضمير يعود على النذير المتقدِّم.

وأما قراءة ﴿قُلْ﴾ بالأمر فهو خطابٌ لمحمد ﷺ، أمره الله أن يقول ذلك لقريش.

وقيل: هو للنذير المتقدِّم، أمره الله أن يقول ذلك لقومه.

والأول أظهر، وعلى هذا تكون هذه الجملة اعتراضًا بين قصة المتقدِّمين فإن قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ حكايةٌ عن الكفار المتقدمين، وكذلك قوله: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ يعني: من المتقدِّمين.

* * *

(١) في ب، ج: «بأهدى».

[﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا ۚ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾].

﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ﴾ أي: بريءٌ، وبراءٌ في الأصل: مصدر، ثم استعمل صفةً، ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة، كَعَدْلٍ وشبهه.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يحتمل:

أن يكون استثناء منقطعًا، وذلك إن كانوا لا يعبدون الله.

أو يكون متصلًا، إن كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيرَه، وإعرابه على هذا:

بدلٌ من ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾، فهو في موضع خفض.

أو منصوب على الاستثناء، فهو في موضع نصب.

﴿سَيَهْدِينِ﴾ قال هنا: ﴿سَيَهْدِينِ﴾، وقال مرة أخرى: ﴿فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] ليدلَّ على أن الهداية في الحال والاستقبال.

﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ ضمير الفاعل في ﴿جَعَلَهَا﴾ يعود على إبراهيم عليه السلام.

وقيل: على الله تعالى.

والأول أظهر.

والضمير المؤنث المفعول يعود: على الكلمة التي قالها، وهي: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، ومعناها: التوحيد ولذلك **قيل**: يعود على الإسلام لقوله: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

وقيل: يعود على «لا إله إلا الله».

والمعنى متقارب، أي: جعل إبراهيم تلك الكلمةَ باقيةً في ذريته؛ لعلَّ مَن أشرك منهم يرجع إلى التوحيد.

والعَقِبُ: هو الولد وولد الولد ما تناسلوا أبدًا.

﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ الإشارةُ بـ ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ إلى قريش.

وهذا الكلام متصلٌ بما قبله؛ لأن قريشًا من عقب إبراهيم عليه السلام.

فالمعنى: لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيَتْ الكلمةُ فيهم، بل متَّعتُهم بالنعم والعافية، فلم يشكروا عليها واشتغلوا بها عن عبادة الله ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾، وهو محمد ﷺ.

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ الضمير في ﴿وَقَالُوا۟﴾ لقريش.

والقريتان: مكة والطائف.

و﴿مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ﴾ معناها: من إحدى القريتين، كقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾ [الرحمن: ٢٢]؛ أي: من أحدهما.

وقيل: معناه: على رجلٍ من رجلين من القريتين:

فالرجل الذي من مكة: الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة بن ربيعة.

والرجل الذي من الطائف: عروة بن مسعود، وقيل: حبيب بن عمير[١].

ومعنى الآية: أن قريشًا استبعدوا نزول القرآن على محمد ﷺ، واقترحوا أن ينزل على أحد هؤلاء، ووصفوه بالعظمة يعنون الرئاسةَ في قومه وكثرةَ ماله، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ يعني: أن الله يخصُّ بالنبوّة من شاءَ من عباده؛ على ما تقتضيه حكمته وإرادته، وليس ذلك بتدبير المخلوقين، ولا بإرادتهم، ثم أوضح ذلك بقوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: كما قسَمنا المعايش في الدنيا كذلك قسمنا المواهب الدينية، وإذا كنا لم نهمل الحظوظ الفانية الحقيرة، فأولى وأحرى أن لا نهمل الحظوظ الشريفة الباقية.

﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ هو من التسخير في الخدمة؛ أي: رفعْنا بعضهم فوق بعض ليخدم بعضهم بعضًا.

﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ هذا تحقيرٌ للدنيا.

والمراد بـ ﴿رَحْمَتُ ربك﴾ هنا: النبوة.

---

(١) في د: «حبيب بن عمر»، والذي في تفسير الطبري (٢٠/ ٥٨٠): «حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي».

وقيل: الجنة.

﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ الآيةَ؛ تحقيرٌ أيضًا للدنيا.

ومعناها: لولا أن يكفر الناس كلهم لجعلنا للكفار سُقُفًا من فضة، وذلك لِهَوان الدنيا على الله، كما قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تزِن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة[1] ماء»[2].

﴿وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ المعارج: الأدراج والسلاليم[3].

ومعنى ﴿يَظْهَرُونَ﴾: يرتفعون، ومنه: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧].

والسُّرر: جمع سرير.

والزخرف: الذهب.

وقيل: أثاث البيت من السُّتور والنَّمارق، وشبه ذلك.

وقيل: هو التزويق والنَّقش وشبه ذلك من التزيين؛ كقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤].

* * *

---

(١) في ج: «جرعة».

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠).

(٣) ف أ، د، هـ: «والسلالم».

[﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ﴾].

﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا﴾ ﴿يَعْشُ﴾ من قولك: عَشَى الرجل: إذا أظلم بصره، والمراد به هنا: ظلمة القلب والبصيرة.

وقال الزمخشري: يَعْشَى بفتح الشين: إذا حصلت الآفة في عينيه، ويعشُو بضم الشين: إذا نظر نظرة الأعشى، وليس به آفةٌ[١]، فالفرق بينهما كالفرق بين قولك: عَمِيَ وتعامى.

فمعنى القراءة بالضم: يتجاهل ويجحد معرفته بالحق.

والأظهر أن ذلك عبارةٌ عن الغفلة وإهمال النظر.

و﴿ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾: قال الزمخشري: يريد به القرآن[٢].

وقال ابن عطية: يريد به: ما ذكَّر اللهُ به عباده من المواعظ، فالمصدر

---

(١) الكشاف (١٤/ ١٣٩).

(٢) الكشاف (١٤/ ١٤٠).

مضاف إلى الفاعل[١].

ويحتمل عندي: أن يريد ذِكْرَ العبدِ لله.

ومعنى الآية: أن من غفَل عن ذكر الله يَسَّرَ الله له شيطانًا يكون له قرينًا، فتلك عقوبةٌ على الغفلة عن الذكر بتسليط الشيطان، كما أن مَن دام على الذكر[٢] تباعد عنه الشيطان.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ الضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ للشيطان[٣]، وضمير المفعول في ﴿يَصُدُّونَهُمْ﴾ لـ ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، وجمع الضميرين لأن المراد جمعٌ.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَاۤءَانَا﴾ قرئ ﴿جَاۤءَانَا﴾ بضمير الاثنين، وهما: مَن يعشو وشيطانه.

وقرئ بغير ألف على أنه ضمير واحد، وهو من يعشو.

والضمير في ﴿قَالَ﴾: لمن يعشو، وقيل: للشيطان.

﴿بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه يعني: المشرق والمغرب، وغَلَّبَ أحدهما في التثنية، كما قيل: القمران.

---

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٥٤٧).

(٢) في د: «كما أن من تمادى على الذكر ودام عليه».

(٣) في ب، ج، د، هـ: «للشياطين».

والآخر: أنه يعني: المشرقين والمغربين، وحَذف «المغربين»؛ لدلالة ﴿ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ عليه.

﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾﴾ هذا كلامٌ يقال للكفار في الآخرة، ومعناه: أنه لا ينفعهم اشتراكهم في العذاب، ولا يجدون راحةَ التأسي التي يجدها المكروب في الدنيا إذا رأى غيرَه قد أصابه مثلُ الذي أصابه.

والفاعل بـ ﴿يَنفَعَكُمُ﴾: قوله: ﴿أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾، و﴿إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾: تعليلٌ معناه: بسبب ظلمكم.

وقيل: الفاعل مضمر، وهو التبرُّؤ[1] الذي يقتضيه قوله: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ﴾ و﴿أَنَّكُمْ﴾ على هذا تعليلٌ.

والأول أرجح.

﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ الآيةَ؛ خطابٌ للنبي ﷺ.

والمراد بالصُم والعُمي: الكفار؛ إذ كانوا لا يعقلون براهين الإسلام.

﴿فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾﴾ ﴿إِمَّا﴾ مركبةٌ من «إنْ» الشرطية و«ما» الزائدة.

ومقصد الآية: وعيدٌ للكفار.

والمعنى: إن عجّلنا وفاتَكَ قبل الانتقام منهم فإنا سننتقم منهم بعد وفاتِك، وإن أخّرنا وفاتك إلى حين الانتقام منهم فإنا عليهم مقتدرون.

---

(١) في ب، د: «التبري».

وهذا الانتقام يحتمل:

أن يريد به قتْلَهم يوم بدر، وفتح مكة وشبه ذلك من الانتقام[١] في الدنيا.

أو يريد به عذاب الآخرة.

وقيل: إن الضمير في ﴿مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ للمسلمين، وأن معنى ذلك: أن الله قضى أن ينتقم منهم بالفتن والشدائد، وأنه أكرم نبيَّه ﷺ بأن توفَّاه قبل أن يرى الانتقام من أمته.

والأول أظهر وأشهر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾: للقرآن أو للإسلام.

والذكر هنا: بمعنى الشرف، وقوم النبي ﷺ: هم قريش ثم سائر العرب؛ فإنهم نالوا بالإسلام شرفَ الدنيا والآخرة، ويكفيك أن فتحوا مشارق الأرض ومغاربها، وصارت فيهم الخلافة والملك، وورد عن ابن عباس: أنه لما نزلت هذه الآية عَلِم رسول الله ﷺ أن الأمر بعده لقريش.

ويحتمل أن يريد بالذكر: التذكيرَ والموعظة، فقومه على هذا: أمته كلهم وكلُّ من بُعِث إليهم.

﴿وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾ أي: تسألون عن العمل بالقرآن، وعن شكر الله عليه.

﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ إن قيل: كيف أُمر النبي ﷺ أن يسأل الرسل المتقدِّمين وهو لم يدركهم؟

---

(١) في أ، هـ: «بالانتقام».

فالجواب أن فيه ثلاثةَ أقوال:

الأول: أنه رآهم ليلة الإسراء.

الثاني: أن المعنى: اسأل أمةَ من أرسلنا قبلك.

والثالث: أنه لم يُرِدْ سؤالهم حقيقةً، وإنما المعنى: أن شرائعهم متفقةٌ على توحيد الله، بحيث لو سئلوا: هَلْ مع الله آلهة يعبدون؟؛ لأنكروا ذلك ودانوا بالتوحيد.

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٦﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم بِآيَاتِنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُم بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾].

﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ الآيات هنا: المعجزات؛ كقلب العصا حيةً، وإخراج اليد بيضاءَ.

وقيل: البراهين والحجج العقلية.

والأول أظهر.

ومعنى ﴿أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾: أنها في غاية الكِبَر والظهور، ولم يُرِد تفضيلَها على غيرها من آياته، إنما المعنى: أنها إذا نُظِرتْ وُجِدتْ كبيرةً، وإذا نُظِر غيرُها وُجِدتْ كبيرةً، فهو كقول الشاعر:

مَن تَلْقَ منهم تقلْ: لاقيتُ سَيِّدَهم[1] ....

---

(١) هذا صدر بين للعرنْدس أحد بني أبي بكر بن كلابٍ، أورده أبو تمام في حماسته (ص ٤١٥)، وتمام البيت: «مثلَ النجوم التي يَسري بها السَّاري».

هكذا قال الزمخشري[1] .

ويَحتمل عندي أن يريد: ما نريهم من آية إلَّا هي أكبر مما تقدَّمها، فالمراد: أكبر من أختها المتقدِّمة عليها.

﴿وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ ظاهر كلامهم هذا التناقض؛ فإن قولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ يقتضي تكذيبَهم له، وقولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يقتضي تصديقَه؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن القائلين لذلك كانوا مكذِّبين، وقولهم: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يريدون على قولك وبزعمك، وقولهم: ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾ وَعْدٌ نَوَوْا إخلافه.

والآخر: أنهم كانوا مصدِّقين، وقولهم: ﴿يَـٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾:

إما أن يكون عندهم غيرَ مذموم؛ لأن السحر كان عِلْمَ أهل زمانهم، وكأنهم قالوا: يا أيها العالم.

وإما أن يكون ذلك اسمًا قد أَلِفوا تسميةَ موسى به من أول ما جاءهم، فنطقوا به بعد ذلك من غير اعتقاد معناه.

﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ﴾ يحتمل: أن ناداهم بنفسه، أو أمر مناديًا ينادي فيهم.

﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾ قصَد بذلك الافتخار على موسى.

---

(١) الكشاف (١٤/ ١٥٢).

و﴿مِصۡرَ﴾ هي البلد المعروف وما يرجع إليه، ومنتهى ذلك: من نهر إسكندرية إلى أُسوان بطول النيل.

﴿وَهَٰذِهِ ٱلۡأَنۡهَٰرُ تَجۡرِي مِن تَحۡتِيٓ﴾ يعني: الخُلجانَ الكبار الخارجة من النيل، كانت تجري تحت قصوره، وأعظمها أربعة أنهار: نهر الإسكندرية، وتِنِّيس، ودِمْياط، ونهر طُولون.

﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝٥١ أَمۡ أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ مذهب سيبويه: أن ﴿أَمۡ﴾ هنا متصلة معادِلة، والمعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون؟، ثم وضع قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ موضع «تبصرون»؛ لأنهم إذا قالوا له: «أنت خير» فهم عنده بُصَراء، وهذا من وضع السبب موضع المسبَّب.

وقيل: الأصل أن يقول: «أفلا تبصرون أم تبصرون»، ثم اقتصر على «أم»، وحذف الفعل الذي بعدها، واستأنف قوله: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ﴾ على وجه الإخبار، ويوقف على هذا القول على ﴿أَمۡ﴾، وهذا ضعيف.

وقيل: ﴿أَمۡ﴾ بمعنى: «بل»، فهي منقطعة.

﴿مَهِينٞ﴾ أي ضعيف حقير، قاله الزمخشري[١] وغيره.

﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ إشارةٌ إلى ما بقي في لسان موسى من أثر الجمْرة، وذلك أنها كانت قد أحدثت في لسانه عقدةً، فلما دعا أن تُحَلَّ أجيبت دعوته وبقي منها أثرٌ كان معه لَكَنٌ.

وقيل: يعني: العِيَّ في الكلام.

---

(١) الكشاف (١٤/ ١٥٧).

وقوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ يقتضي أنه كان يُبِين؛ لأن «كاد» إذا نُفِيت تقتضي الإثبات.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْاوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ يريد: لولا ألقاها اللهُ إليه كرامةً له ودلالةً على نبوَّته؟

والأساورةُ: جمع سِوَار وإِسوار، وهو ما يُجعل في الذراع من الحَلْي، وكان الرجال حينئذ يجعلونه.

﴿مُقْتَرِنِينَ﴾ أي: مقترنين به لا يفارقونه.

أو متقارنين[1] بعضهم مع بعض؛ ليشهدوا له، ويقوموا بحجته.

﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ أي: طلب خِفَّتهم بهذه المقالة واستهوى عقولهم.

﴿ءَاسَفُونَا﴾ أي: أغضبونا.

﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ السَّلَف بفتح السين واللام: جمع سالف.

وقرئ بضمهما: جمع سَلِيف، ومعناه: متقدِّم؛ أي: تقدَّم قبل الكفار؛ ليكون موعظةً لهم، ومثَلًا يعتبرون به؛ لئلا يصيبهم مثلُ ذلك.

* * *

(١) في أ، ب، ج، هـ: «متقارنون».

[﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾].

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ﴾ روي عن ابن عباس وغيره في تفسيره هذه الآية: أنه لما نزل في القرآن ذكر عيسى ابن مريم والثناء عليه، قالت قريش: ما يريد محمد إلَّا أن نعبده نحن كما عبدت النصارى عيسى؛ فهذا كان صدودهم مِن ضرْبِه مثلًا، حكى ذلك ابن عطية[(١)].

والذي ضَرَب المثل على هذا: هو الله في القرآن.

و﴿يَصُدُّونَ﴾ بمعنى: يُعرضون.

وقال الزمخشري: لما قرأ رسول الله ﷺ على قريش: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] امتعضوا من ذلك، فقال عبد الله بن الزِّبَعْرَى: أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ: «هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم»، فقال: خصمتُك وربِّ الكعبة!، ألست

---

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٥٥٧).

تزعم أن عيسى بن مريم نبيٌّ وتثني عليه خيرًا، وقد علمتَ أن النصارى عبدوه؟، فإن كان عيسى في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه، ففرحت قريش بذلك وضحكوا، وسكت النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت هذه الآية[1]، فالمعنى على هذا: لما ضربَ ابن الزِّبَعرى عيسى مثلًا، وجادل رسولَ الله ﷺ بعبادة النصارى إيَّاه، إذا قريش من هذا المثل يَصِدُّون أي: يَضِجُّون[2] ويصيحون من الفرح[3].

وهذا المعنى إنما يجري على قراءة ﴿يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد؛ بمعنى الضَّجيج والصِّياح.

﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون بـ ﴿هُوَ﴾ عيسى، والمعنى: أنهم قالوا آلهتنا خير أم عيسى؟، فإن كان عيسى يدخل النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معه؛ لأنه خير من آلهتنا.

وهذا الكلام من تمام ما قبله على ما ذكر الزمخشري في تفسير الآية التي قبله.

وأما على ما ذكر ابن عطية: فهذا[4] ابتداء معنى[5] آخر.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٦/ ٤١٧).
(٢) في ب، ج: «يضحكون».
(٣) الكشاف (١٤/ ١٦٠).
(٤) في د، هـ: «فهو».
(٥) في د: «خبر».

وحكى الزمخشري في معنى هذه الآية قولًا آخر: وهو أنهم لما سمعوا ذكر عيسى قالوا: نحن أهدى من النصارى؛ لأنهم عبدوا آدميًا ونحن عبدنا الملائكة، وقالوا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا﴾ وهم الملائكة ﴿خَيْرٌ أَمْ﴾ عيسى؟[1]، فقصْدُهم: تفضيل آلهتهم على عيسى.

وقيل: إن قولهم ﴿أَمْ هُوَ﴾ يعنون به: محمدًا ﷺ، فإنهم لما قالوا: إنما يريد محمد أن نعبده كما عبدت النصارى عيسى قالوا: ﴿ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾؟ يريدون تفضيل آلهتهم على محمد.

والأظهر: أن المراد بـ ﴿هُوَ﴾: عيسى، وهو قول الجمهور، ويدلُّ على ذلك تقدُّمُ ذكرِه.

﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي: ما ضربوا لك هذا المثل إلَّا على وجه الجدل، وهو أن يقصد الإنسان أن يغلب مَن يناظره، سواءٌ غلَبه بحقٍّ أو بباطل، فإن ابن الزِّبَعْرى وأمثاله ممن لا يخفى عليه أن عيسى لم يدخل في قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾، ولكنهم أرادوا المغالطة، فوصفهم الله بأنهم ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني: عيسى، والإنعامُ عليه: بالنبوة والمعجزات، وغير ذلك.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ في معناها قولان:
أحدهما: لو نشاء لجعلنا بدلًا منكم ملائكةً يسكنون الأرضَ، ويخلفون

(١) الكشاف (١٤/ ١٦٤).

فيها بني آدم، فقوله ﴿مِنكُم﴾ يتعلَّق: بـ«بدلًا» المحذوف، أو بـ﴿يَخْلُفُونَ﴾.

والآخر: لو نشاء لجعلنا منكم؛ أي: لوَلَّدْنا منكم أولادًا ملائكةً يخلفونكم في الأرض كما يخلفُكم أولادُكم؛ فإنا قادرون على أن نخلق من أولاد الناس ملائكةً، فلا تنكروا أنْ خلقْنا عيسى من غير والد. حكى ذلك الزمخشري[1].

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ الضمير: لعيسى.

وقيل: لمحمد ﷺ.

وقيل: للقرآن.

فأما على القول بأنه لعيسى أو لمحمد: فالمعنى: أنه شرَطٌ من أشراط الساعة، يوجب العلمَ بها، فسمَّى الشَّرَط عِلْمًا؛ لحصول العلم به، ولذلك قرئ ﴿لَعَلَمٌ﴾ بفتح العين واللام؛ أي: علامة.

وأما على القول بأنه للقرآن: فالمعنى: أنه يُعْلِمكم بالساعة.

﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ إنما بيَّن البعض دون الكل؛ لأن الأنبياء إنما يبيِّنون أمور الدين لا أمور الدنيا.

وقيل: ﴿بَعْضَ﴾ بمعنى: «كلّ»، وهو ضعيف.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ ذكر في «مريم»[2].

---

(١) الكشاف (١٤/ ١٦٨).

(٢) انظر (٣/ ٧٢).

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ أي: ينتظرون، والضمير: لقريش، أو للأحزاب.

﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ﴾ ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ﴾: جمع خليل وهو الصديق، وإنما يعادي الخليلُ خليلَه يومَ القيامة؛ لأن الضرر دخل عليه من صحبته، ولذلك استثنى المتقين؛ لأن النفع دخل على بعضهم من بعض.

[﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾].

﴿يَٰعِبَادِ﴾ الآيةَ؛ تقديرها: يقول الله للمتقين يوم القيامة: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿تُحْبَرُونَ﴾ أي: تُنعَّمون وتُسَرُّون[١].

﴿وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ أي: يائسون من الخير.

---

(١) في ب: «وتبشرون».

﴿وَنَادَوْا۟ يَـٰمَـٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ المعنى: أنهم طلبوا الموت ليستريحوا من العذاب.

وروي أن مالكًا يبقى بعد ذلك ألف سنة، وحينئذ يقول لهم: ﴿إِنَّكُم مَّـٰكِثُونَ﴾ أي: دائمون في النار.

﴿لَقَدْ جِئْنَـٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الآيةَ؛ من كلام الله تعالى لأهل النار.

أو من كلام الله لقريش في الدنيا.

﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ الضمير لكفار قريش، والمعنى: أم أحكموا كيدًا للنبي ﷺ؛ فإنا مُحْكِمون نصرَه وحمايته.

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ الآيةَ؛ روي أنها نزلت في الأخنس بن شَرِيق والأسود بن عبد يغوث، اجتمعا وقال الأخنس: أترى الله يسمع سِرَّنا؟ فقال الآخر: يسمع نجوانا ولا يسمع سرَّنا.

﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾ السرُّ: ما حدَّث الإنسان به نفسَه أو غيرَه في خفيةٍ، والنجوى: ما تكلموا به فيما بينهم.

﴿بَلَىٰ﴾ أي: نسمع، ورسلُنا مع ذلك تكتب ما يقولون.

والرسل هنا: الملائكة الحافظون للأعمال.

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ في تأويل الآية أربعة أقوال:

الأول: أنها احتجاجٌ وردٌّ على الكفار، على تقدير قولهم، ومعناها: لو كان للرحمن ولد كما يقول الكفار لكنتُ أنا أول مَن يعبد ذلك الولد؛

كما يعظِّم خَدِيم[١] الملِك ولدَ الملك لتعظيم أبيه، ولكن ليس للرحمن ولد؛ فلست بعابد إلَّا الله وحده.

وهذا نوع من الأدلة يسمى دليل التلازم؛ لأنه علَّق عبادة الولد بوجوده، ووجوده محالٌ؛ فعبادته محال.

ونظير هذا: أن يقول المالكي إذا قصد الردَّ على الحنفي في تحليل النبيذ: إن كان النبيذ غير مسكر فهو حلال، لكنه مسكر؛ فهو حرام.

القول الثاني: أن المعنى: إن كان للرحمن ولد فأنا أول من عبد الله ووحَّده وكذَّبكم في قولكم: إن له ولدًا.

و﴿ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾ على هذين القولين: بمعنى العبادة.

القول الثالث: أن العابدين بمعنى المنكرين، يقال عَبَدَ الرجلُ: إذا أنف[٢] وأنكر الشيء، والمعنى: إن زعمتم أن للرحمن ولدًا فأنا أول المنكرين لذلك.

و﴿إِن﴾ على هذه الأقوال الثلاثة: شرطية.

القول الرابع: قال قتادة وابن زيد: ﴿إِن﴾ هنا نافيةٌ، بمعنى: «ما كان للرحمن ولدٌ»، وتمَّ الكلام، ثم ابتدأ قوله: ﴿فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَـٰبِدِينَ﴾.

والأول هو الصحيح؛ لأنه طريقة معروفة في البراهين والأدلة، وهو الذي عوَّل عليه الزمخشري[٣].

---

(١) في د: «خدام».

(٢) في د: «نفر».

(٣) الكشاف (١٤/ ١٧٩-١٨١).

وقال الطبري: هو ملاطفةٌ في الخطاب، ونحوُه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤][١].

وقال ابن عطية: منه قوله تعالى في مخاطبة الكفار: ﴿أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾[٢]، يعني: شركائي على قولكم.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ الآيةَ؛ موادَعةٌ منسوخة بالسيف.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ أي: هو إله أهل الأرض وأهل السماء.

والمجرور يتعلق بـ﴿إِلَٰهٌ﴾؛ لأن فيه معنى الوصفية.

﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: علم زمان وقوعها.

﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ أي: لا يملك كل من عُبِد من دون الله أن يَشفع عند الله؛ لأن الله لا يشفع أحدٌ عنده إلَّا بإذنه؛ فهو المالك للشفاعة وحده.

﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ اختُلف هل يعني: بـ﴿مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ الشافعَ أو المشفوع فيه؟

[أ-] فإن أراد المشفوع فيه: فالاستثناء منقطع، والمعنى: لا يملك المعبودون شفاعةً؛ لكن من شهد بالحق وهو عالم به فهو الذي يُشفَع فيه، ويَحتمل على هذا أن يكون ﴿مَن شَهِدَ﴾ مفعولًا بـ﴿ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ على

(١) تفسير الطبري (٢٠/ ٦٥٧).

(٢) المحرر الوجيز (٧/ ٥٦٤).

إسقاط حرف الجر، تقديره: الشفاعةَ فيمن شهد بالحق.

[ب-] وإن أراد بـ ﴿مَن شَهِدَ﴾ الشافع: فيحتمل أن يكون الاستثناء: منقطعًا.

وأن يكون متصلًا؛ لأن فيمن عُبِد: عيسى والملائكة.

والمعنى على هذا: لا يملك المعبودون شفاعةً إلَّا مَن شهد منهم بالحق.

﴿وَقِيلِهِۦ يَـٰرَبِّ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ القيل: مصدرٌ كالقول، والضمير يعود على النبي ﷺ.

وقرئ: ﴿وَقِيلَهُۥ﴾ بالنصب والخفض، وقرئ في غير السبع بالرفع.

[أ-] فأما النصب:

فقيل: هو معطوفٌ على ﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾.

وقيل: معطوف على موضع ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾؛ لأنها مفعول أضيف إلى المصدر[1].

وقيل: معطوف على مفعول ﴿يَكْتُبُونَ﴾، وهو محذوفٌ، تقديره: يكتبون أقوالَهم وقيلَه.

[ب-] وأما الخفض:

فقيل: إنه معطوف على لفظ ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾.

ويحتمل أن يكون معطوفًا على قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾.

---

(١) فيكون التقدير: عنده علمُ الساعةِ وعلمُ قيلِه. الكشاف (١٤/ ١٨٦).

[ج-] وأما الرفع: فقيل: إنه مبتدأ، وخبره ما بعده.

وضعَّف الزمخشري ذلك كلَّه، وقال: إنه من باب القسم:

فالنصب والخفض: على إضمار حرف القسم كقولك: «اللهِ لأضربنَّ زيدًا»(١).

والرفع: كقولهم: «أيمُنُ الله» و«لعمرُك».

وجواب القسم: قوله: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾، كأنه قال: أُقسِم بقِيله إن هؤلاء قوم لا يؤمنون.

﴿فَٱصۡفَحۡ عَنۡهُمۡ﴾ منسوخٌ بالسيف.

﴿وَقُلۡ سَلَٰمٞۚ﴾ تقديره: أمري سلام؛ أي: مسالمة.

وقيل: «سلامٌ عليكم» على جهة الموادَعة.

وهو منسوخٌ على الوجهين.

﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ تهديدٌ.

(١) عبارة الكشاف (١٤/ ١٨٦): «الجر والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه»، وقال البيضاوي في تفسيره (٣/ ٢٥٨): «منصوبٌ بحذف الجار، أو مجرورٌ بإضماره» فعبارة البيضاوي فيها توضيح لعبارة الزمخشري، فقوله: «اللهِ لأضربن زيدًا» مجرورٌ بحرف جرٍّ مضمر (مقدَّر)، وقوله: «اللهَ لأضربنَّ زيدًا» منصوبٌ على حذف حرف الجر، حُذِف الجارُ فانتصب المجرور، فيتبيَّن بهذا أن عبارة ابن جزيٍّ فيها شيء من الاختزال.

﴿ سورة الدخان ﴾

[﴿حمٓ ۝١ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ۝٥ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٦ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ۝٧ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٨ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ۝٩ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ۝١٠ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝١١ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ۝١٢ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ۝١٣ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ۝١٤ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ۝١٥ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ۝١٦ ۞ وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ۝١٧ أَنۡ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ۝١٨ وَأَن لَّا تَعۡلُواْ عَلَى ٱللَّهِۖ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ۝١٩ وَإِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمۡ أَن تَرۡجُمُونِ ۝٢٠ وَإِن لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ لِي فَٱعۡتَزِلُونِ ۝٢١ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوۡمٞ مُّجۡرِمُونَ ۝٢٢ فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ۝٢٤ كَمۡ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝٢٥ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ۝٢٦ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ۝٢٧ كَذَٰلِكَۖ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ۝٢٨ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾].

﴿وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢﴾ ذكر في «الزخرف»[1].

(١) انظر صفحة ٥٥.

وهو قسمٌ جوابه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾.

وقيل: ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾، وهو بعيد.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ يعني: ليلة القدر من رمضان.

وكيفية إنزاله فيها: أنه أُنزل إلى السماء الدنيا جملةً واحدة، ثم نزل به جبريل على النبي ﷺ شيئًا بعد شيء.

وقيل: معناه أنه ابتُدِئ إنزالُه في ليلة القدر.

وقيل: يعني بالليلة المباركة: ليلةَ النصف من شعبان وذلك باطل؛ لقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ [القدر: ١] مع قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ معنى ﴿يُفْرَقُ﴾: يُفْصَل ويُخَلَّص.

والأمر الحكيم: أرزاق العباد وآجالهم، وجميع أمورهم في ذلك العام، تُنسخ من اللوح المحفوظ في ليلة القدر؛ ليمتثل الملائكة ذلك بطول السنة القابلة.

وقد قيل: إن هذا يكون ليلةَ النصف من شعبان، وهو باطل؛ لما قدَّمنا.

﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ مفعول بفعل مضمر على الاختصاص، قاله الزمخشري[1].

وقال ابن عطية: نصبٌ على المصدر[2].

---

(١) الكشاف (١٤/ ١٩٤).

(٢) المحرر الوجيز (٧/ ٥٧٠).

وقيل: على الحال.

﴿مُرْسِلِينَ﴾ من إرسال الرسل عليهم السلام.

وقيل: من إرسال الرحمة.

والأول أظهر.

﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝١٠﴾ فيه قولان:

أحدهما: قول علي بن أبي طالب وابن عباس: أن الدخان يكون قبل يوم القيامة، يصيب المؤمنَ منه مثلُ الزكام، ويُنضِج رؤوس الكافرين والمنافقين، وهو من أشراط الساعة، ورَوَى حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول آيات[1] الساعة الدخان»[2].

والثاني: قول ابن مسعود: إن الدخان عبارةٌ عما أصاب قريشًا حين دعا عليهم رسول الله ﷺ بالجدب، فكان الرجل يرى دخانًا بينه وبين السماء من شدَّة الجوع، قال ابن مسعود: خمسٌ قد مَضَينَ: الدخان، واللِّزام، والبَطشة، والقمر، والرُّوم[3].

﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يَحتمل أن يكون:

من قول الله تعالى.

أو من قول الناس لما أصابهم الدخان، وهذا أظهر؛ لأن ما بعده من

---

(١) في أ، هـ: «أشراط».
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/١٩).
(٣) أخرجه البخاري (٤٨٢٥)، ومسلم (٢٧٩٨).

كلامهم باتفاق فيكون الكلام متناسِقًا.

﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ هذا من كلام الله تعالى، ومعناه: استبعاد تذكُّر الكفار مع تكذيبهم للنبي ﷺ.

والواو في قوله: ﴿وَقَدْ جَآءَهُمْ﴾ واو الحال.

﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

﴿وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ﴾ أي: يُعلِّمه بشر.

﴿ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ ابن عباس: هي يوم القيامة.

ابن مسعود: هي يوم بدر.

(﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا﴾ فعلْنا معهم فعلَ المختبِر؛ ليظهر منهم ما سبق في علمنا)[1].

﴿رَسُولٌ كَرِيمٌ﴾ يعني: موسى عليه السلام.

﴿أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ ﴿أَنْ﴾ هنا مفسِّرة نابتْ مَناب القول، و﴿أَدُّوٓاْ﴾ فعل أمرٍ من الأداء، و﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ مفعول به، وهم بنو إسرائيل.

والمعنى: أرسلوا بني إسرائيل كما قال في «طه»: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [طه: ٤٧].

وقيل: ﴿عِبَادَ ٱللَّهِ﴾ منادى، والمعنى: أدُّوا إليَّ الطاعة والإيمان يا عباد الله.

والأول أظهر.

---

(١) سقط من أ، ب، ج، هـ.

﴿وَأَن لَّا تَعْلُوا﴾ أي: لا تتكبَّروا.

﴿بِسُلْطَـٰنٍ﴾ أي: حجةٍ وبرهان.

﴿تَرْجُمُونِ﴾ اختُلف هل معناه: الرجم بالحجارة أو السبُّ؟، والأول أظهر.

﴿فَاعْتَزِلُونِ﴾ أي: اتركوني، وخلُّوا سبيلي.

﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى﴾ هذا أمرٌ من الله لموسى عليه السلام، والعباد هنا: بنو إسرائيل أي: اخرج بهم بالليل.

﴿إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ﴾ إخبارٌ أن فرعون وجنوده يتبعونهم.

﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ أي: ساكنًا على هيئته.

وقيل: يابسًا.

وروي أن موسى لما جاوز[1] البحر أراد أن يضربه بعصاه فينطبقَ، كما ضربه فانفلق، فقال الله له: اتركه كما هو؛ ليدخله فرعون وقومه فيغرقوا.

وقيل: معنى ﴿رَهْوًا﴾: سهلًا.

وقيل: منفرجًا.

﴿وَعُيُونٍ﴾ يَحتمل أن يريد:

الخُلجان الخارجة من النيل.

أو كانت ثمَّ عيون في ذلك الزمان.

---

(١) في د: «جاز».

وقيل: يعني: الذهب والفضة، وهو بعيد.

﴿وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ فيه قولان:

المنابر.

والمساكن الحسان.

﴿وَنَعْمَةٍ﴾ من التنعُّم بالأرزاق وغيرها.

﴿فَٰكِهِينَ﴾ أي: متنعِّمين.

وقيل: فرحين[١].

وقيل: أصحابَ فاكهة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع نصب؛ أي: مثلَ ذلك الإخراج أخرجناهم.

أو في موضع رفع؛ تقديره: الأمر كذلك.

﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ يعني: بني إسرائيل، حكاه الزمخشري[٢] والماوردي[٣]، وضعفه ابن عطية، قال: لأنه لم يُرْوَ في مشهور التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في ذلك الزمان[٤].

وقد قال الحسن: إنهم رجعوا إليها.

---

(١) في أ، ج: «فارحين».

(٢) الكشاف (١٤/ ٢١٢).

(٣) النكت والعيون للماوردي (٥/ ٢٥٢).

(٤) المحرر الوجيز (٧/ ٥٧٧).

ويدلُّ على أن المراد بنو إسرائيل قوله في الشعراء: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩].

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه عبارةٌ عن تحقيرهم، وذلك أنه إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيمه: «بكت عليه السماء والأرض» على وجه المجاز والمبالغة، فالمعنى: أن هؤلاء ليسوا كذلك؛ لأنهم أحقر من أن يُبالَى بهم.

الثاني: قيل: إذا مات المؤمن بكى عليه مِن الأرض موضعُ عبادته، ومن السماء موضعُ صعود عمله، فالمعنى: أن هؤلاء ليسوا كذلك؛ لأنهم كفارٌ ليس لهم عمل صالح.

الثالث: أن المعنى: ما بكى عليهم أهلُ السماء ولا أهل الأرض.

والأوَّل أفصح، وهو مَنْزَعٌ معروفٌ في كلام العرب.

﴿كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾ أي: مؤخَّرين.

* * *

[﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾].

﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلْعَذَابِ﴾.

﴿عَالِيًا﴾ أي: متكبّرًا.

﴿ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: كنّا عالمين بأنهم مستحِقُّون لذلك.

﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: على أهل زمانهم.

﴿بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ﴾ أي: اختبارٌ.

﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: كفارَ قريش.

﴿فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خاطبت قريشٌ بذلك النبيَّ ﷺ وأصحابه على وجه التعجيز.

وروي أنهم طلبوا أن يُحْيِيَ لهم قصيَّ بن كلاب؛ ليسألوه عن الآخرة.

﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ كان تبع ملكًا من حِمْيَر كان مؤمنًا وقومه كفارٌ، فذمَّ الله قومه ولم يذمَّه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أدري أكان تبعٌ نبيًّا أو غير نبيٍّ»[١].

ومعنى الآية: أقريشٌ أشدُّ وأقوى أم قوم تبع والذين من قبلهم من الكفار؟ وقد أهكلنا قوم تبع وغيرهم لما كفروا؛ فكذلك نُهلِك هؤلاء، فمقصود الكلام[٢] تهديدٌ.

﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ عطفٌ على ﴿قَوۡمُ تُبَّعٖ﴾.

وقيل: هو مبتدأ، فيُوقَف قبله.

والأول أصح.

﴿لَٰعِبِينَ﴾ حالٌ منفيَّة، ذُكرت في «الأنبياء»[٣].

﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلٗى﴾ المولى هنا: يعم الوليَّ والقريب وغير ذلك من الموالي.

﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ استثناءٌ:

منقطع: إن أراد بقوله: ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ الكفارَ.

ومتصلٌ: إن أراد بذلك جميعَ الناس.

* * *

(١) لم اقف عليه بهذا اللفظ، وفي سنن أبي داود (٤٦٧٤) ورد هكذا: «ما أدري تبَّعُ ألَعِينٌ هو أم لا».

(٢) في د: «فمقصد الآية».

(٣) انظر (٣/ ١٣٥).

[﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾].

﴿طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾﴾ أي: الفاجر، وهو مِن الإثم.

وقيل: يعني: أبا جهل، فالألف واللام للعهد.

والأظهر أنها للجنس؛ فتعمُّ أبا جهل وغيره.

﴿كَٱلْمُهْلِ﴾ هو دُرْدِيُّ الزيت.

وقيل: ما يذوب[1] من الرصاص وغيره.

﴿فَٱعْتُلُوهُ﴾ أي: سوقوه بتعنيفٍ.

﴿ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾﴾ المصبوب في الحقيقة إنما هو الحميم، وهو الماء الحار، ولكن جَعل المصبوب هنا العذابَ المضافَ إلى الحميم مجازًا؛ لأن ذلك أبلغُ وأشدُّ تهويلًا، وقد جاء الأصل في قوله: ﴿يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ﴾ [الحج: ١٩].

---

(١) في أ، هـ: «ما يُذاب».

﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ يقال للكافر هذا على وجه التوبيخ والتهكُّم به؛ أي: كنت العزيز الكريم عند نفسك.

وروي أن أبا جهل قال: ما بين جبلَيْها أعزُّ مني ولا أكرم، فنزلت الآية.

﴿تَمْتَرُونَ﴾ تفتَعِلُون من المرية، وهو الشك.

﴿فِي مُقَامٍ أَمِينٍ﴾ قرئ:

بضم الميم؛ أي: موضع إقامة.

وبفتحها؛ أي: موضع قيام.

والمراد به: الجنة.

والأمين: من الأَمْن؛ أي: مأمونٌ فيه.

وقيل: من الأمانة، وصف به المكان مجازًا.

﴿مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ﴾ السندس: الرقيق من الديباج، والإستبرق: الغليظ منه.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ في موضع رفع؛ أي: الأمرُ كذلك.

أو في موضع نصب؛ أي: مثلَ ذلك زوَّجناهم.

﴿يَدْعُونَ فِيهَا﴾ أي: يدعون خُدَّامَهم.

﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لا يذوقون فيها الموت، لكنهم قد ذاقوا الموتة الأولى خاصةً قبل ذلك، ولولا قوله: ﴿فِيهَا﴾ لكان متصلًا؛ لعموم لفظ الموت.

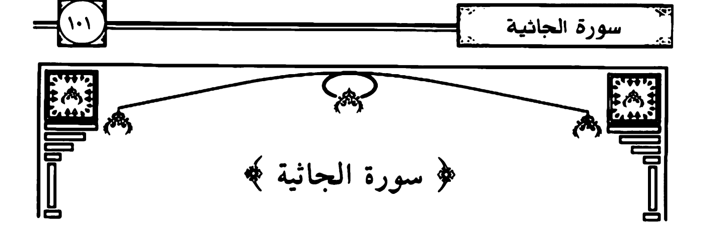
وقيل: ﴿إِلَّا﴾ هنا بمعنى: بَعْدَ، وذلك ضعيف.

﴿يَسَّرْنَهُ﴾ الضمير للقرآن.

﴿بِلِسَانِكَ﴾ أي: بِلُغَتك، وهي لسان العرب.

﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ۝٥٩﴾ أي: ارتقب نصرَنا لك؛ إنهم مرتقبون ضدَّ ذلك، ففيه وعدٌ له ووعيدٌ لهم.

* * *



﴿ سورة الجاثية ﴾

[﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝٣ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٤ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٥ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝٩ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١٠ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾].

﴿تَنزِيلُ﴾ ذُكر في «الزمر»[١].

وما بعد ذلك تنبيهٌ على الاعتبار بالموجودات، وقد ذُكِر معناه في مواضع.

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ الأفاك: مبالغةٌ من الإفك، وهو الكذب، والأثيم: من الإثم.

وقيل: إنها نزلت في النضر بن الحارث.

ولفظها على العموم.

---

(١) انظر (٣/ ٧٣٤).

﴿يُصِرُّ﴾ أي: يدوم على حاله من الكفر.

وإنما عطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لاستعظامِ الإصرار على الكفر؛ بعد سماع آيات الله، واستبعادِ ذلك في العقل والطبع.

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ أي: إذا بلغه شيء منها، ولم يُرد العلمَ الحقيقي.

﴿مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ﴾ كقوله: ﴿وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ [إبراهيم: ١٧]، وقد ذُكر في «إبراهيم»[1].

* * *

(١) انظر (٢/ ٦٩٨).

[﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾].

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: الشمسَ والقمر والملائكة وبني آدم والحيوانات والنبات وغير ذلك.

﴿جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ أي: كلُّ نعمة فمن الله تعالى.

والمجرور:

في موضع الحال.

أو خبر ابتداء مضمر.

وقرأ ابن عباس: «مِنَّةً».

﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ أمر الله المؤمنين أن

يتجاوزوا عن الكفار، وأن لا يؤاخذوهم إذا آذَوهم، وكان ذلك في صدر الإسلام.

فقيل: إنها منسوخة بالسيف.

وقيل: ليست بمنسوخة؛ لأن احتمال الأذى مندوبٌ إليه على كل حال، وأما القتال على الإسلام فليس من ذلك.

وروي: أن الآية نزلت في عمر بن الخطاب، شتَمه رجل من الكفار فأراد عمر أن يبطش به.

و﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ هي نِعَمُه[1]، فـ ﴿يَرْجُونَ﴾ على أصله.

وقيل: ﴿أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ عبارةٌ عن عقابه، فالرجاء بمعنى الخوف.

و﴿يَغْفِرُواْ﴾ مجزومٌ في جواب شرط مقدَّر، دلَّ عليه: ﴿قُل﴾[2].

قال الزمخشري: حذف معمول القول، والمعنى: قل لهم اغفروا يغفروا[3].

﴿لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ الفاعل بـ﴿يَجْزِي﴾ ضميرٌ يعود على الله.

وقرئ بنون المتكلم.

وقال ابن عطية: إن الآية وعيدٌ[4]، فالقوم على هذا: هم الذين لا يرجون

---

(١) في المحرر الوجيز (٧/ ٥٩٤): «أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك».

(٢) تقديره: «قل اغفروا، فإن يجيبوا يغفروا» المحرر الوجيز (٧/ ٥٩٤).

(٣) الكشاف (١٤/ ٢٤٦).

(٤) المحرر الوجيز (٧/ ٥٩٥)

أيام الله، و﴿يَكْسِبُونَ﴾ يعني: السيئات.

وقال الزمخشري: القوم: هم الذين آمنوا، وجزاؤهم: الثواب؛ ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ بكَظْم الغيظ واحتمال المكروه[١].

﴿عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ ذكر في «البقرة»[٢].

﴿بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أي: معجزاتٍ من أمر الدين.

﴿ثُمَّ جَعَلْنَـٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ أي: على ملةٍ ودين.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا للإنكار، و﴿ٱجْتَرَحُوا۟﴾ اكتسبوا.

والمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾: الكفار؛ لمقابلته بالذين آمنوا، ولأن الآية مكية، وقد يتناول لفظُها المذنبين من المؤمنين، ولذلك يُذكر أن الفضيل بن عياض قرأها بالليل فما زال يردّدُها ويبكي طول الليل، ويقول لنفسه: من أيِّ الفريقين أنت؟!

ومعناها: إنكارُ ما حَسِبَه الكفار من أن يكونوا هم والمؤمنون سواءً في المحيا والممات.

وفي تأويلها مع ذلك قولان:

أحدهما: أن المراد: ليس المؤمنون سواءً مع الكفار، لا في المحيا ولا في الممات؛ فإن المؤمنين عاشوا على التقوى والطاعة، والكافرين

---

(١) الكشاف (١٤/ ٢٤٧-٢٤٨).

(٢) انظر (١/ ٣١٢).

عاشوا على الكفر والمعصية، وكذلك مماتُهم ليس سواءً.

والقول الآخر: أنهم إن استووا في المحيا؛ أي: في أمور الدنيا من الصحة والرزق؛ فلا يستوون في الممات، بل يسعد المؤمنون ويَشقى الكافرون، فالمراد بها: إثبات الجزاء في الآخرة، وتفضيل المؤمنين على الكفَّار في الآخرة، وهذا المعنى هو الأظهر والأرجح، فيكون معنى الآية كقوله: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [القلم: ٣٥]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ۝٢٨﴾ [ص: ٢٨].

﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ هذه الجملة بدلٌ من الكاف في قوله: ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، وهي مفسِّرةٌ للتشبيه، وهي داخلةٌ فيما أنكره الله مما حسِبه الكفار.

وقيل: هي كلام مستأنَف؛ والمعنى على هذا: أن محيا المؤمنين ومماتَهم سواءٌ، وأن محيا الكفار ومماتهم سواءٌ؛ لأن كل أحد يموت على ما عاش عليه، وهذا المعنى بعيد، والصحيح: أنها من تمام ما قبلها، على المعنى الذي اخترناه.

وأما إعرابها:

فمن قرأ ﴿سَوَآءٌ﴾ بالرفع: فهو مبتدأ، وخبره ﴿مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، والجملة بدلٌ من الجار والمجرور الواقع مفعولًا ثانيًا لـ ﴿نَّجْعَلَ﴾.

ومن قرأ ﴿سَوَآءً﴾ بالنصب: فهو حالٌ، أو مفعول ثانٍ لـ ﴿نَّجْعَلَ﴾، و﴿مَّحْيَاهُمْ﴾ فاعلٌ بـ ﴿سَوَآءً﴾ ؛ لأنه في معنى: مستوٍ.

﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي: ساءَ حكمُهم في تسويتهم بين أنفسهم وبين المؤمنين.

[﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٢) أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣) وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (٢٤) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾].

﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ﴾ معطوفٌ:

على قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ ؛ لأن فيه معنى التعليل.

أو على تعليلٍ محذوف تقديره: خلق الله السموات والأرض؛ ليدلَّ بهما على قدرته، ولتُجزَى كل نفس بما كسبت.

﴿اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ أي: أطاعه حتى صار له كإلهٍ[1].

﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي: على علمٍ من الله سابقٍ.

وقيل: على علم من هذا الضالِّ بأنه على ضلال، ولكنه يتبع الضلال معاندةً.

﴿وَخَتَمَ﴾ ذكر في «البقرة»[2].

﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ قال ابن عطية: فيه حذف مضافٍ تقديره: من

---

(١) في د: «كالإله».

(٢) انظر (١/ ٢٧٠).

بعد إضلال الله إيَّاه[١].

ويَحتمل أن يريد: فمن يهديه غير الله.

﴿وَقَالُواْ﴾ الضمير: لمن اتخذ إلهه هواه، أو لقريش.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ فيه أربع تأويلات:

أحدها: أنهم أرادوا: يموت منَّا قوم ويحيا قوم.

والآخر: نموت نحن ويحيا أولادنا.

والثالث: نموت حين كنا عدمًا أو نُطَفًا، ونحيا في الدنيا.

والرابع: نموت الموت المعروف، ونحيا قبله في الدنيا، فوقع في اللفظ تقديم وتأخير.

ومقصودهم على كل وجه: إنكار الآخرة.

ويظهر أنهم كانوا على مذهب الدهرية؛ لقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ الآيةَ.

﴿قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ ذكر في «الدخان»[٢].

﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ﴾ الآيةَ؛ ردٌّ على المنكرين للحشر، واستدلالٌ على وقوعه بقدرة الله تعالى على الإحياء والإماتة.

* * *

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٦٠١).

(٢) انظر صفحة ٩٦.

[﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾].

﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ أي: تجثو على الرُّكَب، وتلك هيئة الخائف الذليل.

﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ أي: إلى صحائف أعمالها.

وقيل: الكتاب المنزل عليها.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ الآيةَ.

فإن قيل: كيف أضاف الكتاب تارةً إليهم وتارةً إلى الله تعالى؟

فالجواب: أنه أضافه إليهم؛ لأن أعمالهم ثابتةٌ فيه، وأضافه إلى الله؛ لأنه تعالى مالكه، وهو الذي أمر الملائكة أن يكتبوه.

﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: نأمر الملائكة الحافظين بكتابة أعمالكم.

وقيل: إن الله يأمر الحفَظة أن تنسخ أعمال العباد من اللوح المحفوظ، ثم يمسكونه عندهم، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك فتكتبها أيضًا الملائكة، فذلك هو الاستنساخ، وكان ابن عباس يحتجُّ على ذلك بأن يقول: لا يكون الاستنساخ إلَّا من أصل.

﴿أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ تقديره: يقال لهم ذلك.

﴿وَحَاقَ﴾ ذُكِر مرارًا[1].

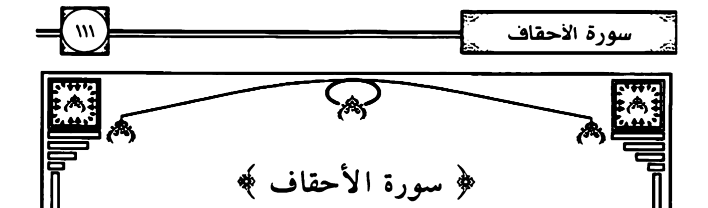
﴿الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ النسيان هنا بمعنى: التَّرك.

وأما في قوله: ﴿كَمَا نَسِيتُمْ﴾ فيحتمل أن يكون: بمعنى الترك، أو الذُّهول.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ من العُتْبى، وهي الرضا.

* * *

(١) انظر (٣/ ٧٥٨)، والمادة رقم (١٣٧) في اللغات.



﴿ سورة الأحقاف ﴾

[﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٨ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾].

﴿تَنزِيلُ﴾ ذكر في «الزمر»[١].

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ذكر مرارًا[٢].

﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ يعني: يوم القيامة.

---

(١) انظر (٣/ ٧٣٤).

(٢) انظر (٢/ ٥٣٩)، (٢/ ٧٢٨)، (٣/ ٧١٢).

﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا﴾ احتجاجٌ على التوحيد، وردٌّ على المشركين، فالأمر بمعنى التعجيز.

﴿شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي: نصيبٌ.

﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ﴾ تعجيزٌ؛ لأنهم ليس لهم كتاب يدلُّ على الإشراك بالله، بل الكتب كلها ناطقةٌ بالتوحيد.

﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي: بقيَّةٍ من علم قديم يدلُّ على ما تقولون.

وقيل: معناه من علم تثيرونه؛ أي: تستخرجونه.

وقيل: هو الإسناد.

وقيل: هو الخطُّ في الرمل، وكانت العرب تتكهَّن به، وقال رسول الله ﷺ: «كان نبي من الأنبياء يخط في الرمل؛ فمن وافق خطه فذاك»[١].

﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ الآيةَ؛ معناها: لا أحدَ أضلُّ ممن يدعو إلهًا لا يستجيب له، وهي الأصنام؛ فإنها لا تسمع ولا تعقل، ولذلك وصفها بالغفلة عن دعائهم؛ لأنها لا تسمعه.

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾ أي: كان الأصنامُ أعداءً للذين عبدوها.

﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ الضمير في ﴿وَكَانُوا﴾ للأصنام، أي: تتبرَّأ الأصنام من الذين عبدوها.

وإنما ذَكر الأصنام بضمائر مثل ضمائر العقلاء؛ لأنه أَسند إليهم ما يُسند إلى العقلاء، من الاستجابة والغفلة والعداوة.

---

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧).

﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ أي: لو افتريته لعاقبني الله على الافتراء عقوبةً لا تقدرون على دفعها، ولا تملكون شيئًا مِن ردِّها، فكيف أفتريه وأتعرَّض لعقاب الله؟.

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ أي: بما تتكلَّمون به، يقال: أفاض الرجل في الحديث: إذا خاض فيه واستمرَّ.

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ البِدْعُ والبَدِيع من الأشياء: ما لم يُرَ مثلُه؛ أي: ما كنت أوَّلَ رسول، ولا جئت بأمر لم يجئ به أحدٌ قبلي، بل جئت بما جاء به قبلي ناسٌ كثيرون؛ فلأيِّ شيء تنكرون ذلك؟!

﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ فيها أربعة أقوال:

الأول: أنها في أمر الآخرة، وكان ذلك قبل أن يعلم أنه في الجنة، وقبل أن يعلم أن المؤمنين في الجنة وأن الكفار في النار، وهذا بعيد؛ لأنه لم يزل يعلم ذلك مِن أول ما بعثه الله.

والثاني: أنها في أمر الدنيا؛ أي: لا أدري بما يَقضي الله عليَّ وعليكم؛ فإن مقادير الله مغيَّبةٌ، وهذا هو الأظهر.

والثالث: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي، وما تُلزِمُه الشريعةُ.

الرابع: أن هذا كان في الهجرة؛ إذ كان رسول الله ﷺ قد رأى في النوم أنه يهاجر إلى أرضِ نخلٍ، فقلق المسلمون لتأخُّر ذلك، فنزلت هذه الآية.

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ معنى الآية: أرأيتم إن كان القرآن

من عند الله وكفرتم به؛ ألستم ظالمين؟ ثم حذف قوله: «ألستم ظالمين» وهو الجواب؛ لأنه دلَّ عليه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ هذه الجملة معطوفة على الجملة التي قبلها، فالمعنى: أرأيتم إن اجتمع كونُ القرآن من عند الله، مع شهادة شاهدٍ من بني إسرائيل على مثله، ثم آمن به هذا الشاهد وكفرتم أنتم، ألستم أضلَّ الناس وأظلمَ الناس؟

واختُلف في الشاهد المذكور على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عبد الله بن سلَام:

فقيل على هذا: إن الآية مدنية؛ لأنه إنما أسلم بالمدينة.

وقيل: إنها مكية، وأخبر بشهادته قبل وقوعها ثم وقعت على حسَب ما أخبر، وكان عبد الله بن سلَام يقول: فيَّ نزلت الآية.

الثاني: أنه رجل من بني إسرائيل كان بمكة.

الثالث: أنه موسى عليه السلام، ورجَّح ذلك الطبري[1].

والضمير في ﴿مِّثْلِهِۦ﴾ للقرآن؛ أي: شهد على مثله فيما جاء به من التوحيد والوعد والوعيد.

والضمير في ﴿ءَامَنَ﴾ للشاهد:

فإن كان عبد الله بن سلام أو الرجل الآخر: فإيمانه بيِّن.

وإن كان موسى عليه السلام فإيمانه: هو تصديقه بأمر محمد ﷺ وتبشيره به.

---

(١) تفسير الطبري (٢١/ ١٣١).

[﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ﴾].

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ أي: لو كان الإسلام خيرًا ما سبقَنا إليه هؤلاء.

والقائلون لهذه المقالة: هم أكابر قريش لما أسلم الضعفاء؛ كبلال، وعمار، وصهيب.

وقيل: بل قالها كِنانة وقبائل من العرب لما أسلمت غِفار ومزينة وجهينة.

وقيل: بل قالها اليهود لما أسلم عبد الله بن سلَام.

والأول أرجح؛ لأن الآية مكية، وكانت مقالة قريش بمكة، وأما مقالة الآخرين فإنما كانت بعد الهجرة.

ومعنى ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: من أجل الذين آمنوا، أي: قالوا ذلك عنهم في غَيْبتهم. وليس المعنى: أنهم خاطبوهم بهذا الكلام؛ لأنه لو كان خطابًا لقالوا: «ما سبقتمونا».

﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ أي: لمَّا لم يهتدوا به قالوا: هذا إفك قديم، ونحو هذا ما جاء في المثل: «مَنْ جَهِل شيئًا عاداه».

ووصفوه بالقِدَم؛ لأنه قد قيل قديمًا.

فإن قيل: كيف عَمِلَ ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ في ﴿إِذْ﴾ وهي للماضي والعامل مستقبل؟

فالجواب: أن العامل في ﴿إِذْ﴾ محذوفٌ، تقديره: «إذ لم يهتدوا به ظهَر عنادُهم، فسيقولون..»، قال ذلك الزمخشري[1].

ويظهر لي: أنَّ ﴿إِذْ﴾ هنا بمعنى التعليل، لا ظرفيةٌ بمعنى الماضي، فلا يلزم السؤال، والمعنى: أنهم قالوا: هذا إفك بسبب أنهم لم يهتدوا به، وقد جاءت ﴿إِذْ﴾ بمعنى التعليل في القرآن وفي كلام العرب، ومنه: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ﴾ [الزخرف: ٣٩] أي: بسبب ظلمكم.

﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ الضمير في ﴿قَبْلِهِۦ﴾ للقرآن،

---

(١) الكشاف (١٤/ ٢٨١-٢٨٣).

و﴿ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ ﴾ هو التوراة، و﴿إِمَامًا﴾ حال، ومعناه: يُقتَدى به.

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارةُ بـ ﴿هَٰذَا﴾ إلى القرآن.

ومعنى ﴿مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا﴾: صدَّق ما قبلَه من الكتب، وقد ذكرنا ذلك في «البقرة»[١].

و﴿لِّسَانًا﴾ حالٌ من الضمير في ﴿مُّصَدِّقٌ﴾.

وقيل: مفعول بـ ﴿مُّصَدِّقٌ﴾؛ أي: صدَّق ذا لسانٍ عربي، وهو محمد ﷺ واختار هذا ابنُ عطية[٢].

﴿ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ ذكر في «حم السجدة»[٣].

﴿حُسْنًا﴾ ذكر في «العنكبوت»[٤].

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ أي: حملته بمشقَّةٍ ووضعته بمشقة.

ويقال: كرْهٌ بفتح الكاف وضمها بمعنى واحد.

﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ أي: مدة حمله ورَضاعه ثلاثون شهرًا، وهذا لا يكون إلَّا بأن يَنقص من أحد الطرفين، وذلك إمَّا أن تكون مدة الحمل ستةَ أشهر ومدة الرضاع حولين كاملين، أو تكون مدة الحمل تسعة أشهر ومدة الرضاع حولين غير ثلاثة أشهر.

---

(١) انظر (١/ ٣٠٨).
(٢) المحرر الوجيز (٧/ ٦١٦).
(٣) انظر صفحة ١٧.
(٤) انظر (٣/ ٤٦٢).

ومن هذا أخذ علي بن أبي طالب ﷺ والعلماء: أن أقل مدة الحمل ستة أشهر.

وإنما عبَّر عن مدة الرضاع بالفصال وهو الفطام؛ لأنه منتهى الرَّضاع.

﴿بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ ذكر في «يوسف»[١].

﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ هذا حدُّ كمال العقل والقوة.

ويقال: إن الآية نزلت في أبي بكر الصديق ﷺ.

وقيل: إنها عامة.

﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: في جملة أصحاب الجنة، كما تقول: «رأيت فلانًا في الناس»، أي: مع الناس.

﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ قال مروان بن الحكم: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق حين كُفْرِه[٢]، كان أبوه وأمه يدعوَانه إلى الإسلام فيأبى ويقول لهما: «أفٍّ لكما».

وأنكرت عائشة ﷺ ذلك وقالت: «والله ما نزل في آل أبي بكر شيءٌ من القرآن إلَّا براءتي»[٣].

ويُبطِل ذلك قطعًا قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ لأن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق أسلم وكان من خيار المسلمين، وكان

---

(١) انظر (٢/ ٦٢٥).

(٢) في د: «كفر».

(٣) أخرجه البخاري (٤٨٢٧).

له في الجهاد غَناءٌ عظيم، وقال السُّديُّ: ما رأيت أعبدَ منه.

وقال ابن عباس: نزلت في ابنٍ لأبي بكر، ولم يسمِّه.

ويردُّ ذلك: ما ذكرنا عن عائشة.

وقيل: هي على الإطلاق فيمن كان على هذه الصفة من الكفر والعقوق لوالديه، ويدلُّ على أنها عامةٌ قولُه تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَوۡلُ﴾ بصيغة الجمع، ولو أراد واحدًا بعينه لقال: «ذلك الذي حق عليه القول».

وقد ذكرنا ﴿أُفٍّ﴾ في «الإسراء»[١].

﴿أَتَعِدَانِنِيٓ أَنۡ أُخۡرَجَ﴾ أي: أتعدانني أن أُخرج من القبر للبعث.

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلۡقُرُونُ مِن قَبۡلِي﴾ أي: قد مضت قرونٌ من الناس ولم يبعث منهم أحد.

﴿وَهُمَا يَسۡتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ الضمير لوالديه؛ أي: يستغيثان بالله من كراهتهما لما يقوله ابنهما، ثم يقولان له: ﴿وَيۡلَكَ﴾، ثم يأمرانه بالإيمان، ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾: أي: قد سطَره الأولون في كتبهم، وذلك تكذيبٌ بالبعث والشريعة.

﴿وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۖ﴾ أي: للمحسنين والمسيئين درجاتٌ في الآخرة بسبب أعمالهم، فدرجات أهل الجنة إلى علْوٍ، ودرجات أهل النار إلى سفْلٍ.

---

(١) انظر (٢/ ٨٠٢).

﴿وَلِنُوَفِّيَهُمْ﴾ تعليلٌ لفعل محذوف، وبه يتعلَّق، تقديره: جعَل جزاءَهم درجاتٍ؛ ليوفيهم[1] أعمالهم.

﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ﴾ العامل فيه محذوفٌ، تقديره: اذكر.

﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾ تقديره: يقال لهم: أذهبتم طيباتكم.

والطيبات هنا: الملاذُّ من المآكل وغيرها.

وقرئ ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾:

بهمزة واحدة على الخبر.

وبهمزتين على التوبيخ.

والآية في الكفار؛ بدليل قوله: ﴿يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهي مع ذلك واعظةٌ لأهل التقوى من المؤمنين، ولذلك قال عمر لجابر بن عبد الله وقد رآه اشترى لحمًا: أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية؟

﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ أي: العذاب الذي اقترن به هوانٌ.

---

(١) في د: «لنوفيهم».

[﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدۡ مَكَّنَّٰهُمۡ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمۡ فِيهِ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ سَمۡعٗا وَأَبۡصَٰرٗا وَأَفۡـِٔدَةٗ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُمۡ سَمۡعُهُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُهُمۡ وَلَآ أَفۡـِٔدَتُهُم مِّن شَيۡءٍ إِذۡ كَانُواْ يَجۡحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾].

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾ يعني: هودًا عليه السلام.

﴿بِٱلۡأَحۡقَافِ﴾ جمع حِقْفٍ، وهو الكُدْسُ من الرمل.

واختُلف أين كانت؟

فقيل: بالشام.

وقيل: بين عُمَان ومَهَرة.

وقيل: بين عُمان وحَضْرَموت.

والصحيح أن بلاد عادٍ كانت باليمن.

﴿وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ أي: تقدَّمت من قبله ومن بعده.

و﴿ٱلنُّذُرُ﴾ جمع نذير.

فإن قيل: كيف يُتصوَّر تقدُّمها من بعده؟

فالجواب: أن هذه الجملة اعتراضٌ، وهي إخبارٌ من الله تعالى أنه قد

بَعث رسلًا متقدِّمين قبل هود وبعده.

وقيل: معنى ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾: في زمانه.

﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قال: إن العذاب الذي قلتم ائتنا به ليس لي علمٌ متى يكون، وإنما يعلمه الله، وما عليَّ إلَّا أن أبلِّغكم ما أُرسلت به.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ العارض: السحاب الذي يَعرِض في أفق السماء.

والضمير في ﴿رَأَوْهُ﴾ يعود:

على ﴿مَا تَعِدُنَآ﴾.

أو على المرْئيِّ المبهم الذي فسَّره قوله: ﴿عَارِضًا﴾، قال الزمخشري: وهذا أعرب وأفصح[١].

وروي أنهم كانوا قد قَحِطوا مدَّةً، فلما رأوا هذا العارض ظنوا أنه مطر ففرحوا به، فقال لهم هود عليه السلام: بل هو ما استعجلتم به من العذاب.

وقوله: ﴿رِيحٌ﴾:

بدلٌ من ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم﴾.

أو خبر ابتداء مضمر.

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ عمومٌ يراد به الخصوص.

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾ هذا خطابٌ لقريش على وجه التهديد؛ أي: مكَّنَّا

---

(١) الكشاف (١٤/ ٣٠١).

عادًا فيما لم نمكنْكم فيه من القوة والأموال وغير ذلك، ثم أهلكناهم لما كفروا.

و﴿إن﴾ هنا نافيةٌ بمعنى «ما»، وعَدل عن «ما» كراهيةً لاجتماعها مع «ما» التي قبلها.

وقيل: ﴿إن﴾ شرطيةٌ، وجوابها محذوف، تقديره: إن مكنَّاكم فيه طَغيتم.

قال ابن عطية: وهذا تنطُّعٌ في التأويل[١].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٦٢٩).

[﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾].

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ يعني: بلادَ عاد، وثمود، وسبأ، وغيرها، والمراد: إهلاك أهلها.

﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ﴾ الآيةَ؛ عرْضٌ معناه النفي؛ أي: لم تنصرهم آلهتهم التي عبدوا(١) من دون الله.

﴿قُرْبَانًا﴾ أي: تقرَّبوا بهم إلى الله، وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله.

وانتصاب ﴿قُرْبَانًا﴾ على الحال.

ولا يصح أن يكون ﴿قُرْبَانًا﴾ مفعولًا ثانيًا لـ ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ و﴿ءَالِهَةًۢ﴾ بدلٌ

---

(١) في ب: «عبدوهم»، وفي د: «عبدوها».

منه؛ لفساد المعنى، قاله الزمخشري[١].

وقد أجازه ابن عطية[٢].

﴿بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ﴾ أي: تَلِفُوا لهم، وغابوا عن نصرهم حين احتاجوا إليهم.

﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ﴾ أي: أَمَلْناهم نحوك.

والنفر في اللغة: دون العشرة.

وروي أن الجن كانوا سبعة، وكانوا كلهم ذكرانًا؛ لأن النفر الرجالُ دون النساء.

وكانوا من أهل نَصِيبِينَ[٣].

وقيل: من أهل الجزيرة.

واختُلف هل رآهم النبي ﷺ؟

قيل: إنه لم يرهم، ولم يعلم باستماعهم حتى أعلمه الله بذلك.

وقيل: بل علم بهم واستعدَّ لهم واجتمع معهم، وقد ورد في ذلك عن عبد الله بن مسعود أحاديث مضطربة[٤].

---

(١) الكشاف (١٤/ ٣٠٧).

(٢) المحرر الوجيز (٧/ ٦٢٩).

(٣) هي بلدة في بلاد الجزيرة التي بين الشام والعراق. معجم البلدان، لياقوت الحموي (٥/ ٢٨٨).

(٤) أخرجه مسلم (٤٥٠).

وسبب استماع الجن: أنهم لما طُرِدوا عن استراق السمع من السماء برجْم النجوم قالوا: ما هذا إلَّا أمرٌ[١] حدث!، فطافوا في الأرض ينظرون ما أوجب ذلك، حتى سمعوا قراءة رسول الله ﷺ في صلاة الفجر في سوق عكاظ، فاستمعوا إليه وآمنوا به.

﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ في هذا دلالةٌ[٢] على أنهم كانوا على دين اليهود.

وقيل: كانوا لم يعلموا ببعث عيسى.

﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾ ذكر في «البقرة»[٣].

﴿دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ هو رسول الله ﷺ.

﴿يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ﴾ ﴿مِّن﴾ هنا للتبعيض على الأصح؛ أي: يغفر لكم الذنوب التي فعلتم قبل الإسلام، وأما التي بعد الإسلام فهي في مشيئة الله.

وقيل: معنى التبعيض: أن المظالم لا تُغفَر.

وقيل: إن ﴿مِّن﴾ زائدة.

﴿وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: من النار.

واختلف الناس هل للجنّ ثوابٌ زيادةً على النجاة من النار، أم ليس لهم ثواب إلَّا النجاة خاصةً؟

---

(١) في د: «الأمر».

(٢) في أ، هـ: «دليل».

(٣) انظر (١/ ٣٠٨).

﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ يحتمل:

أن يكون من كلام الجن.

أو من كلام الله تعالى.

ومعنى ﴿فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ﴾: لا يفوتُ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ الآيةَ؛ احتجاجٌ على بعث الأجساد بخِلْقة السموات والأرض.

﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ يقال: عَيِيتُ بالأمرِ: إذا لم تعرفْه، فالمعنى: أنه تعالى عَلِم كيف خَلْقُ السموات، وأحكم خِلْقتها؛ فلا شكَّ أنه قادرٌ على إحياء الموتى.

﴿بِقَٰدِرٍ﴾ في موضع رفع؛ لأنه خبر ﴿أَنَّ﴾، وإنما دخلت الباء؛ لاشتمال النفي في أول الآية على ﴿أَنَّ﴾ وخبرها[1].

﴿بَلَىٰٓ﴾ جوابٌ لما تقدَّم؛ أي: هو قادر على أن يُحيي الموتى.

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ هذا خطابٌ للنبي ﷺ؛ أي: اصبر على تكذيب قومك.

وأولوا العزم هم: نوحٌ، وإبراهيم، وموسى، وعيسى.

وقيل: هم الثمانيةَ عشرَ المذكورون في سورة «الأنعام»؛ لقوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

---

(١) عبارة الكشاف (١٤/ ٣١٦): «وإنما دخلت الباء؛ لاشتمال النفي في أول الآية على ﴿أَنَّ﴾ وما في حيِّزها».

وقيل: كلُّ من لَقِي من أمته شدةً.

وقيل: الرسل كلهم أولوا عزم؛ فـ﴿مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ على هذا: لبيان الجنس.

وعلى الأقوال المتقدمة: للتبعيض.

﴿وَلَا تَسۡتَعۡجِل لَّهُمۡۚ﴾ أي: لا تستعجل نزول العذاب بهم؛ فإنهم صائرون إليه؛ فإنهم[1] إذا هلَكوا كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلَّا ساعةً من نهار؛ لاستقصار أعمارهم.

﴿بَلَٰغٌۚ﴾ خبر ابتداء مضمر، تقديره: هذا الذي وُعِظتم به بلاغٌ؛ بمعنى: كفايةٌ في الموعظة.

أو بلاغ من الرسول ﷺ، أي: بلَّغَ هذه المواعظَ والبراهين.

---

(١) في د: «وإنهم».

﴿ سورة القتال ﴾

[﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾].

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: كفار قريش، وعموم اللفظ يصلح لكلِّ كافرٍ.

كما أن قوله بعد هذا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني به: الصحابةَ، وعموم اللفظ يصلح لكل مؤمن.

﴿وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون ﴿وَصَدُّوا۟﴾: بمعنى: أعرضوا، فيكون غيرَ متعدٍّ.

أو يكون بمعنى: صدوا الناسَ، فيكون متعدِّيًا.

و﴿سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: الإسلام والطاعة.

﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ أي: أبطلها وأحبطها.

وقيل: المراد بـ﴿أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ هنا: ما أنفقوا في غزوة بدر؛ فإن هذه السورة نزلت بعد بدر.

واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ هذا تجريدٌ؛ للاختصاص والاعتناء، بعد عموم قوله: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ولذلك أكَّده بالجملة الاعتراضية، وهي قوله: ﴿وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ﴾.

﴿وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾ قيل: معناه: أصلح حالهم وشأنهم.

وحقيقة البال: الخاطر الذي في القلب، وإذا صلَح القلب صلَح الجسد كلُّه، فالمعنى: إصلاح دينهم بالإيمان والإخلاص والتقوى.

﴿فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ﴾ أصله: «فاضربوا الرقاب ضربًا»، ثم حَذف الفعل وأقام المصدر مُقامه.

والمراد: اقتلوهم، ولكن عبَّر عنه بضرب الرقاب؛ لأنه الغالب في صفة القتل.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾ أي: هزمتموهم، والإثخان: أن يَكثر فيهم القتل والأسر.

﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾ عبارةٌ عن الأسر.

﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾ المنُّ: العتق، والفداء: فكُّ الأسير بمال، وهما جائزان.

فإن مذهب مالك: أن الإمام مخيَّر في الأُسارى بين خمسة أشياء؛ وهي: المن، والفداء، والقتل، والاسترقاق، وضرب الجزية.

وقيل: لا يجوز المنَّ ولا الفداء؛ لأن الآية منسوخة بقوله: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، فلا يجوز على هذا إلَّا قتلُهم.

والصحيح أنها محكمة.

وانتصب ﴿مَنًّا﴾ و﴿فِدَآءً﴾ على المصدرية، والعامل فيهما: فعلان مضمران.

﴿حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الأوزار في اللغة: الأثقال، فالمعنى: حتى تذهب وتزول أثقالها، وهي آلاتها.

وقيل: الأوزار: الآثام؛ لأن الحرب لا بدَّ أن يكون فيها آثامٌ في أحد الجانبين.

واختُلف في الغاية المرادة هنا:

فقيل: حتى يُسلم الجميع؛ وحينئذ تضع الحرب أوزارها.

وقيل: حتى تقتلوهم وتَغلِبوهم.

وقيل: حتى ينزلَ عيسى بن مريم.

قال ابن عطية: ظاهر اللفظ أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبدًا، كما

تقول: «أنا أفعلُ كذا إلى يوم القيامة»[١].

﴿ذَٰلِكَ﴾ تقديره: الأمرُ ذلك.

﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ أي: لو شاء الله لأهلك الكفار بعذابٍ من عنده، ولكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين، وأن يبلوَ بعضَ الناس ببعض.

﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ أي: جعلهم يَعرِفون منازلهم فيها، فهو من المعرفة.

وقيل: معناه طيَّبها لهم، فهو من العَرْف، وهو طِيبُ الرائحة.

وقيل: معناه شرَّفها ورفعها، فهو من الأعراف التي هي الجبال.

﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ أي: عِثارًا وهَلاكًا.

وانتصابه على المصدرية، والعامل فيه فعلٌ مضمر[٢]، وعلى هذا الفعل عُطِف قوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾.

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا﴾ أي: لكفار قريش أمثالُ عاقبة الكفار المتقدِّمين من الدمار والهلاك.

﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: وليُّهم وناصرهم، وكذلك: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ معناه: لا ناصر لهم.

ولا يصح[٣] أن يكون المولى هنا بمعنى السيد؛ لأن الله مولى المؤمنين والكافرين بهذا المعنى.

---

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٦٤١).

(٢) أي: أتعس الذين كفروا تعسًا. الكشاف (١٤/ ٣٣٠).

(٣) في أ، هـ: «ولا يصلح».

ولا تعارض بين هذه الآية وبين قوله: و﴿رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]؛ لأن معنى المولى مختلِفٌ في الموضعين؛ فمعنى ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾: ربُّهم، وهذا على العموم في جميع الخلق، بخلاف قوله: ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فإنه خاصٌّ بالمؤمنين؛ لأنه بمعنى الوليِّ والناصر.

[﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾].

﴿وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ عبارةٌ عن كثرة أكلهم، أو عن غفلتهم عن النظر كالبهائم.

﴿مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ يعني: مكة، وخروجه ﷺ منها وقت الهجرة.

ونَسب الإخراج إلى القرية، والمراد أهلها؛ لأنهم آذوه حتى خرج.

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ الضمير للقرى المتقدِّمة المذكورة في قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ وجمَعه حمْلًا على المعنى، والمراد: أهلكنا أهلها.

﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي: على حجة، ويعني به: النبيَّ ﷺ، كما يعني قريشًا بقوله: ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾.

اللفظ أعم من ذلك.

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ ذكر في «الرعد»[١].

﴿غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ أي: غيرِ متغيِّر.

﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ تقديره: أَمَثَلُ أهلِ الجنة المذكورة كمَن هو خالدٌ في النار؟، فحَذف هذا التقديرَ المرادَ به النفيُ، وإنما حَذفه؛ لدلالة التقدير المتقدِّم، وهو قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ﴾.

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ يعني: المنافقين، وجاء «يستمعون» بلفظ الجمع؛ رعْيًا لمعنى ﴿مَن﴾[٢].

﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ روي أنه عبد الله بن مسعود.

﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ كانوا يقولون ذلك على أحد وجهين:

إمَّا احتقارًا لكلامه، كأنهم قالوا: أيُّ فائدة فيه.

وإما جهلًا ونسيانًا؛ لأنهم كانوا وقتَ كلامه مُعْرِضين عنه.

و﴿ءَانِفًا﴾ معناه: الساعةَ الماضيةَ قريبًا، وأصله: مِن استأنفتُ الشيءَ: إذا ابتدأتَه.

---

(١) انظر (٢/ ٦٨٦).

(٢) كذا وردت هذه العبارة في جميع النسخ، وهو سهوٌ، فإن آية سورة القتال: ﴿يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ بالإفراد، وليست بالجمع، وإنما وردت بالجمع في سورة يونس فقط، وآية سورة القتال مثل آية الأنعام: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾، وقال المؤلف هناك في تفسيرها: «وأفرد ﴿يَسْتَمِعُ﴾ وهو فعلُ جماعةٍ؛ حَمْلًا على لفظ «مَن»، وعلَّق في طرة نسخة ب على هذا الموضع تعليقًا فيه أدبٌ مع المؤلف فيقول: «هذا والله أعلم مما غلط فيه المؤلف رحمه الله؛ فإنه ﴿يَسْتَمِعُ﴾ بلفظ المفرد لا الجمع؛ رعْيًا للفظ «مَن» لا لمعناه، والكمال لله تعالى، وهذا من سهو المؤلف، وحاشاه أن يجهل مثل هذا».

﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ يعني: المؤمنين.

والضمير في ﴿زَادَهُمْ﴾:

لله تعالى.

أو للكلام الذي قال فيه المنافقون: ﴿مَاذَا قَالَ آنِفًا﴾.

وقيل: يعني بـ ﴿الَّذِينَ اهْتَدَوْا﴾ قومًا من النصارى آمنوا بمحمد ﷺ، فاهتداؤهم: هو إيمانهم بعيسى، وزيادة الهدى: إسلامهم.

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ الضمير للمنافقين، والمعنى: هل ينتظرون[1] إلَّا الساعةَ؛ لأنها قريبة.

﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ أي: علاماتها، والذي كان قد جاء من ذلك: مبعث محمد ﷺ؛ لأنه قال: «أنا من أشراط الساعة»[2]، و«بعثت أنا والساعة كهاتين»[3].

﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾ أي: كيف لهم الذكرى إذا جاءتهم الساعة بغتة؛ فلا يقدرون على عمل ولا تنفعهم التوبة؟

ففاعل ﴿جَاءَتْهُمْ﴾: الساعة، و﴿ذِكْرَاهُمْ﴾ مبتدأ، وخبره الاستفهام المتقدِّم، والمراد به: الاستبعاد.

---

(١) في د: «ينظرون».

(٢) لم أقف عليه بهذا اللفظ، وفي مسند الإمام أحمد (٢١٩٩٢): «ستٌّ من أشراط الساعة: موتي..» الحديثَ.

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠).

﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ أي: دُمْ على العلم بذلك.

واستدلَّ بعضهم بهذه الآية على أن النظر[1] والعلم قبل العمل؛ لأنه قدَّم قوله: ﴿فَٱعْلَمْ﴾ على قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ﴾ قيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: تصرُّفكم في الدنيا، ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾: إقامتكم في القبور.

وقيل: ﴿مُتَقَلَّبَكُمْ﴾: تصرفكم في اليقَظة، ﴿وَمَثْوَىٰكُمْ﴾: منامكم.

* * *

(١) في أ، د، هـ: «على النظرِ».

[﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾].

﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ كان المؤمنون يقولون ذلك على وجه الحرص على نزول القرآن، والرغبة فيه؛ لأنهم كانوا يفرحون به، ويستوحشون من إبطائه.

﴿مُّحْكَمَةٌ﴾ يحتمل أن يريد بالمحكمة:

ليس فيها منسوخ.

أو يريد متقنةً.

وقرأ ابن مسعود: «سورة مُحْدَثة».

﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ يعني: المنافقين، ونظَرُهم ذلك من شدَّة الخوف من القتال؛ لأن نظَر الخائف قريبٌ من نظر المغشّي عليه.

﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أنه بمعنى: أحق، وخبره على هذا: ﴿طَاعَةٌ﴾، والمعنى: أن الطاعةَ والقول المعروف أولى لهم وأحقُّ.

والآخر: أن ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ كلمةٌ معناها: التهديد والدعاء عليهم كقولك: «ويل لهم»، ومنه: ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [القيامة: ٣٤].

فيُوقف على ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ على هذا القول، ويكون ﴿طَاعَةٌ﴾ ابتداء كلام، تقديره:

طاعةٌ وقولٌ معروف أمثلُ.

أو المطلوبُ منهم طاعة وقول معروف.

أو قولهم لك يا محمد طاعةٌ وقول معروف بألسنتهم دون قلوبهم.

﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾ أسند العزم إلى الأمر مجازًا، كقولك: نهاره صائمٌ وليله قائمٌ.

﴿صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يحتمل أن يريد:

صِدْقَ اللسان.

أو صدق العزم والنية، وهو أظهر.

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ هذا خطابٌ للمنافقين المذكورين، خرج من الغَيْبة إلى الخطاب؛ ليكون أبلغ في التوبيخ.

والمعنى: هل يُتوقَّع منكم الإفسادُ في الأرض وقطع الأرحام إن توليتم؟[١]

ومعنى ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾: صرتم ولاةً على الناس وصار الأمر لكم، وعلى هذا قيل: إنها نزلت في بني أمية.

وقيل: معناه: أعرضتم عن الإسلام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾ نزلت في المنافقين الذين نافقوا بعد إسلامهم.

وقيل: نزلت في قوم من اليهود، كانوا قد عرفوا نبوة محمد ﷺ من التوراة، ثم كفروا به.

﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾ أي: زيَّن لهم ورجَّاهم أمانيَهم.

﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: مدَّ لهم في الأماني والآمال.

والفاعل: هو الشيطان.

وقيل: الله تعالى.

والأول أظهر؛ لتناسب الضميرين الفاعِلَين، في ﴿سَوَّلَ﴾ و﴿أَمْلَىٰ﴾.

﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ قال ذلك اليهود للمنافقين.

و﴿بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾: يعنون به: مخالفةَ رسول الله ﷺ ومحاربتَه.

﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: كيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة

---

(١) الاستفهام للتقرير، والمعنى: فالمتوقع منكم الإفساد.

يعني: ملكَ الموت ومن معه.

والفاء رابطة للكلام مع ما قبله، **والمعنى**: هذا جزَعهم مِن ذكر القتال؛ فكيف يكون حالهم حين[1] الموت؟

﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ﴾ ضمير الفاعل للملائكة.

وقيل: إنه للكفار؛ أي: يضربون وجوه أنفسهم، وذلك ضعيف.

* * *

(١) في أ، هـ: «عند».

[﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ ۚ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُم﴾].

﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الآيةَ؛ معناها: أظن المنافقون أن لن يفضحهم الله؟

والضِّغْن: الحقد، ويراد به هنا: النفاق والبُغض في الإسلام وأهله.

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ﴾ أي: لو نشاء لأريناك المنافقين بأعيانهم حتى تعرفهم بعلاماتهم، ولكن الله ستَر عليهم؛ إبقاءً عليهم وعلى أقاربهم من المسلمين.

وروي أن الله لم يذكر له واحدًا منهم باسمه.

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ معنى ﴿لَحْنِ الْقَوْلِ﴾: مَقصِده وطريقته.

وقيل: اللحن: هو الخفيُّ المعنى، كالكناية والتعريض.

والمعنى: أنه ﷺ سيعرفهم من دلائل كلامهم، وإن لم يعرِّفه الله بهم على التعيين.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي: نختبركم.

﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ﴾ أي: نعلَمه علمًا ظاهرًا في الوجود تقوم به الحجة عليكم؛ وقد علِم الله الأشياءَ قبل كونها، ولكنه أراد إقامة الحجة على عباده؛ بما يصدر منهم.

وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى، وقال: «اللهم لا تَبتلِنا؛ فإنك إن ابتليتنا فضحتنا وهتكت أستارنا».

﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾ أي: خالفوه وعادوه.

ونزلت الآية في المنافقين.

وقيل: في اليهود.

﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ يَحتمل أربعة معان:

أحدها: لا تبطلوا أعمالكم بالكفر بعد الإيمان.

والثاني: لا تبطلوا حسناتكم بفعل السيئات، ذكره الزمخشري[١]، وهذا على مذهب المعتزلة، خلافًا للأشعرية؛ فإن مذهبهم أن السيئات لا تُبطِل الحسنات.

والثالث: لا تبطلوا أعمالكم بالرياء والعُجْب.

---

(١) الكشاف (١٤/٣٥٨).

والرابع: لا تبطلوا أعمالكم بأن تقطعوها قبل تمامها.

وعلى هذا أخذ الفقهاءُ الآية، ولذلك يستدلون على أن من ابتدأ نافلةً لم يجز له قطعها، وهذا أبعد هذه المعاني، والأول أظهرها[١]؛ لقوله قبل ذلك في الكفار أو المنافقين: ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾، فكأنه يقول: يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا أعمالكم مثلَ هؤلاء الذين أحبط الله أعمالهم بكفرهم وصدِّهم عن سبيل الله ومشاقتهم الرسولَ.

﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ هذا قطعٌ بأن من مات على الكفر لا يغفر الله له، وقد أجمع المسلمون على ذلك.

﴿فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾ أي: لا تضعفوا عن مقاتلة الكفار وتبتدئوهم بطلب الصلح، فهو كقوله: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: لن يَنقصكم أجورَ أعمالكم، يقال: وَتَرْتُ الرجلَ أَتِرُه: إذا نَقصتَه شيئًا، أو أذهبتَ له متاعًا.

﴿وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ﴾ أي: لا يسألكم جميعها، إنما يسألكم في الزكاة ما يَخِفُّ عليكم، مثل ربع العشر، وذلك خفيف.

﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟﴾ معنى ﴿يُحْفِكُمْ﴾: يُلِحُّ عليكم، والإحفاء: أشد السؤال، و﴿تَبْخَلُوا۟﴾ جواب الشرط.

﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ﴾ الفاعل: الله تعالى، أو البخل.

والمعنى: يخرج ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق.

---

(١) في أ، ج، هـ: «أظهر».

﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منصوبٌ على التخصيص، أو منادى.

﴿لِتُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يعني: الجهادَ أو الزكاة.

﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ أي: إنما ضَرر بخلِه على نفسه؛ فكأنه بَخِلَ على نفسه بالثواب الذي يستحقُّه بالإنفاق.

﴿وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ﴾ أي: يأتِ[١] بقومٍ على خلاف صفتكم، بل راغبين في الإنفاق في سبيل الله.

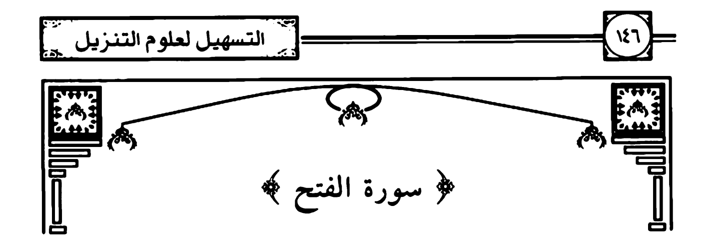
فقيل: إن هذا الخطاب لقريش، والقوم غيرهم: الأنصار؛ وهذا ضعيف لأن الآية مدنية، نزلت والأنصار حاضرون.

وقيل: الخطاب لكلِّ مَن كان حينئذ بالمدينة، والقوم: هم أهل اليمن، وقيل: فارس.

***

---

(١) في ب، ج، د، هـ: «يأتي».



﴿ سورة الفتح ﴾

نزلت هذه السورة حين انصرف رسول الله ﷺ من الحديبيَة، لما أراد أن يعتمر بمكة فصدَّه المشركون، وقال ﷺ لعمر رضي الله عنه وهما راجعان إلى المدينة: «لقد نزلت علي سورة هي أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها»(١).

[﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٣)، ومسلم (١٧٨٦).

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ يَحتمل هذا الفتح في اللغة أن يكون:

من الفتح بمعنى الحكم؛ أي: حكَمنا لك على أعدائك.

أو من الفتح بمعنى العَطاء، كقوله: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ﴾ [فاطر: ٢].

أو من فتح البلاد.

واختُلف في المراد بهذا الفتح على أربعة أقوال:

الأول: أنه فتح مكة، وعدَه الله به قبل أن يكون، وذَكَره بلفظ الماضي؛ لتحقُّقه، وهو على هذا بمعنى فتح البلاد.

الثاني: أنه ما جرى في الحديبية من بيعة الرِّضوان، ومن الصلح الذي عقده رسول الله ﷺ مع قريش، وهو على هذا بمعنى: الحكم، أو بمعنى العطاء.

ويدل على صحة هذا القول: أنه لما وقع صلح الحديبية شقَّ ذلك على بعض المسلمين؛ لشروطٍ كانت فيه، حتى أنزل الله هذه السورة، وتبيَّن أن ذلك الصلحَ له عاقبةٌ محمودة، وهذا هو الأرجح؛ لأنه روي أنها لما نزلت قال بعض الناس: ما هذا الفتح وقد صدَّنا المشركون عن البيت؟ فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ فقال: «بل هو أعظم الفتوح، قد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالرَّاح، ورغِبوا إليكم في الأمان»[1].

الثالث: أنه ما أصاب المسلمون بعد الحديبية من الفتوح، كفتح خيبر وغيرها.

---

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٤/ ١٦٠).

الرابع: أنه الهداية إلى الإسلام، ودليل هذا القول قوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ فجعل الفتح علةً للمغفرة، ولا حجة في ذلك؛ إذ يُتصوَّرُ في الجهاد وغيره أن يكون علةً للمغفرة أيضًا، أو تكون اللام للصيرورة والعاقبة، لا للتعليل؛ فيكون المعنى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ①﴾ فكان عاقبة أمرك أن جمع الله لك بين سعادة الدنيا والآخرة؛ بأن غفر لك، وأتمَّ نعمته عليك، وهداك ونصَرك.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي: السكون والطُّمَأنينة، يعني: سكونَهم في صلح الحديبية وتسليمَهم لفعل رسول الله ﷺ.

وقيل: معناه الرحمة.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ معناه: أنهم ظنوا أن الله يخذل المؤمنين، فقالوا: لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدًا.

وقيل: معناه: أنهم لا يعرفون الله بصفاته، فذلك هو ظن السَّوء به.

والأول أظهر؛ بدليل ما بعده.

﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ يَحتمل أن يكون: خبرًا، أو دعاءً.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ أي: تشهدُ على أمتك.

﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ أي: تعظِّموه.

وقيل: تنصروه.

وقرئ: «تُعَزِّزوه» بزاءين منقوطتين.

والضمير في ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾: للنبي ﷺ، وفي ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾: لله تعالى.

وقيل: الثلاثة لله.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ هذا تشريفٌ للنبي ﷺ؛ حيث جعل مبايعته بمنزلة مبايعة الله، ثم أكَّد هذا المعنى بقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك على وجه التخيُّل والتمثيل، يريد: أن يد رسول الله ﷺ التي تعلو أيدي المبايعين له هي يد الله في المعنى، وإن لم تكن كذلك في الحقيقة، وإنما المراد أنَّ عقْدَ ميثاق البيعة مع الرسول ﷺ، كعقدهِ مع الله، كقوله: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وتأوَّل المتأوِّلون ذلك بأن يد الله معناها: النعمة أو[1] القوة، وهذا بعيد هنا[2].

ونزلت الآيةُ في بيعة الرضوان تحت الشجرة وسنذكرها بعدُ.

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾ يعني: أنَّ ضررَ نكْثِه على نفسه.

ويريد بالنكث هنا: نَقْضَ البيعة.

---

(١) في ب، د: «و».

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله: «وذلك على وجه التخيُّل والتمثيل» إلخ، لو قال: على وجه التخييل والتمثيل لكان أولى، وقد أحسن المؤلف في ترجيح هذا الرأي، وتنظير الآية بقوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾، وأحسن في رده قول المتأولين اليد بالنعمة، وما رجحه هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله، والآية مع هذا تدل على إثبات اليد لله تعالى.

[﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾].

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ الآية؛ سماهم بالمخلَّفين؛ لأنهم تخلفوا عن غزوة الحديبية.

والأعراب: هم أهل البوادي من العرب، لما خرج رسول الله ﷺ إلى مكة ليعتمر، رأوا أنه يستقبل عدوًا كثيرًا من قريش وغيرهم، فقعدوا عن الخروج معه، ولم يكن إيمانهم متمكّنًا، فظنوا أنه لا يرجع هو ولا المؤمنون من ذلك السفر، ففضحهم الله في هذه السورة، وأعلم رسولَ الله ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، وأعلمه أنهم كاذبون في اعتذارهم.

﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يحتمل أن يريد: قولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ لأنهم كذبوا في ذلك.

أو قولهم: ﴿فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ﴾؛ لأنهم قالوا ذلك رياءً من غير توبة ولا صدق.

﴿قَوۡمَۢا بُورٗا﴾ أي: هالكين؛ مِن البَوار، وهو الهلاك، ويعني به: الهلاكَ في الدين.

﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ﴾ الآيةَ؛ أخبر الله نبيه ﷺ أن المخلَّفين عن غزوة الحديبية يريدون الخروج معه إذا خرجوا إلى غزوة أخرى، وهي غزوة خيبر، فأمره الله بمنعهم من ذلك، وأن يقول لهم: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ﴾ أي: يريدون أن يبدلوا وعْدَ الله لأهل غزوة الحديبية، وذلك أن الله وعدَهم أن يعوِّضهم من غنيمة مكة غنيمةَ خيبر وفتْحَها، وأن يكون ذلك مختصًا بهم دون غيرهم، وأراد المخلفون أن يشاركوهم في ذلك، فهذا هو ما أرادوا من التبديل.

وقيل: ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ قوله: ﴿فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ﴾ [التوبة: ٨٣]، وهذا ضعيف؛ لأن هذه الآية نزلت في رجوع رسول الله ﷺ من تبوك بعد الحديبية بمدَّة.

﴿كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ﴾ يريد: وعْدَه باختصاصه أهلَ الحديبية بغنائم خيبر.

﴿فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ﴾ معناه: يَعِزُّ عليكم أن نُصِيبَ معكم مالًا وغنيمة.

و﴿بَلۡ﴾ هنا: للإضراب عن الكلام المتقدِّم، وهو قوله: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ﴾، فمعناها: ردٌّ أن يكون الله حكَم بأن لا يتبعوهم.

وأما ﴿بَلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ فهي إضرابٌ

عن وصف المؤمنين بالحسد، وإثباتٌ لوصف المخلَّفين بالجهل.

﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ اختُلِف في هؤلاء القوم على أربعة أقوال:

الأول: أنهم هوازن ومَن حارب النبيَّ ﷺ في غزوة حُنين.

والثاني: أنهم الروم؛ إذ دعا رسول الله ﷺ الناسَ إلى قتالهم في غزوة تبوك.

والثالث: أنهم أهل الردَّة من بني حَنيفة وغيرهم الذين قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

والرابع: أنهم الفرس.

ويتقوى القول الأول والثاني: بأن ذلك ظهَر في حياة النبي ﷺ.

وقوَّى المنذر بن سعيد القول الثالث؛ بأن الله جعل حُكْمهم القتل أو الإسلام ولم يذكر الجزية، قال: وهذا لا يوجد إلَّا في أهل الردَّة.

قلت: وكذلك هو موجودٌ في كفار العرب؛ إذ لا تؤخذ منهم الجزية فيقوِّي ذلك أنهم هوازن.

﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ عطفٌ على ﴿تُقَٰتِلُونَهُمْ﴾.

وقال ابن عطية: هو مستأنَفٌ[1].

﴿وَإِن تَتَوَلَّوْاْ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ يريد: في غزوة الحديبية.

---

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٦٧٦).

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ﴾ الآيَةَ؛ معناها: أن الله تعالى عذَر الأعمى والأعرج والمريض في تركهم للجهاد؛ بسبب أعذارهم.

[﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾].

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل النارَ إن شاء الله أحدٌ من أهل الشجرة الذين بايعوا تحتها**»[١].

وفي الحديث أنهم كانوا ألفًا وأربع مئة[٢]، وقيل: ألفًا وخمس مئة.

وسبب هذه البيعة: أن رسول الله ﷺ لما بلغ الحديبية، وهي موضعٌ على

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٧٧٨)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٢٦٤)

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٤٠)، ومسلم (١٨٥٦).

نحو عشرة أميال من مكة، أرسل عثمانَ بن عفان رضي الله عنه رسولًا إلى أهل مكة، يخبرهم أنه إنما جاء ليعتمر، وأنه لا يريد حربًا، فلما وصل إليهم عثمان حبَسه أقاربه؛ كرامةً له، فصرخ صارخ أن عثمان قد قُتِل، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة على القتال وأن لا يفِرَّ أحد، وقيل: بايعوه على الموت، ثم جاء عثمان بعد ذلك سالمًا، وانعقد الصلح بين رسول الله ﷺ وأهل مكة؛ على أن يرجع ذلك العام ويعتمرَ في العام المقبل.

والشجرة المذكورة: كانت سَمُرَةً هنالك، ذهبت بعد سنين، فمرَّ عمر بن الخطاب بالموضع في خلافته، فاختلف الصحابة في موضعها.

﴿فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: من صدق الإيمان وصدق العزم على ما بايعوا عليه.

وقيل: من كراهة البيعة على الموت وهذا باطل؛ لأنه ذمٌّ للصحابة.

وقد ذكرنا ﴿ٱلسَّكِينَةَ﴾[١].

﴿وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ يعني: فتح خيبر.

وقيل: فتح مكة.

والأول أشهر؛ أي: جعل الله ذلك ثوابًا لهم على بيعة الرضوان، زيادةً إلى ثواب الآخرة.

وأما المغانم الكثيرة المذكورة أوَّلًا: فهي غنائم خيبر، وهي المعطوفة على الفتح القريب.

---

(١) في أول السورة.

وأما المغانم الكثيرة التي وعدهم الله -وهي المذكورة ثانيًا- : فهي كل ما يَغنَمه المسلمون إلى يوم القيامة.

والإشارة بقوله: ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾ إلى خيبر.

وقيل: إن المغانم التي وعدهم: مغانم خيبر، والإشارة بـ ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إلى صلح الحديبية.

﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ﴾ أي: كفَّ أهلَ مكة عن قتالكم في الحديبية.

وقيل: كفَّ اليهود وغيرهم عن الإضرار بنسائكم وذرِّيتكم بينما[1] خرجتم إلى الحديبية.

﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: تكون هذه الفِعْلة -وهي كفُّ أيدي الناس عنكم- آيةً للمؤمنين، يستدلُّون بها على النصر.

واللام تتعلَّق بفعل محذوفٍ، تقديره: فعل الله ذلك لتكون آيةً للمؤمنين.

﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾ يعني: فتحَ مكة بعد ذلك[2].

وقيل: فتحَ بلاد فارس والروم.

وقيل: مغانم هوازن في حنين.

والمعنى: لم تقدروا أنتم عليها، وقد أحاط الله بها بقدرته ووهبها لكم.

وإعراب ﴿أُخْرَىٰ﴾:

معطوفٌ على ﴿فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ﴾.

---

(١) في د: «حين».

(٢) قوله: «بعد ذلك» زيادة من أ، هـ.

أو مفعولٌ بفعل مضمر تقديره: أعطاكم أخرى.

أو مبتدأ.

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: أهل مكة.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ أي: عادتَه.

والإشارة: إلى يوم بدر.

وقيل: الإشارة إلى نَصْرِ الأنبياء قديمًا.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾ روي في سببها أن جماعة من فتيان قريش خرجوا إلى الحديبية، ليصيبوا من عسكر رسول الله ﷺ، فبعث إليهم رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في جماعةٍ من المسلمين فهزموهم وأسرُوا منهم قومًا، وساقوهم إلى رسول الله ﷺ فأطلقهم.

فكفُّ أيدي الكفار: هو أن هُزِموا وأُسِروا.

وكفُّ أيدي المؤمنين عن الكفار: هو إطلاقهم من الأسر، وسلامتهم من القتل.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: من بعد ما أخذتموهم أُسارى.

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: أهل مكة.

﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ يعني: أنهم منعوهم عن العمرة بالمسجد الحرام عامَ الحديبية.

﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ الهدْيُ: ما يُهدَى إلى البيت من الأنعام،

وكان رسول الله ﷺ قد ساق حينئذ مئة بَدنةٍ، وقيل: سبعين؛ ليُهْدِيَها.

والمعكوف: المحبوس.

و﴿مَحِلَّهُۥ﴾: موضع نحره؛ يعني: مكة والبيت.

وإعراب ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾ عطفٌ على الضمير المفعول في ﴿صَدُّوكُمْ﴾، و﴿مَعْكُوفًا﴾ حالٌ من ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾، ﴿أَن يَبْلُغَ﴾ مفعولٌ بالعَكْفِ.

فالمعنى: صدُّوكم عن المسجد الحرام، وصدُّوا الهدْيَ عن أن يبلغ محِلَّه.

والعكف المذكور يعني به:

منْعَ المشركين للهدي عن بلوغ مكة.

أو حَبْسَ المسلمين للهدي بينما ينظرون في أمرهم.

﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ الآيةَ؛ تعليلٌ لصرف الله المؤمنين عن استئصال أهل مكة بالقتل، وذلك أنه كان بمكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات يُخْفون إيمانهم، فلو سلَّط الله المسلمين على أهل مكة، لقتلوا أولئك المؤمنين وهم لا يعرفونهم، ولكن الله كفَّهم عنهم؛ رحمةً بالمؤمنين الذين كانوا بين أظهرهم.

وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوفٌ، تقديره: لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لسلَّطناكم عليهم.

﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ في موضع بدل من ﴿رِجَالٌ﴾ و﴿نِسَآءٌ﴾.

أو بدلٌ من الضمير المفعول في ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾.

والوطء هنا: الإهلاك بالسيف وغيره.

﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾ أي: تصيبكم من قتلهم مشقَّةٌ وكراهة.

واختُلف هل يعني:

الإثمَ في قتلهم؟

أو الدية؟

أو الكفَّارة؟

أو الملامة؟

أو عيب الكفار لهم؛ بأن يقولوا: قتلوا أهل دينهم؟

أو تألُّمَ نفوسهم من قتل المؤمنين؟، وهذا أظهر؛ لأن قتل المؤمن الذي لا يُعلَم إيمانه وهو بين أهل الحرب لا إثم فيه ولا دية، ولا ملامة، ولا عيب.

﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ يعني: رحمته[1] للمؤمنين الذين كانوا بين أظهر الكفار، بأنْ كفَّ سيوف المسلمين عن الكفار من أجلهم.

أو رحمته لمن يشاء من الكفار؛ بأن يسلموا بعد ذلك.

واللام تتعلَّق بمحذوفٍ يدلُّ عليه سياق الكلام، تقديره: كان كفُّ القتل عن أهل مكة ليدخل الله في رحمته من يشاء.

﴿لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ معنى ﴿تَزَيَّلُوا۟﴾: تميَّزوا عن الكفار،

---

(١) في ج، د: «رحمة».

والضمير للمؤمنين المستُورِين الإيمان؛ أي: لو انفصلوا عن الكفار لعذَّبنا الكفار.

فقوله: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ الثانية، وجواب الأولى محذوفٌ كما ذكرنا.

ويحتمل أن يكون ﴿لَعَذَّبْنَا﴾ جواب ﴿لَوْلَا﴾[١] الأولى، وكُرِّرت «لو» الثانية تأكيدًا.

﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ يعني: أَنَفَة الكفر[٢]، وهي منعُهم للنبي ﷺ والمسلمين عن العمرة، ومنعُهم من أن يُكتَب في كتاب الصلح «بسم الله الرحمن الرحيم»، ومنعهم من أن يُكتب «محمد رسول الله»، وقولهم: «لو نعلم أنك رسول الله لاتبعناك[٣]، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك».

والعامل في ﴿إِذْ جَعَلَ﴾:

محذوفٌ تقديره: اذكر.

أو قوله: ﴿لَعَذَّبْنَا﴾.

والسكينة: هي سكون المسلمين ووقارهم حين جرى ذلك.

﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال الجمهور: هي «لا إله إلا الله»، وقد روي

---

(١) في أ، ب، ج، د: «لو».

(٢) في ب، ج: «الكفار».

(٣) في أ، ب، ج: «لتابعناك».

ذلك عن رسول الله ﷺ[1].

وقيل: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله».

وقيل: «لا إله إلا الله، والله أكبر».

وهذه كلها متقاربة.

وقيل: هي «بسم الله الرحمن الرحيم» التي أبى الكفار أن تُكتب.

﴿وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهۡلَهَاۚ﴾ أي: كانوا كذلك في علم الله وسابق قضائه لهم.

وقيل: أحقَّ بها من اليهود والنصارى.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢١٢٥٤)، والترمذي (٣٢٦٥).

[﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾].

﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ كان رسول الله ﷺ قد رأى في منامه عند خروجه إلى العمرة أنه يطوف بالبيت هو وأصحابه، بعضهم محلِّقون وبعضهم مقصِّرون، وروي أنه أتاه ملَكٌ في النوم فقال له: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ الآيةَ، فأخبر الناس برؤياه ذلك، وظنوا أن ذلك يكون في ذلك العام، فلما صدَّه المشركون عن العمرة عام الحديبية قال المنافقون: أين الرؤيا؟، ووقع في نفوس المسلمين شيءٌ من ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ أي: تلك الرؤيا صادقة، وسيخرج تأويلها بعد ذلك، فاطمأنت قلوب المؤمنين، وخرج رسول الله ﷺ في العام المقبل، هو وأصحابه فدخلوا مكة واعتمروا، وأقاموا بمكة ثلاثة أيام، وظهر صدق رؤياه، وتلك عُمرة القضية، ثم فتَح مكة بعد ذلك، ثم حج هو وأصحابه.

و﴿صَدَقَ﴾ في هذا الموضع يتعدَّى إلى مفعولين.

و ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ يتعلَّق:

بـ ﴿صَدَقَ﴾.

أو بـ ﴿ٱلرُّءۡيَا﴾ على أن يكون حالًا منها.

﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ لما كان الاستثناء بمشيئة الله يقتضي الشك في الأمر، وذلك محالٌ على الله؛ اختُلف في هذا الاستثناء على خمسة أقوال:

الأول: أنه استثناءٌ قاله الملَك الذي رآه النبي ﷺ في المنام، فحكَى الله مقالته كما وقعت.

والثاني: أنه تأديبٌ من الله لعباده؛ ليقولوا: «إن شاء الله» في كل أمرٍ مستقبل.

والثالث: أنه استثناءٌ بالنظر إلى كل إنسان على حِدَته؛ لأنه يمكن أن يَتِمَّ له الوعد، أو يموت أو يمرض؛ فلا يتمُّ له.

والرابع: أن الاستثناء راجع إلى قوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾، لا لدخول المسجد الحرام.

والخامس: أن «إن شاء الله» بمعنى: «إذْ[1] شاء الله».

﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ﴾ الحِلاق والتقصير من سنة الحج والعمرة، والحلاق أفضل من التقصير، لقول رسول الله ﷺ: «رحم الله المحلقين» ثلاثًا، ثم قال في المرة الآخرة: «والمقصرين»[2].

---

(١) في أ، ج، د: «إذا» والمثبت موافق لما في المحرر الوجيز (٧/ ٦٨٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٧٢٧)، ومسلم (١٣٠١).

﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾ يريد: ما قدّره من ظهور الإسلام في تلك المدَّة؛ فإنه لما انعقد الصلح، وارتفعت الحرب رغب الناس في الإسلام، فكان رسول الله ﷺ في غزوة الحديبية في ألف وخمس مئة، وقيل: ألف وأربع مئة، وغزا غزوة الفتح بعدها بعامين ومعه عشرة آلاف.

﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ قيل: يعني: فتح خيبر.

وقيل: بيعة الرضوان.

وقيل: صلح الحديبية، وهذا هو الأصح؛ لأن عمر قال لرسول الله ﷺ: أوفتحٌ[1] هو يا رسول الله؟ قال: «نعم»[2].

وقيل: هو فتح مكة، وهذا ضعيف؛ لأن معنى قوله: ﴿مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ قبل دخول المسجد الحرام، وإنما كان فتح مكة بعد ذلك، فإن الحديبية كانت عام ستة من الهجرة وعمرة القضية عام سبعة، وفتح مكة عام ثمانية.

﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ذكر في «براءة»[3].

﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ أي: شاهدًا بأن محمدًا رسول الله.

أو شاهدًا بإظهار دينه.

﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ يعني: جميع أصحابه.

وقيل: من شهد معه الحديبية.

---

(١) في د: «أفتح».
(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥).
(٣) انظر (٢/ ٤٨٩).

وإعراب ﴿ٱلَّذِينَ﴾ معطوفٌ على ﴿مُّحَمَّدٌ﴾، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ، و﴿أَشِدَّآءُ﴾ خبرٌ عن الجميع.

وقيل: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مبتدأ، و﴿أَشِدَّآءُ﴾ خبره، و﴿رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ خبر ﴿مُّحَمَّدٌ﴾، ورجح ابن عطية هذا(١).

والأول عندي أرجح؛ لأن الوصف بالشدة والرحمة يشمل النبي ﷺ وأصحابه، وأما على ما اختاره ابن عطية؛ فيكون الوصف بالشدة والرحمة مختصًا بالصحابة دون النبي ﷺ، وما أحقَّ النبيَّ ﷺ بالوصف بذلك؛ لأن الله قال فيه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقال له: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣] فهذا هو الشدة على الكفار والرحمة بالمؤمنين.

﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم﴾ السيما: العلامة، وفيه ستة أقوال:

الأول: أنه الأثر الذي يحدث في جبهة المصلي من كثرة السجود.

الثاني: أنه أثر التراب في الوجه.

الثالث: أنه صُفْرة الوجه من السهر والعبادة.

الرابع: حُسْن الوجه؛ لما ورد في الحديث: «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار»(٢) وهذا الحديث غير صحيح، بل وقع فيه غلطٌ من

---

(١) المحرر الوجيز (٧/ ٦٨٨-٦٨٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه (١٣٣٣)، وقال ابن عدي في الكامل (٢/ ٣٠٥): «وبلغني عن محمد ابن عبد الله بن نمير أنه ذكر له هذا الحديث عن ثابت [ابن موسى الزاهد] فقال: باطل، شُبِّه على ثابت، وذلك أن شريك كان مزَّاحا، وكان ثابت رجلا صالحا فيشتبه أن يكون =

الراوي، فرفعه إلى النبي ﷺ وهو غير مرويٍّ عنه.

الخامس: أنه الخشوع.

السادس: أن ذلك يكون في الآخرة، يجعل الله لهم نورًا من أثر السجود كما يجعل غُرَّةً من الوضوء، وهذا بعيد؛ لأن قوله: ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ وصفُ حالهم في الدنيا، فيكون[1] ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ كذلك.

والأول هو الأظهر، وقد كان بوجه علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وعلي بن عبد الله بن العباس أثرٌ ظاهر من كثرة السجود.

﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ أي: وصفُهم فيها، وتمَّ الكلام هنا، ثم ابتدأ قوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ﴾.

وقيل: إن ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ على ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ ثم ابتدأ قوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ وتقديره: هم كزرعٍ.

والأول أظهر؛ ليكون وصفهم في التوراة بما تقدَّم من الأوصاف الحسان وتمثيلهم في الإنجيل بالزرع المذكور بعد ذلك.

وعلى هذا: يكون ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ﴾ بمعنى التشبيه والتمثيل.

وعلى القول الآخر: يكون المثَل بمعنى الوصف كـ ﴿مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾.

= ثابت دخل على شريك وكان شريك يقول: الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر عن النبي ﷺ قال: فالتفت فرأى ثابتًا، فقال يمازحه: من كثر صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار، فظن ثابت لغفلته أن هذا الكلام الذي قال شريك هو من الإسناد الذي قرأه فحمله على ذلك، وإنما ذلك قول شريك والإسناد الذي قرأه متن حديث معروف».

(١) في أ، هـ: «فتكون».

﴿ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ ﴾ هذا مثلٌ ضربه الله للإسلام؛ حيث بدأ ضعيفًا، ثم قَوِيَ وظهر.

وقيل: الزرع مثَلٌ للنبي ﷺ؛ لأنه بُعِث وحده فكان كالزرع حبَّةً واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشَّطءِ، وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل، ويقال: بإسكان الطاء، وفتحها دون مد، وفتحها مع المد، وهي لغات.

﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ أي: قوَّاه، وهو من المؤازرة بمعنى المعاونة.

ويحتمل أن يكون: الفاعل الزرع، والمفعول ﴿شَطۡـَٔهُۥ﴾، أو بالعكس؛ لأن كل واحد منهما يقوِّي الآخر.

وقيل: معناه: ساواه طولًا، فالفاعل على هذا: الشطء.

ووزن ﴿ءَازَرَهُۥ﴾ أفعَله، وقيل: فاعَله.

وقرئ بقصر الهمزة على وزن فَعَلَ.

﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ أي: صار غليظًا.

﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ السُّوق: جمع ساق، أي: قام الزرع على سوقه.

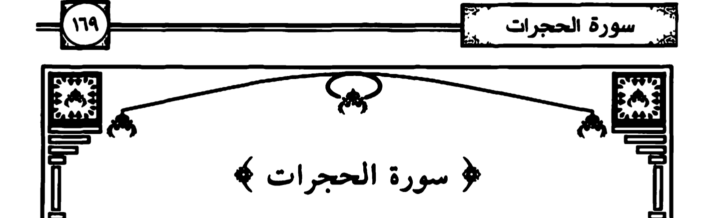
وقيل: ﴿ كَزَرۡعٍ﴾ يعني: النبي ﷺ، ﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾ بأبي بكر، ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ بعمر، ﴿فَٱسۡتَغۡلَظَ﴾ بعثمان، ﴿فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ بعليِّ بن أبي طالب.

﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَ﴾ تعليلٌ لما دلَّ عليه المثَل المتقدِّم من قوَّة المسلمين، فهو يتعلَّق بفعلٍ يدل عليه الكلام تقديره: جعَلهم الله كذلك؛ ليغيظ بهم الكفار.

وقيل: يتعلَّق بـ ﴿وَعَدَ﴾، وهو بعيد.

﴿مِنْهُم﴾ لبيان الجنس، لا للتبعيض؛ لأنه وعدٌ عمَّ جميعَهم ﷺ.

* * *



﴿ سورة الحجرات ﴾

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ ۚ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾].

﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: لا تتكلموا بأمرٍ قبل أن يتكلم هو به، ولا تقطعوا في رأيٍ إلَّا بنظره.

والثاني: لا تُقدِّموا الولاةَ بمحضره؛ فإنه يقدِّم من شاء.

والثالث: لا تتقدَّموا بين يديه إذا مشى، وهذا إنما يجري على قراءة يعقوب: ﴿لَا تَقَدَّمُوا﴾ بفتح التاء والقاف والدال.

والأول هو الأظهر؛ لأن عادة العرب الاشتراكُ في الرأي، وأن يتكلم كل أحدٍ بما يظهر له، فربما فعَل ذلك قومٌ مع النبي ﷺ، فنهاهم الله عن ذلك، ولذلك قال مجاهد: معناه: لا تَفْتَاتُوا على الله شيئًا حتى يذكره على لسان رسوله ﷺ.

وإنما قال: ﴿بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ﴾؛ لأن النبي ﷺ إنما يتكلم بوحي الله(١).

﴿لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ أمر الله المؤمنين أن يتأدَّبوا مع النبي ﷺ بهذا الأدب؛ كرامةً له وتعظيمًا.

وسببها: أن بعض جفاة الأعراب(٢) كانوا يرفعون أصواتهم.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ مفعول من أجله، تقديره: مخافةَ أن تحبط أعمالكم إذا رفعتم أصواتكم فوق صوته، أو جَهرتم له بالقول ﷺ.

فالمفعول من أجله يتعلَّق بالفعلين معًا من طريق المعنى.

وأما من طريق الإعراب:

فيتعلق عند البصريين بالثاني وهو: ﴿وَلَا تَجْهَرُوا﴾.

وعند الكوفيين بالأول وهو ﴿لَا تَرْفَعُوٓا أَصْوَٰتَكُمْ﴾.

---

(١) في ج: «بوحيٍ من الله».

(٢) في ب، هـ: «العرب».

وهذا الإحباط؛ لأن قلةَ الأدب معه ﷺ والتقصيرَ في توقيره يحبط الحسنات وإن فعله مؤمن؛ لعظيم ما وقع فيه من ذلك.

وقيل: إن الآية خطابٌ للمنافقين، وهذا ضعيف؛ لقوله في أولها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وقوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فإنه لا يصح أن يقال هذا لمنافق؛ فإنه يفعله جُرْأةً وهو يقصده.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ نزلت في أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فإنه لما نزلت الآية قبلها قال أبو بكر: «والله يا رسول الله لا كلمتك إلَّا سرًّا[1]»، وكان عمر يخفي كلامه حتى يستفهمه النبي ﷺ.

ولفظها مع ذلك على عمومه.

ومعنى ﴿ٱمْتَحَنَ﴾: اختبر، فوجدها كما يجب، مثل ما يُختبر الذهب بالنار، فيوجدُ طيِّبًا.

وقيل: معناه: درَّبها للتقوى؛ حتى صارت قوية على احتماله بغير تكلُّف.

وقيل: معناه: أخلصها اللهُ للتقوى.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿ٱلْحُجُرَٰتِ﴾: جمع حُجْرة، وهي قطعةٌ من الأرض يُحْجَر حولها بحائط، وكان لكل واحدة من أزواج النبي ﷺ حجرة.

ونزلت الآية في وفد بني تميم، قدموا على النبي ﷺ فدخلوا المسجد ودنَوْا من حجرات أزواج النبي ﷺ، فوقفوا خارجها ونادَوْا: «يا محمد!

---

(١) في ج، د: «إسرارًا».

اخرج إلينا، يا محمد! اخرج إلينا»، فكان في فعْلِهم ذلك جفاءٌ وبداوة وقلة توقير، فتربَّص رسول الله ﷺ مدة ثم خرج إليهم، فقال له واحد منهم -وهو الأقرع بن حابس-: يا محمد إنَّ مدحي زَيْنٌ وذمِّي شَيْنٌ، فقال له رسول الله ﷺ: «ويحك!، ذلك الله تعالى»(١).

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ يحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون فيهم قليلٌ ممن يعقل، ونفى العقل عن أكثرهم، لا عن جميعهم.

والآخر: أن يكون جميعهم ممن لا يعقل، وأوقع القلة موضعَ(٢) النفي.

والأول أظهر في مقتضى اللفظ، والثاني أبلغ في الذم.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يعني: خيرًا في الثواب، وفي انبساط نفس النبي ﷺ لهم، وقضائه لحوائجِهم.

وإنكارُ فِعْلهم فيه تأديبٌ لهم، وتعليمٌ لغيرهم.

﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ سببها: أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق؛ ليأخذ زكَواتهم(٣)، فروي أنه كان معاديًا لهم، فأراد إذايتهم، فرجع من بعض طريقه وكذَب عليهم، وقال للنبي ﷺ: إنهم قد منعوني الصَّدقة وطردوني وارتدوا، فغضب رسول الله ﷺ وهمَّ بغزوهم،

---

(١) أخرجه أحمد (٢٧٢٠٣)، والترمذي (٣٢٦٧)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٢٦٧).

(٢) في ب، هـ: «موقع».

(٣) في أ، د، هـ: «زكاتهم».

ونظر في ذلك، فوَرَدَ وفْدُهم منكرين لذلك.

وروي أن الوليد بن عقبة لما قَرُبَ منهم خرجوا إليه مُتَلقِّين له، فرآهم على بعدٍ ففزع منهم وظنَّ بهم الشر، وانصرف فقال ما قال.

وروي أنه بلغه أنهم قالوا: لا نعطيه صدقةً ولا نطيعه، فانصرف وقال ما قال.

فالفاسق المشار إليه في الآية: هو الوليد بن عقبة، ولم يزل بعد ذلك يفعل أفعال الفُسَّاق، حتى صلى بالناس صلاة الصبح أربع ركعات وهو سكران، ثم قال لهم: أزيدكم؟[١].

ثم هي باقيةٌ فيمن اتصف بهذه الصفة إلى آخر الدهر.

وقرئ:

﴿فَتَبَيَّنُوٓا۟﴾ من التبيين.

و﴿ تَثَبَّتُوا ﴾ بالثاء من التثبُّت[٢]، ويقوي هذه القراءة: أنها لما نزلت روي أن رسول الله ﷺ قال: «التثبُّت[٣] من الله، والعجلة من الشيطان»[٤].

واستدلَّ بهذه الآية القائلون بقَبول خبر الواحد؛ لأن دليلَ الخطاب يقتضي أن خبر غير الفاسق مقبولٌ.

قال المنذر البَلُّوطي: وهذه الآية تردُّ على من قال: إن المسلمين كلهم

---

(١) في أ، هـ زيادة: «إن شئتم».

(٢) في أ، ب، هـ: «التثبيت».

(٣) في ب، هـ: «التثبيت».

(٤) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٣٥٢) ولفظه: «التبيُّن من الله..»، وعليه؛ فليس في هذه الرواية دلالةٌ على تقوية هذه القراءة، بل فيها دلالة على تقوية القراءة الأولى.

عدول؛ لأن الله أمر بالتبين[١] قبل القَبول، فالمجهول الحالِ يُخشَى أن يكون فاسقًا.

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ في موضع المفعول من أجله، تقديره: مخافةَ أن تصيبوا قومًا بجهالة.

والإشارة إلى قتال بني المصطلق؛ لمَّا ذَكر عنهم الوليد ما ذَكر.

﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ أي: لشَقِيتم، والعنت: المشقة.

وإنما قال: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ﴾ ولم يقل: «لو أطاعكم»؛ للدلالة على أنهم كانوا يريدون استمرار طاعته ﷺ لهم، والحق خلاف ذلك، وإنما الواجب أن يطيعوه لا أن يطيعَهم، وذلك أن رأي رسول الله ﷺ خيرٌ وأصوب من رأي غيره، ولو أطاع الناسَ في رأيهم[٢] لهلَكوا، فالواجب عليهم الانقياد إليه والرجوع إلى أمره، وإلى ذلك الإشارة بقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾ الآيةَ.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾ اختُلف في سبب نزولها:

فقال الجمهور: هو ما وقع بين المسلمين وبين المتحزِّبين منهم لعبد الله ابن أبيّ بن سلول حين مرَّ به رسول الله ﷺ وهو متوجهٌ إلى زيارة سعد بن عبادة في مرضه، فقال عبد الله بن أبيٍّ للنبي ﷺ: لقد آذاني نتَنُ حمارِك، فردَّ عليه عبد الله بن رواحة وتلاحى الناس حتى وقع بين الطائفتين ضربٌ

---

(١) في ب، ج، د: «بالتبيين».

(٢) في أ، هـ: «آرائهم».

بالجريد، ويروى: بالحديد.

وقيل: سببها أن فرقتين من الأنصار وقع بينهما قتال، فأصلحه رسول الله ﷺ بعد جُهْدٍ.

ثم حُكْمها باقٍ إلى آخر الدهر.

وإنما قال: ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ ولم يقل: «اقتتلا»؛ لأن الطائفة في معنى القوم والناس، فهي في المعنى جمعٌ.

﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾ أمر الله في هذه الآية بقتال الفئة الباغية، وذلك إذا تبين أنها باغية.

فأما الفتن التي تقع بين المسلمين؛ فاختَلف العلماء فيها على قولين:

أحدهما: أنه لا يجوز النهوض في شيءٍ منها ولا القتال، وهذا مذهب سعد بن أبي وقاص، وأبي ذر، وجماعة من الصحابة ﷺ.

وحجتهم: قول رسول الله ﷺ: «قتال المسلم كفر»[1]، وأَمْرُه ﷺ بكسر السيوف في الفتن.

والقول الثاني: أن النهوض فيها واجبٌ؛ لِتَكُفَّ الطائفة الباغية، وهذا مذهب علي، وعائشة، وطلحة، والزبير، وأكثر الصحابة، وهو مذهب مالك وغيره من الفقهاء.

وحجتهم: هذه الآية.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨)، مسلم (٦٤).

فإذا فرَّعنا على القول الأول: فإن دخَل داخلٌ على مَن اعتزل الفريقين منزلَه، يريد نفسه أو ماله فعليه دفْعُه عن نفسه وإن أدَّى ذلك إلى قتله؛ لقوله ﷺ: «مَن قُتِل دون نفسه وماله فهو شهيد»[(١)].

وإذا فرَّعنا على القول الثاني: فاختُلف مع من يكون النهوض في الفتن؟

فقيل: مع السَّواد الأعظم.

وقيل: مع العلماء.

وقيل: مع مَن يَرى أن الحقَّ معه.

وحكم القتال في الفتن: أن لا يُجهَز على جريح، ولا يُطلَب هارب، ولا يُقتلَ أسيرٌ، ولا يُقسَم فيءٌ.

﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ﴾ أي: ترجعَ إلى الحق.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡ﴾ إنما ذكره بلفظ التثنية؛ لأن أقلَّ مَن يقع بينهم البغي اثنان.

وقيل: أراد بالأخوين: الأوس والخزرج.

وقرئ ﴿بين إِخْوَتِكُمْ﴾ بالتاء على الجمع، وقرئ ﴿بين إِخْوَانِكُمْ﴾ بالنون على الجمع أيضًا.

* * *

(١) أخرجه البخاري (٢٤٨٠)، مسلم (١٤١).

[﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾].

﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ نهيٌ عن السُّخرية، وهي الاستهزاء بالناس.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: لعلَّ المسخورَ منه خيرٌ من الساخر عند الله، وهذا تعليلٌ للنهي.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ﴾ لما كان القوم لا يقع إلّا على الذُّكران عطَف النساء عليهم.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يطعنْ بعضكم على بعض.

واللمز: العيب، سواءٌ كان بقولٍ أو إشارة أو غير ذلك، وسنذكر الفرق بينه وبين الهَمْز في سورة «الهمزة».

و﴿أَنفُسَكُمْ﴾ هنا بمنزلة قوله: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١][1].

﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ أي: لا يدعُ أحدٌ[2] أحدًا بلقَبٍ، والتنابز بالألقاب: التداعي بها.

---

(١) انظر (٣/٣١٨).

(٢) في د: «أحدكم».

وقد أجاز المحدِّثون أن يقال: الأعمش والأعرج ونحوه، إذا دعت إليه الضرورة، ولم يقصد النقص والاستخفاف.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ يريد بـ ﴿ٱلِٱسْمُ﴾: أن يُسمَّى الإنسانُ فاسقًا بعد أن سُمِّي مؤمنًا، وفي ذلك ثلاثة أوجه:

أحدها: استقباحُ الجمع بين الفسوق وبين الإيمان، فمعنى ذلك: أن مَن فعل شيئًا من هذه الأشياء التي نُهِي عنها فهو فاسقٌ وإن كان مؤمنًا.

والآخر: بئس ما يقوله الرجل للآخر: «يا فاسق» بعد إيمانه، كقولهم لمن أسلم من اليهود: «يا يهودي».

الثالث: أن يَجعل مَن فَسَقَ غيرَ مؤمن، وهذا على مذهب المعتزلة[1].

﴿ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ يعني: ظن السوء بالمسلمين، وأما ظنُّ الخير فهو حسَنٌ.

﴿إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ قيل: معنى الإثم هنا: الكذب لقوله ﷺ: «الظن

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قول المصنف: «الثالث: أن يُجعَل من فسق غيرَ مؤمن» إلخ، أقول: الفرق بين الوجه الثاني والثالث أن المراد بالوجه الثاني أن المراد: من أطلق على أخيه (فاسق) على وجه السب مغايظةً له لخصومة بينهما، فأما الثالث فمعناه الحكم على المسلم العاصي بأنه فاسق وليس بمؤمن، فيخرجه عن الإيمان، ويجعله في منزلة بين الإيمان والكفر، وهذا كما قال المؤلف على مذهب المعتزلة؛ فإنهم يجعلون مرتكب الكبيرة في منزلة بين المنزلتين، لا هو مؤمن، ولا هو كافر، فخالفوا أهل السنة الذين يقولون: إن مرتكب الكبيرة معه أصل الإيمان؛ فهو مؤمن ناقص الإيمان، وخالفوا الخوارج الذين يقولون: مرتكب الكبيرة كافر، ثم يتفق الخوارج والمعتزلة على حكمه في الآخرة، وهو الخلود في النار.

أكذب الحديث»[١]؛ لأنه قد لا يكون مطابقًا للأمر.

وقيل: إنما يكون إثمًا إذا تكلَّم به، وأما إذا لم يتكلَّم به فهو في فُسحةٍ؛ لأنه لا يَقدِر على دفع الخواطر.

واستدلَّ بعضهم بهذه الآية على صحة سدِّ الذرائع في الشرع؛ لأنه أمَر باجتناب كثيرٍ من الظن، وأخبر أن بعضه إثمٌ؛ فأمر باجتناب أكثرَ من الإثم؛ احترازًا من الوقوع في البعض الذي هو إثم.

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أي: لا تبحثوا عن مخبَّآت الناس.

وقرأ الحسن: ﴿تَحَسَّسُواْ﴾ بالحاء.

والتجسُّس بالجيم: في الشر، وبالحاء: في الخير.

وقيل: التجسُّس: ما كان مِن وراءَ وراءَ، والتحسُّس -بالحاء-: الدخول والاستعلام.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ المعنى: لا يذكرْ أحدكم من أخيه المسلم ما يكره لو سمعه.

والغِيبة: هي ما يَكره الإنسان ذكْرَه من خَلْقه أو خُلُقه أو دينه أو أفعاله أو غير ذلك، وفي الحديث أنه ﷺ قال: «الغيبة أن تذكر أخاك المؤمن بما يكره»، قيل: يا رسول الله وإن كان حقًّا؟ قال: «إذا قلت باطلًا فذلك البهتان».

---

(١) أخرجه البخاري (٥١٤٣)، مسلم (٢٥٦٣).

وقد رُخِّص في الغيبة في مواضع؛ منها: في التجريح في الشهادة، والرواية، والنصيحة في النكاح وشبهه، وفي التحذير من أهل الضلال.

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ شبَّه اللهُ تعالى الغيبةَ بأكْل لحم ابن آدم ميتًا، والعرب تشبِّه الغيبةَ بأكل اللحم، ثم زاد في تقبيحه أن جعَله ميتًا؛ لأن الجيفة مستقذرةٌ.

ويجوز أن يكون ﴿مَيْتًا﴾ حالًا: من الأخِ، أو من لحمِه.

وقيل: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ إخبارٌ عن حالهم بعد التَّقرير، كأنه لما قررهم: «هل يحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا؟» أجابوا فقالوا: «لا نحبُّ ذلك»، فقال لهم: «فكرهتموه»، وبَعْدَ هذا محذوفٌ تقديره: «فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي تُشبِهه»، وحُذِف هذا؛ لدلالة الكلام عليه، وعلى هذا المحذوف يُعطَف قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، قاله أبو علي الفارسي.

وقال الرُّماني: كراهةُ هذا اللحم يدعو إليها الطبع، وكراهة الغيبة يدعو إليها العقل، وهو أحقُّ أن يجاب؛ لأنه بصيرٌ عالم، والطبع أعمى جاهل.

وقال الزمخشري: في هذه الآية مبالغات كثيرة:

منها: الاستفهام الذي معناه التقرير.

ومنها: جَعْلُ ما هو في الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة.

ومنها: إسناد الفعل إلى ﴿أَحَدُكُمْ﴾، والإشعار بأن أحدًا من الأحَدِينَ لا يحب ذلك.

ومنها: أنْ لم يَقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله ميتًا.

ومنها: أنْ لم يَقتصر على تمثيل الغيبة بأكل لحم الإنسان حتى جعله أخًا[١].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ الذكر والأنثى هنا: آدم وزوجُه[٢].

قال ابن عطية: ويحتمل أن يريد الجنس، كأنه قال: إنا خلقنا كل واحد منكم من ذكر وأنثى[٣].

والأول أظهر وأصلح؛ لقوله ﷺ: «الناس من آدم، وآدم من التراب»[٤].

ومقصود الآية: التسويةُ بين الناس، والمنع مما كانت العرب تفعله من التفاخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، فبيَّن الله أن الكرم والشرف عند الله ليس بالحسَب والنسب؛ إنما هو بالتقوى، قال رسول الله ﷺ: «من أحبَّ أن يكون أكرم الناس فليتَّقِ الله»[٥].

وروي أن سبب الآية أن رسول الله ﷺ أمَر بني بياضة أن يزوِّجوا أبا هند امرأةً منهم، فقالوا: كيف نزوِّج نساءنا لموالينا؟

﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ الشعوب: جمع شَعبٍ - بفتح الشين -، وهو أعظم من القبيلة، وتحته القبيلة، ثم البطن، ثم الفَخْذ، ثم الفَصِيلة، وهم القرابة الأَدْنَوْن.

---

(١) الكشاف (١٤/ ٥٠٢).

(٢) في د زيادة: «حواء».

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٢٣).

(٤) أخرجه أحمد (٨٧٣٥)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٢٧٠).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٣٠٠).

فمُضَر وربيعة وأمثالهما: شعوبٌ، وقريش قبيلةٌ، وبنو عبد مناف بطن، وبنو هاشم فخْذ - ويقال بإسكان الخاء؛ فرقًا بينه وبين الجارحة -، وبنو عبد المطلب فصيلة.

وقيل: الشعوب: في العجم، والقبائل: في العرب، والأسباط: في بني إسرائيل.

ومعنى ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾: ليعرف بعضكم بعضًا.

[﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾].

﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا﴾ نزلت في بني أسد بن خزيمة، وهي قبيلة كانت تجاور المدينةَ، أظهروا الإسلام، وكانوا إنما يحبون المغانم وعرَضَ الدنيا، فأكْذبهم الله في قولهم: «آمنا»، وصدَّقهم لو قالوا: «أسلمنا».

وهذا على أن الإيمان هو التصديق بالقلب، والإسلام هو الانقياد للنطق[١] بالشهادتين والعملِ بالجوارح، فالإسلام والإيمان في هذا الموضع متباينان في المعنى، وقد يكونان متفقين، وقد يكون الإسلامُ أعمَّ من الإيمان فيدخل الإيمان فيه، حسَبما ورد في مواضع أخر.

﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ معنى ﴿لَا يَلِتْكُم﴾: لا ينقُصكم شيئًا من أجور أعمالكم.

وفيه لغتان:

يقال: لات، وعليه قراءة نافع: ﴿لَا يَلِتْكُم﴾ بغير همز.

---

(١) في ب: «إلى النطق».

ويقال: ألت، وعليه قراءة من قرأ: ﴿لا يَأْلِتْكُم﴾ بهمزة قبل اللام.

فإن قيل: كيف يعطيهم أجور أعمالهم وقد قال إنهم لم يؤمنوا؛ ولا تُقبَل الأعمالُ[1] إلَّا من مؤمن؟

فالجواب: أن طاعة الله ورسوله تجمع صدق الإيمان وصلاح الأعمال، فالمعنى: إن رجعتم عما أنتم عليه من الإيمان بألسنتكم دون قلوبكم، وعملتم أعمالًا صالحة فإن الله لا يَنقصكم منها شيئًا.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ أي: لم يشكُّوا في إيمانهم، وفي ذلك تعريضٌ بالأعراب المذكورين؛ لأنهم في شكٍّ، وكذلك قوله في هؤلاء: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ تعريضٌ أيضًا بالأعراب؛ إذ كذَبوا في قولهم: آمنَّا.

وإنما عطف ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ بـ «ثمَّ»؛ إشعارًا بثبوت إيمانهم في الأزمنة المتراخية المتطاولة.

﴿وَجَاهَدُوا﴾ يريد: جهاد الكفار؛ لأنه دليلٌ على صحة الإيمان.

ويَبعد أن يريد: جهاد النفس والشيطان؛ لقوله: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ نزلت في بني أسد أيضًا؛ فإنهم قالوا للنبي ﷺ: إنا آمنا بك واتبعناك ولم نحاربْك كما فعلت هوازن وغطفان وغيرهم.

﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: هداكم للإيمان على زعمكم، ولذلك قال: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

---

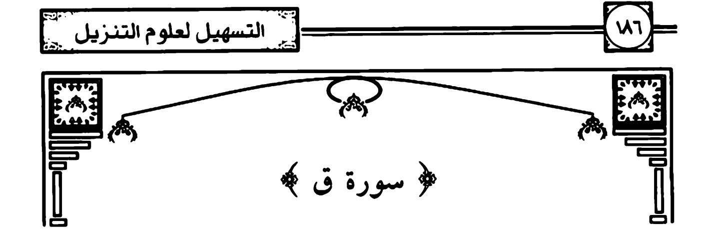
(١) في د: «ولا يَقبل الأعمالَ».

و﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ يَحتمل أن يكون:

بمعنى: يُنعِم عليكم.

أو بمعنى: يَذكر إنعامه، وهذا أحسن؛ لأنه في مقابلة: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ﴾.

* * *



﴿ سورة ق ﴾

[﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ٥ أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ كَيۡفَ بَنَيۡنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ ٦ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ٧ تَبۡصِرَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٨ وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ جَنَّٰتٖ وَحَبَّ ٱلۡحَصِيدِ ٩ وَٱلنَّخۡلَ بَاسِقَٰتٖ لَّهَا طَلۡعٞ نَّضِيدٞ ١٠ رِّزۡقٗا لِّلۡعِبَادِۖ وَأَحۡيَيۡنَا بِهِۦ بَلۡدَةٗ مَّيۡتٗاۚ كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ ١١ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَأَصۡحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ١٢ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ وَإِخۡوَٰنُ لُوطٖ ١٣ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ وَقَوۡمُ تُبَّعٖۚ كُلّٞ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ١٤ أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾].

تكلَّمنا على حروف الهجاء في «البقرة»(١).

ويختصُّ ﴿قٓۚ﴾:

بأنه قيل فيه: إنه من اسم الله: القاهر، أو القادر.

وقيل: هو اسمٌ للقرآن(٢).

---

(١) انظر (١/ ٢٦١).

(٢) في أ، هـ: «للقرآن».

وقيل: هو اسم الجبل[1] الذي يحيط بالدنيا.

﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ من المجد، وهو الشَّرف والكرَم.

وجواب هذا القسم محذوفٌ، تقديره: ما ردُّوا أمرك بحجة وما كذَّبوك ببرهان وشبه ذلك، وعن هذا المحذوفِ وقَع الإضرابُ بـ «بل».

وقيل: الجواب: ﴿مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ﴾.

وقيل: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾.

وقيل: ﴿قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡ﴾.

وهذه الأقوال ضعيفة متكلَّفة.

﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ الضمير في ﴿عَجِبُوٓاْ﴾ لكفار قريش، والمنذر: هو محمد ﷺ.

وقيل: الضمير لجميع الناس، واختاره ابن عطية، قال: ولذلك قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[2] أي: الكافرون من الناس.

والصحيح: أنه لقريش، وقوله: ﴿فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ وضع الظاهر موضع المضمر؛ لقصد ذمِّهم بالكفر، كما تقول: «جاءني فلان، فقال الفاجر كذا» إذا قصدتَ ذمه.

---

(١) في د: «للجبل».

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٣٢) ولم أقف من كلامه على ما يدل على أنه اختاره وارتضاه، وإنما حكاه عن جمهور المتأولين.

وقوله: ﴿مُنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾:

إن كان الضمير لقريش: فمعنى ﴿مِّنْهُمْ﴾: من قبيلتهم، يعرفون صِدْقَه وأمانته وحسَبه فيهم.

وإن كان الضمير لجميع الناس: فمعنى ﴿مِّنْهُمْ﴾: إنسان مثلهم.

وتعجُّبهم[1] يَحتمل[2] أن يكون:

مِن أن يبعث الله بشرًا.

أو من الأمر الذي يتضمَّنه الإنذار، وهو الحشر، ويؤيد هذا ما يأتي بعدُ.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ العامل في ﴿إِذَا﴾: محذوفٌ، تقديره: أنُبعَثُ إذا متنا؟.

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الرجعُ مصدرُ: رَجَعتُه، والمراد به: البعث بعد الموت، ومعنى ﴿بَعِيدٌ﴾ أي: بعيد الوقوع عندهم.

وقيل: الرجع: الجواب، أي: جوابهم هذا بعيدٌ عن الحق، وعلى هذا يكون قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ من كلام الله تعالى.

وأما على الأول: فهو حكايةُ كلام الكفار، وهو أظهر.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ هذا ردٌّ على الكفار في إنكارهم للبعث.

ومعناه: قد علمنا ما تنقص الأرض من لحومهم وعظامهم؛ فلا يصعب

---

(١) في أ: «وتعجيبهم».

(٢) في د: «وتعجبهم تحيُّرهم، فيحتمل..».

علينا بعثهم، قال رسول الله ﷺ: «كل جسد ابن آدم تأكله الأرض، إلَّا عُجْبَ الذَّنَب، منه خُلِق وفيه[1] يُرَكَّب»[2].

وقيل: المعنى: قد علمنا ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم.

والأول قول ابن عباس والجمهور، وهو أظهر.

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ﴾ يعني: اللوح المحفوظ، ومعنى ﴿حَفِيظٌ﴾: جامعٌ لا يَشِذُّ عنه شيء.

وقيل: معناه: محفوظ من التبديل والتغيير.

﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ هذا الإضراب أُتبع به الإضرابَ الأول؛ للدلالة على أنهم جاؤوا بما هو أقبح من تعجُّبهم[3]، وهو التَّكذيب بالحق الذي هو النبوة، وما تضمَّنته من الإخبار بالحشر وغير ذلك.

وقال ابن عطية: هذا الإضراب عن كلام محذوفٍ تقديره: «ما أجادوا النظرَ»، أو نحو ذلك[4].

﴿فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ أي: مضطرب؛ لأنهم تارةً يقولون: ساحر، وتارة شاعر، وغير ذلك من أقوالهم[5].

وقيل: معناه: منكر.

---

(١) في د: «ومنه» وهو موافقة لرواية البخاري.

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٥)، ومسلم (٢٩٥٥).

(٣) في أ: «تعجيبهم».

(٤) المحرر الوجيز (٨/ ٣٣).

(٥) في د زيادة: «الفاسدة».

وقيل: ملتبِس.

وقيل: مختلِط.

﴿وَزَيَّنَّـٰهَا﴾ **يعني**: بالنجوم.

﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ **أي**: من شِقَاقٍ، وذلك دليلٌ على إتقان الصَّنعة.

﴿رَوَٰسِيَ﴾ **يعني**: الجبالَ.

﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ **أي**: من كل نوع جميل.

﴿مَآءً مُّبَـٰرَكًا﴾ **يعني**: المطرَ كلَّه.

وقيل: إنما الماء المبارك مطرٌ[1] مخصوص يُنزله الله كلَّ سنة، وليس كلُّ المطر[2] يتصف بالبركة، وهذا ضعيف.

﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ هو القمح والشعير ونحو ذلك مما يحصد.

﴿بَاسِقَـٰتٍ﴾ **أي**: طويلاتٍ.

﴿طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطَّلع: أول ما يظهر من التمر، وهو أبيضُ منَضَّدٌ كحبِّ الرُّمان، فما دام ملتصقًا بعضُه ببعض فهو نضيد، فإذا تفرَّق فليس بنضيد.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ تمثيلٌ لخروج الموتى من القبور بخروج النبات من الأرض

﴿وَأَصْحَـٰبُ ٱلرَّسِّ﴾ قومٌ كانت لهم بئر عظيمة، وهي الرَّسُّ، بُعِثَ إليهم نبيٌّ

---

(١) في د: «ماء».

(٢) في ب، ج، د: «مطر».

فجعلوه في الرس وردَموا عليه، فأهلكهم الله.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ يعني: قوم شعيب، وقد ذُكِر[١].

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ ذكر في «الدخان»[٢].

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: حلَّ بهم الهلاك.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ يقال: عَيِيَ بالأمرِ: إذا لم يعرف عمَله.

والخلق الأول: خلق الإنسان من نطفة ثم من علقة.

وقيل: يعني: خلْقَ آدم.

وقيل: خلْقَ السموات والأرض.

والأول أظهر.

ومقصود الآية: الاستدلال بالخِلْقة الأولى على البعث، والهمزة للإنكار.

﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي: هم في شكٍّ من البعث، وإنما نكَّر الخلق الجديد؛ لأنه كان غير معروف عند الكفار المخاطَبين، وعرَّف الخلقَ الأول؛ لأنه معروف معهود.

* * *

---

(١) انظر (٢/ ٧٢٦) (٣/٣٧٨).

(٢) انظر صفحة ٩٦.

[﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾].

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يعني: جنس الإنسان[1]، ومعنى ﴿تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ تحدِّثه به نفسُه في فكرتها، وذلك أخفى الأشياء.

وقيل: يعني: آدم، ووسوسته: عند أكله من الشجرة.

والأول أظهر وأشهر.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ هو عِرْقٌ كبير في العُنُق، وهما وريدان عن يمين وشمال، وهذا مثَلٌ في فَرْطِ القُرْب، والمراد به: قربُ علم الله واطِّلاعه على عبده.

وإضافة الحبل إلى الوريد:

كقولك: «مسجد الجامع».

---

(١) في ب، ج، د: «الناس».

أو يراد بالحبل: العاتق[1].

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ يعني: الملَكين الحافِظَين الكاتِبَينِ للأعمال.

والتلقي: هو تلقِّي الكلام بحفظه وكتابته.

والعامل في ﴿إِذْ﴾: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾.

وقيل: مضمرٌ تقديره: اذكر. واختاره ابن عطية[2].

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي: قاعد.

وقيل: مُقَاعِد، بمعنى مُجَالس، وردَّه ابن عطية: بأن المُقَاعد إنما يكون مع قعود الإنسان، والقاعد يكون على جميع هيئات الإنسان[3].

إنما أفرده وهما اثنان؛ لأن التقدير: «عن اليمين قعيدٌ، وعن الشمال قعيد من المتلقِّين»، فحذف أحدهما؛ لدلالة الآخر عليه.

وقال الفراء: لفظ «قعيد» يدلُّ على الاثنين والجماعة[4]؛ فلا يُحتاج إلى حذف.

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝١٨﴾ العتيد: الحاضر، وفي الحديث أن

---

(١) عبارة الكشاف (١٤/ ٥٣٦): «أن يُراد: حبلُ العاتق، فيضاف إلى الوريد كما يضاف إلى العاتق؛ لاجتماعهما في عضوٍ واحد»، فلعلَّ الأقرب في عبارة ابن جزيٍّ أن تكون: «أو يراد بالوريد العاتق»، فيكون الحبل الذي هو الوريد مضافًا إلى العاتق؛ أي: حبل العاتق، فلا يكون الشيء مضافًا إلى نفسه.

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩).

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩-٤٠).

(٤) انظر: معاني القرآن للفراء (٣/ ٧٧).

رسول الله ﷺ قال: «إن مقعد الملكين على الثنيتين[١]، قلمهما اللسان، ومدادهما الريق»[٢].

وعموم الآية يقتضي: أن الملكين يكتبان جميع كلام العبد، ولذلك قال الحسن وقتادة: يكتب الملكان جميع الكلام فيُثبتُ الله من ذلك الحسنات والسيئات ويمحو غير ذلك.

وقال عكرمة: إنما تُكتب[٣] الحسنات والسيئات لا غيرُ.

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بلقاء الله، أو فراق الدنيا.

وفي مصحف عبد الله ابن مسعود: «وجاءت سكرة الحق بالموت»، وكذلك قرأها أبو بكر الصديق.

وإنما قال: ﴿وَجَآءَتْ﴾ بالماضي؛ لتحقُّق الأمر وقربه، وكذلك ما بعده من الأفعال.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ أي: تفِرُّ وتَهرب، والخطاب للإنسان.

﴿سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ السائق: ملَكٌ يسوقه.

وأما الشهيد:

فقيل: ملك آخر يشهد عليه، وهو الأظهر.

وقيل: صحائف الأعمال.

---

(١) في د: «الشفتين»، والمثبت موافق لما في الرواية عند الثعلبي.
(٢) أخرج الثعلبي بإسناده في تفسيره الكشف والبيان (٩/ ٩٩).
(٣) في ب، ج: «تكتب».

وقيل: جوارح الإنسان.

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ خطابٌ للإنسان الذي يقتضيه قوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾، يريد: أنه كان غافلًا عما لقِي في الآخرة.

وقيل: هو خطابٌ لمحمد ﷺ؛ أي: كنتَ في غفلة من هذا القَصص؛ وهذا في غاية الضعف؛ لأنه خروجٌ عن سياق الكلام.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ﴾ يريد بكَشْفِ الغطاء: معاينةَ أمور الآخرة.

﴿فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: يُبصِر ما لم يكن يبصره قبلُ، قال رسول الله ﷺ: «الناس نيامٌ؛ فإذا ماتوا انتبهوا»[(١)].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ القرين هنا: الشيطان الذي كان يُغويه.

وقيل: الملَك الذي يسوقه.

وقيل: الملَك الذي يتولَّى عذابه في جهنم.

والأول أرجح؛ لأنه هو القرين المذكور بعدُ، ولقوله: ﴿نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦].

ومعنى قوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾، أي: هذا الإنسان حاضرٌ لديَّ، أَعْتَدتُه ويسَّرتُه[(٢)] لجهنم.

---

(١) قال العراقي في تخريج أحاديث الإحياء (٢/ ٩٩٣): «لم أجده مرفوعًا، يعزى إلى علي ابن أبي طالب»، وقال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص: ٦٩١): «هو من قول علي ابن أبي طالب».

(٢) في ب: «واحتضرته».

وكذلك المعنى إن قلنا: إن القرين هو الملك السائق.

وإن قلنا: إنه أحد الزبانية: فمعناه: هذا العذاب لديَّ حاضرٌ.

ويَحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَالَدَىَّ﴾: موصوفةً أو موصولة.

[أ-] فإن كانت موصوفة: ف﴿عَتِيدٌ﴾ صفة لها.

[ب-] وإن كانت موصولة: ف﴿عَتِيدٌ﴾:

بدلٌ منها.

أو خبرٌ بعد خبر.

أو خبرُ مبتدإ محذوف.

و﴿مَا﴾ هي خبر المبتدإ[1] على هذه الوجوه.

ويَحتمل أن يكون ﴿عَتِيدٌ﴾ الخبر، وتكون ﴿مَا﴾:

بدلًا من ﴿هَٰذَا﴾.

أو منصوبة بفعل مضمر.

﴿أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ﴾ خطابٌ للملكين السائقِ والشهيد.

وقيل: إنه خطابٌ لواحد:

على أن يكون بالنون المؤكَّدة الخفيفة، ثم أُبدل منها ألف.

أو على أن يكون معناه: «ألقِ ألقِ» فثنَّى مبالغةً وتأكيدًا.

---

(١) وهو ﴿هَٰذَا﴾ من قوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ﴾.

أو على أن يكون على عادة العرب من مخاطبة الاثنين كقولهم: «خليليَّ»، و«صاحبيَّ».

وهذا كله تكلُّفٌ بعيد.

ومما يدلُّ على أن الخطاب لاثنين قوله: ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِي ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ قيل: مناع للزكاة[1] المفروضة.

والصحيح: العموم.

﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٍّ في الدين؛ فهو من الرَّيب بمعنى الشك.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ﴾ يحتمل:

أن يكون مبتدأ، وخبره ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾، وأدخل فيه الفاء؛ لتضمُّن معنى الشرط.

أو يكون بدلًا أو صفةً، ويكون ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ تكرارًا؛ للتوكيد.

﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ القرين هنا: شيطانه الذي وُكِّل به في الدنيا بلا خلاف.

ومعنى ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾: ما أوقعته في الطغيان، ولكنه طغى باختياره.

وإنما حذف الواو هنا؛ لأن هذه جملة مستأنفة، بخلاف قوله: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قبلَ هذا؛ فإنه عطفٌ.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُواْ لَدَىَّ﴾ خطاب للناس وقرنائِهم من الشياطين.

---

(١) في أ، هـ: «قيل: معناه الزكاة».

﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي: قد حكمتُ بتعذيب الكفار؛ فلا تبديل لذلك.

وقيل: معناه: لا يَكذِب أحدٌ لديَّ؛ لعلمي بجميع الأمور، فالإشارة على هذا: إلى قول القرين: ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾.

* * *

[﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾].

﴿وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ الفعل مسندٌ إلى جهنم.

وقيل: إلى خزنتها من الملائكة.

والأول أظهر.

واختُلف هل تتكلم جهنم حقيقةً، أو مجازًا بلسان الحال؟

والأظهر: أنه حقيقة، وذلك على الله يسير.

ومعنى قولها: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ أنها تطلب الزيادة وكانت لم تمتلئ.

وقيل: معناه: لا مزيد؛ أي: ليس عندي موضعٌ للزيادة، فهي على هذا قد امتلأت.

والأول أظهر وأرجح؛ لما ورد في الحديث: «لا تزال جهنم يُلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع الجبار فيها قدمَه»[(١)]، وفي هذا الحديث كلام ليس هذا موضعه.

والمزيد يحتمل أن يكون: مصدرًا كالمحِيض، أو اسمَ مفعول.

فإن كان مصدرًا: فوزنه مَفْعِل.

وإن كان اسم مفعول: فوزنه مَفْعُول.

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾ أي: قُرِّبت، ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾.

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ أي: كثير الرجوع إلى الله، فهو مِن: آب يؤوب: إذا رجع.

وقيل: هو المسبِّح لله؛ من قوله: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠].

﴿حَفِيظٍ﴾ أي: حافظ لأوامر الله فيفعلها، ولنواهيه فيتركها.

﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: اتقى الله وهو غائب عن الناس، فالمجرور في موضع الحال.

و﴿مَّنْ خَشِيَ﴾ بدلٌ، أو مبتدأ.

فإن قيل: كيف قرَن بالخشية الاسمَ الدالَّ على الرحمة؟

فالجواب: أن ذلك لقصد المبالغة في الثناء على من يخشى الله؛ لأنه يخشاه مع علمه برحمته وعفوه، قال ذلك الزمخشري[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٦١)، ومسلم (٢٨٤٨).

(٢) الكشاف (١٤/ ٥٥٢).

ويَحتمل أن يكون الجواب عن ذلك: أن الرحمن قد صار يستعمل استعمال الاسم الذي ليس بصفة، كقولنا: الله.

﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ قيل: يعني: النظرَ إلى وجه الله، كقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وقيل: يعني: ما لم يخطر على قلوبهم، كما ورد في الحديث مما يرويه النبي ﷺ عن ربه أنه قال: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ الضمير في ﴿هُمْ﴾ للقرون المتقدِّمة، وفي ﴿مِنْهُمْ﴾ لكفار قريش.

﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ أي: طافوا فيها.

وأصله: دخولها من أنقابها، أو من التَّنقيب عن الأمر؛ بمعنى البحثِ عنه.

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي: قالوا: هل من مهرب عن الله؟، أو عن العذاب؟.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: قلب واعٍ يعقل ويفهم.

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ أي: استمع وهو حاضرُ القلب.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ اللُّغوب: الإعياء والتعب.

﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يعني: كفار قريش وغيرهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يريد: التسبيح باللسان، أو يريد الصلاة، وقد ذكر الزمخشري الوجهين(١).

وقال ابن عطية: معناه: صلِّ بإجماعٍ من المتأوِّلين(٢).

وهي على هذا إشارةٌ إلى الصلوات الخمس ف ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾: الصبح، ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾: العصر والظهر، ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء.

وقيل: هي(٣) النوافل.

﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما: يعني: الركعتين بعد المغرب.

وقال ابن عباس: هي النوافل بعد الفرائض.

وقيل: الوتر.

﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ معناه: انتظر، فهو عامل في ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ على أنه مفعول به صريح.

وقيل: المعنى: استمع لما نقصُّ عليك من أهوال القيامة، فعلى هذا: لا يكون عاملًا في ﴿يَوْمَ يُنَادِ﴾ ويوقف على ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾.

والأول أظهر.

---

(١) الكشاف (١٤/ ٥٥٩).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٥٧).

(٣) في ب، ج: «يعني».

﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ المنادي هنا: هو إسرافيل الذي ينفخ في الصور، قيل[1]: إنما وصفه بالقرب؛ لأنه يسمعه جميعُ الخلق.

وقيل: المكان: صخرة بيت المقدس، وإنما وصفها بالقرب: لقربها من مكة.

وقيل: لقربها من السماء؛ لأنها أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلًا، وهذا ضعيف.

﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ يعني: خروجَ الناس من القبور.

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ العامل في هذا الظرفِ: معنى قوله: ﴿حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾. أو هو بدلٌ مما قبله.

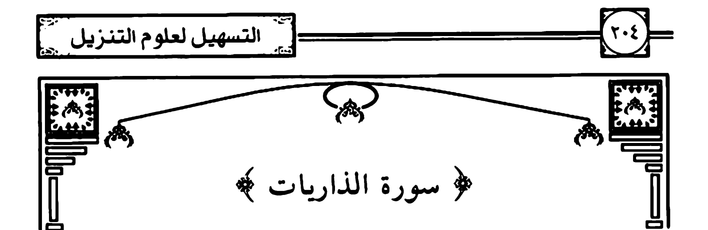
﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: بقهَّار تقهرهم على الإيمان، فهو كقوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢﴾ [الغاشية: ٢٢].

وقيل: إنه إخبارٌ بأنه ﷺ رؤوف بهم، غيرُ جبَّار عليهم، وهذا أظهر.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ كقوله: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ [فاطر: ١٨]؛ لأنه لا ينفع التذكيرُ إلَّا فيمن[2] يخاف.

* * *

(١) في أ، ب: «وقيل».
(٢) في د: «من».



﴿ سورة الذاريات ﴾

[﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴾].

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) ﴾ هي[1] الريحُ تَذْرُو[2] التراب وغيره، ومنه قوله تعالى: ﴿ تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ﴾ [الكهف: ٤٥].

وانتصب ﴿ذَرْوًا﴾ على المصدرية.

﴿ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) ﴾ هي السحاب تحمل المطر.

والوِقر: الحِمل، وهو مفعول به.

---

(١) في ب، ج: «يعني».
(٢) في أ، هـ: «تذرُ».

﴿فَٱلْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا ۝٣﴾ هي السفن تجري في البحر.

وإعراب ﴿يُسْرًا﴾: صفةٌ لمصدر محذوف، ومعناه: بسهولة.

﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ۝٤﴾ هي الملائكة تقسِّم أمرَ الملكوت، من الأرزاق والآجال وغير ذلك.

و﴿أَمْرًا﴾ مفعول به.

وقيل: إن ﴿الْحَٰمِلَٰتِ وِقْرًا﴾: السفن.

وقيل: جميع الحيوان الحامل.

وقيل: إن ﴿الْجَٰرِيَٰتِ يُسْرًا﴾: السحاب.

وقيل: الجواري من الكواكب.

والأول أشهر، وهو قول علي بن أبي طالب.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝٥﴾ هذا جواب القسم.

ويحتمل ﴿تُوعَدُونَ﴾ أن يكون: من الوعد أو من الوعيد.

والأظهر: أنه يراد به البعث في الآخرة، وهو يشمل الوعد والوعيد.

﴿وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ۝٦﴾ الدين هنا: الجزاء.

وقيل: الحساب.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ۝٧﴾ أي: ذات الطرائق، مثل الطرائق التي تكون في الماء إذا هبَّت عليه الرياح[1]، وكذلك حُبُك الزرع، وهي الطرائق التي فيه.

---

(١) في ب، د: «الريح».

وقيل: الحبك: النجوم.

وقيل: زينة السماء.

وقيل: حسن خِلْقتها.

وواحد الحُبُك: حِبَاكٌ أو حَبِيكة.

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨﴾ يحتمل:

أن يكون خطابًا لجميع الناس؛ لأنهم اختلفوا، فمنهم مؤمن ومنهم كافر.

ويحتمل أن يكون خطابًا للكفار خاصة؛ لأنهم اختلفوا فقال بعضهم: ساحر، وقال بعضهم: كاهن، وقال بعضهم: شاعر.

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ۝٩﴾ معنى ﴿يُؤْفَكُ﴾: يُصرَف.

والضمير في ﴿عَنْهُ﴾ يَحتمل أربعةَ أوجه:

أحدها: أن يكون للنبي ﷺ، أو للقرآن، أو للإسلام.

والمعنى: يصرف عن الإيمان به من صرف، أي: من سبَق في علم الله أنه مصروف.

والثاني: أن يكون الضمير لـ ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾، أو للدين المذكور.

والمعنى: يصرف عن الإيمان به مَن صرف.

الثالث: أن يكون الضمير للقول المختلِف.

والمعنى: يصرف عن ذلك القول إلى الإسلام من قضَى الله بسعادته.

وهذا القول حسَنٌ، إلَّا أن عُرْف الاستعمال في «أُفِك يُؤفَك» إنما هو في الصَّرْف من خير إلى شر، وهذا من شرٍّ إلى خير.

الرابع: أن يكون الضمير للقول المختلف، وتكون «عن» سببية.

والمعنى: يصرف بسبب ذلك القول من صرف عن الإيمان.

﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ ۝١٠﴾ دعاءٌ عليهم، كقولهم: قاتلكَ الله.

وقيل: إن ﴿قُتِلَ﴾ بمعنى: لُعِن.

قال ابن عطية: واللفظة لا تقتضي ذلك[1].

وقال الزمخشري: أصله الدعاء بالقتل، ثم جرى مجرى: لُعِن وقُبِّحَ[2].

و﴿ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾: الكذَّابون، وأصل الخَرْص: التخمين والقول بالظن.

والإشارة: إلى الكفار.

وقيل: إلى الكهان.

والأول أظهر.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى غَمْرَةٍ سَاهُونَ ۝١١﴾ الغمرة: ما يغطِّي عقلَ الإنسان، وأصله: غَمرة الماء، والمراد به هنا: الجهالة والغفلة عن النظر.

﴿يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٢﴾ أي: يقولون: «متى يوم الدين؟» على وجه الاستبعاد والاستخفاف.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٦٥).

(٢) الكشاف (١٥/ ١٢).

﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ هذا جوابٌ عن سؤالهم.

ومعنى ﴿يُفْتَنُونَ﴾: يُحْرَقون ويُعذَّبون، ومنه قيل للحَرَّة: «فَتِينٌ»؛ كأن الشمس أحرقت حجارتها.

ويحتمل أن يكون ﴿يَوْمَ هُمْ﴾:

[أ-] معربًا، والعامل فيه مضمر تقديره: يقع ذلك يوم هم على النار يفتنون.

[ب-] وأن يكون مبنيًّا؛ لإضافته إلى مبني، وعلى هذا يجوز أن يكون:

في موضع نصْبٍ بالفعل المضمر حسَبما ذكرنا.

أو في موضع رفع، والتقدير: هو يوم هم على النار يفتنون.

﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: يقال لهم: ذوقوا حَرْقكم.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ يعني: يأخذون في الجنة ما أعطاهم ربهم من الخيرات والنعم[1].

وقيل: المعنى: آخذين في الدنيا ما آتاهم[2] ربهم من شرعه.

والأول أظهر وأرجح؛ لدلالة الكلام عليه.

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ الهجوع: النوم.

وفي معنى الآية قولان:

---

(١) في د: «والنعيم».

(٢) في أ، هـ: «أعطاهم».

أحدهما - وهو الصحيح -: أنهم كانوا ينامون قليلًا من الليل، ويقطعون أكثر الليل بالسهر في الصلاة والتضرُّع والدعاء.

والآخر: أنهم كانوا لا ينامون بالليل قليلًا ولا كثيرًا.

ويختلف الإعراب باختلاف المعنيين:

فأما على القول الأول: ففي الإعراب أربعة أوجه:

الأول: أن يكون ﴿قَلِيلًا﴾ خبر ﴿كَانُوا﴾ و﴿مَا يَهْجَعُونَ﴾ فاعل بـ ﴿قَلِيلًا﴾؛ لأن قليلًا صفة مشبَّهةٌ باسم الفاعل، وتكون ﴿مَا﴾ مصدرية، والتقدير: كانوا قليلًا هجوعُهم من الليل.

والثاني: مثل هذا، إلَّا أنَّ ﴿مَا﴾ موصولة، والتقدير: كانوا قليلًا الذين يهجعون فيه من الليل.

والثالث: أن تكون ﴿مَا﴾ زائدة، و﴿قَلِيلًا﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿يَهْجَعُونَ﴾، والتقدير: كانوا يهجعون وقتًا قليلًا من الليل.

والرابع: مثل هذا، إلا أن قليلًا صفة لمصدر محذوف، والتقدير: كانوا يهجعون هجوعًا قليلًا.

وأما على القول الثاني: ففي الإعراب وجهان:

أحدهما: أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، و﴿قَلِيلًا﴾ ظرف، والعامل فيه: ﴿يَهْجَعُونَ﴾، والتقدير: كانوا ما يهجعون قليلًا من الليل.

والآخر: أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، و﴿قَلِيلًا﴾ خبر «كان»، والمعنى: كانوا قليلًا في الناس، ثم ابتدأ بقوله: ﴿مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾.

وكلا الوجهين باطلٌ عند أهل العربية؛ لأن «ما» النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها، فظهر ضعف هذا المعنى ببطلان إعرابه.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي: يطلبون من الله مغفرة ذنوبهم، والأسحار: آخر الليل، وقد جاء في الحديث: «أن الله تعالى يقول في الثلث الآخر من الليل: من يستغفرني فأغفر له»[١].

وقيل: معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: يصلُّون، وهذا بعيد من اللفظ.

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾﴾ الحق هنا: نوافل الصدقات.

وقيل: المراد الزكاة، وهذا بعيد؛ لأن الآية مكية، وإنما فرضت الزكاة بالمدينة.

وقيل: إن الآية منسوخة بالزكاة، وهذا لا يُحتاج إليه؛ لأن النسخ إنما يكون مع التعارض، ولا تعارض بين الزكاة والنوافل، وتسمية النوافل بالحق كقوله: ﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦] وإن كان غيرَ واجب.

وقال بعض العلماء: في المال حقٌّ سوى الزكاة، ورجحه ابن عطية[٢].

واختَلف الناس في المحروم، حتى قال الشعبي: أعياني أن أعلم ما المحروم؟[٣]

فقيل[٤]: المحروم: الذي ليس له في بيت المال سهم.

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٤٠٨).

(٣) تفسير الطبري (٢١/ ٥١٨).

(٤) في أ، د، هـ: «وقيل».

وقيل: الذي اجتيحت ثمرتُه.

وقيل: الذي ماتت ماشيته.

وقيل: هو الكلب.

وهذه الأقوال أمثلة، والمعنى الجامع لها: أن المحروم الذي حرَمه الله المالَ بأيِّ وجهٍ كان.

﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ما في خلقة الإنسان من الآيات والعبر، ولقد قال بعض العلماء: إن فيه خمسةَ آلاف حكمة.

وقال بعضهم: الإنسان نسخةٌ مختصرة من العالم كلِّه.

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ معنى: ﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾: المطر.

وقيل: القضاء والقدر.

ويحتمل أن يكون ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الوعد أو الوعيد والكلُّ في السماء، ولذلك قيل: يعني: الجنة والنار.

وقيل: [1] الخير والشر.

﴿إِنَّهُۥ لَحَقٌّ﴾ هذا جواب القسم، والضمير:

لما تقدَّم من الآيات والرزق.

أو لـ ﴿مَا تُوعَدُونَ﴾.

---

(١) في ب زيادة: «يعني».

﴿مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي: حقٌّ مثلَ نُطْقِكم لا يمكن الشكُّ فيه، و﴿مَآ﴾ زائدةٌ.

وقرئ ﴿مِّثْلَ﴾ بالنصب والرفع:

[أ-] فالرفع: صفة لـ ﴿حَقٌّ﴾.

[ب-] والنصب:

على الحال من ﴿حَقٌّ﴾، أو من الضمير المستتر فيه.

أو صفة لـ ﴿حَقٌّ﴾، وبُني لإضافته إلى مبنيٍّ، أو لتركيبه مع ﴿مَآ﴾ فيصير نحو: «أينما» و«كلّما».

[﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ المراد بالاستفهام في مثل هذا: التفخيم والتهويل.

وضيف إبراهيم: هم الملائكة الذين جاؤوه ليبشروه بالولد وبإهلاك قوم لوط.

ووصفهم بـ ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾:

لأنهم مكرمون عند الله.

أو لأن إبراهيم عليه السلام أكرمهم؛ لأنه خدمهم بنفسه، وعجّل لهم الضيافة، والعامل في ﴿إِذْ دَخَلُوا۟﴾ على هذا: ﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾.

ويحتمل أن يكون العامل فيه محذوفٌ، تقديره: اذكر.

﴿فَقَالُواْ سَلَـٰمًا﴾ نُصِب هذا؛ لأنه في معنى الطلب، وهو مفعول بفعل مضمر.

ورُفِع الثاني؛ لأنه خبرٌ، تقديره: أمري سلامٌ.

وهذا على أن يكون السلام بمعنى السلامة.

وإن كان بمعنى التحية:

فإنما رفع الثاني؛ ليدلَّ على إثبات السلام، فيكون قد حيَّاهم بأكثر مما حيوه.

وينتصب السلام الأول - على هذا - على المصدرية، تقديره: سلَّمْنا عليك سلامًا.

ويرتفع الثاني بالابتداء، تقديره: سلامٌ عليكم.

﴿قَوۡمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي: لم يعرفْهم.

﴿قَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَلَا﴾:

حضًا على الأكل.

أو تكون الهمزة للإنكار، دخلت على «لا» النافية.

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةً﴾ إنما خاف منهم لمَّا لم يأكلوا.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ﴾ هو إسحاق عليه السلام؛ لقوله: ﴿وَبَشَّرۡنَـٰهُ بِإِسۡحَـٰقَ﴾ [الصافات: ١١٢].

﴿فِي صَرَّةٍ﴾ أي: صيحةٍ، وذلك قولها: ﴿يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ [هود: ٧٢] وهو مِن صَرَّ القلمُ وغيره: إذا صوَّت.

وقيل: معناه: في جماعة من النساء.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ أي: ضربته حياءً منهم وتعجُّبًا[١] من وِلادتها وهي عجوز.

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ تقديره: قالت أنا عجوز عقيم؛ فكيف ألد؟

أو تقديره: أتلد عجوز عقيم؟

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ﴾ أي: ما شأنكم وخبركم[٢]؟

والخطب أكثر ما يقال[٣] في الشدائد.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ يعني: قوم لوط.

وقد ذكرنا الحجارة و﴿مُّسَوَّمَةً﴾ في «هود»[٤].

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الضمير المجرور لقرية قوم لوط؛ لأن الكلام يدلُّ عليها وإن لم يتقدَّم ذكرها.

والمراد بـ ﴿ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: لوطٌ وأهله، أمرهم الله بالخروج من القرية؛ لينجوا من العذاب الذي أصاب أهلها.

---

(١) في أ، هـ: «تعجبيًا».
(٢) في أ، هـ: «وجزعكم»!.
(٣) في أ، هـ: «يكون».
(٤) انظر (٢/ ٦٠٥).

ووصفهم بالمؤمنين وبالمسلمين؛ لأنهم جمعوا الوصفين.

وقد ذكرنا معنى الإسلام والإيمان في «الأحزاب»[١].

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ معطوفٌ:

على قوله: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

أو على قوله: ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ معنى ﴿تَوَلَّىٰ﴾: أعرض عن الإيمان.

وركنه: سلطانه وقوته.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: قال: إن موسى ساحرٌ أو مجنون، فـ﴿أَوْ﴾ للشكِّ، أو للتقسيم.

وقيل: بمعنى الواو وهذا ضعيف، ولا يستقيم هنا.

﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: فعل ما يُلام عليه، يعني: فرعون.

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ وصفها بالعُقْم؛ لأنها لا بركة فيها من إنشاءِ مطرٍ أو إلقاح شجر.

﴿كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي: الفاني المتقطِّع.

والعموم هنا يراد به الخصوص فيما أُذِن للريح أن تُهلِكه.

﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن الحين: هي الثلاثة الأيام بعد عَقْرهم الناقة.

---

(١) انظر (٣/ ٥٤٤).

والآخر: أن الحين: من أول بعث صالح عليه السلام إلى حين هلاكهم، وعلى هذا: يكون ﴿فَعَتَوْا﴾ مرتَّبًا بعد تمتُّعهم.

وأما على الأول: فيكون إخبارًا عن حالهم غير مرتَّب على ما قبله.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ يعني: الصيحة التي صاحها جبريل.

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: يعاينونها؛ لأنها كانت بالنهار.

* * *

[﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ۝٤٨ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝٤٩ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥١ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ۝٥٣ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ۝٥٤ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٥٥ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ۝٥٨ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ۝٥٩ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ﴾].

﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ أي: بقوة.

وانتصب ﴿وَٱلسَّمَآءَ﴾ بفعل مضمر.

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معناه: قادرون؛ فهو من الوُسْع وهو الطاقة، ومنه ﴿عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٦] أي: القويّ على الإنفاق.

والآخر: جعلنا السماء واسعةً، أو جعلنا بينها وبين الأرض سعةً.

والثالث: أوسعنا الأرزاق بمطر السماء.

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ الماهد: الموطِّئ للموضع.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ﴾ أي: نوعين مختلفين، كالليل والنهار، والسواد والبياض، والصحة والمرض، وغير ذلك.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أمرٌ بالرجوع إليه[١] بالتوبة والطاعة، وفي اللفظ تحذيرٌ وترهيب.

﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ توقيفٌ وتعجيب، أي: هم بمثابة من أوصى بعضهم بعضًا أن يقول ذلك.

﴿فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ﴾ منسوخٌ بالسيف.

﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ﴾ أي: قد بلَّغتَ الرسالة؛ فلا لوم عليك.

﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ قيل: معناه: خلقتهم لكي آمرهم بعبادتي.

وقيل: ليتذلَّلوا لي؛ فإن جميع الإنس والجن متذلِّلٌ.

﴿مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ﴾ أي: ما أريد أن يَرزقوا أنفسهم ولا غيرهم.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ﴾ أي: لا أريد أن يطعمونِ؛ لأني منزَّه عن الأكل وعن صفات البشر، وأنا غنيٌّ عن العالمين[٢].

وقيل: المعنى: ما أريد أن يطعموا عبيدي، فحذف المضاف تجوُّزًا.

وقيل: معناه: ما أريد أن ينفعوني؛ لأني غنيٌّ عنهم، وعبَّر عن النفع العام بالإطعام.

والأول أظهر.

---

(١) في أ، هـ: «إلى الله».

(٢) في د: «عن العطاء».

﴿ٱلۡمَتِينُ﴾ أي: الشديدُ القوةِ.

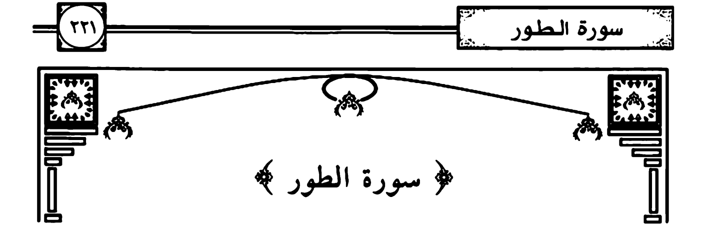
﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾ الذَّنوب: النصيب، ويريد به هنا: نصيبًا من العذاب، وأصل الذنوب: الدَّلْو.

والمراد بـ ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾: كفار قريش، وبـ ﴿أَصۡحَٰبِهِمۡ﴾: مَن تقدَّم من الكفار.

﴿فَوَيۡلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ٦٠﴾ يحتمل أن يريد: يوم القيامة.

أو يوم هلاكهم ببدر.

والأول أرجح؛ لقوله في «المعارج»: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤] يعني: يوم القيامة.



﴿ سورة الطور ﴾

[﴿وَالطُّورِ ۝١ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ ۝٣ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ۝٥ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ۝٦ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝٧ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ ۝٨ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١١ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣ هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝١٤ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝١٥ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٦ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ۝١٧ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝١٨ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٩ مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُمْ بِحُورٍ عِينٍ ۝٢٠ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝٢١ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝٢٢ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝٢٣ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ ۝٢٤ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۝٢٥ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ۝٢٦ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۝٢٧ إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾].

﴿وَالطُّورِ ۝١﴾ هو الجبل الذي كلَّم اللهُ عليه موسى عليه السلام.

وقيل: الطور: كلُّ جبل، فكأنه أقسم بجنس الجبال.

﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ ۝٢﴾ قيل: هو اللوح المحفوظ.

وقيل: القرآن.

وقيل: صحائف الأعمال.

﴿فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ۝٣﴾ الرَّقُّ في اللغة: الصحيفة، وخُصِّصت في العُرف بما كان من جلد.

والمنشور: خلاف المطويِّ.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ هو بيتٌ في السماء السابعة، يدخله[1] كلَّ يوم سبعون ألف ملك، ولا يعودون إليه أبدًا، وبهذا هو عمرانه، وهو حِيالَ الكعبة.

وقيل: البيت المعمور: الكعبة، وعمرانها: بالحجاج والطائفين.

والأول أشهر، وهو قول علي وابن عباس.

﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ يعني: السماء.

﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ۝٦﴾ هو بحر الدنيا.

وقيل: بحر في السماء تحت العرش.

والأول أظهر وأشهر.

ومعنى ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾: المملوء ماءً.

وقيل: الفارغ من الماء، ويُروى أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة.

واللغة تقتضي الوجهين؛ لأن اللفظ من الأضداد.

---

(١) في ب: «يدخل إليه في».

وقيل: معناه: الموقَد نارًا، من قولك: سجرتُ التنورَ، واللغة أيضًا تقتضي هذا، وروي أن جهنم في البحر.

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ۝٧﴾ هذا جواب القسم، ويعني: عذاب الآخرة.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩﴾ أي: تجيءُ وتذهب.

وقيل: تدور.

وقيل: تنشقُّ[1].

والعامل في الظرف: ﴿لَوَٰقِعٌ﴾، أو ﴿دَافِعٌ﴾، أو محذوفٌ.

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ۝١٢﴾ الخوض: التخبُّط في الأباطيل، شُبِّه بخوض الماء.

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ أي: يُدفعون بتعنيف[2].

و﴿يَوْمَ﴾ بدل من الظرف المتقدِّم.

﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ توبيخٌ للكفار على ما كانوا يقولونه في الدنيا من أن القرآن سحر.

﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ توبيخٌ أيضًا لهم، وتهكُّم بهم؛ أي: هل أنتم لا تبصرون هذا العذاب الذي حلَّ بكم كما كنتم في الدنيا لا تبصرون الحقائق؟

---

(١) في ب، ج، هـ: «تتشقق».

(٢) في ب: «بعنف».

﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ﴾ ليس المراد بذلك الأمر بالصبر ولا النهي عنه، وإنما المراد: التسوية بين الصبر وعدمه في أن كل واحدة من الحالين لا تنفعهم، ولا تخفِّفُ عنهم شيئًا من العذاب.

﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ هذا تعليلٌ لما ذكر من عذابهم، وليس تعليلًا للصبر ولا لعدمه كما قال بعض الناس.

﴿فَٰكِهِينَ﴾ يحتمل أن يكون:

معناه: أصحابَ فاكهة، فيكون نحو: «لَابِنٍ»، و«تامِرٍ».

أو يكون من الفكاهة بمعنى السرور.

﴿وَوَقَىٰهُمۡ﴾ معطوفٌ على قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ أو على ﴿ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾.

أو تكون الواو للحال.

﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ أي: يقال لهم: كلوا.

﴿هَنِيٓـَٔۢا﴾ صفة لمصدر محذوف، تقديره: كلوا أكلًا هنيئًا.

ويحتمل أن يكون واقعًا موقعَ فعلٍ تقديره: هنأَكُم الأكلُ والشرب.

﴿بِحُورٍ عِينٖ﴾ الحور: جمع حَوْراء، وهي الشديدةُ بياضَ بياضِ العين وسوادَ سوادِها.

والعِين: جمع عَيْناء، وهي الكبيرة العين[1] مع جمالها.

وإنما دخلت الباء في قوله: ﴿بِحُورٍ﴾؛ لأنه تضمَّن قولُه: ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم﴾

---

(١) في ب، ج، د: «العينين».

معنى: قرَنَّاهم، قاله الزمخشري، وقال: إن ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ معطوفٌ على بحور عين أي: قرناهم بحورٍ؛ للتلذُّذ بهنَّ، وبالذين آمنوا؛ للأنس معهم[١].

والأظهر: أن الكلام تمَّ في قوله: ﴿بِحُورٍ عِينٍ﴾، ويكون ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ مبتدأً، خبره ﴿أَلْحَقْنَا﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ معنى الآية: ما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يرفع ذرية المؤمن في درجته في الجنة، وإن كانوا دونه في العمل؛ لتقرَّ بهم عينه»[٢]، فذلك كرامة للأبناء بسبب الآباء.

فقيل: إن ذلك في الأولاد الذين ماتوا صغارًا.

وقيل: على الإطلاق في أولاد[٣] المؤمنين.

و﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ في موضع الحال من الذرية، والمعنى: أنهم اتبعوا آباءهم في الإيمان.

وقال الزمخشري: إن هذا المجرور يتعلق بـ ﴿أَلْحَقْنَا﴾، والمعنى عنده: بسبب الإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم[٤].

والأول أظهر.

فإن قيل: لم قال: ﴿بِإِيمَٰنٍ﴾ بالتنكير؟

---

(١) الكشاف (١٥/ ٤٩).

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٩/ ١٢٨)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٠٩)

(٣) في ج، د: «الأولاد».

(٤) الكشاف (١٥/ ٤٩).

فالجواب: أن المعنى: بشيءٍ من الإيمان لم يكونوا به أهلًا لدرجة آبائهم، ولكنهم لحقوا بهم كرامةً للآباء، فالمراد: تقليل إيمان الذرية، ولكنه رفَع درجتهم، فكيف إذا كان إيمانًا عظيمًا؟.

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي: ما نقَصناهم من ثواب أعمالهم، بل وفَّيْنا لهم أجورهم.

وقيل: المعنى: ألحقنا ذريتهم بهم، وما نقصناهم شيئًا من ثواب أعمالهم بسبب ذلك، بل فعلنا ذلك تفضُّلًا؛ زيادةً إلى ثواب أعمالهم.

والضمير على القولين: يعود على ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

وقيل: إنه يعود على الذرية.

﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ أي: مُرْتهَنٌ، فإمَّا أن تنجيَه حسناتُه، أو تُهلكه سيئاته.

﴿وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ﴾ الإمداد: هو الزيادة مرة بعد مرة.

﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطونها إذ هم جلساءُ على الشراب.

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ اللغو: الكلام الساقط، والتأثيم: الذنب، فهي بخلاف خمر الدنيا.

﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ يعني: خُدَّامهم.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ اللؤلؤ: الجوهر، والمكنون: المصون، وذلك لحسنه.

وقيل: هو الذي لم يخرج من الصَّدَف.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝٢٦﴾ أي: كنا في الدنيا خائفين من الله، والإشفاق: شدة الخوف.

﴿ٱلسَّمُومِ﴾ أشدُّ الحر.

وقيل: هو من أسماء جهنم.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ﴾ يحتمل أن يكون:

بمعنى نعبده.

أو من الدعاء بمعنى الرغبة.

و﴿مِن قَبۡلُۖ﴾ يعنون: في الدنيا قبل لقاء الله.

﴿أَنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ البَرُّ: الذي يَبَرُّ عبادَه ويحسن إليهم.

وقرئ ﴿أَنَّهُۥ﴾:

بفتح الهمزة: على أن يكون مفعولًا من أجله، أو يكون هذا اللفظ هو المدعوّ به.

وقرئ بكسرها: على الاستئناف.

[﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾].

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ هذا خطابٌ للنبي ﷺ، أي: ذكِّر الناس.

ثم نفَى عنه ما نسبه إليه الكفار من الكهانة والجنون.

ومعنى ﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾: بسبب إنعام اللهِ عليك.

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾﴾ ﴿أَمْ﴾ في هذا الموضع وفيما بعده: للاستفهام بمعنى الإنكار.

والتربُّص: الانتظار.

و﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾: حوادث الدهر.

وقيل: الموت، وكانت قريش قد قالت: إنما هو شاعر ننتظر[١] به ريب المنون، فيَهلِك كما هلَك مَن كان قبله من الشعراء، كزهير والنابغة.

﴿قُلْ تَرَبَّصُوا﴾ أمرٌ على وجه التهديد.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَذَا﴾ الأحلام: العقول؛ أي: كيف تأمرهم عقولهم بهذا؟.

والإشارة:

إلى قولهم: هو شاعر.

أو إلى ما هم عليه من الكفر والتكذيب.

وإسناد الأمر إلى الأحلام مجازٌ، كقوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧].

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا: بمعنى «بل».

ويحتمل أن تكون بمعنى: «بل» وهمزة الاستفهام، بمعنى الإنكار، كما هي في هذه المواضع كلها.

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ﴾ أي: اختلقه من تلقاء نفسه.

وضمير الفاعل: لرسول الله ﷺ، وضمير المفعول: للقرآن.

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ ردٌّ عليهم، وإقامة حجة عليهم، والأمر هنا للتعجيز.

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معناه: أم خلقوا من غير ربٍّ أنشأهم واستعْبدهم؛ فهم من

---

(١) في ب، د: «نتربص».

أجل ذلك لا يعبدون الله؟.

الثاني: أم خلقوا من غير أب ولا أمّ، كالجمادات؛ فهم لا يؤمَرون ولا يُنهَون كحال الجمادات؟

الثالث: أم خلقوا من غير أن يحاسَبوا ولا يجازوا بأعمالهم؟، فهو على هذا كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

﴿أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ معناه: أهم الخالقون لأنفسهم بحيث لا يعبدون الخالق؟

وقيل: أهم الخالقون للمخلوقات بحيث يتكبَّرون؟

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ﴾ المعنى: أعندهم خزائن الله بحيث[1] يستغنون عن عبادته؟

وقيل: أعندهم خزائن الله بحيث يعطون من شاؤوا، ويمنعون من شاءوا، ويخصُّون بالنبوّة من شاؤوا؟

﴿أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: الأرباب الغالبون.

وقيل: المصيطر: المسلَّط القاهر.

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ يعني: أم لهم سلم يصعدون به[2] إلى السماء، فيسمعون ما تقول الملائكة، بحيث يعلمون صحة دعواهم؟، ثم عجَّزهم بقوله: ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجةٍ واضحة على دعواهم.

---

(١) في ب زيادة: «إنهم» وفي ج: «هم».

(٢) في ب، ج: «فيه».

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ المعنى: أتسألهم على الإسلام أُجرةً، فيَثْقُل عليهم غُرْمها؛ فيشقّ عليهم اتباعك؟

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾ المعنى: أعندهم علم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه حتى يقولوا: لا نبعث؛ وإن بعثنا لم نعذَّب؟

وقيل: المعنى: فهم يكتبون للناس سننًا وشرائع من عبادة الأصنام وتسييب السوائب وشبه ذلك.

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ إشارةٌ إلى كيدهم في دار الندوة بالنبي ﷺ، حيث تشاوروا في قتله أو إخراجه.

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: المغلوبون في الكيد.

و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: من تقدَّم الكلام فيهم، وهم قريش، فوضع الظاهر موضع المضمر.

ويحتمل أن يريد جميع الكفار.

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ المعنى: هل لهم إله غير الله يعصمهم من عذاب الله ويمنعهم منه؟

وحصَر الله في هذه الآيات جميع المعاني التي توجب التكبُّر والبعدَ من الدخول في الإسلام ونفاها عنهم؛ ليبين أنَّ تكبرهم من غير موجِبٍ، وكُفْرَهم من غير حجة.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾﴾ كانوا قد طلبوا أن يُنزِل عليهم كسفًا من السماء.

فالمعنى: أنهم لو رأوا الكسف ساقطًا عليهم لبلَغ بهم الطغيان والجهل والعناد أن يقولوا: ليس بكسف وإنما هو سحاب مركوم، أي: كثيفٌ بعضه فوق بعض.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ منسوخٌ بالسيف.

﴿يَوْمَهُمُ الَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ يعني: يوم القيامة.

والصعقة فيه: هي النفخة الأولى.

وقيل غير ذلك، والصحيح ما ذكرنا؛ لقوله في «المعارج» عن يوم القيامة ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِى كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [المعارج: ٤٤].

﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ يعني: قتْلَهم يوم بدر.

وقيل: الجوع بالقحط.

وقيل: عذاب القبر.

﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ أي: اصبر على تكذيبهم لك وإمهالِنا لهم؛ فإنا نراك.

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه قول «سبحان الله»، ومعنى ﴿حِينَ تَقُومُ﴾: حين تقوم من كل مجلس.

وقيل: أراد: حين تقوم وتقعد وفي كل حال، وجعل القيام مثالًا.

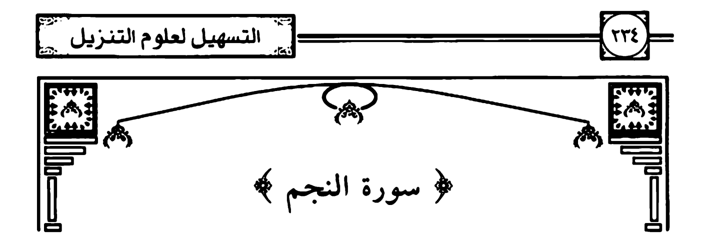
الثاني: أنه الصلوات النوافل.

والثالث: أنها الصلوات الفرائض، فـ ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ الظهر والعصر،

أي: حين تقوم من نوم القائلة، ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ﴾: المغرب والعشاء، ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: الصبح.

ومن قال: هي النوافل، جعل ﴿وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾: ركعتي الفجر.

* * *



﴿ سورة النجم ﴾

[﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ۝٢٢ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ۝٢٣ أَمْ لِلْإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ۝٢٤ فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ﴾].

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه الثريا؛ لأنها غلَب عليها التسمية بالنجم، ومعنى ﴿هَوَىٰ﴾: غرب، أو انتثر يوم القيامة.

الثاني: أنه جنس النجوم، ومعنى ﴿هَوَىٰ﴾: كما ذكرنا، أو انقضَّت تَرْجُم الشياطين.

الثالث: أنه من نجوم القرآن، وهي الجملة التي تنزل منه، و﴿هَوَىٰ﴾ على هذا: معناه نزل.

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ هذا جواب القسم، والخطاب لقريش.

و﴿صَاحِبُكُمْ﴾ هو النبي ﷺ، فنفى عنه الضلالَ والغيَّ، والفرق بينهما: أن الضلال بغير قصد، والغيَّ بقصْدٍ وتكسُّبٍ.

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣﴾ أي: ليس يتكلَّم بهواه وشهوته، وإنما يتكلم بما يوحي الله[1] إليه.

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ يعني: القرآن.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥﴾ ضمير المفعول للقرآن، أو للنبي ﷺ.

والشديد القُوَى: جبريل.

وقيل: الله تعالى.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ﴾ [التكوير: ٢٠]، و﴿الْقُوَىٰ﴾ جمع: قوَّة.

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو قوَّة.

وقيل: ذو هيئة حسنة.

والأول هو الصحيح في اللغة.

﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ أي: استوى جبريل في الجو؛ إذ رآه رسول الله ﷺ وهو بحراء.

وقيل: معنى ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾: ظهر في صورته له ست مئة جناح قد سدَّ

---

(١) في ب: «يوحي».

الأفق، بخلاف ما كان يتمثل به من الصُّوَر إذا نزل للوحي، وكان ينزل في صورة دِحْيَةَ.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ الضمير لجبريل.

وقيل: لمحمد ﷺ.

والأول أصح.

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ الضميران[1] لجبريل أي: دنا من محمد ﷺ فتدلَّى في الهواء.

وهو عند بعضهم من المقلوب تقديره: تدلَّى فدنا.

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ القابُ: مقدار المسافة، أي: كان جبريل من محمد ﷺ في القُرْب بمقدار قوسين عربيين[2]، ومعناه: من طرف العود إلى طرفه الآخر، وقيل: من الوتر إلى العود.

وقيل: ليس القوس التي يُرمى بها، وإنما هو[3] ذراعٌ تقاس بها المقادير، ذكره الثعلبي، وقال: إنه من لغة أهل الحجاز[4].

وتقدير الكلام: فكان مقدارُ مسافةِ قُرْبِ جبريل من محمد ﷺ مثلَ قابِ قوسين، ثم حُذِفت هذه المضافات.

ومعنى ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أو أقرب.

---

(١) في ب، هـ: «الضمير».

(٢) في أ، هـ: «عربيتين».

(٣) في أ، هـ: «هي».

(٤) الكشاف والبيان للثعلبي (٩/ ١٣٩).

و﴿أَوْ﴾ هنا مثل قوله: ﴿أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧]، وأشبه التأويلات فيها: أنه إذا نظر إليه البشر احتمل عنده أن يكون قاب قوسين أو يكون أدنى.

وهذا الذي ذكرنا أن هذه الضمائر المتقدمة لجبريل هو الصحيح، وقد ورد ذلك عن رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح.

وقيل: إنها لله تعالى، وهذا القول يردُّ عليه الحديث والعقل، إذ يجب تنزيه الله تعالى عن تلك الأوصاف من الدنو والتدلي وغير ذلك[1].

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ١٠﴾ في هذه الضمائر ثلاثة أقوال:

الأول: أن المعنى: أوحى الله إلى عبده محمد ﷺ ما أوحى.

الثاني: أوحى الله إلى عبده جبريل ما أوحى.

وعاد الضمير على الله في القولين؛ لأن سياق الكلام يقتضي ذلك وإن لم يتقدَّم ذكره، فهو كقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ١﴾ [القدر: ١].

الثالث: أوحى جبريل إلى عبد الله محمد ما أوحى.

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قول المصنف: «وهذا الذي ذكرنا أن هذه الضمائر المتقدمة لجبريل هو الصحيح» إلخ، أقول: قد أصاب المصنف في تصحيحه أن الضمائر في الآيات لجبريل ﵇، وأما قوله في تضعيف القول الثاني أن الضمائر تعود إلى الله: «إن هذا القول يرد عليه الحديث والعقل»، أقول: يريد بالحديث ما رواه البخاري عن عائشة ﵂ لما سئلت عن قوله: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ٨﴾ قالت: ذاك جبريل، وأما قول المصنف: «والعقل» فمعناه أن العقل يدل على امتناع الدنو من الله تعالى، وهذا يجري على مذهب من ينفي علو الله فوق المخلوقات، وينفي قيام الأفعال الاختيارية به سبحانه، وهذا خلاف ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة من علوه تعالى فوق سماواته على عرشه، وأنه فعال لما يريد. والله أعلم.

وفي قوله: ﴿مَآ أَوۡحَىٰ﴾ إبهامٌ يقتضي التفخيم والتعظيم.

﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ أي: ما كذب فؤاد محمد ﷺ ما رأى بعينه، بل صدَّق بقلبه أن الذي رأى بعينه حقٌّ.

والذي رأى: هو جبريل، يعني: حين رآه قد ملأ الأفق.

وقيل: الذي رأى: ملكوت السموات والأرض.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣﴾.

وقيل: الذي رأى: هو الله تعالى، وقد أنكرت ذلك عائشة، وسئل رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنَّى أراه؟»[(١)].

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢﴾ هذا خطاب لقريش، والمعنى: أتجادلونه على ما يرى، وكانت قريش قد كذَّبته لما قال: إنه رأى ما رأى.

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ ۝١٣﴾ أي: لقد رأى محمدٌ جبريلَ ﵇ مرةً أخرى، وهي ليلة الإسراء.

وقيل: ضمير المفعول لله تعالى، وأنكرت ذلك عائشة، وقالت: «من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم الفرية على الله تعالى»[(٢)].

﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ هي شجرة في السماء السابعة، قال رسول الله ﷺ: «ثمرها كالقلال، وورقها كآذان الفيلة»[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، ومسلم (١٦٢).

وسمِّيت سدرة المنتهى؛ لأنها إليها ينتهي علم كل عالم، ولا يعلم ما وراءها إلَّا الله تعالى.

وقيل: سميت بذلك؛ لأن ما نزل من أمر الله يُتَلَقَّى[1] عندها، فلا يتجاوزها ملائكة العلْو إلى أسفل، ولا يتجاوزها ملائكة السفْلِ إلى أعلى.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝١٥﴾ يعني: أن الجنة التي وعد الله عباده هي عند سدرة المنتهى.

وقيل: هي جنة أخرى تأوي إليها أرواح الشهداء.

والأول أظهر وأشهر.

﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦﴾ فيه إبهامٌ؛ لقصد التعظيم.

قال ابن مسعود: غَشِيها فَراشٌ من ذهب.

وقيل: كثرة الملائكة.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: **«فغشيها ألوان لا أدري ما هي»**[2]، وهذا أولى أن تفسر به الآية.

﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ أي: ما زاغ بصر محمد ﷺ عما رآه من العجائب، بل أثبتها وتيقنها، **﴿وَمَا طَغَىٰ﴾** أي: ما تجاوز ما رأى إلى غيره.

---

(١) في أ، ج، د: «يلتقي».

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٢)، ومسلم (١٦٣).

﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ يعني: ما رأى ليلة الإسراء من السموات والجنة والنار والملائكة والأنبياء وغير ذلك.

ويحتمل أن تكون ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾:

مفعولًا.

أو نعتًا لـ ﴿ءَايَٰتِ رَبِّهِ﴾.

والمعنى يختلف على ذلك.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ هذه أوثانٌ كانت تُعبد من دون الله، فخاطب اللهُ مَن كان يعبدها من العرب على وجه التوبيخ لهم.

وقال ابن عطية: إن الرؤية هنا من رؤية العين؛ لأن الأوثان المذكورة أجرامٌ مرئية(١).

فأما اللات: فصنم كان بالطائف، وقيل: كان بالكعبة.

وأما العزَّى: فكانت صخرة بالطائف، وقيل: شجرة فبعث إليها رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطعها، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها تدعو بالويل؛ فضربها بالسيف حتى قتلها.

وقيل: كانت بيتًا تعظِّمه العرب.

وأصل لفظ العزى: مؤنثة الأعزّ.

وأما مناة: فصخرة كانت لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة، وكانت أعظم

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ١١٥).

هذه الأوثان، قال ابن عطية: ولذلك قال تعالى: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ فأكَّدها بهاتين الصفتين[١].

وقال الزمخشري: ﴿ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ ذمٌّ وتحقير؛ أي: المتأخرة الوضيعة القدر ومنه: ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ كانوا يقولون: إن الملائكة وهذه الأوثان بنات الله، فأنكر الله عليهم ذلك، أي: كيف تجعلون لأنفسكم الأولادَ الذكور، وتجعلون لله البناتِ التي هي عندكم حقيرة بغيضة؟

وقد ذُكر هذا المعنى في «النحل»[٢] وغيرها.

ويحتمل أن يكون أنكر عليهم جعْلَ هذه الأوثان شركاءَ لله تعالى؛ مع أنهن إناث، والإناث حقيرة بغيضة عندهم.

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي: هذه القسمة التي قسمتم جائرةٌ غير عادلة، يعني: جَعْلَهم الذكور لأنفسهم والإناث لله تعالى.

ووزن ﴿ضِيزَىٰٓ﴾ فُعْلى - بضم الفاء -، ولكنها كسرت للياء التي بعدها.

﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ الضمير للأوثان.

وقد ذكر المعنى في «الأعراف»[٣] في قوله: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ﴾ [الأعراف: ٧١].

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ١١٦).

(٢) انظر (٢/ ٧٥٤).

(٣) انظر (٢/ ٣٥٨).

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ يعني: أنهم يقولون أقوالًا بغير حجة، كقولهم: إن الملائكة بنات الله، وقولهم: إن الأصنام تشفع لهم وغير ذلك.

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾﴾ ﴿أَمْ﴾ هنا للإنكار، والإنسان: جنس بني آدم؛ أي: ليس لأحدٍ ما يتمنى، بل الأمور بيد الله.

وقيل: إن الإشارة إلى ما طمع فيه الكفار من شفاعة الأصنام.

وقيل: إلى قول العاصي بن وائل: لأوتين مالًا وولدًا.

وقيل: هو تمني بعضهم أن يكون نبيًّا.

والأحسن حمل اللفظ على إطلاقه.

* * *

[﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعۡرِضۡ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكۡرِنَا وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾].

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الآيةَ؛ ردٌّ على الكفار في قولهم: إن الأوثان تشفع لهم، كأنه يقول: الملائكة الكرام لا تغني شفاعتهم شيئًا إلَّا بإذن الله فكيف أوثانكم؟

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ معناه: أن الملائكة لا يشفعون لشخص إلَّا بعد أن يأذن الله لهم في الشفاعة فيه، ويرضى عنه.

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ تَسۡمِيَةَ ٱلۡأُنثَىٰ﴾ يعني: قولهم: إن الملائكة بنات الله، ثم ردَّ عليهم بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ﴾.

﴿ذَٰلِكَ مَبۡلَغُهُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِۚ﴾ أي: إلى ذلك انتهى علمهم؛ لأنهم علموا ما ينفع في الدنيا ولم يعلموا ما ينفع في الآخرة.

﴿لِيَجۡزِيَ﴾ اللام متعلقة بمعنى ما قبلها، والتقدير: إن الله ملَك أمر السموات والأرض؛ ليجزي الذي أساؤوا بما عملوا.

وقيل: يتعلق بـ ﴿ضَلَّ﴾ و﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾.

﴿كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ﴾ ذكرنا الكبائر في «النساء»[١].

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: أنه صغائر الذنوب، فالاستثناء على هذا منقطع.

الثاني: أنه الإلمام بالذنوب على وجه الفَلْتة والسَّقْطة دون دوام عليها.

الثالث: أنه ما أَلَمُّوا به في الجاهلية من الشرك والمعاصي.

الرابع: أنه الهمُّ بالذنب وحديث النفس به دون أن يفعل.

﴿أَجِنَّةٞ﴾ جمع جنين.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾ أي: لا تنسبوا أنفسكم إلى الصلاح والخير.

قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون نهيًا عن أن يزكِّي بعض الناس بعضًا[٢]، وهذا بعيد؛ لأنه تجوز التزكية في الشهادة وغيرها.

* * *

(١) انظر (٢/ ٤٦).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ١٢٣).

[﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَـٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾].

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾﴾ الآيةَ؛ نزلت في الوليد بن المغيرة.

وقيل: نزلت في العاصي بن وائل.

﴿وَأَكْدَىٰٓ﴾ أي: قطع العطاء وأمسك.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ قيل: وفَّى طاعةَ الله في ذبح ولده.

وقيل: وفَّى تبليغ الرسالة.

وقيل: وفَّى شرائع الإسلام.

وقيل: وفَّى الكلمات التي ابتلاه الله بهن.

وقيل: وفَّى هذه العشر الآيات: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ وما بعدها.

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ ذُكِر فيما تقدم[١]، وهذه الجملة تفسيرٌ لما في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ السعي هنا: بمعنى العمل.

وظاهرها: أنه لا ينتفع أحد بعمل غيره، وهي حجة لمالك في قوله: لا يصوم أحد عن وليه إذا مات وعليه صيام.

واتفق العلماء على أن الأعمال المالية كالصدقة والعتق يجوز أن يفعلها الإنسان عن غيره، ويصل نفعها إلى مَن فُعِلت عنه، واختلفوا في الأعمال البدنية كالصلاة والصيام.

وقيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

والصحيح أنها مُحكمة؛ لأنها خبر، والأخبار لا تنسخ.

وفي تأويلها ثلاثة أقوال:

الأول: أنها إخبار عما كان في شريعة غيرنا، فلا يلزم في شريعتنا.

الثاني: أن للإنسان ما عمل بحقٍّ، وله ما عمل له غيره بهبة العامل له، فجاءت الآية في إثبات الحقيقة دون ما زاد عليها.

الثالث: أنها في الذنوب، وقد اتفق أنه لا يَحمل أحدٌ ذنب أحد، ويدلُّ على هذا قوله قبلها: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾﴾ كأنه يقول: لا يؤاخَذ أحد بذنب غيره ولا يؤاخذ إلّا بذنب نفسه.

---

(١) انظر (٢/ ٧٩٨).

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ۝٤٠﴾ **قيل**: معناه: يراه الخلق يوم القيامة.

والأظهر: أن صاحبه هو الذي يراه لقوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧].

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝٤٢﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: إلى الله المصير في الآخرة.

والآخر: أن معناها: أن العلوم تنتهي إلى الله، ثم يقف العلماء عند ذلك، وروي أن رسول الله ﷺ قال في الآية[1]: «**لا فكرة في الرب**»[2].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝٤٣﴾ **قيل**: معناه: أضحك أهل الجنة، وأبكى أهل النار، وهذا تخصيص لا دليل عليه.

وقيل: أبكى السماء بالمطر، وأضحك الأرض بالنبات، وهذا مجاز.

وقيل: خلق في بني آدم الضَّحِكَ والبكاء.

والصحيح: أنه عبارةٌ عن الفرح والحزن؛ لأن الضحك دليلٌ على السرور والفرح، كما أن البكاء دليل على الحزن، **فالمعنى**: أنه تعالى أحزن من شاء من عباده، وسرَّ من شاء.

﴿أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ **يعني**: الحياة المعروفة والموت المعروف.

وقيل: أحيا بالإيمان وأمات بالكفر.

والأول أرجح؛ لأنه حقيقة.

---

(١) قوله: «في الآية» لم ترد في ب، هـ.

(٢) أخرجه البغوي بإسناده في تفسيره (٧/ ٤١٧)، وأخرجه أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده في كتاب العظمة (١/ ٢١٧) عن سفيان الثوري من قوله.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ يعني: المنيّ.

﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ من قولك: أَمنى الرجل: إذا خرج منه المنيُّ.

﴿ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ يعني: الإعادة للحشر.

﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي: أكسب عبادَه المال، وهو من قُنْية المال، وهي كسبه وادِّخاره.

وقيل: معنى ﴿أَقْنَىٰ﴾: أفقر، وهذا لا تقتضيه اللغة.

وقيل: معناه: أرضى.

وقيل: قَنَّع عبدَه.

﴿ٱلشِّعْرَىٰ﴾ نجمٌ في السماء، وتسمى كلب الجبَّار وهما شِعْرَيَان: الغُميصاء والعَبور، وخصَّها بالذكر دون سائر النجوم؛ لأن بعض العرب كان يعبدها.

﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ وصفها بـ ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾؛ لأنها كانت في قديم الزمان، فهي أُولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرين.

وقيل: إنما سميت أُولى؛ لأن ثمَّ عادًا أخرى متأخرة، وهذا لا يصح.

وقرأ نافع ﴿عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ بإدغام تنوين ﴿عَادًا﴾ في لام ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ بحذف الهمزة، ونقل حركتها إلى اللام، وضعَّف المزني والمبرِّد هذه القراءة.

وهَمَزَ قالون الواو، دون وَرْش.

وقرأ الباقون على الأصل بكسر تنوين ﴿عَادًا﴾ وإسكان لام ﴿ٱلْأُولَىٰ﴾.

﴿وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ أي: ما أبقى منهم أحدًا.

وقيل: ما أبقى عليهم.

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤﴾ هي مدينة قوم لوط.

ومعنى ﴿أَهۡوَىٰ﴾: طرَحها من علْوٍ إلى سفْلٍ.

وفي قوله: ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ تعظيمٌ للأمر.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾ هذا مخاطبة للإنسان على الإطلاق، معناه: بأيِّ نعم ربك تشكُّ؟.

﴿هَٰذَا نَذِيرٞ﴾ يعني: القرآن، أو النبي ﷺ.

ومعنى ﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ﴾: من نوعها وصِفتها.

﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧﴾ أي: قَرُبت القيامة.

﴿كَاشِفَةٌ﴾ يحتمل لفظه ثلاثة أوجه:

أن يكون مصدرًا كالعاقبة[1]، أي: ليس لها كشفٌ.

وأن يكون بمعنى: كاشف، والتاء للمبالغة كعلَّامة.

وأن يكون صفةً لمحذوف تقديره: نفسٌ كاشفة، أو جماعة كاشفة.

ويحتمل معناه وجهين:

أحدهما: أن يكون من الكشف بمعنى الإزالة، أي: ليس لها مَن يزيلها إذا وقعت.

---

(١) في أ، ج، د، هـ: «كالعافية».

والآخر: أن يكون بمعنى الاطّلاع؛ أي: ليس لها مَن يعلم وقتها إلَّا الله.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ الإشارةُ إلى القرآن، وتعجُّبهم منه: إنكاره[١].

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾﴾ أي: لاعبون لاهون.

وقيل: غافلون مفرِّطون.

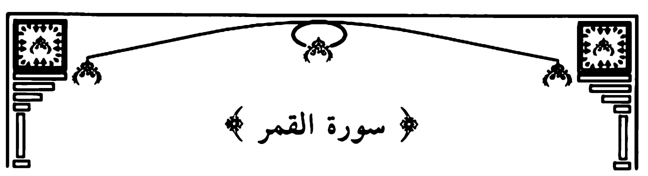
﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾ هذا موضع سجدة عند الشافعي وغيره، وقد قال ابن مسعود: قرأها رسول الله ﷺ فسجد، وسجد كل من كان معه[٢].

* * *

---

(١) في د: «إنكارهم له».

(٢) أخرجه البخاري (١٠٦٧)، ومسلم (٥٧٦).



﴿ سورة القمر ﴾

[﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٢١ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾].

﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: قَرُبت القيامة، ومعنى قربها: أنه بقي إليها[1] من الزمان قليلٌ بالنسبة إلى ما مضى، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»، وأشار بالسبابة والوسطى[2].

(١) في أ، هـ: «لها».

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٠٣)، ومسلم (٢٩٥٠).

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ هذا إخبارٌ عما جرى في زمان رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشًا سألته آية فأراهم انشقاق القمر، فقال ﷺ: «اشهدوا»[1].

وقال ابن مسعود: انشقَّ القمر فرأيته فِرقتين، فرقة وراء الجبل وأخرى دونه.

وقيل: معنى ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ أنه ينشق يوم القيامة، وهذا قول باطلٌ، تردُّه الأحاديث الصحيحة الواردة بانشقاق القمر، وقد اتفقت الأمة على وقوع ذلك، وعلى تفسير الآية بذلك إلَّا من لا يعتبر قوله.

﴿وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةً يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٌ مُّسۡتَمِرٌّ ۝٢﴾ هذه الضمائر لقريش.

والآية المشار إليها: انشقاق القمر، وعند ذلك قالت قريش: سحَر محمد القمر.

ومعنى ﴿مُّسۡتَمِرٌّ﴾: دائم.

وقيل: معناه: ذاهب يزول عن قريب.

وقيل: معناه: شديد، وهو على هذا من المِرَّة، وهي القوة.

﴿وَكُلُّ أَمۡرٍ مُّسۡتَقِرٌّ﴾ أي: كل شيء لا بدَّ له من غاية، فالحق يحِقُّ والباطل يبطُل.

﴿وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤﴾ ﴿ٱلۡأَنۢبَآءِ﴾ هنا يراد بها: ما ورد في القرآن من القَصص والبراهين والمواعظ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠).

و﴿مُزْدَجَرٌ﴾:

اسم مصدر بمعنى: ازدجارٌ.

أو اسم موضع بمعنى: أنه مظنة أن يُزدَجر به.

﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ بدلٌ من ﴿مَا فِيهِ﴾.

أو خبر ابتداء مضمر.

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ يحتمل أن تكون ﴿مَا﴾:

نافية.

أو استفهامية لمعنى[1] الاستبعاد والإنكار.

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم؛ لعلمك أن الإنذار لا ينفعهم.

﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾:

مضمر تقديره: اذكر.

أو قوله: ﴿يَخْرُجُونَ﴾ بعد ذلك.

وليس العامل فيه ﴿تَوَلَّ عَنْهُمْ﴾؛ لفساد المعنى، فقد تمَّ الكلام في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فيوقف عليه.

وقيل: إن المعنى: تول عنهم إلى يوم يدع الداع.

والأول أظهر وأشهر.

---

(١) في ج، د، هـ: «بمعنى».

والداعي: جبريل، أو إسرافيل إذ ينفخ في الصُّور.

والشيء النُّكُر: الشديد الفظيع، وأصله من الإنكار؛ أي: هو منكورٌ؛ لأنه لم يُرَ قطُّ مثلُه، والمراد به: يوم القيامة.

﴿خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ﴾ كنايةٌ عن الذِّلة.

وانتصب ﴿خُشَّعًا﴾ على الحال من الضمير في ﴿يَخْرُجُونَ﴾.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور.

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ شبَّههم بالجراد في خروجهم من الأرض، ففيه استدلالٌ على البعث، كالاستدلال بخروج النبات.

وقيل: إنما شبههم بالجراد في كثرتهم، وأن بعضهم يموج في بعض.

﴿مُّهْطِعِينَ﴾ أي: مسرعين.

وقيل: ناظرين إلى الداعي.

﴿فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا﴾ يعني: نوحًا عليه السلام، ووصْفُه هنا بالعبد تشريفٌ له واختصاصٌ.

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: زجروه بالشتم والتخويف، وقالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ أي: قد غلبني الكفار فانتصر لي، أو انتصر لنفسك.

وقالت المتصوفة: معناه: قد غلبتني نفسي حين دعوت على قومي فانتصر

مني، وهذا بعيد ضعيف.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾﴾ عبارةٌ عن كثرة المطر، فكأنه يخرج من أبواب.

وقيل: فتحت يومئذ في السماء أبواب حقيقة.

والمنهمر: الكثير.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ **يعني:** ماء السماء وماء الأرض.

﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قُضِي في الأزل.

ويحتمل أن يكون **المعنى:** أنه قُدِر بمقدار معلوم، وروي في ذلك أنه علا فوق الأرض أربعين ذراعًا.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ **يعني:** السفينة.

والدُسُر: هي المسامير، واحدها دِسَار.

وقيل: هي مقادم السفينة.

وقيل: أضلاعها.

والأول أشهر.

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ عبارة عن حفظ الله ورَعْيِه لها[1].

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جزاءً لنوح.

وقيل: جزاء لله تعالى.

---

(١) انظر (٣/٩٩).

والأول أظهر.

وانتصب ﴿جَزَآءً﴾ على أنه مفعول من أجله، والعامل فيه: ما تقدم من فتح أبواب السماء وما بعده من الأفعال؛ أي: فعلنا ذلك كلَّه جزاءً لنوح.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿كُفِرَ﴾:

من الكفر بالدين، والتقدير: «لمن كُفِر به» فحذف الضمير.

أو يكون من الكفر بالنعمة؛ لأن نوحًا عليه السلام نعمة من الله كفَرها قومه، فلا يحتاج على هذا إلى ضميرٍ محذوف.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ الضمير:

للقصة المذكورة.

أو الفِعْلة.

أو السفينة، وروي في هذا المعنى: أنها بقيت على الجودي حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ تحضيض على الادِّكار، فيه ملاطفةٌ جميلة من الله لعباده.

ووزن ﴿مُّدَّكِرٍ﴾ مُفْتَعل، وأصله: «مُذْتَكِر» ثم أُبدل من التاء دال وأُدغمت فيها الذال.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾﴾ توقيفٌ فيه تهديد[1] لقريش.

---

(١) في أ: «وتهديدٌ».

والنذر: جمع نذير.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ أي: يسرناه للحفظ، وهذا معلوم بالمشاهدة، فإنه يحفظه الأطفال الأصاغر وغيرهم حفظًا بالغًا بخلاف غيره من الكتب، وقد روي أنه لم يحفظ شيء من كتب الله عن ظهر قلب إلَّا القرآن.

وقيل: معنى الآية: سهلناه للفهم والاتعاظ به؛ لما تضمن من البراهين والحكم البليغة.

وإنما كُرر هذه الآية البليغة وقولَه: ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾؛ لينبِّه السامع عند كل قصة، فيعتبر بها؛ إذ كل قصة من القَصص التي ذَكر عبرة وموعظة، فختم كل واحدة بما يوقظ[1] السامع من الوعيد في قوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ ومن الملاطفة في قوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: مصوِّتة، فهو من الصَّرير بمعنى: الصوت.

وقيل: معناه: باردةً؛ فهو من الصِّر.

﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ روي أنه كان يوم أربعاء، حتى رأى بعضهم أن كل يوم أربعاء نحس وروي أن رسول الله ﷺ قال: «**آخر أربعاء من الشهر يوم نحس مستمر**»[2].

---

(١) في أ: «يعظ».

(٢) قال ابن عطية في المحرر الوجيز (٨/ ١٤٦): «.. الدولابي أبو بشر قد ذكر حديثًا رواه أبو جعفر المنصور عن أبيه محمد عن أبيه علي عن أبيه عبد الله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «آخر أربعاء من الشهر يوم نحس مستمر». ا.هـ، وأخرجه البيهقي في السنن الكبير (١٠/ ٢٨٦) من حديث جابر مرفوعًا، ولفظه: «إن يوم الأربعاء يوم نحس مستمر».

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تقلعهم من مواضعهم.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أعجاز النخل: هي أصولها، والمنقعر: المنقطع، فشبه الله عادًا لما هلكوا بذلك؛ لأنهم طِوالٌ عظام الأجساد كالنخل.

وقيل: كانت الريح تقطع رؤوسهم فتبقى أجسادًا[1] بلا رؤوس، فشبههم بأعجاز النخل؛ لأنها دون أغصان.

وقيل: كانوا قد حفروا حفرًا يمتنعون فيها من الريح، فهلكوا فيها فشبههم بأعجاز النخل إذا كانت في حفرها.

(١) في أ: «أجسادٌ»، وفي د: «أجسادهم».

[﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾].

﴿أَبَشَرًا﴾ هو صالح عليه السلام، وانتصب بفعل مضمر.

والمعنى: أنهم أنكروا أن يتبعوا بشرًا، وطلبوا أن يكون الرسول من الملائكة، ثم زادوا أن أنكروا أن يتبعوا واحدًا وهم جماعة كثيرون.

﴿وَسُعُرٍ﴾ أي: عناءٍ.

وقيل: معناه: جنون.

وقيل: معناه: همٌّ وغم.

وأصله: من السعير بمعنى النار، وكأنه احتراق النفس بالهم.

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أنكروا أن يخصه الله بالنبوة دونهم، وذلك جهل منهم؛ فإن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

﴿أَشِرٌ﴾ أي: بَطِرٌ متكبر.

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾ أي: لهم يوم وللناقة يوم من غير أن يتعدوا على الناقة، فالضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾ يعود على ثمود وعلى الناقة؛ تغليبًا للعقلاء.

وقيل: إن الضمير لثمود، والمعنى: أن لا يتعدى بعضهم على بعض.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ أي: محضورٌ مشهود.

﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ﴾ يعني: عاقرَ الناقة، واسمه قُدَار، وهو أُحَيمر ثمود وأشقاها.

﴿فَتَعَاطَى﴾ أي: اجترأ على أمر عظيم، وهو عقْر الناقة.

وقيل: تعاطى السيف.

﴿صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ صاح جبريل صيحة ماتوا منها.

﴿فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ الهشيم: هو ما تكسَّر وتفتت من الشجر وغيرها.

والمحتظر: الذي يعمل الحظيرة وهي حائطٌ من الأغصان أو القصب ونحو ذلك، يكون تحليقًا للمواشي أو للسكنى، فشبه الله ثمود لها هلكوا بما يتفتت من الحظيرة من الأوراق وغيرها.

وقيل: المحتظر: المحترق.

﴿حَاصِبًا﴾ ذكر في «العنكبوت»(١).

﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ أي: تشككوا.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ الضيف هنا: هم الملائكة الذين

---

(١) انظر (٣/ ٤٧٢).

أرسلهم الله إلى لوط، ليُهلكوا قومه، وكان قومه قد ظنوا أنهم من بني آدم، وأرادوا منهم الفاحشة، فطمس جبريل على أعينهم، فاستوت مع وجوههم.

وقيل: إن هذا الطمس عبارة عن عدم رؤيتهم لهم، وأنهم دخلوا منزل لوط فلم يروا فيه أحدًا.

* * *

[﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾].

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ﴾ هذا خطاب لقريش على وجه التهديد، والهمزة للإنكار.

ومعناه: هل الكفار منكم خيرٌ عند الله من الكفار المتقدمين المذكورين؛ بحيث هلكوا هم لما كذَّبوا الرسل وتنجون أنتم وقد كذبتم رسلكم؟ بل الذي أهلكهم يُهلككم.

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ معناه: أم لكم في كتاب الله براءة من العذاب؟

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾﴾ أي: نحن نجتمع وننتصر لأنفسنا بالقتال.

﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ هذا وعدٌ من الله لرسوله بأنْ يُهزم جمع قريش، وقد ظهر ذلك يوم بدر وفتح مكة.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾﴾ المراد بـ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هنا: الكفار، وضلالهم: في الدنيا، والسعر لهم: في الآخرة، وهو الاحتراق.

وقيل: أراد بـ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ القدرية؛ لقوله في الرد عليهم: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾.

والأول أظهر.

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: يُجَرُّون فيها.

﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ المعنى: أن الله خلق كل شيء بقدر، أي: بقضاء معلوم سابق في الأزل.

ويحتمل أن يكون معنى ﴿بِقَدَرٍ﴾: بمقدار في هيئته وصفاته[1] وغير ذلك.

والأول أرجح، وفيه حجة لأهل السنة على القدرية.

وانتصب ﴿كُلَّ شَىْءٍ﴾ بفعل مضمر يفسِّره: ﴿خَلَقْنَٰهُ﴾.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ عبارةٌ عن سرعة التكوين ونفوذ أمر الله.

والواحدة يراد بها الكلمة، وهي قوله: «كن».

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ يعني: أشباهكم من الكفار.

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: كل ما فعلوه مكتوب، في صحائف الأعمال.

﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: مكتوب، وهو من السَّطْر، تقول: سطرت واستطرت بمعنى واحد.

---

(١) أ، ج: «وصفته».

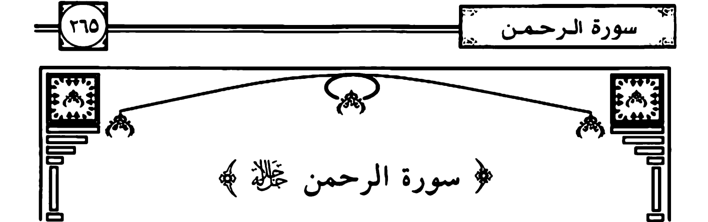
والمراد بالصغير والكبير: أعمالُهم.

وقيل: جميع الأشياء.

﴿وَنَهَرٍ﴾ يعني: أنهار الماء والخمر واللبن والعسل، واكتفى باسم الجنس.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في مكان مرْضيٍّ.

* * *



﴿ سورة الرحمن جل جلاله ﴾

[﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ① عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ② خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ③ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ④ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ⑤ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ⑥ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ⑦ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ⑧ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ⑨ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ⑩ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ⑪ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ⑫ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑬ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ⑭ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ⑮ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑯ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ⑰ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ⑱ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ⑲ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ⑳ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉑ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ㉒ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ㉓ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ㉔ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾] .

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ هذا تعديد نعمة على من علَّمه الله القرآن.

وقيل: معنى ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ②﴾: جعله علامة وآية لمحمد ﷺ.

والأول أظهر.

وارتفع ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ بالابتداء، والأفعال التي بعده أخبارٌ متوالية، ويدلُّ على ذلك مجيئها دون حرف عطف.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ قيل: جنس الناس.

وقيل: يعني: آدم.

وقيل: يعني: محمدًا ﷺ.

ولا دليل على التخصيص، فالأول أرجح.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ يعني: النطقَ والكلام.

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ أي: يجريان في الفلك بحسابٍ معلوم وترتيب مقدَّر، وفي ذلك دليل على الصانع الحكيم المريد القدير.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ النجم عند ابن عباس: هو النبات الذي لا ساق له كالبقول، والشجر: النبات الذي له ساق.

وقيل: النجم: جنس نجوم السماء.

والسجود: عبارة عن التذلل والانقياد لله تعالى.

وقيل: سجود النجم: غروبه، وسجود الشجر: بظلِّه.

﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ يعني: الميزان المعروف الذي يوزن به الطعام وغيره وكرَّر ذكره؛ اهتمامًا بأمره.

وقيل: أراد العدل.

﴿وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ أي: لا تَنقُصوا إذا وزنتم.

﴿لِلْأَنَامِ﴾ أي: للناس.

وقيل: الإنس والجن.

وقيل: الحيوان كله.

﴿ٱلْأَكْمَامِ﴾ يَحتمل أن يكون:

جمع كُمٍّ - بالضم -، وهو ما يغطي ويلفُّ النخل من الليف، وبه شُبِّه كُمُّ القميص.

أو يكون جمع كِمٍّ - بكسر الكاف -، وهو غلاف الثمرة.

﴿ٱلْعَصْفِ﴾ ورق الزرع.

وقيل: التِّبْن.

﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ قيل: هو الريحان المعروف.

وقيل: كل مشمومٍ طيِّبِ الريح من النبات.

وقيل: هو الرزق.

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾﴾ الآلاء: هي النعم.

واحدها: إِلًى على وزن: مِعًى.

وقيل: أَلًى على وزن قَفًا.

وقيل: أَلْيٌ على وزن أَمْرٍ.

وإِلْيٌ على وزن حِصْن.

والخطاب للثقلين الإنس والجن؛ بدليل قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾.

وروي أن هذه الآية لما قرأها رسول الله ﷺ سكت أصحابه فقال: «إن جواب الجن خير من سكوتكم، إني لما قرأتها على الجن قالوا: لا نكذِّب

بشيءٍ من آلاء ربِّنا»(١).

وكرر هذه الآيةَ؛ تأكيدًا ومبالغة.

وقيل: إن كل موضع منها يرجع إلى معنى الآية التي قبله فليس بتأكيد؛ لأن التأكيد لا يزيد على ثلاث مرات.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ الإنسان هنا: آدم، والصلصال: الطين اليابس، فإذا طُبخ فهو فخَّار.

﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾ الجان: الجن، يعني: إبليس والد الجن.

والمارج: اللهيب المضطرب من النار.

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾﴾ يريد: مشرق الشمس والقمر، ومغرب الشمس والقمر.

وقيل: مشرقَي الصيف والشتاء ومغربَيهما.

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ ذكر في «الفرقان»(٢).

﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ أي: يلتقي ماء هذا وماء هذا، وذلك إذا نزل المطر في البحر على القول بأن البحر العذب هو المطر.

وأما على القول بأن البحر العذب هو الأنهار والعيون، فالتقاؤهما: بانصباب الأنهار في البحر.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٢٩١)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥١٥)، والبزار في مسنده (١٢/ ١٩٠).

(٢) انظر (٢/ ٣٤٤).

وأما قول من قال: إن البحرين بحرُ فارس والروم، أو بحر القُلزُوم واليمن فضعيف؛ لقوله في «الفرقان»: ﴿هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الفرقان: ٥٣]، وكل واحد من هذه أُجاج.

والمراد بـ ﴿ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ في هذه السورة ما أراد في «الفرقان».

﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ أي: حاجز، يعني: جِرم الأرض، أو حاجزًا من قدرة الله.

﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر بالاختلاط.

وقيل: لا يبغيان على الناس بالفَيض.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ اللؤلؤ: كبار الجوهر، والمرجان: صغاره.

وقيل: بالعكس.

وقيل: إن المرجان حجر أحمر، قال ابن عطية: وهذا هو الصواب[1].

وأما قوله: ﴿مِنْهُمَا﴾ ولا يخرج إلَّا من أحدهما، فقد تكلمنا عليه في «فاطر»[2].

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾﴾ يعني: السفن، وسماها منشآت؛ لأن الناس يُنشؤونها.

وقرئ بكسر الشين: بمعنى أنها تنشئ السيرَ أو تنشئ الموج.

والأعلام: الجبال، شبه السفن بها.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ١٦٧).

(٢) انظر (٣/ ٦٠٩).

[﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلَا جَانٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾].

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ للأرض، يدل على ذلك سياق الكلام وإن لم يتقدم لها ذكر.

ويعني بـ ﴿مَنْ عَلَيْهَا﴾: بني آدم وغيرهم من الحيوان، ولكنه غلَّب العقلاء.

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ الوجه هنا عبارة عن الذات[1].

و﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ صفة الذات؛ لأن من أسمائه تعالى الجليل، ومعناه يقْرُب من معنى العظيم.

وأما وصفه بالإكرام فيحتمل أن يكون:

بمعنى أنه يكرم عباده كما قال في «الإسراء»: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

---

(١) انظر (٣٥٢/١).

أو بمعنى أن عباده يكرمونه بتوحيده وتسبيحه وعبادته.

﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ المعنى: أن كل من في السموات والأرض يسأل حاجته من الله، فمنهم من يسأله بلسان المقال، وهم المؤمنون، ومنهم من يسأله بلسان الحال؛ لافتقار الجميع إليه.

﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ المعنى: أنه تعالى يتصرَّف في ملكوته تصرُّفًا يظهر في كل يوم، من العطاء والمنع، والإماتة والإحياء، وغير ذلك.

وروي: أن رسول الله ﷺ قرأها فقيل له: وما ذلك الشأن؟ قال: «من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين»[1].

وسئل بعضهم: كيف قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ والقلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة؟

فقال: هو في شأن يُبديه لا في شأن يَبتديه.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ۝٣١﴾ معناه الوعيد، كقولك لمن تهدده: «سأتفرغ لعقوبتك»، وليس المعنى: التفرغ من شغل.

ويحتمل أن يريد: انتهاء مدة الدنيا، وإنه حينئذ ينقضي شأنها، فلا يبقى إلا شأن الآخرة، فعبَّر عن ذلك بالتفرغ.

قال جعفر بن محمد: سمى الإنس والجن ثقلين، لأنهما ثَقُلَا بالذنوب.

﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ هذا كلامٌ يقال للجن والإنس يوم القيامة، ومعناه: إن استطعتم الهروب والخروج من أقطار

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٠٢)، وذكره البخاري تعليقًا من قول أبي الدرداء (٦/ ١٤٤).

السموات والأرض فافعلوا، وروي أنهم يفرُّون يومئذ؛ لما يرون من أهوال القيامة فيجدون سبعة صفوف من الملائكة، قد أحاطت بالأرض فيرجعون.

وقيل: بل خوطبوا بذلك في الدنيا؛ والمعنى: إن استطعتم الخروج عن قهر الله وقضائه عليكم فافعلوا.

وقوله: ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ أمرٌ يراد به التعجيز.

﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ أي: لا تقدرون على النفوذ إلا بقوة، وليس لكم قوة.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ الشواظ: لهب النار.

والنحاس: الدخان.

وقيل: هو الصُّفْر يذاب ويُصبُّ على رؤوسهم.

وقرئ ﴿شُوَاظٌ﴾ بضم الشين وكسرها، وهما لغتان.

وقرئ ﴿وَنُحَاسٌ﴾:

بالرفع عطفًا على ﴿شُوَاظٌ﴾.

وبالخفض عطفًا على ﴿نَّارٍ﴾.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ جواب ﴿فَإِذَا﴾ قوله: ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾.

وقال ابن عطية: جوابها محذوف[1].

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ معنى ﴿وَرْدَةً﴾: حمراء كالوردة.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ١٧٥). وقال: «جواب ﴿فَإِذَا﴾ محذوف، مقصودٌ به الإبهام، كأنه تعالى يقول: فإذا انشقَّت السماء فما أعظم الهول!».

وقيل: هو من الفَرَس الوَرْدِ.

قال قتادة: السماء اليوم خضراء ويوم القيامة حمراء.

والدهان: جمع دُهْنٍ كالزيت وشبهه، شبَّه السماء يوم القيامة به؛ لأنها تذاب من شدَّة الهول.

وقيل: شبه لمعانها بلمعان الدُّهن.

وقيل: إن الدهان هو الجلد الأحمر.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ السؤال المنفي هنا هو على وجه الاستخبار وطلب المعرفة؛ إذ لا يُحتاج إلى ذلك؛ لأن المجرمين يُعرفون بسيماهم، ولأن أعمالهم معلومة عند الله مكتوبة في صفائحهم، وأما السؤال الثابت في قوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الحجر: ٩٢] وغيره، فهو سؤال على وجه الحساب والتوبيخ، فلا تعارض بين النفي والإثبات.

وقيل: إن ذلك باختلاف المواطن.

والأول أحسن.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ يعني: بعلامتهم[1] وهي سواد الوجوه وغير ذلك.

و﴿ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ هنا الكفار؛ بدليل قوله: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾.

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ قيل: معناه: يؤخذ بعض الكفار بناصيته وبعضهم بقدميه.

---

(١) في أ: «بعلاماتهم».

وقيل: بل يؤخذ كل واحد بناصيته وقدميه، فيطوى ويطرح في النار.

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾﴾ الحميم: الماء السُّخْن، والآني: الشديد الحرّ.

وقيل: الحاضر من قولك: أَنَى الشيء: إذا حضر.

والأول أظهر.

* * *

[﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾)] .

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ : القيام بين يديه للحساب، ومنه: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦].

وقيل: قيام الله عليه بأعماله، ومنه: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الرعد: ٣٣].

وقيل: معناه: لمن خاف ربه وأقحم المقام، كقولك: خفت جانب فلان.

واختُلف هل الجنتان لكل خائف على انفراده أو لصنف الخائفين؟، وذلك مبني على قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ﴾ هل يراد به واحد أو جماعة؟

وقال الزمخشري: إنما قال ﴿جَنَّتَانِ﴾؛ لأنه خاطب الثقلين، فكأنه قال: جنة للإنس وجنة للجن[(١)].

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ ثنّى «ذات» هنا على الأصل؛ لأن أصله: «ذوات»، قاله ابن عطية[(٢)].

والأفنان: جمع فَنَنٍ، وهو الغصن.

أو جمع فَنٍّ، وهو الصنف من الفواكه وغيرها.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾﴾ أي: نوعان.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى: هو ما يجتنى من الثمار، و﴿دَانٍ﴾: قريب.

وروي أن الإنسان يجتني الفاكهة في الجنة على أيّ حال كان؛ من قيام أو جلوسٍ أو اضطجاع؛ لأنها تتدلى له إذا أرادها.

وفي قوله: ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ﴾ ضربٌ من ضروب التجنيس.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ ذكر في «الصافات»[(٣)].

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ المعنى: أنهن أبكار، و﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ﴾ معناه: لم يفتضَّهنَّ.

وقيل: الطمث: الجماع سواء كان لبكر أو غيرها.

---

(١) الكشاف (١٥/ ١٧١).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ١٧٧)، فردَّ عينها في التثنية، ولم يقل: «ذاتا»، وانظر: البحر المحيط لأبي حيان (٨/ ٥٣٦).

(٣) انظر (٣/ ٦٦٥).

ونفَى أن يطمثهن إنس أو جان؛ مبالغةً وقصدًا للعموم، فكأنه قال: لم يطمثهن شيء.

وقيل: أراد: لم يطمث نساءَ الإنس إنسٌ ولم يطمث نساءَ الجن جنٌّ، وهذا على القول بأن الجن(١) يدخلون الجنة ويتلذَّذون فيها بما يتلذذ البشر.

﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨﴾ شبَّه النساء بالياقوت والمرجان في الحمرة والجمال.

وقد ذكر معنى المرجان في أول السورة.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ۝٦٠﴾ المعنى: أن جزاء من أحسن بطاعة الله أن يحسن الله إليه بالجنة.

ويحتمل أن يكون الإحسان هنا هو الذي سأل عنه جبريل رسول الله ﷺ فقال له: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٢)، وذلك هو مقام المراقبة والمشاهدة، فجعل جزاء ذلك الإحسان بهاتين الجنتين، ويقوي هذا: أنه جعل هاتين الجنتين الموصوفتين هنا لأهل المقام العليِّ، وجعل جنتين دونهما لمن كان دون ذلك، فالجنتان المذكورتان أوَّلًا للسابقين، والمذكورتان بعد ذلك لأصحاب اليمين حسَبما ورد في «الواقعة».

وانظر كيف جعل أوصاف هاتين الجنتين، أعلى من أوصاف الجنتين اللتين بعدهما فقال هنا: ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾، وقال في الأُخريين: ﴿عَيْنَانِ

(١) في ج: «وعلى هذا القول فإن الجن..».
(٢) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٨).

نَضَّاخَتَانِ﴾، والجرْي أشدُّ من النضخ، وقال هنا: ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، وقال هناك: ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾، وكذلك صفة الحور هنا أبلغ من صفاتها هناك، وكذلك صفة البُسُط، ويفسر ذلك قول رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وكل ما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وكل ما فيهما»(١).

﴿مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾﴾ أي: تضربان إلى السواد من شدَّة الخضرة.

﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: تفوران بالماء، والنضخ - بالخاء المعجمة - أشد من النضح - بالحاء المهملة -.

﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ خصَّ النخل والرمان بالذكر بعد دخولهما في الفاكهة؛ تشريفًا لهما، وبيانًا لفضلهما على سائر الفواكه، وهذا هو التجريد.

﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ خيرات: جمع خَيْرة.

وقال الزمخشري وغيره: أصله خَيِّراتٌ بالتشديد ثم خُفِّفت، كميت، وقد قرئ بالتشديد(٢).

قالت أم سلمة: يا رسول الله! أخبرني عن قوله تعالى: ﴿خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ قال: «خيرات الأخلاق، حسان الوجوه»(٣).

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾﴾ الحور: جمع حَوراء، والمقصورات: المحجوبات؛ لأن النساء يُمْدحن بملازمة البيوت ويُذْممن بكثرة الخروج.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

(٢) الكشاف (١٥/ ١٧٥).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٢٦٣).

والخيام: هي البيوت التي من الخشب والحشيش ونحو ذلك، وخيام الجنة من لؤلؤ.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفۡرَفٍ خُضۡرٖ﴾ الرَّفرف: البُسُط.

وقيل: الوسائد.

وقيل: رياض الجنة.

﴿وَعَبۡقَرِيٍّ حِسَانٖ﴾ العبقري: الطَّنافِس.

وقيل: الزَّرَابيُّ.

وقيل: الديباج الغليظ.

وهو منسوب إلى عَبْقَرَ، وتزعم العرب أنه بلد الجن، فإذا أعجبها شيء نسبته إليه.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ﴾ ذُكر ﴿تَبَٰرَكَ﴾ في «الفرقان»[1] وغيرها.

والاسم هنا يراد به المسمى على الأظهر.

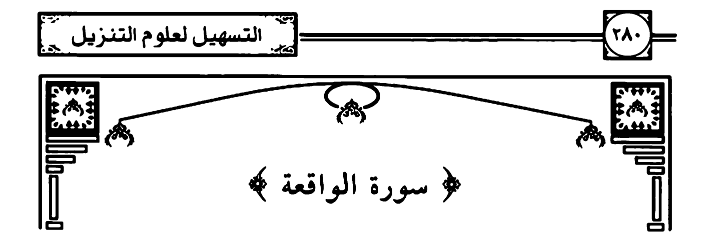
وقرأ الجمهور ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ﴾ بالياء، صفة لـ ﴿رَبِّكَ﴾.

وقرأ ابن عامر بالواو، صفة للاسم.

وقد ذُكر معنى: ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾.

---

(١) انظر (٣/ ٣٢٣).



﴿ سورة الواقعة ﴾

روى ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ سورة الواقعة لم تصبه فاقة أبدًا»(١).

ولما حضرت ابنَ مسعود الوفاةُ قيل له: ما تركت لبناتك؟ قال: تركت لهن سورة الواقعة.

[﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ١١ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ١٢ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ١٤ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ١٥ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ١٦ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ١٩ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ٢٠ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ٢١ وَحُورٌ عِينٌ ٢٢ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ٢٣ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٢٤ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ٢٦ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ٢٧ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ٢٨ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ٢٩ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ٣٣

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٤٩١)، وانظر تخريجًا موسعًا له في تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٣/ ٤١١).

وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾)].

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾﴾ يعني: إذا قامت القيامة، فالواقعة: اسم من أسماء القيامة تدل على هولها، كالطامة والصاخة.

وقيل: الواقعة: الصيحة، وهي النفخة في الصور.

وقيل: الواقعة: صخرة بيت المقدس تقع يوم القيامة، وهذا بعيد.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾ يحتمل ثلاثة أوجه:

الأول: أن تكون ﴿كَاذِبَةٌ﴾ مصدرًا كالعاقبة، والمعنى: ليس لها كذب ولا ردٌّ.

الثاني: أن تكون ﴿كَاذِبَةٌ﴾ صفة لمحذوف، كأنه قال: ليس لها حالة كاذبة؛ أي: هي صادقة الوقوع ولا بدَّ، وهذا المعنى قريب من الأول.

الثالث: أن يكون التقدير: ليس لها نفْسٌ كاذبة أي: تَكْذِب في إنكار البعث؛ لأن كل نفس تؤمن حينئذ.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾﴾ تقديره: هي خافضة رافعة، فينبغي أن يوقف على ما قبله لبيان المعنى.

والمراد بالخفض والرفع: أنها تخفض أقوامًا إلى النار، وترفع أقوامًا إلى الجنة.

وقيل: ذلك عبارةٌ عن هولها؛ لأن السماء تنشق، والأرض تزلزل وتمدُّ، والجبال تُنسَف؛ فكأنها تخفض بعض هذه الأجرام وترفع بعضها.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤﴾ أي: زُلزلت وحركت تحريكًا شديدًا.

و﴿إِذَا﴾ هنا بدل من ﴿إِذَا وَقَعَتِ﴾.

ويحتمل أن يكون العامل فيه ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣﴾.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي: فُتِّتت.

وقيل: سيِّرت.

﴿هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ الهباء: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة، ولا تكاد ترى إلَّا في الشمس إذا دخلت على كُوَّة، قاله ابن عباس.

وقال عليّ بن أبي طالب: هو ما تطاير من حوافر الدواب من التراب.

وقيل: ما تطاير من شرَر النار، فإذا طَفِئ لم يوجد شيءٌ[1].

والمنبثُّ: المفترق[2].

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧﴾ هذا خطاب لجميع الناس؛ لأنهم ينقسمون يوم القيامة إلى هذه الأصناف الثلاثة، وهم: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

فأما السابقون: فهم أهل الدرجات العلى في الجنة.

وأما أصحاب اليمين: فهم سائر أهل الجنة.

وأما أصحاب الشمال: فهم أهل النار.

---

(١) في أ: «يجد شيئا»، وفي ب، ج: «يوجد شيئًا».

(٢) في ج، هـ: «المتفرق».

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ هذا ابتداءٌ وخبر، فيه معنى التعظيم، كقولك: زيد ما زيد؟

و﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ يحتمل أن تكون:

مشتقةً من اليُمْن وهو ضد الشؤم، وتكون ﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ مشتقة من الشؤم.

أو تكون ﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ من ناحية اليمين، و﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ من ناحية الشمال، واليد الشؤمى هي الشمال، وذلك لأن العرب تجعل الخير من اليمين، والشر من الشمال، أو لأن أهل الجنة يُحملون إلى جهة اليمين، وأهل النار يحملون إلى جهة الشمال.

أو يكون من أخذ الكتب[1] باليمين أو الشمال.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾ الأول: مبتدأ، والثاني خبره:

على وجه التعظيم، كقولك: «أنت أنت».

أو على معنى أن السابقين إلى الطاعة هم السابقون إلى الجنة.

وقيل: إن ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الثاني صفة للأول أو تأكيدٌ، والخبر ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝١١﴾.

والأرجح أن يكون الثاني خبر الأول؛ لأنه في مقابلة قوله: ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩﴾ وعلى هذا يوقف على ﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ الثاني، ويبتدئ بما بعده.

---

(١) في ب، د، هـ: «الكتب».

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ **الثلة**: الجماعة من الناس، **فالمعنى**: أن السابقين من الأولين أكثر من السابقين من الآخرين.

والأولون: هم أول هذه الأمة، والآخِرون: هم المتأخرون من هذه الأمة، والدليل على ذلك: ما روي أن رسول الله ﷺ قال: «**الفرقتان في أمتي**»[١]، وذلك لأن صدْر هذه الأمة خير ممن بعدهم فكثُر السابقون من السلف الصالح، وقلُّوا بعد ذلك، ويشهد لذلك قوله ﷺ: «**خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم**»[٢].

وقيل: إن الفرقتين في أمة كل نبيٍّ، فالسابقون في كل أمة يكثرون في أولها ويقلون في آخرها.

وقيل: إن الأولين هم من كان قبل هذه الأمة، والآخِرين هم هذه الأمة، فيقتضي هذا: أن السابقين من الأمم المتقدمة أكثر من السابقين من هذه الأمة، وهذا بعيد.

وقيل: إن السابقين يراد بهم: الأنبياء؛ لأنهم كانوا في أول الزمان أكثر مما كانوا في آخِره.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾﴾ **السرر**: جمع سرير.

والموضونة: المنسوجة.

وقيل: المشبَّكة بالدر والياقوت.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٣٣٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٢)، ومسلم (٢٥٣٣).

وقيل: معناه: متواصلة قد أُدنِي بعضها من بعض.

﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي: وجوه بعضهم إلى بعض.

﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ الولدان: صغار الخدم، والمخلدون: الذين لا يموتون.

وقيل: المقرَّطون بالخَلَدات، وهي ضرب من الأقراط.

والأول أظهر.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ الأكواب: جمع كوب، وهو الإناء وهو الذي لا أُذُن له ولا خرطوم يُمسَك به.

والأباريق: جمع إبريق، وهو الإناء الذي له خرطوم أو أذن يمسك به.

﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ ذكر في «الصافات»[1].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ أي: لا يَلحق رؤوسهم الصداعُ الذي يصيب من خمر الدنيا.

وقيل: لا يُفرَّقون عنها، فهو من الصَّدْع وهو الفُرقة.

ومعنى ﴿لَا يُنزِفُونَ﴾: لا يَسكرون.

﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ قيل: يتخيَّرون ما شاؤوا؛ لكثرتها.

وقيل: متخيَّرة؛ أي: مَرْضيَّة.

﴿وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ قدمنا معناه.

---

(١) انظر (٣/ ٦٦٤).

وقرئ:

[أ-] بالرفع:

على تقدير: فيها حور.

أو عطفٌ على الضمير في ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾[(١)].

أو على ﴿وِلۡدَٰنٞ﴾.

[ب-] وبالخفض: عطف على المعنى كأنه قال: ينعَّمون بهذا كله وبحور عين.

وقيل: خفض على الجوار.

﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِٕ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ شبههن باللؤلؤ في البياض ووصفه بالمكنون؛ لأنه أبعد عن تغير حسنه، وسألت أم سلمة رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه فقال: «صفاؤهن كصفاء الدر في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي»[(٢)].

﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥﴾ اللغو: الكلام الساقط كالفحش وغيره.

والتأثيم: مصدر، بمعنى: لا يؤثِّم أحدٌ هناك نفسه ولا غيره.

﴿إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾ انتصب ﴿سَلَٰمٗا﴾ على أنه:

بدلٌ من ﴿قِيلٗا﴾.

---

(١) فيكون التقدير: استقرُّوا هم وحورٌ عينٌ حال كونهم متكئين. انظر: المحرر الوجيز (٨/ ١٩٦) والكشاف (١٥/ ١٩١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٣٠٤).

أو صفة له.

أو مفعول به لـ ﴿قِيلًا﴾؛ لأن معناه: قولٌ، ومعنى السلام على هذا التحية، والمعنى: أنهم يفشون السلام فيسلمون سلامًا بعد سلام.

ويحتمل أن يكون معناه: السلامة، فينتصب بفعل مضمر تقديره: اسلموا[1] سلامًا.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾﴾ هذا مبتدأ وخبره، قُصد به التعظيم فيوقف عليه، ويبتدأ بما بعده.

ويحتمل أن يكون الخبر ﴿فِى سِدْرٍ﴾، ويكون ﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ اعتراضًا.

والأول أحسن.

وكذلك إعراب ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾﴾ السدر: شجر معروف.

قال ابن عطية: وهو الذي يقال له: شجر أم غيلان[2].

وهو كثير في بلاد المشرق، وهي في بعض بلاد الأندلس دون بعض.

والمخضود: الذي لا شوك فيه، كأنه خُضِد شوكه، وذلك أن سدر الدنيا له شوك، فوصف سدر الجنة بضد ذلك.

وقيل: المخضود: هو المُوْقَر الذي انثنت أغصانه من كثرة حِمله، فهو

---

(١) في ب، د: «سلموا».

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ١٩٧).

على هذا: مِن خَضد الغصنَ: إذا ثنَاه.

﴿وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ۝٢٩﴾ الطلح: شجر عظام كثيرة الشوك، قاله ابن عطية[١].

وقال الزمخشري: هو شجر الموز[٢].

وحكى ابن عطية هذا عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وقرأ علي ابن أبي طالب: «وطلع منضود» بالعين، فقيل له: إنما هو «وطلح» فقال: ما للطلح وللجنة! فقيل له: أنصلحها[٣] في المصحف؟ فقال: المصحف اليوم لا يغيَّر.

والمنضود: الذي تنضَّد بالثمر من أعلاه إلى أسفله، حتى لا يظهر له ساق.

﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠﴾ أي: منبسط لا يزول؛ لأنه لا تنسخه شمس، وقال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها واقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ۝٣٠﴾»[٤].

﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ۝٣١﴾: أي: مصبوب، وذلك عبارة عن كثرته.

وقيل: المعنى: أنه جارٍ في غير أخاديد.

وقيل: المعنى: أنه يجري من غير ساقية ولا دلو ولا تعب.

﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ۝٣٣﴾ أي: لا ينقطع إبَّانها كفاكهة الدنيا، فإن

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ١٩٧).

(٢) الكشاف (١٥/ ١٩٦).

(٣) في ب، هـ: «أتصلحها».

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٥٢).

شجر الجنة تثمر في كل وقت، ولا تمتنع ببعد تناوُلِها ولا بغير ذلك من وجوه المنع.

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ هي الأَسِرَّة، وقد روي أن ارتفاع سريرٍ منها مسيرة خمس مئة عام.

وقيل: هي النساء، وهذا بعيد.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ الضمير لنساء الجنة، فإن سياق الكلام يقتضي ذلك، وإن لم يتقدم ذكرهن، ولكن قد تقَدَّم ذكر الفُرش وهي تدل على النساء.

وأما من قال: إن الفرش هي النساء فالضمير عائد عليها.

وقيل: يعود على الحور العين المذكورات قبل هذا، وذلك بعيد، فإن ذلك في وصف جنات السابقين، وهذا في وصف جنات أصحاب اليمين.

ومعنى إنشاء النساء: أن الله تعالى يخلقهن في الجنة خَلْقًا آخر في غاية الحسن - بخلاف الدنيا -، فالعجوز ترجع شابة والقبيحة ترجع حسَنة.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ روي: أنهن دائمات البكارة متى عاود الوطء وجدها بكرًا.

﴿عُرُبًا﴾ جمع عَروب، وهي المتوددة إلى زوجها بإظهار محبته.

وعبَّر عنهن ابن عباس: بأنهن العواشق لأزواجهن.

وقيل: هي الحسنة الكلام.

﴿أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾﴾ أي: مستوياتٍ في السن مع أزواجهن، وروي أنهم يكونون في سن أبناء ثلاثة وثلاثين عامًا.

و﴿لِأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ يتعلق بقوله: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ على ما قال الزمخشري[١].

ويحتمل أن يتعلق بـ﴿أَتْرَابًا﴾، وهذا هو الذي يقتضيه المعنى؛ أي: أترابٌ لأزواجهن.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾ أي: جماعة من أول هذه الأمة وجماعة من آخرها، وقد قال رسول الله ﷺ: «الفرقتان من أمتي»[٢]، وفي ذلك ردٌّ على من قال إنهما من غير هذه الأمة.

وتأمل كيف جعل أصحاب اليمين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، بخلاف السابقين فإنهم قليل في الآخرين؛ وذلك لأن السابقين في أول هذه الأمة أكثر منهم في آخرها؛ لفضيلة السلف الصالح، وأما أصحاب اليمين فكثيرٌ في أولها وآخرها.

* * *

(١) الكشاف (١٥/ ٢٠١).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٣٣٤).

[﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٖ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُتۡرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلۡحِنثِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَوَّلِينَ وَٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجۡمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلۡمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَأٓكِلُونَ مِن شَجَرٖ مِّن زَقُّومٖ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنۡهَا ٱلۡبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرۡبَ ٱلۡهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمۡ يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحۡنُ خَلَقۡنَٰكُمۡ فَلَوۡلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَحۡرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمۡ تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمۡ أَنشَأۡتُمۡ شَجَرَتَهَآ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحۡنُ جَعَلۡنَٰهَا تَذۡكِرَةٗ وَمَتَٰعٗا لِّلۡمُقۡوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾].

﴿فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ﴿٤٢﴾ وَظِلّٖ مِّن يَحۡمُومٖ ﴿٤٣﴾﴾ السموم: الحر الشديد.

والحميم: الماء الحار جدًّا.

واليحموم: هو الأسود.

والظل من يحموم: هو الدخان في قول الجمهور.

وقيل: سرادق النار المحيط بأهلها؛ فإنه يرتفع من كل جهة حتى يظلّهم.

وقيل: هو جبل في جهنم.

﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ معنى ﴿يُصِرُّونَ﴾: يدومون من غير إقلاع.

و﴿ٱلْحِنثِ﴾: هو الإثم.

وقيل: هو الشرك.

وقيل: الحنث في اليمين؛ أي اليمين الغموس.

﴿أَءِذَا مِتْنَا﴾ الآيةَ؛ معناها: أنهم أنكروا البعث بعد الموت.

وقد ذكرنا قراءة الاستفهامين في «الرعد»[1]، و﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا﴾ في «الصافات»[2].

﴿أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ خطاب لكفار قريش وسائر الكفار.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ﴾ الضمير للمأكول.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ وزن ﴿ٱلْهِيمِ﴾ فُعلٌ بضم الفاء، وكسرت الهاء لأجل الياء، وهو جمع أهْيم، وهو الجمل الذي أصابه الهُيام - بضم الهاء - وهو داء معطِّش يشرب معه الجمل حتى يموت أو يسقم، والأنثى هَيْماء.

وقيل: جمع هائم وهائمة.

وقيل: الهِيم: الرمال التي لا تَروى من الماء، وهو على هذا جمع هَيام - بفتح الهاء -.

وقرئ ﴿شُرْبَ﴾ بضم الشين، واختلف هل هو مصدر أو اسم المشروب؟

---

(١) انظر (٢/ ٦٦٩).

(٢) انظر (٣/ ٦٥٩).

وقرئ بالفتح، وهو مصدر.

فإن قيل: كيف عطف قوله: ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ على ﴿فَشَٰرِبُونَ﴾ ومعناهما واحد؟

فالجواب: أن المعنى مختلف؛ لأن الأول يقتضي الشرب مطلقًا، والآخر يقتضي الشرب الكثير المُشْبِه لشرب[1] الهيم.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ﴾ النُّزل: أول ما يأكله الضيف، فكأنه يقول: هذا أول عذابهم فما ظنك بسائره؟

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ تحضيضٌ على التصديق إما بالخالق تعالى، وإما بالبعث؛ لأن الخلقة الأولى دليل عليه.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾﴾ هذه الآية وما بعدها تتضمن إقامة براهين على الوحدانية وعلى البعث، وتتضمن أيضًا وعيدًا وتعديدَ نِعم.

ومعنى ﴿تُمْنُونَ﴾: تقذفون المنيَّ في رحم المرأة.

﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ هذا توقيفٌ يقتضي أن يجيبوا عليه بأن الله هو الخالق لا إله إلا هو.

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ أي: جعلناه مقدرًا بآجال معلومة وأعمار منها طويل وقصير ومتوسط.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ المسبوق على الشيء: هو المغلوب عليه؛ بحيث لا يقدر عليه.

---

(١) في ب، ج، هـ: «بشرب».

و﴿نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾: معناه: نهلككم ونستبدل قومًا غيركم.

وقيل: نمسخكم قردة وخنازير.

و﴿نُنشِئَكُمْ﴾ معناه: نبعثكم بعد هلاككم.

و﴿فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ معناه: ننشئكم في خِلْقة لا تعلمونها على وجه لا تصل عقولكم إلى فهمه.

فمعنى الآية: أن الله قادر على أن يهلكهم وعلى أن يبعثهم، ففيها تهديدٌ واحتجاج على البعث.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ تحضيضٌ على التذكُرِ والاستدلالِ بالنشأة الأولى على النشأة الآخرة.

وفي هذه دليل على صحة القياس.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المراد بالزراعة هنا: إنبات ما يُزرع وتمام خلقته؛ لأن ذلك مما انفرد الله به ولا يدعيه غيره، قال رسول الله ﷺ: «**لا يقولنّ أحدكم زرعت، ولكن يقول حرثت**»[1].

والمراد بالحرث: قلب الأرض وإلقاء الزريعة فيها، وقد يقال لهذا: زرع، ومنه قوله: ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ الحطام: اليابس المتفتت.

وقيل: معناه تبْنٌ بلا قمح.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١٣/ ٣٠)، والبزار في مسنده (١٧/ ٣٠٨).

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تطَّرِحون الفَكَاهة وهي المسرَّة، يقال: رجلٌ فَكِهٌ: إذا كان مسرورًا منبسط النفس، ويقال: تفكَّه إذا زالت عنه الفَكاهة فصار حزينًا؛ لأن صيغة «تفعَّل» تأتي لزوال الشيء، كقولهم: تحرَّج وتأثَّم: إذا زال عنه الحرج والإثم.

فالمعنى: صرتم تحزنون على الزرع لو جعله الله حطامًا.

وقد عبر بعضهم عن ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ بأن معناه: تتفجعون.

وقيل: تندمون.

وقيل: تعجبون.

وهذه معانٍ متقاربة، والأصل ما ذكرنا.

﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾﴾ تقديره: تقولون ذلك لو جعل الله زرعكم حطامًا.

والمُغرم المعذَّب؛ لأن الغرام هو أشد العذاب.

ويحتمل أن يكون من الغُرْم؛ أي: مثقلون بما غَرِمنا من النفقة على الزرع.

والمحروم: الذي حرمه الله الخير.

﴿مِنَ الْمُزْنِ﴾ هي السحاب.

والأُجاج: الشديد الملوحة.

فإن قيل: لم ثبتت اللام في قوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا﴾ وسقطت من قوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾؟

فالجواب: من وجهين:

أحدهما: أنه أغنى إثباتُها أولًا عن إثباتها ثانيًا مع قرب الموضعين.

والآخر: أن هذه اللام تدخل للتأكيد، فأدخلت في آية المطعوم دون آية المشروب؛ للدلالة على أن الطعام أوكد من الشراب؛ لأن الإنسان لا يشرب إلا بعد أن يأكل.

﴿ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ أي: تقدحونها من الزِّناد.

والزناد قد يكون من حجرين، ومن حجر وحديدة، ومن شجر وهو المرخ والعَفَار، ولما كانت عادة العرب في زنادهم من شجر قال الله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ أي: الشجرة التي تُزْنَد منها النار.

وقيل: أراد بالشجرة نفس النار؛ كأنه يقول: نوعها أو جنسها فاستعار الشجرة لذلك، وهذا بعيد.

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ أي: تذكِّر بنار جهنم.

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ المتاع: ما يُتمتَّع به.

ويحتمل المقوين:

أن يكون من الأرض القَواء، وهي الفيافي، فمعنى المقوين: الذين دخلوا في القَواء، ولذلك عبر ابن عباس عنه: بالمسافرين.

ويحتمل أن يكون من قولهم: أقوى المنزلُ: إذا خلا، فمعناه: الذين خلت بطونهم أو مزاودهم من الطعام، ولذلك عبَّر بعضهم عنه: بالجائعين.

[﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ۝٨١ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ۝٨٢ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ۝٨٩ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ ۝٩١ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٞ مِّنۡ حَمِيمٖ ۝٩٣ وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ ۝٩٤ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ ۝٩٥ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾].

﴿۞ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥﴾ «لا» في هذا الموضع وأمثاله زائدة، وكأنها زيدت لتأكيد القسم، أو لاستفتاح الكلام، نحو: «ألا».

وقيل: هي نافية لكلام الكفار، كأنه يقول: لا صحة لما يقول الكفار، وهذا ضعيف.

والأول أحسن؛ لأن زيادة «لا» كثيرة معروفة في كلام العرب.

و﴿مَوَاقِعِ النجوم﴾ فيه قولان:

أحدهما - **قول ابن عباس** - : إنها نجوم القرآن؛ إذ أُنزل على النبي ﷺ مقطَّعًا بطول عشرين سنة، فكل قطعة منه نجمٌ.

والآخر - **قول كثير من المفسرين** - : إن النجوم الكواكب، ومواقعها: مغاربها ومساقطها.

وقيل: مواضعها من السماء.

وقيل: انكدارها يوم القيامة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦﴾ هذه جملة اعتراض بين القسم وجوابه.

وقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ اعتراضٌ بين الموصوف وصفته، فهو اعتراض في اعتراض، والمقصود بذلك: تعظيم المقسم به، وهو مواقع النجوم.

وجواب القسم: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾ وأعاد الضمير على القرآن؛ لأن المعنى يقتضيه، أو لأنه مذكور على قول من قال: إن ﴿مَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ نزول القرآن.

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨﴾ أي: مصون، والمراد بهذا الكتاب المكنون: المصاحف التي كُتب فيها القرآن.

أو صحف القرآن بأيدي الملائكة عليهم السلام.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩﴾ الضمير يعود على الكتاب المكنون.

ويحتمل أن يعود على القرآن المذكور قبله، إلَّا أن هذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: أن مسَّ الكتاب حقيقة، ومس القرآن مجاز، والحقيقة أولى من المجاز.

والآخر: أن الكتاب أقرب، والضمير يعود على أقرب مذكور.

فإذا قلنا: إنه يعود على الكتاب المكنون:

[أ-] فإن قلنا إن الكتاب المكنون هو الصحف التي بأيدي الملائكة: فـ ﴿ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ يراد به الملائكة؛ لأنهم مطهرون من الذنوب والعيوب،

والآية إخبارٌ أنه لا يمسه إلّا هم دون غيرهم.

[ب-] وإن قلنا إن الكتاب المكنون هو المصحف الذي[١] بأيدي الناس: فيحتمل:

أن يريد بالمطهَّرين المسلمين؛ لأنهم مطهرون من الكفر.

أو يريد المطهرين من الحدث الأكبر، وهو الجنابة والحيض، فالطهارة على هذا: الاغتسال.

أو المطهرين من الحدث الأصغر، فالطهارة على هذا: الوضوء.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾: خبرًا، أو نهيًا.

على أنه قد أنكر بعض الناس أن يكون نهيًا، وقال: لو كان نهيًا لكان بفتح السين.

وقال المحققون: إن النهيَ يصح مع ضم السين؛ لأن الفعل المضاعف إذا كان مجزومًا واتصل به ضمير المفرد المذكر ضُمَّ عند التقاء الساكنين؛ إتْباعًا لحركة الضمير.

وإذا جعلناه خبرًا فيحتمل:

أن يقصد به مجرد الإخبار.

أو يكون خبرًا بمعنى النهي.

وإذا كان لمجرَّد الإخبار، فالمعنى: أنه لا ينبغي أن يمسه إلَّا المطهرون؛

---

(١) في أ، ب: «الصحف التي».

أي: هذا حقُّه وإن وقع خلافُ ذلك.

واختلف الفقهاء فيمن يجوز له مس المصحف على حسَب الاحتمالات في الآية:

فأجمعوا على أنه لا يجوز أن يمسه كافر؛ لأنه إن أراد بالمطهَّرين المسلمين، فذلك ظاهر، وإن أراد الطهارة من الحدث فالإسلام حاصل مع ذلك.

وأما المحدث ففيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه لا يجوز أن يمسه الجنب ولا الحائض ولا المحدث حدثًا أصغر، وهذا قول مالك وأصحابه، ومنعوا أيضًا أن يحمله بعِلَاقة أو وِسادة.

وحجتهم: الآية، على أن يراد بالمطهرين الطهارةُ من الحدث الأكبر والأصغر، وقد احتج مالك في الموطأ بالآية على المسألة.

ومن حجتهم أيضًا: كتاب رسول الله ﷺ إلى عمرِو بن حزم: «**أن لا يمس القرآن إلا طاهر**»[(١)].

القول الثاني: أنه يجوز مسه للجنب والحائض والمحدث حدثًا أصغر، وهو مذهب أحمد بن حنبل[(٢)] والظاهرية، وحملوا المطهرين على أنهم

---

(١) رواه مالك مرسلا (٢٣٤)، وابن حبان (١٤/ ٥٠٤) والدارقطني (١/ ١٢١) متصلا.

(٢) في نسبة هذا القول إلى الإمام أحمد نظرٌ، فمذهب الإمام أحمد أنه يحرم على المحدث حدثًا أصغر أو أكبر مسُّ المصحف. انظر: الشرح الكبير مع الإنصاف (٢/ ٧١).

المسلمون أو الملائكة، أو جعلوا ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ لمجرد الإخبار.

والقول الثالث: أنه يجوز مسه بالحدث الأصغر دون الأكبر، (وحمل صاحب هذا القول المطهرين على أنه يراد به: الطهارة من الحدث الأكبر)[1].

ورخص مالك في مسه على غير وضوء للمعلم والصِّبيان؛ لأجل المشقة.

واختلفوا في قراءة الجنب القرآنَ:

فمنعه الشافعي وأبو حنيفة مطلقًا.

وأجازه الظاهرية مطلقًا.

وأجاز مالك قراءة الآيات اليسيرة.

واختلفوا في قراءة الحائض والنفساء للقرآن عن ظهر قلب:

فعن مالك في ذلك روايتان.

وفرق بعضهم بين الكثير واليسير.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ هذا خطاب للكفار، والحديث المشار إليه: هو القرآن.

و﴿مُّدْهِنُونَ﴾: معناه متهاونون، وأصله من المداهنة وهي لين الجانب، والموافقة بالظاهر لا بالباطن.

وقال ابن عباس: معناه: مكذِّبون.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ قال ابن عطية: أجمع المفسرون على

---

(١) سقط من أ، ج، هـ

أن الآية توبيخ للقائلين في المطر: إنه نزل بنَوء كذا وكذا[١].

فالمعنى: تجعلون شُكْرَ رِزقِكُم التكذيبَ، فحذف «شُكْرَ»؛ لدلالة المعنى عليه.

وقرأ علي ابن أبي طالب: «وتجعلون شكركم أنكم تَكْذِبون»، وكذلك قرأ ابن عباس، إلَّا أنه قرأ «تُكذِّبون» بضم التاء وبالتشديد كقراءة الجماعة، وقراءة علي بفتح التاء وإسكان الكاف من الكذب، أي: يَكْذبون في قولهم: نزل المطر بنَوء كذا.

ومن هذا المعنى قول رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى يقول: أصبح من عبادي مؤمن بي كافر بالكوكب، وكافر بي مؤمن بالكوكب، فأما من قال: مُطِرْنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا و[٢]كوكب كذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب**»[٣].

والمنهي عنه في هذا الباب: أن يعتقد أن للكواكب تأثيرًا في المطر، وأما مراعاة العوائد التي أجراها الله تعالى فلا بأس به كقوله ﷺ: «**إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة**»[٤]، وقد قال عمر للعباس وهما في الاستسقاء: كم بقي من نوء الثريا؟ فقال العباس: العلماء يقولون: إنها

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢١٣).

(٢) في ب، د: «أو».

(٣) أخرجه البخاري (٨٤٦)، ومسلم (٧١).

(٤) أخرجه مالك في الموطأ (٦١٣).

تعترض في الأفق بعد سقوطها سبعًا، قال ابن المسيب: فما مضت سبع حتى مطروا[١].

وقيل: إن معنى الآية: تجعلون سبب رزقكم تكذيبكم للنبي ﷺ؛ فإنهم كانوا يقولون: إن آمنا به حرمنا الله الرزق، كقولهم: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ [القصص: ٥٧]، فأنكر الله عليهم ذلك.

وإعراب ﴿أَنَّكُمْ﴾ على هذا القول: مفعول بـ ﴿وَتَجْعَلُونَ﴾ على حذف مضاف تقديره: تجعلون سبب رزقكم التكذيب.

ويحتمل أن يكون مفعولًا من أجله، تقديره: تجعلون رزقكم حاصلًا من أجل أنكم تكذبون.

وأما على القول الأول فإعراب ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ مفعولٌ، لا غير.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ ﴿لَوْلَآ﴾ هنا عرضٌ.

والضمير في ﴿بَلَغَتِ﴾ للنفس؛ لأن سياق الكلام يقتضي ذلك.

وبلوغها للحلقوم: حين الموت.

والفعل الذي دخلت عليه ﴿لَوْلَآ﴾ هو قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؛ أي: هلَّا رددتم النفس حين الموت.

ومعنى الآية: احتجاج على البشر وإظهار لعجزهم بأنهم إذا حضر أحدَهم الموت لم يقدروا أن يردُّوا روحه إلى جسده، وذلك دليلٌ على أنهم عبيد مقهورون.

---

(١) أخرجه الحميدي في مسنده (٢/ ٤٣٢)، والبيهقي في السنن الكبير (٣/ ٣٥٩).

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤﴾ هذا خطاب لمن يحضر الميتَ من أقاربه وغيرهم، يعني: تنظرون إليه ولا تقدرون له على شيء.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ يحتمل أن يريد:

قُرْب نفسه تعالى بعلمه واطلاعه.

أو قرب الملائكة الذين يقبضون الأرواح، فيكون من قرب المسافة.

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ إن أراد بقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ﴾:

الملائكة فقوله: ﴿لَّا تُبْصِرُونَ﴾ من رؤية العين.

وإن أراد نفسه تعالى: فهو من رؤية القلب.

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧﴾ ﴿لَوْلَآ﴾ هنا عرض كالأولى، وكررت للتأكيد والبيان لما طال الكلام، والفعل الذي دخلت عليه ﴿لَوْلَآ﴾ الأولى والثانية قوله: ﴿تَرْجِعُونَهَآ﴾؛ أي: هلَّا رددتم النفس إلى الجسد إذا بلغت الحلقوم ﴿إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي: غير مربوبين ومقهورين، فافعلوا ذلك إن كنتم صادقين في كفركم.

وترتيب الكلام: فلولا ترجعون النفس إذا بلغت الحلقوم إن كنتم غير مدينين؟؛ فارجعوها إن كنتم صادقين.

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨﴾ الضمير في ﴿كَانَ﴾ للمتوفَّى.

وكرر هنا ما ذكره في أول السورة من تقسيم الناس إلى ثلاثة أصناف: السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال.

فالمراد بـ ﴿ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ هنا: السابقون المذكورون هناك.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ الرَّوح: الاستراحة.

وقيل: الرحمة، وروي أن رسول الله ﷺ قرأ ﴿فَرُوحٌ﴾ بضم الراء[1]، ومعناه الرحمة.

وقيل: الخلود، أي: بقاء الروح.

وأما الريحان:

فقيل: إنه الرزق.

وقيل: الاستراحة.

وقيل: الطيب.

وقيل: الريحان المعروف في الدنيا يلقاه في الجنة.

وفي قوله: ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ ضرب من ضروب التجنيس.

﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾﴾ معنى هذا على الجملة: نجاة أصحاب اليمين وسعادتهم.

والسلام هنا يحتمل أن يكون: بمعنى السلامة، أو التحية.

والخطاب في ذلك يحتمل: أن يكون للنبي ﷺ، أو لأحد أصحاب اليمين.

[أ-] فإن كان للنبي ﷺ: فالسلام بمعنى السلامة، والمعنى: سلام لك يا محمد منهم، أي: لا ترى فيهم إلا السلامة من العذاب.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٤٣٥٢)، وأبو داود (٣٩٩١)، والترمذي (٢٩٣٨)، والنسائي في الكبرى (١٠/ ٢٨٧).

[ب-] وإن كان الخطاب لأحد أصحاب اليمين:

فالسلام بمعنى التحية، والمعنى: سلام لك، أي: تحية لك يا صاحب اليمين من إخوانك، وهم أصحاب اليمين، أي: يسلمون عليك، فهو كقوله: ﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

أو يكون بمعنى السلامة، والتقدير: سلامة لك يا صاحب اليمين، ثم يكون قوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ خبر ابتداء مضمر تقديره: أنت من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني: الكفار، وهم أصحاب الشمال وأصحاب المشأمة.

﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾﴾ النُّزل: أول شيء يقدَّم للضيف.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ الإشارة إلى تضمنته هذه السورة من أحوال الخلق في الآخرة.

و﴿حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾: معناه الثابت من اليقين.

وقيل: إن الحق واليقين بمعنى واحد، فهو من إضافة الشيء إلى نفسه، كقولك: مسجد الجامع.

واختار ابن عطية أن يكون كقولك في أمر تؤكده: «هذا يقين اليقين» أو «صواب الصواب»، بمعنى: أنه نهاية الصواب[1].

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢١٦).

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ۝٧٤﴾ لما نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم» فلما نزلت ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ قال ﵇: «اجعلوها في سجودكم»[١].

فلذلك استحب مالك وغيره أن يقول في السجود: «سبحان ربي الأعلى» وفي الركوع: «سبحان ربي العظيم».

وأوجبه الظاهرية.

ويحتمل أن يكون المعنى:

سبِّح الله بذكر أسمائه، والاسم هنا: جنس الأسماء، و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة للرب.

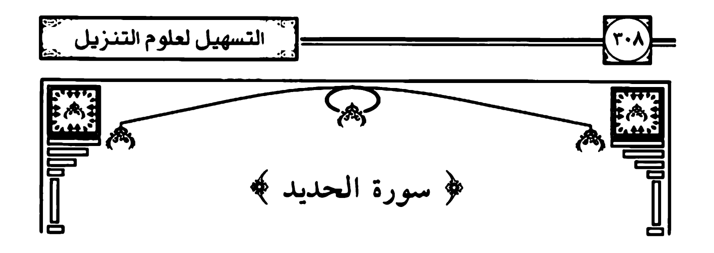
أو يكون الاسم هنا واحدًا، و﴿ٱلْعَظِيمِ﴾ صفة له، فكأنه أمره أن يسبح بالاسم الأعظم، ويؤيد هذا ويشير إليه: اتصال سورة «الحديد» بها، وفي أولها التسبيح وجملةٌ من أسماء الله وصفاته.

قال ابن عباس: اسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد.

وروي أن الدعاء بعد قراءتها مستجاب.

* * *

(١) أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧).



﴿ سورة الحديد ﴾

[﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ هذا التسبيح المذكور هنا وفي أول سائر السور المسبِّحات يحتمل:

أن يكون حقيقة.

وأن يكون بلسان الحال؛ لأن كل ما[1] في السموات والأرض دليلٌ على وجود الله وقدرته وحكمته.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وذكر التسبيح هنا وفي «الحشر» و«الصف» بلفظ الماضي، وفي «الجمعة» و«التغابن» بلفظ المضارع، وكل واحد منهما يقتضي الدوام.

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾ أي: ليس لوجوده بداية، ولا لبقائه نهاية.

﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي: الظاهر للعقول بالأدلة والبراهين الدالة عليه، الباطن: الذي لا تدركه الأبصار، أو الباطن الذي لا تصل العقول إلى معرفة كُنْه ذاته.

وقيل: الظاهر: العالي على كل شيء، فهو من قولك: ظهَرتُ على الشيء: إذا علوتَ عليه، والباطن: الذي بطَن كل شيء أي: علم باطنه. والأول أظهر وأرجح[2].

ودخلت الواو بين هذه الصفات؛ لتدل على أنه تعالى جامع لها، مع اختلاف معانيها.

---

(١) في ب، د: «من».

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قول المصنف: «والأول أظهر وأرجح» أقول: يريد القول الأول في تفسير الظاهر والباطن من أسماء الله، والصواب في تفسير هذين الاسمين هو القول الثاني؛ لأنه الموافق لتفسيره ﷺ؛ إذ قال في الدعاء: «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»، وإنما رجَّح المؤلف القول الأول فرارا من إثبات علوه تعالى بذاته فوق مخلوقاته، ونفيُ ذلك هو مذهب الأشاعرة، وإثباته هو مذهب أهل السنة، كما تقدم قريبا.

وفي ذلك مطابقة لفظية، وهي من أحسن أدوات البيان.

﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ قد ذُكِر، وكذلك ما بعده[١].

﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ يعني: أنه حاضر مع كل أحد بعلمه وإحاطته، وأجمع العلماء على تأويل هذه الآية بذلك.

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ﴾ ذكر في «الحج»[٢]، و«لقمان»[٣].

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني: الإنفاق في سبيل الله وطاعته.

روي أنها نزلت في الإنفاق في غزوة تبوك، وعلى هذا: روي أن قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟﴾ نزلت في عثمان بن عفان ﵁، فإنه جهز جيش العسرة يومئذ.

ولفظ الآية مع ذلك عام، وحكمها باق لجميع الناس.

وقوله: ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ يعني: أن الأموال التي بأيديكم إنما هي أموال الله؛ لأنه خلقها، ولكنه متَّعكم بها وجعلكم خلفاء في التصرف فيها، فأنتم فيها بمنزلة الوكلاء، فلا تمنعوها من الإنفاق فيما أمركم مالكها أن تنفقوها فيه.

ويحتمل أن يعني: ﴿جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ﴾ ممن كان قبلكم فورثتم عنهم الأموال، فأنفقوها قبل أن تخلِّفوها لمن بعدكم، كما خلَّفها لكم مَن كان قبلكم.

---

(١) انظر (٢/ ٣٤٩)، (٣/ ٥٧٢).

(٢) انظر (٣/ ٢١٦).

(٣) انظر (٣/ ٥١١).

والمقصود على كل وجه: تحريضٌ على الإنفاق وتزهيدٌ في الدنيا.

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ معناه: أيُّ شيء يمنعكم من الإيمان، والرسول يدعوكم إليه بالبراهين القاطعة والمعجزات الظاهرة؟

فقوله: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ استفهام يراد به الإنكار، و﴿لَا تُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الحال من معنى الفعل الذي يقتضيه ﴿وَمَا لَكُمْ﴾[1]، والواو في قوله: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ﴾ واو الحال.

﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ يحتمل أن يكون هذا الميثاق:

ما جَعل في العقول من النظر الذي يؤدي إلى الإيمان.

أو يكون الميثاق الذي أخذه على بني آدم؛ حين أخرجهم من ظهر آدم، وأشهدهم على أنفسهم: ألست بربكم؟ قالوا: بلى.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، والعبودية هنا: للتشريف والاختصاص، والآيات هنا: القرآن.

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معناه: أيُّ شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله والله يرث ما في السموات والأرض إذا أفنى[2] أهلها؟

ففي ذلك تحريضٌ على الإنفاق وتزهيد في الدنيا.

﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ﴾ الفتح هنا: فتح مكة.

وقيل: صلح الحديبية.

---

(١) قال في الكشاف (١٥/ ٢٣٣): «كما تقول: مالك قائمًا، بمعنى: ما تصنع قائمًا».

(٢) في د: «فني».

والأول أظهر وأشهر.

ومعنى الآية: التفاوت في الأجر والدرجات بين من أنفق في سبيل الله وقاتل قبل فتح مكة، وبين من أنفق وقاتل بعد ذلك؛ فإن الإسلام قبل الفتح كان ضعيفًا، والحاجة إلى الإنفاق والقتال كانت أشد.

ويؤخذ من الآية: أن من أنفق في شدةٍ أعظمُ أجرًا ممن أنفق في حال الرخاء.

وفي الآية حذفٌ دلَّ عليه الكلام، تقديره: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل مع من أنفق من بعد الفتح وقاتل، ثم حذف ذلك؛ لدلالة قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾.

وفي هذا المعنى قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»[1]، يعني: السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وخاطب بذلك من جاء بعدهم من سائر الصحابة، ويدخل في الخطاب كل من يأتي إلى يوم القيامة.

﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ أي: كل واحدة من الطائفتين الذين أنفقوا وقاتلوا قبل الفتح وبعده وعدهم الله الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧٣)، ومسلم (٢٥٤٠).

[﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾].

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ﴾ ذكر في «البقرة»[1].

﴿يَوْمَ تَرَى﴾ العامل في الظرف: ﴿أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، أو تقدير: اذكر.

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ قيل: إن هذا النور استعارةٌ يراد به الهدى والرضوان.

والصحيح هو قول الجمهور: أنه حقيقة، وقد روي ذلك عن رسول الله ﷺ[2]، فالمعنى على هذا: أن المؤمنين يكون لهم يوم القيامة نورٌ يضيء

---

(١) انظر (١/ ٤٦٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٣٩٨).

قُدَّامهم وعن يمين كل واحد منهم، وقيل: يكون أصله في أيمانهم، يحملونه فينبسط[١] نوره قدَّامهم.

وروي أن نور كل أحد على قدْر إيمانه، فمنهم من يكون نوره كالنخلة السَّحوق[٢]، ومنهم من يضيء ما قرُب من قدميه، ومنهم من يضيء مرة ويَهِمُّ بالانطفاء مرة.

قال ابن عطية: ومن هذه الآية أخذ الناس مَشْيَ المُعتَق بالشمعة قُدَّام مُعتِقه إذا مات[٣].

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ﴾ تقديره: يقال لهم ذلك.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ ﴿يَوْمَ﴾: بدلٌ من ﴿يَوْمَ تَرَى﴾.

أو متعلِّق بـ ﴿ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾، أو بمحذوف: تقديره اذكر.

ومعنى الآية: أن كل مؤمن ومُظْهرٍ للإيمان يُعطى يوم القيامة نورًا، فيبقى نور المؤمنين، وينطفئ نور المنافقين، فيقول المنافقون للمؤمنين ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نأخذ منه ونستضيء به.

ومعنى ﴿ٱنظُرُونَا﴾: انتظرونا، وذلك لأن المؤمنين يسرعون إلى الجنة كالبرق الخاطف، والمنافقون ليسوا كذلك.

---

(١) في ب: «فيسطع».

(٢) النخلة السَّحُوق: أي الطويلة التي بَعُد ثمرُها على المجتني. كما في لسان العرب مادة (سحق).

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٢٢٦).

ويحتمل أن يكون من النظر؛ أي: انظروا إلينا؛ لأنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فاستضاؤوا بنورهم، ولكن يَضْعف هذا؛ لأن «نظَر» إذا كان بمعنى النظر بالعين يتعدى بـ «إلى».

وقرئ ﴿أَنظِرُونَا﴾ بهمزة قطع، ومعناه: أخِّرونا، أي: أمهلوا في مشيكم حتى نَلحقكم.

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ يحتمل أن يكون هذا: من قول المؤمنين، أو قول الملائكة.

ومعناه: الطرد للمنافقين، والتهكُّم بهم؛ لأنهم قد علموا أنهم ليس وراءهم نور.

و﴿وَرَآءَكُمْ﴾ ظرف العامل فيه ﴿ٱرْجِعُوا۟﴾.

وقيل: إنه لا موضع له من الإعراب، وإنه كما لو قال: «ارجعوا ارجعوا».

ومعنى هذا الرجوع:

ارجعوا إلى الموقف فالتمسوا فيه النور.

أو ارجعوا إلى الدنيا فالتمسوا النور بتحصيل الإيمان.

أو ارجعوا خائبين، وتنحَّوا عنا فالتمسوا نورًا آخر، فلا سبيل لكم إلى هذا النور.

﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ﴾ أي: ضُرب بين المؤمنين والمنافقين بسور يفصل بينهم، وفي ذلك السور باب لأهل الجنة يدخلون منه.

وقيل: إن هذا السور هو الأعراف، وهو سور[١] بين الجنة والنار.

وقيل: هو الجدار الشرقي من بيت المقدس، وهذا بعيد.

﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ باطنه: هو جهة المؤمنين، وظاهره: هو جهة المنافقين وهي خارجهُ، كقولك: ظاهر المدينة أي: خارجها.

والضمير في ﴿بَاطِنُهُۥ﴾ ﴿وَظَٰهِرُهُۥ﴾: يحتمل أن يكون:

للسور.

أو للباب.

والأول أظهر.

﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين فيقولون لهم: ألم نكن معكم في الدنيا؟ يريدون إظهارهم للإيمان.

﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: أهلكتموها وأضللتموها بالنفاق.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: أبطأتم بإيمانكم.

وقيل: تربصتم الدوائر بالنبي ﷺ وبالمسلمين.

﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم في الإيمان.

﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ أي: طول الأمل والتمني، ومن ذلك أنهم كانوا يتمنون أن يَهلِك النبي ﷺ والمؤمنون، أو يُهزَموا، إلى غير ذلك من الأمانيّ الكاذبة.

---

(١) في ج: «سد».

﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي: الفتح وظهور الإسلام.

أو موت المنافقين على الحال الموجبة للعذاب.

﴿ٱلْغَرُورُ﴾ هو الشيطان.

﴿هِىَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: هي أولى بكم، وحقيقة المولى: الولي الناصر، فكأنَّ هذا استعارةٌ منه، أي: لا وليَّ لكم تأوون إليه إلَّا النار.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ معنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾: ألم يَحِنْ، يقال: أَنَى الأمرُ: إذا حان وقته.

وذِكْرُ الله يحتمل أن يريد به:

القرآن.

أو الذكر.

أو التذكير بالمواعظ.

وهذه آية موعظة وتذكير.

قال ابن عباس: عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن.

وسمع الفضيل بن عياض قارئًا يقرأ هذه الآية فقال: قد آن، فكان سبب رجوعه إلى الله.

وحُكي أن عبد الله بن المبارك أخذ العود في صباه ليضربه، فنطق بهذه الآية، فكسره ابن المبارك، وتاب إلى الله.

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلُ﴾ عَطَفَ ﴿وَلَا يَكُونُوا۟﴾ على ﴿أَن تَخْشَعَ﴾.

ويحتمل أن يكون نهيًا.

والمراد: التحذير من أن يكون المؤمنون كأهل الكتب المتقدمة وهم اليهود والنصارى.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: مدة الحياة.

وقيل: انتظار القيامة.

وقيل: انتظار الفتح.

والأول أظهر.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي: يحييها بإنزال المطر وإخراج النبات.

وقيل: إنه تمثيل للقلوب؛ أي: يحيي الله القلوب بالمواعظ كما يحيي الأرض بالمطر، وفي هذا تأنيس للمؤمنين الذين نُدبوا إلى أن تخشع قلوبهم.

والأول أرجح؛ لأنه الحقيقة.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ﴾ بتشديد الصاد، من الصدقة، وأصله: «المتصدقين»، وكذلك قرأ أبيّ بن كعب.

وقرئ بالتخفيف من التصديق، أي: صدَّقوا الرسولَ ﷺ.

﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ معطوف على المعنى، كأنه قال: «إن الذين تصدقوا وأقرضوا».

وقد ذكرنا معنى ﴿وَأَقْرَضُوا﴾ في قوله: ﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٤٥][(١)].

﴿الصِّدِّيقُونَ﴾ مبالغة من الصدق، أو من التصديق.

وكونه من الصدق أرجح؛ لأن صيغة «فِعِّيل» لا تبنى إلَّا من فعل ثلاثي في الأكثر، وقد حُكي بناؤها من رباعي كقولهم: رجل مِسِّيكٌ: مِن أمسك.

﴿وَالشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون ﴿وَالشُّهَدَآءُ﴾:

مبتدأ وخبره ما بعده.

أو يكون معطوفًا على الصديقين.

[أ-] فإن كان مبتدأ: ففي المعنى قولان:

أحدهما: أنه جمع شهيد في سبيل الله، فأخبر أنهم عند ربهم لهم أجرهم ونورهم.

والآخر: أنه جمع شاهد، ويراد بهم الأنبياء عليهم السلام؛ لأنهم يشهدون على قومهم.

[ب-] وإن كان معطوفًا: ففي المعنى قولان:

أحدهما: أنه جمع شهيد، فوصف الله المؤمنين بأنهم صديقون وشهداء

(١) انظر (١/ ٤٦٧).

أي: جمعوا الوصفين، وروي في هذا المعنى: أن رسول الله ﷺ قال: «مؤمنو أمتي شهداء» وتلا هذه الآية[١].

والآخر: أنه جمع شاهد؛ لأن المؤمنين يشهدون على الناس كقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ هذا خبرٌ عن الشهداء خاصة إن كان مبتدأ.

وخبر عن المؤمنين إن كان ﴿وَالشُّهَدَاءُ﴾ معطوفًا.

و﴿نُورُهُمْ﴾ هو النور الذي يكون لهم يوم القيامة، حسَبما ذكر في هذه السورة.

وقيل: هو عبارة عن الهدى والإيمان.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٤١٤).

[﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾].

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ الآيةَ؛ معناها: تشبيه الدنيا بالزرع الذي ينبته الغيث في سرعة تغيُّره بعد حسنه، وتحطمه بعد ظهوره.

و﴿ٱلْكُفَّارَ﴾ هنا يراد به: الزُّرَّاع، فهو من قولهم: كفرتُ الحبَّ: أي سترتُه تحت الأرض، وخصَّهم بالذكر؛ لأنهم أهل البصر بالزرع والفِلاحة، فلا يعجبهم إلا ما هو حقيقٌ أن يُعجِب.

وقيل: أراد الكفار بالله، وخصَّهم بالذكر؛ لأنهم أشد إعجابًا بالدنيا وأكثر حرصًا عليها.

﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: سابقوا إلى الأعمال التي تستحقون بها المغفرة:

فقيل: المعنى كونوا في أول صف من القتال.

وقيل: احضروا تكبيرة الإحرام مع الإمام.

وقيل: كونوا أول داخل إلى المسجد، وآخر خارج منه.

وهذه أمثلة، والمعنى العام: المسابقة إلى جميع الأعمال الصالحة.

وقد استدل بها قوم على أن الصلاة في أول الوقت أفضل.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ السماء هنا يراد به جنس السموات، بدليل قوله في «آل عمران»: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقد ذكرنا هناك معنى ﴿عَرْضُهَا﴾[١].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ المعنى: أن الأمور كلها مقدرة مكتوبة في اللوح المحفوظ من قبل أن تكون، قال رسول الله ﷺ: «**إن الله كتب مقادير الأشياء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء**»[٢].

والمصيبة هنا: عبارة عن كل ما يصيب[٣] من خير أو شر.

وقيل: أراد به المصيبة في العرف، وهو ما يصيب من الشر، وخصَّ ذلك بالذكر؛ لأنه أهم على الناس.

و﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ يعني: القحوط والزلازل وغير ذلك.

---

(١) انظر (١/ ٥٧٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

(٣) في ب زيادة: «الإنسان».

و﴿فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ يعني: الموت، والفقر، وغير ذلك.

و﴿نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ معناه: نخلقها.

والضمير يعود: على المصيبة، أو على أنفسكم، أو على الأرض.

وقيل: يعود على جميعها؛ لأن المعنى صحيح في كلها.

﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ **المعنى**: فعَل الله ذلك وأخبركم به لكي تسلموا لقضاء الله، ولا تكترثوا بأمور الدنيا.

ومعنى ﴿لَا تَأۡسَوۡاْ﴾: لا تحزنوا، أي: فلا تحزنوا على ما فاتكم منها ولا تفرحوا بها.

وقرأ الجمهور: ﴿بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ بالمدّ؛ أي: بما أعطاكم الله من الدنيا.

وقرأ أبو عمرٍو: ﴿بِمَآ أَتَاكُمْ﴾ بالقصر؛ أي: بما جاءكم من الدنيا.

فإن قيل: إن الإنسان لا يملك نفسه عن أن يفرح بالخير ويحزن للشر، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - لما أُتي بمال كثير -: «اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا».

فالجواب: أن النهي عن الفرح إنما هو عن الذي يقود إلى الكبر والطغيان، وعن الحزن الذي يُخرج عن الصبر والتسليم.

﴿كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ المختال: صاحب الخيلاء، والفخور: الشديد الفخر على الناس.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ بدل من ﴿كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

أو خبر ابتداء مضمر تقديره: هم الذين.

أو منصوب بإضمار: أعني.

أو مبتدأ وخبره محذوف.

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ الكتاب هنا: جنس الكتب.

والميزان: العدل.

وقيل: الميزان الذي يوزن به.

وروي أن جبريل نزل بالميزان ودفعه إلى نوح وقال له: مُرْ قومك يزنوا به.

﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ عبَّر عن خلقه وإيجاده بالإنزال.

وقيل: بل أنزله حقيقة؛ لأن آدم نزل من الجنة ومعه المطرقة والإبرة.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ يعني: أنه يعمل منه سلاح للقتال، ولذلك قال: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾.

والمنافع للناس: سكك الحرث والمسامير وغير ذلك.

[﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ ۖ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾].

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: من ذرية نوح وإبراهيم مهتدون قليلون، وأكثرهم فاسقون؛ لأن منهم اليهود والنصارى وغيرهم.

﴿قَفَّيْنَا﴾ ذكر في «البقرة»[1].

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ هذا ثناء عليهم بمحبة بعضهم في بعض، كما وصف أصحاب محمد ﷺ، بأنهم ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ الرهبانية: هي الانفراد في الجبال، والانقطاع عن الناس في الصوامع، ورفض النساء وترك الدنيا.

ومعنى ﴿ٱبْتَدَعُوهَا﴾: أحدثوها من غير أن يشرعها الله لهم.

وإعراب ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ معطوف على ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، أي: جعل الله في

---

(١) انظر (١/ ٣٣٤).

قلوبهم الرأفة والرحمة والرهبانية، و﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ صفة للرهبانية، والجعْل هنا بمعنى الخلق.

والمعتزلة يعربون ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً﴾ مفعولًا بفعل مضمر يفسِّره ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾؛ لأن مذهبهم أن الإنسان يخلق أفعاله، فأعربوها على مذهبهم، وكذلك أعربها أبو علي الفارسي.

وذكر الزمخشري الوجهين[(١)(٢)].

﴿مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ كتبنا هنا: بمعنى فرضنا وشرعنا.

وفي هذا قولان:

أحدهما: أن الاستثناء منقطع، والمعنى: ما كتبنا عليهم الرهبانية، ولكنهم فعلوها من تلقاء أنفسهم؛ ابتغاءَ رضوان الله.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٢٥٨-٢٥٩).

(٢) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قول المصنف: «وإعراب (رهبانية) معطوف على (رأفةً ورحمةً») إلخ، أقول: تضمَّن كلام المؤلف ذكر الوجهين في إعراب رهبانية، هل هي عطف على رأفة ورحمة؟ أو نصب على الاشتغال بفعل محذوف يفسره ما بعده، والتقدير: ابتدعوا رهبانية؟ ورجح المصنف الوجه الأول، ونسب الثاني للمعتزلة؛ لئلا يتعلق الجعْل بمعنى الخلق بالرهبانية، وهي من فعل العبد، وعندهم أن العبد هو الذي يخلق فعله.

وأقول: إن الإعراب الثاني هو الراجح، وقد ذهب إليه جمع كالبغوي والقرطبي وابن عاشور وغيرهم؛ وذلك لأن مفعول جعَل في الآية مقيَّدٌ في القلوب ﴿وَجَعَلۡنَا فِي قُلُوبِ﴾، والرهبانية سلوك ظاهر، وليس في إعراب رهبانية على الوجه الثاني حجة للمعتزلة، ولا منفعة للمخالف. قاله الشيخ الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ.

والآخر: أن الاستثناء متصل، والمعنى: كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ ولقراءة عبد الله بن مسعود: «ما كتبناها عليهم لكن ابتدعوها».

﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ أي: لم يدوموا عليها، ولم يحافظوا على الوفاء بها، يعني: أن جميعهم لم يرعوها وإن رعاها بعضهم.

والضمير في ﴿رَعَوۡهَا﴾ للذين ابتدعوا الرهبانية، وكان يجب عليهم إتمامها، وإن لم يكتبها الله ﷻ عليهم؛ لأن من دخل في شيء من النوافل وجب عليه إتمامه.

وقيل: الضمير لمن جاء بعد الذين ابتدعوا الرهبانية من أتباعهم.

﴿وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ﴾ إن قيل: كيف خاطب الذين آمنوا وأمرهم بالإيمان وتحصيل الحاصل لا يُبتغى؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن معنى ﴿ءَامِنُواْ﴾ دوموا على الإيمان واثبتوا عليه.

والآخر: أنه خطاب لأهل الكتاب، فالمعنى: يا أيها الذين آمَنوا بموسى وعيسى آمِنوا بمحمد ﷺ، ويؤيد هذا: قوله: ﴿يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ﴾ أي: نصيبين، وقال رسول الله ﷺ: «ثلاثة يؤتَون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي. . .» الحديث[1].

(١) أخرجه البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٥٤).

﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يحتمل أن يريد:

النور الذي يسعى بين أيدي المؤمنين يوم القيامة.

أو يكون عبارة عن الهدى.

ويؤيد الأول: أنه مذكور في هذه السورة، ويؤيد الثاني: قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ «لا» في قوله: ﴿لِّئَلَّا﴾ زائدة، والمعنى: ليعلم أهل الكتاب، وكذلك قرأها ابن عباس.

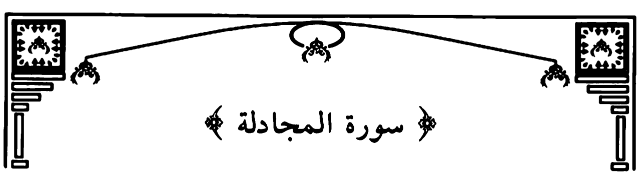
وقرأ ابن مسعود: «لكي يعلم».

والمعنى إن كان الخطاب لأهل الكتاب: يا أهل الكتاب آمِنوا بمحمد ﷺ؛ ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أن لا يقدرون على شيء من فضل الله الذي وعد من آمن منكم، وهو تضعيف الأجر والنور والمغفرة؛ لأنهم لم يسلموا، فلا ينالون شيئًا من ذلك.

وإن كان الخطاب للمسلمين فالمعنى: ليعلم أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا أنهم لا يقدرون أن ينالوا شيئًا مما أعطى الله المسلمين من تضعيف الأجر والنور والمغفرة.

وقد روي أن سبب الآية: أن اليهود افتخرت على المسلمين، فنزلت الآية في الرد عليهم، فهذا يقوي هذا القول.

وروي أيضًا أن سببها: أن الذين أسلموا من أهل الكتاب افتخروا على غيرهم من المسلمين بأنهم يؤتيهم الله أجرهم مرتين، فنزلت الآية مُعْلمةً أن المسلمين مثلهم في ذلك.



﴿ سورة المجادلة ﴾

[﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ ۚ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾﴾].

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾ نزلت الآية في خولة بنت حكيم.

وقيل: خولة بنت ثعلبة.

وقيل: خولة بنت خويلد.

وقيل: اسمها: جميلة.

وكانت امرأةَ أوس بن الصامت الأنصاري أخي عبادة بن الصامت، فظاهر منها، وكان الظِّهار في الجاهلية يوجب تحريمًا مؤبَّدًا، فلما فعل أوسٌ ذلك جاءت امرأته إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله: إن أوسًا أكل

شبابي ونثرتُ له بطني[١]، فلما كَبِرتُ ومات أهلي ظاهر مني!، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا قد حرمتِ عليه»، فقالت: يا رسول الله لا تفعل!؛ فإني وحيدة، ليس لي أهل سواه، فراجعها رسول الله ﷺ بمثل مقالته فراجعته، فهذا هو جدالها[٢].

﴿وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ كانت تقول: «اللهم إني أشكو إليك حالي وانفرادي وفقري».

وروي أنها كانت تقول: «اللهم إن لي منه صبيةً صغارًا إن ضممتهم إليَّ جاعوا، وإن ضممتهم إليه ضاعوا».

﴿وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ المحاورة: هي المراجعة في الكلام.

قالت عائشة ﵂: سبحان من وسع سمعه الأصوات!، لقد كنت حاضرة وكان بعض كلام خولة يخفى عليَّ وسمع الله كلامها[٣].

ونزل القرآن في ذلك، فبعث رسول الله ﷺ في زوجها وقال له: «أَتُعتِق رقبة؟»، فقال: والله ما أملكها. فقال: «أتصوم شهرين متتابعين؟»، فقال: والله ما أقدر، فقال له: «أتطعم ستين مسكينًا؟» فقال: لا أجد إلا أن يعينني رسول الله ﷺ بمعونة وصلاة، يريد الدعاء، فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة

---

(١) أرادت أنها كانت شابة تلد الأولاد عنده. النهاية لابن الأثير (٩/ ٤٠٦٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٠٦٣)، والحاكم (٢/ ٥٢٣)، والطبري في تفسيره (٢٢/ ٤٥٤).

(٣) أخرجه أحمد (٢٤١٩٥)، والنسائي في الكبرى (٥/ ٢٧٦)، وابن ماجه (١٨٩)، والبخاري تعليقا (٩/ ١١٧) بلفظ: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات..».

عشر صاعًا، وقيل: بثلاثين صاعًا ودعا له، فكفَّر بالإطعام وأمسك زوجته[١].

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ قرئ ﴿يَظَّهَّرُونَ﴾ بألف بعد الظاء وبحذفها، وبالتشديد والتخفيف، والمعنى واحد وهو إيقاع الظهار.

والظهار المجمع عليه: هو أن يقول الرجل لامرأته: «أنت عليَّ كظهر أمي».

ويجري مجرى ذلك عند مالك: تشبيه الزوجة بكل امرأة محرَّمة على التأبيد، كالبنت والأخت وسائر المحرمات بالنسب، والمحرمات بالرضاع والمصاهرة، سواءٌ ذكَر لفظ الظَّهْر أو لم يذكره، كقوله: «أنت علي كأمي» أو «كبطن أمي» أو «يدها» أو «رجلها»، خلافًا للشافعي؛ فإن ذلك كلَّه ليس عنده بظهار؛ لأنه وقَف عند لفظ الآية، وقاس مالك عليه؛ لأنه رأى أن المقصد تشبيه حلال بحرام.

﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾ ردَّ الله بهذا على من كان يوقع الظهار ويعتقده حقيقة، وأخبر تعالى أن تصيير الزوجة أمًّا باطلٌ؛ فإن الأم في الحقيقة إنما هي الوالدة.

﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾ أخبر تعالى أن الظهار منكر وزور، فالمنكر: هو الذي لا تعرف له حقيقة، والزور: هو الكذب، وإنما جعله كذبًا؛ لأن المظاهر يصيِّر امرأته كأمه. وهي لا تصير كذلك أبدًا.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/٤٤٦).

والظهار محرَّم، ويدل على تحريمه أربعة أشياء:

أحدها: قوله تعالى: ﴿مَا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ﴾؛ فإن ذلك تكذيب للمُظاهر.

والثاني: أنه سماه منكرًا.

والثالث: أنه سماه زورًا.

والرابع: قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾، فإن العفو والمغفرة لا تقع إلا عن ذنب.

وهو مع ذلك لازم للمظاهر حتى يرفعه بالكفارة.

﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟﴾ اختلف الناس في معنى قوله: ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ﴾ على ستة أقوال:

الأول: أنه إيقاع الظهار في الإسلام، فالمعنى: أنهم كانوا يظاهرون في الجاهلية، فإذا فعلوه في الإسلام فذلك عَودٌ إليه، هذا قول ابن قتيبة[١]، فتجب الكفارة عنده بنفس الظهار، بخلاف أقوال غيره، فإن الكفارة لا تجب إلا بالظهار والعَود معًا.

الثاني: أن العود هو وطء الزوجة، روي ذلك عن مالك، فلا تجب الكفارة على هذا حتى يطأ، فإذا وطئ[٢] وجبت عليه الكفارة، سواءٌ أمسك المرأة أو طلقها أو ماتت.

الثالث: أن العود هو العزم على الوطء، وروي هذا أيضًا عن مالك، فإذا

---

(١) غريب القرآن، لابن قتيبة (ص: ٤٥٦-٤٥٧).

(٢) في ب، ج: «وطئها».

عزم على الوطء وجبت الكفارة، سواءٌ أمسك المرأة أو طلقها أو ماتت.

الرابع: أن العود هو العزم على الوطء وعلى إمساك الزوجة، وهذا أصح الروايات عن مالك.

الخامس: أنه العزم على الإمساك خاصة، وهذا مذهب الشافعي، فإذا ظاهر ولم يطلقها بعد الظهار لزمته الكفارة.

السادس: أنه تكرار الظهار مرة أخرى، وهذا مذهب الظاهرية وهو ضعيف؛ لأنهم لا يرون الظهار يوجب حكمًا في أول مرة، وإنما يوجبه في الثانية، وإنما نزلت الآية فيمن ظاهر أول مرة، فذلك يردُّ عليهم.

ويختلف معنى ﴿لِمَا قَالُوا۟﴾ باختلاف هذه الأقوال:

فأما على قول ابن قتيبة والظاهرية: فـ«ما» مصدرية، والمعنى: يعودون لقولهم.

وأما على سائر الأقوال فـ«ما» بمعنى «الذي»، والمعنى: يعودون للوطء الذي حرَّموه، أو للعزم عليه، أو للإمساك الذي تركوه، أو للعزم عليه.

﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ جعل الله الكفارة في الظهار على ثلاثة أنواع مرتبة، لا ينتقل إلى الثاني حتى يعجز عن الأول، ولا ينتقل إلى الثالث حتى يعجز عن الثاني:

فالأول: تحرير رقبة.

والثاني: صيام شهرين متتابعين.

والثالث: إطعام ستين مسكينًا.

فأما الرقبة: فاشترط مالك أن تكون مؤمنة؛ لأن مذهبه حمل المطلق على المقيد، وجاءت هنا مطلقة، وجاءت في كفارة القتل مقيدة بالإيمان.

وأما صيام الشهرين: فاشتُرط فيه التتابع، فإن أفسد الصائمُ التتابع باختياره: ابتدأه من أوله باتفاق.

وإن أفسده بعذر كالمرض والنسيان:

فقال مالك: يبني على ما كان معه.

وقال أبو حنيفة: يبتدئ.

وروي القولان عن الشافعي.

وأما الإطعام: فمشهور مذهب مالك: أنه مدٌّ لكل مسكين بمد هشام[1]، واختُلف في مد هشام:

فقيل: إنه مدَّان غيرَ ثلث بمد النبي ﷺ.

وقيل: إنه مدٌّ وثلث.

وقيل: إنه مدان.

وقال الشافعي وابن القصَّار: يطعم مدًّا بمد النبي ﷺ لكل مسكين.

ولا يجزئه إلا كمال عدد الستين، فإن أطعم مسكينًا واحدًا ستين يومًا: لم يُجْزِه عند مالك والشافعي، خلافًا لأبي حنيفة، وكذلك إن أطعم ثلاثين مرتين.

---

(١) هو هشام بن إسماعيل بن الوليد بن المغيرة المخزومي، عامل المدينة لعبد الملك بن مروان. انظر: شرح الزرقاني على الموطأ (٢/ ٢٢٢).

والطعام يكون من غالب قوت البلد.

﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ مذهب مالك والجمهور: أن المسيس هنا يراد به الوطء وما دونه من اللمس والتقبيل، فلا يجوز للمظاهر أن يفعل شيئًا من ذلك حتى يكفِّر.

وقال الحسن والثوري: أراد الوطء خاصة، فأباحا ما دونه قبل الكفارة.

وذكر الله قوله: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ في التحرير والصوم، ولم يذكره في الإطعام، فاختلف العلماء في ذلك:

فحمل مالك الإطعام على ما قبله، ورأى أنه لا يكون إلا قبل المسيس، وجعل ذلك من المطلق الذي يحمل على المقيد.

وقال أبو حنيفة: يجوز للمظاهر إذا كان من أهل الإطعام أن يطأ قبل الكفارة؛ لأن الله لم ينص في الإطعام أنه قبل المسيس.

﴿ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ﴾ قال ابن عطية: الإشارة إلى الرخصة في النقل من التحرير إلى الصوم[١].

وقال الزمخشري: المعنى: ذلك البيان والتعليم لتؤمنوا[٢]، وهذا أظهر؛ لأنه أعم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ﴾ أي: يخالفون ويعادون.

﴿كُبِتُواْ﴾ أي: أهلكوا.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢٤٧).

(٢) الكشاف (١٥/ ٢٧٨).

وقيل: لعنوا.

وقيل: كُبِت الرجل: إذا بقي خَزْيان.

ونزلت الآية في المنافقين واليهود.

* * *

[﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾].

﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ يَحتمل أن يكون النجوى هنا:

بمعنى الكلام الخفي، فيكون ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ مضافًا إليه.

أو بمعنى الجماعة من الناس، فيكون ﴿ثَلَٰثَةٍ﴾ بدلًا، أو صفة.

والأول أحسن.

﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ يعني: بعلمه وإحاطته، وكذلك ﴿سَادِسُهُمْ﴾، و﴿هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ﴾ نزل في قوم من اليهود كانوا يتناجون فيما

بينهم ويتغامزون على المؤمنين، فنهاهم رسول الله ﷺ عن ذلك فعادوا.

وقيل: نزلت في المنافقين.

والأول أرجح؛ لقوله: ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾؛ لأن هذا من فعل اليهود.

والأحسن أن يريد اليهود والمنافقين معًا؛ لقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم﴾ فنزلت في الطائفتين.

﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوۡكَ بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كانت اليهود يأتون رسول الله ﷺ فيقولون: «السام عليك يا محمد»، بدلًا من «السلام عليكم[١]»، والسام: الموت، وهو ما أرادوه بقولهم، فكان رسول الله ﷺ يقول لهم: «وعليكم»، فسمعتهم عائشة يومًا فقالت: بل عليكم السام واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلًا يا عائشة!؛ إن الله يكره الفحش والتفحُّش»، قالت: أما سمعت ما قالوا؟ قال: «أما سمعت ما قلت لهم؟ إني قلت: وعليكم»[٢].

ويريد بقوله: ﴿بِمَا لَمۡ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾: قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓ﴾ [النمل: ٥٩].

﴿وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ لَوۡلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ كانوا يقولون: لو كان نبيًّا لعذَّبنا الله بإذايته، فقال الله: ﴿حَسۡبُهُمۡ جَهَنَّمُ﴾ أي: يكفيهم ذلك عذابًا.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّجۡوَىٰ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ لِيَحۡزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ قيل[٣]: يعني: النجوى

---

(١) في أ، هـ: «عليك».

(٢) أخرجه البخاري (٦٠٣٠)، ومسلم (٢١٦٥).

(٣) لم ترد في ب، د.

بالإثم والعدوان ومعصية الرسول، وحذف وصفها بذلك؛ لدلالة الأول عليه.

وقيل: أراد نجوى اليهود والمنافقين، ويؤيد هذا قوله: ﴿لِيُحْزِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

﴿إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِي ٱلْمَجْلِسِ فَٱفْسَحُواْ﴾ اختُلف في سبب الآية:

فقيل: نزلت في مقاعد الحرب والقتال.

وقيل: نزلت بسبب ازدحام الناس في مجلس رسول الله ﷺ وحرصهم على القرب منه.

وقيل: أقام النبي ﷺ قومًا ليُجلسَ أشياخًا من أهل بدر في مواضعهم، فنزلت الآية.

ثم اختُلف هل هي مقصورة على مجلس النبي ﷺ أو هي عامة في جميع المجالس؟

فقال قوم: إنها مخصوصة، ويدلُّ على ذلك قراءة ﴿ٱلْمَجْلِسِ﴾ بالإفراد.

وذهب الجمهور إلى أنها عامة، ويدل على ذلك قراءة ﴿ٱلْمَجَالِسِ﴾ بالجمع، وهذا هو الأصح، ويكون ﴿ٱلْمَجْلِسِ﴾ بالإفراد على هذا للجنس.

والتفسُّح المأمور به: هو التوسع دون القيام، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«لا يقم أحدٌ أحدًا من مجلسه ثم يجلس الرجل فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٢٧٠)، ومسلم (٢١٧٧).

وقد اختُلف في هذا النهي عن القيام من المجلس لأحد؛ هل هو على التحريم أو الكراهة؟

﴿يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ أي: يوسِّع لكم في جنته ورحمته.

﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟﴾ أي: إذا قيل لكم: ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك.

واختُلف في هذا النشوز المأمور به:

فقيل: إذا دُعوا إلى قتال أو صلاة أو فعل طاعةٍ.

وقيل: إذا أُمروا بالقيام من مجلس رسول الله ﷺ؛ لأنه كان يحب الانفراد أحيانًا، وربما جلس قوم حتى يؤمروا بالقيام.

وقيل: المراد: القيام في المجلس للتوسع.

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ فيها قولان:

أحدهما: يرفع اللهُ المؤمنين العلماء درجاتٍ، فقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ صفة لـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، كقولك: «جاءني العاقل والكريم»، وأنت تريد رجلًا واحدًا.

والثاني: يرفع اللهُ المؤمنين والعلماء الصنفين جميعًا درجاتٍ.

فالدرجات:

على الأول: للمؤمنين بشرط أن يكونوا علماء.

وعلى الثاني: للمؤمنين الذين ليسوا علماء، وللعلماء أيضًا، ولكن

بين درجات العلماء وغيرهم تفاوت يؤخذ من موضع آخر، كقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»[١]، وقوله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم رجلًا»[٢]، وقوله عليه السلام: «يشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[٣] فإذا كان لهم فضل على العابدين والشهداء، فما ظنك بفضلهم على سائر المؤمنين!.

﴿إِذَا نَٰجَيۡتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَةٗۚ﴾ قال ابن عباس: سببها أن قومًا من شبان المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير حاجة، إلا لتظهر[٤] منزلتهم، وكان النبي ﷺ سمْحًا لا يرد أحدًا، فنزلت الآية مشدِّدةً في أمر المناجاة.

وقيل: سببها: أن الأغنياء غلبوا الفقراء على مناجاته ﷺ.

وهذه الآية منسوخة باتفاق، نسَخها قوله بعدها: ﴿ءَأَشۡفَقۡتُمۡ أَن تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيۡ نَجۡوَىٰكُمۡ صَدَقَٰتٖۚ﴾ الآيةَ، فأباح الله لهم المناجاة دون تقديم صدقة، بعد أن كان قد أوجب تقديم الصدقة قبل مناجاته عليه السلام.

واختُلف هل كان هذا النسخ بعد أن عُمل بالآية أم لا؟

فقال قوم: لم يعمل بها أحد.

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٧١٥)، وأبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٨٥).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٣١٣).

(٤) في أ: «ليظهروا».

وقال قوم: عمل بها عليّ بن أبي طالب ﷺ؛ فإنه روي أنه كان له دينار فصرفه بعشرة دراهم وناجاه عشر مرات، تصدق في كل مرة منها بدرهم، وقيل: تصدق في كل مرة بدينار.

ثم أنزل الله الرخصة لمن كان قادرًا على الصدقة، وأما من لم يجد فالرخصة لم تزل ثابتةً له بقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ التوبة هنا يراد بها:

عفو الله عنهم في تركهم للصدقة التي أمروا بها.

أو[1] تخفيفها بعد وجوبها.

﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ أي: دُوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم، دون ما كنتم قد كلِّفتم من الصدقة عند المناجاة.

---

(١) في ب، ج: «و».

[﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَـٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَـٰنِ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ نزلت في قوم من المنافقين تولوا قومًا من اليهود، وهم الذين غضب الله عليهم.

﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ يعني: أن المنافقين ليسوا من المسلمين، ولا من اليهود، فهو كقوله فيهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء: ١٤٣].

﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعني: أن المنافقين كانوا إذا عوتبوا على سوء أقوالهم وأفعالهم حلفوا أنهم ما قالوا ولا فعلوا، وقد صدر ذلك منهم مرارًا كثيرة هي مذكورة في السِّيَر وغيرها.

﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً﴾ أصل الجُنَّة: ما يُستتَر به ويُتقَّى به المحذورُ كالتُّرس ثم استُعمل هنا استعارةً؛ لأنهم كانوا يظهرون الأَيمان لتُعصم دماؤهم وأموالهم.

وقرئ ﴿اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ﴾ بكسر الهمزة.

﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ﴾ أي: غلب عليهم وتملَّك نفوسهم.

﴿فِي الْأَذَلِّينَ﴾ أي: في جملة الأذلين؛ أي: معهم.

﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ أي: قضى وقدَّر.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا﴾ الآيةَ؛ معناها: لا تجد مؤمنًا يحب كافرًا ولو كان أقرب الناس إليه، وهذه حال المؤمن الصادق الإيمان، ولذلك كان الصحابة ﷺ يقاتلون آباءهم وأبناءهم وإخوانهم إذا كانوا كفارًا، فقد قتل أبو عبيدة بن الجراح أباه يوم أحد، وقتل مصعب بن عمير أخاه عزيز[١] بن عمير يوم أحد، ودعا أبو بكر الصديق ابنه يوم بدر للبراز فأمره النبي ﷺ أن يقعد.

وقيل: إن الآية نزلت في حاطب حين كتب إلى المشركين يخبرهم بأخبار رسول الله ﷺ.

والأحسن أنها على العموم.

وقيل: نزلت فيمن يصحب السلطان، وذلك بعيد.

﴿يُوَادُّونَ﴾ هذه مفاعلة من المودَّة، فتقضي أن المودَّة من الجهتين.

﴿مَنْ حَادَّ اللَّهَ﴾ أي: عاداه وخالفه.

---

(١) الذي في سيرة ابن هشام (١/ ٦٤٥) أن اسمه: «أبو عزيز».

﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ أي: أثبته فيها كأنه مكتوب.

﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ أي: بلطف وهدى وتوفيق.

وقيل: بالقرآن.

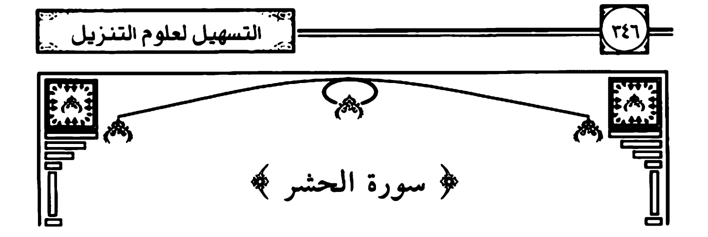
وقيل: بجبريل.

﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ﴾ هذه[1] في مقابلة قوله: ﴿أُولَٰئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾.

والحزب: هم الجماعة المتحزِّبون لمن أُضِيفوا إليه.

---

(١) في ج، د: «هذا».



نزلت هذه السورة(١) في اليهود(٢) بني النَّضِير، وكانوا في حصون بمقرُبة من المدينة، وكان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد فأرادوا غدره، فأطْلعه الله على ذلك فخرج إليهم وحاصرهم إحدى وعشرين ليلة حتى صالحوه على أن يخرجوا من حصونهم، فخرجوا منها وتفرقوا في البلاد.

[﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ

---

(١) في أ: «الآية».

(٢) في د: «يهود».

وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا۟ وَاتَّقُوا۟ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٧ لِلْفُقَرَآءِ الْمُهَٰجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝٩ وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾].

﴿هُوَ الَّذِىٓ أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: بني النضير.

﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ في معناه أربعة أقوال:

أحدها: أنه حشر القيامة، أي: خروجهم من حصونهم أولُ الحشر، والقيامُ من القبور آخرُه، وروي في هذا المعنى: أن رسول الله ﷺ قال لهم: «امضوا هذا أول الحشر، وأنا على الأثر»[1].

الثاني: أن المعنى: لأول موضع الحشر وهو الشام، وذلك أن أكثر بني النضير خرجوا إلى الشام، وقد جاء في الأثر: أن حشر[2] القيامة إلى أرض الشام.

وروي في هذا المعنى: أن النبي ﷺ قال لبني النضير: «اخرجوا». قالوا: إلى أين؟ قال: «إلى أرض المحشر»[3].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٤٩٩).

(٢) في ب زيادة: «الناس يوم»

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٤٥).

الثالث: أن المراد: الحشر في الدنيا الذي هو الجلاء والإخراج، فإخراجهم من حصونهم: أول الحشر، وإخراج أهل خيبر: آخره.

الرابع: أن معناه: إخراجهم[1] من ديارهم لأول ما حَشر لقتالهم؛ لأنه أول قتال قاتلهم رسول الله ﷺ.

وقال الزمخشري: اللام في قوله: ﴿لِأَوَّلِ﴾ بمعنى: «عند»، كقولك: جئت لوقت كذا[2].

﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ يعني: لكثرة عدَّتهم ومنَعة حصونهم.

﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ عبارةٌ عن أخذ الله لهم.

﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أما إخراب المؤمنين: فهو هدم أسوار الحصون ليدخلوها، وأسند ذلك إلى الكفار في قوله: ﴿يُخْرِبُونَ﴾؛ لأنه كان بسبب كفرهم وغدرهم.

وأما إخراب الكفار لبيوتهم فلثلاثة مقاصد:

أحدها: حاجتهم إلى الخشب والحجارة؛ ليسدّوا بها أفواه الأزِقَّة ويحصِّنوا ما خرَّبه المسلمون من الأسوار.

والآخر: ليحملوا معهم ما أعجبهم من الخشب والسواري وغير ذلك.

والثالث: أن لا تبقى مساكنهم مبنيةً للمسلمين، فهدموها شحًّا عليهم.

---

(١) في د، هـ: «أخرجهم».

(٢) الكشاف (١٥/ ٣٠٤).

﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ استدلَّ الذين أثبوا القياس في الفقه بهذه الآية، واستدلالهم بها ضعيف خارج عن معناها.

﴿وَلَوۡلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ الجلاء: هو الخروج عن الوطن، فالمعنى: لولا أن كتب الله على بني النضير خروجَهم عن أوطانهم لعذبهم في الدنيا بالسيف كما فعل بإخوانهم بني قريظة، ولهم مع ذلك عذاب النار.

﴿شَآقُّواْ﴾ ذكر في «الأنفال»[١].

﴿مَا قَطَعۡتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ اللِّينة: هي النخلة.

وقيل: هي الكريمة من النخل.

وقيل: النخلة التي ليست بعَجْوة.

وقيل: ألوان النخل المختلطة.

وسبب الآية: أن رسول الله ﷺ لما نزل على حصون بني النضير قطع المسلمون بعض نخلهم، وأحرقوا، فقال بنو النضير: ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد!، فنزلت الآية مُعْلمةً أن كل ما جرى من قطعٍ أو إمساك فإن الله أذن للمسلمين في ذلك؛ ليخزي الفاسقين بني النضير.

واستدل بعض الفقهاء بهذه الآية على أن كل مجتهد مصيب، فإن الله قد صوب فعل من قطع النخل ومن تركها.

---

(١) انظر (٢/ ٤٤٧).

واختلف العلماء في قطع شجر المشركين وتخريب بلادهم:

فأجازه الجمهور؛ لهذه الآية، ولإقرار رسول الله ﷺ على تحريق نخل بني النضير.

وكرهه قوم؛ لوصية أبي بكر الصديق رضي الله عنه الجيشَ الذي وجههم[1] إلى الشام أن لا يقطعوا شجرًا مثمرًا.

﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ معنى ﴿أَفَآءَ ٱللَّهُ﴾: جعله فيئًا لرسول الله ﷺ.

و﴿أَوْجَفْتُمْ﴾ من الوجيف، وهو سرعة السير.

والركاب: هي الإبل.

والمعنى: أن ما أعطى اللهُ رسولَه من أموال بني النضير لم يمش المسلمون إليه بخيل ولا إبل ولا تعبوا فيه، ولا حصَّلوه بقتال، ولكن حصَل بتسليط رسوله ﷺ على بني النضير، فأعلم الله مِن هذه الآية أن ما أُخِذ لبني النضير[2] وما أُخِذ مِن فَدَك فهو فيءٌ خاص للنبي[3] ﷺ، يَفعل فيه ما يشاء؛ لأنه لم يُوجَف عليها، ولا قوتلت كبير قتال، فهي بخلاف الغنيمة التي تؤخذ بالقتال، فأخذ رسول الله ﷺ لنفسه من أموال بني النضير قوت عياله، وقسَم سائرها في المهاجرين، ولم يعط الأنصار منها شيئًا، غير أن أبا دُجانة وسهلَ

(١) في ج، د: «وجهه».
(٢) في أ: «ما أخذه من بني النضير».
(٣) في أ، هـ: «بالنبي».

ابن حنيف شَكَوَا فاقة فأعطاهما رسول الله ﷺ منها، هذا قول جماعة.

وقال عمر بن الخطاب: كان رسول الله ﷺ ينفق منها على أهله نفقة سنة، وما بقي جعله في السلاح والكُراع عدة في سبيل الله.

قال قوم من العلماء: وكذلك كل ما فتحه الأئمة مما لم يوجَف عليه، فهو لهم خاصة يأخذون منه حاجتهم ويصرفون باقيَه في مصالح المسلمين.

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآيةَ؛ اضطرب الناس في تفسير هذه الآية وحكمها اضطرابًا عظيمًا، فإن ظاهرها: أن الأموال التي تؤخذ للكفار تكون لله وللرسول ومن ذكر بعد ذلك ولا يُخرج منها خمسٌ، ولا تقسم على من حضر الوقيعة، وذلك يعارض ما ورد في «الأنفال» من إخراج الخمس، وقسمة سائر الغنيمة على من حضر الوقيعة!

فقال بعضهم: إن هذه الآية منسوخة بآية «الأنفال»، وهذا خطأ؛ لأن آية «الأنفال» نزلت قبل هذه بمدة.

وقال بعضهم: إن آية «الأنفال» في الأموال التي تغنم ما عدا الأرض، وإن هذه الآية في أرض الكفار، قالوا: ولذلك لم يقسم عمر بن الخطاب رضي الله عنه أرض مصر والعراق بل تركها لمصالح المسلمين، وهذا التخصيص لا دليل عليه.

وقيل غير ذلك.

والصحيح: أنه لا تعارض بين هذه الآية وبين آية «الأنفال»:

فإن آية «الأنفال» في حكم الغنيمة التي تؤخذ بالقتال وإيجاف الخيل

والركاب، فهذا يخرج منه الخمس ويقسم[١] بقيته على الغانمين.

وأما هذه الآية: ففي حكم الفيء، وهو ما يؤخذ من أموال الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، وإذا كان كذلك، فكل واحدة من الآيتين في معنى غير معنى الأخرى، ولها حكم غير حكم الأخرى فلا تعارض بينهما ولا نسخ.

وانظر كيف ذكر هنا لفظ الفيء وفي «الأنفال» لفظ الغنيمة، وقد تقرَّر في الفقه الفرق بين الغنيمة والفيء، وأن حكمهما مختلف.

قال أبو محمد ابنُ الفرس: وهو قول الجمهور وبه قال مالك وجميع أصحابه، وهو أظهر الأقوال[٢].

وأما فعل عمر في أرض مصر والعراق، فالصحيح: أنه فعل ذلك لمصلحة المسلمين بعد استطابة نفوس الغانمين.

فقوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ﴾ يريد بغير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب كما كانت أموال بني النضير، ولكنه حذف هذا؛ لقوله في الآية قبل هذا: ﴿فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾، فاستغنى بذكر ذلك أولًا عن ذكره ثانيًا، ولذلك لم تدخل الواو العاطفة في أول هذه الجملة؛ لأنها من تمام الأولى فهي غير أجنبية منها، فإنه بيَّن في الآية الأولى حكم أموال بني النضير، وبين في هذه حكم ما كان مثلها من أموال غيرهم على العموم.

---

(١) في ب، ج: «وتقسم».

(٢) أحكام القرآن، لابن الفرس (٣/ ٨٩).

ويصرف الفيء فيما يصرف فيه خمس الغنائم؛ لأن الله سوَّى بينهما في قوله: ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وقد ذكرنا ذلك في «الأنفال» فأغنى عن إعادته.

وقد ذكرنا في «الأنفال» معنى قوله: ﴿لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ وما بعد ذلك[1].

﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ أي: كي لا يكون الفيءُ الذي أفاء الله على رسوله من أهل القرى دولةً ينتفع به الأغنياء دون الفقراء، وذلك أن رسول الله ﷺ قسَم أموال بني النضير على المهاجرين فإنهم كانوا حينئذ فقراء، ولم يعط الأنصار منها شيئًا، فإنهم كانوا أغنياء، فقال بعض الأنصار: لنا سهمنا من هذا الفيء، فأنزل الله هذه الآية.

والدولة - بالضم والفتح -: ما يدول الإنسان[2]؛ أي: يدور عليه من الخير.

ويحتمل أن يكون من المداولة؛ أي: كي لا يَتداول ذلك المالَ الأغنياءُ بينهم، ويبقى الفقراء بلا شيء.

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ نزلت بسبب الفيء المذكور، أي: ما آتاكم الرسول من الفيء فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، فكأنها أمرٌ للمهاجرين بأخذ الفيء ونهيٌ للأنصار عنه.

ولفظ الآية مع ذلك عامٌّ في أوامر رسول الله ﷺ ونواهيه، ولذلك استدلَّ

---

(١) انظر (٢/ ٤٥٩).

(٢) في ب: «على الإنسان».

بها عبد الله بن مسعود على أن المنع من لبس المُحْرِمِ المخيط، ولعْنَ الواشمة والواصلة: في القرآن؛ لورود ذلك عن رسول الله ﷺ[١].

﴿لِلْفُقَرَآءِ﴾ هذا بدلٌ من قوله: ﴿وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾؛ ليبيِّن بذلك أن المراد المهاجرون، ووصَفهم بأنهم ﴿أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾؛ لأنهم هاجروا من مكة وتركوا فيها أموالهم وديارهم.

﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ هم الأنصار، و﴿ٱلدَّارُ﴾: هي المدينة؛ لأنها كانت بلدَهم، والضمير في ﴿قَبْلِهِمْ﴾ للمهاجرين.

فإن قيل: كيف قال ﴿تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ وإنما تُتبوَّأُ الدار -أي: تُسكَن- ولا يُتبوأ الإيمان؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن معناه: تبوؤوا الدارَ وأخلصوا الإيمان فهو كقوله:

فعلفْتُها[٢] تبْنًا وماء باردًا[٣]

تقديره: علفتها تبنًا وسقيتها ماء.

الثاني: أن المعنى: أنهم جعلوا الإيمان كأنه موطنٌ لهم؛ لتمكُّنهم فيه، كما جعلوا المدينة كذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، (٤٨٨٧)، ومسلم (٢١٢٥).

(٢) في د: «علفتها».

(٣) هذا صدر بيت، وعجزه: «حتى شتتْ همّالةً عيْنَاهَا». قال بدر الدين العيني في «المقاصد النحوية في شرح شواهد شروح الألفية»: «هذا رجَز مشهور بين القوم، ولم أر أحدًا عزاه إلى راجزه».

فإن قيل: قوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ يقتضي أن الأنصار سبقوا المهاجرين بنزول المدينة وبالإيمان، فأما سبْقهم لهم بنزول المدينة فلا شك فيه؛ لأنها كانت بلدَهم، وأما سبْقهم لهم بالإيمان فمشكل!؛ لأن أكثر المهاجرين أسلموا قبل الأنصار.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد بقوله: ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾: من قبل هجرتهم.

والآخر: أنه أراد: تبوؤوا الدار مع الإيمان معًا؛ أي: جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين؛ لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان لا بتبوُّئِ[1] الدار، فيكون: ﴿الْإِيمَـٰنَ﴾ على هذا مفعولًا معه، وهذا الوجه أحسن؛ لأنه جواب عن هذا السؤال، وعن السؤال الأول، فإنه إذا كان ﴿الْإِيمَـٰنَ﴾ مفعولًا معه لم يلزم السؤال الأول؛ إذ لا يلزم إلا إذا كان ﴿الْإِيمَـٰنَ﴾ معطوفًا على ﴿ٱلدَّارَ﴾.

﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟﴾ قيل: إن الحاجة هنا: بمعنى الحسد.

ويحتمل أن تكون بمعنى الاحتياج على أصلها.

والضمير في ﴿يَجِدُونَ﴾ للأنصار، وفي ﴿أُوتُوا۟﴾ للمهاجرين، والمعنى: أن الأنصار تطيب نفوسهم بما يعطاه المهاجرون من الفيء وغيره، فلا يجدون في صدورهم شيئًا بسبب ذلك.

---

(١) في ب، د: «بنزول».

﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: يؤثرون غيرهم بالمال على أنفسهم ولو كانوا في غاية الاحتياج.

والخصاصة: هي الفاقة.

وروي أن سبب هذه الآية: أن رسول الله ﷺ لما قسم هذه القرى على المهاجرين دون الأنصار قال للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه» فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة[1].

وروي أيضًا أن سببها: أن رجلًا من الأنصار أضاف رجلًا من المهاجرين فذهب الأنصاري بالضيف إلى منزله فقالت له امرأته: والله ما عندنا إلا قوت الصبيان، فقال لها: نوِّمي صِبيانك وأطفئي السراج، وقدِّمي ما عندك للضيف، ونوهمه نحن أنا نأكل ولا نأكل، ففعلا ذلك، فلما غدا على رسول الله ﷺ قال له: «عجب الله من فعلكما البارحة» ونزلت الآية[2].

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ شحُّ النفس: هو البخل والطمع.

وفي هذا إشارةٌ إلى أن الأنصار وقاهم الله شح أنفسهم فمدحهم الله بذلك، وبأنهم يؤثرون على أنفسهم، وبأنهم لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتي المهاجرون، وأنهم يحبون المهاجرين.

---

(١) أخرجه الواقدي في كتاب المغازي (ص: ٣٧٨).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٨٩)، ومسلم (٢٠٥٤).

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هذا معطوفٌ على المهاجرين والأنصار المذكورين قبل.

فالمعنى: أن الفيء للمهاجرين والأنصار ولهؤلاء الذين جاؤوا من بعدهم، ويعني بهم: الفرقة الثالثة من الصحابة وهم ما عدا المهاجرين والأنصار، كالذين أسلموا يوم فتح مكة.

وقيل: يعني: من جاء بعد الصحابة وهم التابعون ومن تبعهم إلى يوم القيامة، وعلى هذا حملها مالك فقال: إن مَن قال في أحدٍ من الصحابة قول سوء فلا حظَّ له في الغنيمة والفيء؛ لأن الله وصف الذين جاؤوا بعد الصحابة بأنهم: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ فمن قال ضدَّ ذلك فقد خرج عن الذين وصفهم الله.

[﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾﴾].

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟﴾ الآيةَ؛ نزلت في عبد الله ابن أبيّ بن سلول وقوم من المنافقين، بعثوا إلى بني النضير، وقالوا لهم: اثبتوا في حصونكم فإنا معكم كيفما تقلّبت حالكم.

﴿وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي: لا نسمع فيكم قول قائل، ولا نطيع مَن يأمرنا بخذلانكم.

ثم كذّبهم الله في هذه المواعيد التي وعدوا بها.

فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾ بعد قوله: ﴿لَا يَنصُرُونَهُمْ﴾؟

فالجواب: أن المعنى: على الفرض والتقدير؛ أي: لو فرضنا أن ينصروهم لولّوا الأدبار.

﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ الرهبة: هي الخوف.

والمعنى: أن المنافقين واليهود يخافون الناس أكثر مما يخافون الله.

﴿لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ﴾ أي: لا يقدرون على قتالكم مجتمعين إلا وهم في قرى محصنة بالأسوار والخنادق، أو من وراء الحيطان دون أن يخرجوا إليكم.

﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ يعني: عداوةَ بعضهم لبعض.

﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ أي: تظن أنهم مجتمعون بالألفة والمودة وقلوبهم متفرقة[1] بالمخالفة والشحناء.

﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا﴾ أي: هؤلاء اليهودُ كمثل الذين من قبلهم، يعني: اليهود بني قينقاع؛ فإن رسول الله ﷺ أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير، فكانوا مثَلًا لهم.

وقيل: يعني: أهل بدرٍ الكفارَ، فإنهم قبلهم ومثَلٌ لهم في أنْ غُلِبوا وقُهِروا.

والأول أرجح؛ لأن قوله: ﴿قَرِيبًا﴾ يقتضي أنهم كانوا قبلهم بمدة يسيرة، وذلك أوقعُ على بني قينقاع، وأيضًا فإن تمثيل بني النضير ببني قينقاع أليقُ؛ لأنهم يهود مثلهم، وأُخرجوا من ديارهم كما فُعل بهم، وذلك هو المراد بقوله: ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾.

و﴿قَرِيبًا﴾ ظرف زمان.

﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ مثَّل الله المنافقين الذين أغووا

---

(١) في ج، د، هـ: «مفترقة».

اليهود بني النضير ثم خذلوهم بعد ذلك بالشيطان؛ فإنه يُغوي ابن آدم ثم يتبرأ منه.

والمراد بالشيطان والإنسان هنا: الجنس.

وقيل: أراد الشيطان الذي أغوى قريشًا يوم بدر وقال لهم: إني جارٌ لكم.

وقيل: المراد بالإنسان بَرْصيص العابد؛ فإنه استُودع امرأة فزين له الشيطان الوقوع عليها فحمَلت فخاف الفضيحة فزين له الشيطانُ قَتْلَها فلما وُجدت مقتولة تبيَّن ما فعل، فتعرض له الشيطانُ وقال له: اسجد لي وأنجيك، فسجد له فتركه الشيطان وقال له: إني بريء منك، وهذا ضعيف في النقل.

والأول أرجح.

﴿فَكَانَ عَـٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ﴾ الضميران يعودان على الشيطان والإنسان، وفي ذلك تمثيل للمنافقين واليهود.

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾].

﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ هذا أمرٌ بأن تنظر كلُّ نفس ما قدمت من أعمالها ليوم القيامة.

ومعنى ذلك: محاسبة النفس لتكفَّ عن السيئات وتزيد من الحسنات، وإنما عبَّر عن يوم القيامة بـ ﴿غَدٍ﴾ تقريبًا له؛ لأن كل ما هو آت قريب.

فإن قيل: لم كرر الأمر بالتقوى؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه تأكيد.

والآخر - وهو الأحسن -: أنه أمر بالتقوى أولًا استعدادًا ليوم القيامة، ثم أمر به ثانيًا؛ لأن الله خبير بما يعملون، فلما اختلف الموجِبان كرره مع كل واحد منهما.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ يعني: الكفار[١].

والنسيان هنا يحتمل أن يكون: بمعنى الترك، أو الغفلة؛ أي: نسوا حقَّ الله فأنساهم حقوق أنفسهم والنظرَ لها.

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ﴾ الآيةَ؛ توبيخٌ لابن آدم على قسوة قلبه، وقلة خشوعه عند تلاوة القرآن، فإنه إذا كان الجبل يخشع ويتصدَّع لو سمع القرآن فما ظنك بابن آدم!.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: يعلم ما غاب عن المخلوقين وما شاهدوه.

وقيل: الغيب: الآخرة، والشهادة: الدنيا.

والعموم أحسن.

﴿ٱلْقُدُّوسُ﴾ مشتقٌّ من التقدُّس[٢]، وهو التنزُّه عن صفات المخلوقين، وعن كل نقص وعيب، وصيغة فُعُول للمبالغة كالسُّبُّوح.

﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: الذي سَلِم عبادُه من جَوْره.

والآخر: السليم من النقائص.

وأصله مصدر بمعنى السلامة، ثم وُصِف به مبالغةً، أو على حذف مضاف تقديره: ذو السلام.

---

(١) في د زيادة: «والمنافقين».

(٢) في أ، هـ: «التقديس».

﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه من الأمن؛ أي: الذي أمَّن عباده.

والآخر: أنه من الإيمان؛ أي: المصدق لعباده في إيمانهم، أو في شهادتهم على الناس يوم القيامة، أو المصدق نفسَه في أقواله.

﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ في معناه ثلاثة أقوال: الرقيب والشاهد والأمين.

قال الزمخشري: أصله «مؤيمن» بالهمزة ثم أبدلت هاء[1].

﴿ٱلْجَبَّارُ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أنه من الإجبار بمعنى القهر.

والآخر: أنه من الجبر؛ أي: يَجبر عباده برحمته.

والأول أظهر.

﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ أي: الذي له التكبر حقًّا.

﴿ٱلْبَارِئُ﴾ أي: الخالق، يقال: برأ الله الخلق أي: خلقهم، ولكن البارئ والفاطر يراد بهما: الذي بدأ الخلق واخترعه.

﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ أي: خالق الصور.

﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ قال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة»[2].

---

(١) الكشاف (١٥/ ٣٤٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣٦)، ومسلم (٢٦٧٧).

قال المؤلف: قرأت القرآن على الأستاذ الصالح أبي عبد الله ابن الكمَّاد فلما بلغت إلى آخر سورة «الحشر» قال لي: ضع يدك على رأسك، فقالت له: ولم ذلك؟ قال: لأني قرأت على القاضي أبي علي بن أبي الأحوص فلما انتهيت إلى خاتمة «الحشر» قال لي: ضع يدك على رأسك، وأسند الحديث إلى عبد الله بن مسعود قال: قرأت على النبي ﷺ فلما انتهيت إلى خاتمة «الحشر» قال لي: «ضع يدك على رأسك». قلت: ولم ذاك يا رسول الله فداك أبي وأمي؟ قال: «أقرأني جبريل القرآن فلما انتهيت إلى خاتمة «الحشر»، قال لي: ضع يدك على رأسك يا محمد، قلت: ولم ذاك؟ قال: إن الله تبارك وتعالى افتتح القرآن فضرب فيه فلما انتهى إلى خاتمة سورة «الحشر» أمر الملائكة أن تضع أيديها على رؤوسها، فقالت: يا ربنا ولم ذاك؟ قال: إنه شفاء من كل داء إلا السام، والسام الموت»[1].

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في تاريخ أصبهان (١/ ١٩٠) وأخرجه من طريقه الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد (٢/ ٢٥٣)، وقال السيوطي في «ذيل اللآلئ المصنوعة» (١/ ١٠٨): «قال الذهبي: هذا حديث باطل».

﴿ سورة الممتحنة ﴾

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ العدوُّ: ينطلق على الواحد والجماعة، والمراد به: هنا كفار قريش، وهذه الآيات[1] نزلت بسبب حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى مكة عام الحديبية، فورَّى عن ذلك بخيبر، فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر، وأخبر

(١) في ب، ج، د: «الآية».

هو جماعةً من كبار أصحابه بقصده إلى مكة، منهم حاطب، فكتب بذلك حاطب إلى قوم من أهل مكة، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ من السماء، فبعث علي بن أبي طالب والزبير والمقداد وقال: «**انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخٍ فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين**»، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب. قالت: ما معي كتاب، ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئًا، فقال بعضهم: ما معها كتاب!، فقال عليّ ابن أبي طالب: ما كَذَب رسول الله ﷺ ولا كُذب، والله لتُخرِجنَّ الكتاب أو لنجرِّدنَّكِ! قالت: أعرضوا عني، فأخرجته من قرون رأسها، وقيل: أخرجته من حُجْزَتِها، فجاؤوا به إلى رسول الله ﷺ فقال لحاطب: «**من كتب هذا؟**» قال: أنا يا رسول الله، ولكن لا تعجل عليّ، فوالله ما فعلت ذلك ارتدادًا عن ديني، ولا رغبة في الكفر، ولكني كنت امرأً مُلصَقًا في قريش، ولم أكن من أنفُسها، فأحببت أن تكون لي عندهم يدٌ يرعونني بها في قرابتي، فقال عمر بن الخطاب: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «**صدَق حاطبٌ، إنه من أهل بدر، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، لا تقولوا لحاطب إلا خيرًا**»[1]. فنزلت الآية عتابًا لحاطب، وزجرًا عن أن يفعل أحد مثل فعله، وفيها مع ذلك تشريف له؛ لأن الله شهد له بالإيمان في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ عبارةٌ عن إيصال المودَّة إليهم.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

و«ألقى» يتعدَّى بحرف جر، وبغير حرف جر كقوله: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩].

وهذه الجملة:

في موضع الحال من الضمير في قوله: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾.

أو في موضع الصفة لـ ﴿أَوْلِيَاءَ﴾.

أو استئناف.

﴿وَقَدْ كَفَرُوا﴾ حال من الضمير في ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، أو في ﴿تُلْقُونَ﴾.

﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي: يخرجون الرسول ويخرجونكم، يعني: إخراجهم من مكة، فإنهم ضيقوا عليهم وآذوهم حتى خرجوا مهاجرين إلى المدينة، ومنهم من خرج(١) إلى أرض الحبشة.

﴿أَن تُؤْمِنُوا﴾ مفعولٌ من أجله؛ أي: يخرجونكم من أجل إيمانكم.

﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي﴾ جواب هذا الشرط محذوف؛ لدلالة ما قبله عليه وهو ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، والتقدير: إن كنتم خرجتم جهادًا في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوِّي وعدوَّكم أولياء.

و﴿جِهَادًا﴾:

مصدر في موضع الحال.

أو مفعول من أجله.

---

(١) في ب زيادة: «مهاجرًا».

وكذلك ﴿ٱبۡتِغَآءَ﴾.

﴿إِن يَثۡقَفُوكُمۡ﴾ معناه: إن يظفروا بكم.

﴿وَوَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ﴾ أي: تمنوا أن تكفروا فتكونوا مثلهم.

قال الزمخشري: وإنما قال: ﴿وَدُّواْ﴾ بلفظ الماضي بعد أن ذكر جواب الشرط بلفظ المضارع؛ لأنه أراد: ودُّوا كفْرَكم قبل كل شيء[1].

﴿لَن تَنفَعَكُمۡ أَرۡحَامُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡۚ﴾ إشارةٌ إلى ما قصد حاطب مِن رعْي قرابته.

﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَفۡصِلُ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ يحتمل أن يكون:

من الفصل بالحكم بينهم.

أو من الفصل بمعنى التفريق؛ أي: يُفرِّق بينكم وبين قرابتكم يوم القيامة.

وقيل: إن العامل في ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ما قبله، وذلك بعيد.

﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ إِسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الإسوة: هو الذي يُقتدَى به.

فأمر الله المسلمين أن يقتدوا بإبراهيم الخليل ﷺ وبالذين معه في عداوة الكفار والتبري منهم.

ومعنى ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾: من آمن به من الناس.

وقيل: الأنبياء الذين كانوا في عصره وقريبًا من عصره، ورجح ابن

---

(١) الكشاف (١٥/ ٣٥٢).

عطية[١] هذا القول بما ورد في الحديث أن إبراهيم عليه السلام قال لزوجته: «ما على الأرض مؤمن بالله غيري وغيرك»[٢].

﴿بُرَءَٰٓؤُاْ﴾ جمع بريء.

﴿كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ أي: كذَّبناكم في أقوالكم.

ويَحتمل أن يكون عبارةً عن إفراط البغض فيهم والمقاطعة لهم.

﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ﴾ هذا استثناءٌ من قوله: ﴿إِسۡوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، فالمعنى: اقتدوا بهم في عداوتهم للكفار، ولا تقتدوا بهم في هذا؛ لأن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

وقيل: الاستثناء من التبري والقطيعة، والمعنى: تبرأ إبراهيم والذين معه من الكفار، إلا أن إبراهيم وعد أباه أن يستغفر له.

﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا﴾ هذا من كلام إبراهيم عليه السلام والذين معه، وهو متصل بما قبل الاستثناء، فهو من جملة ما أُمر أن يُقتَدَى به.

﴿رَبَّنَا لَا تَجۡعَلۡنَا فِتۡنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في معناه قولان:

أحدهما: لا تنصرهم علينا فيكون ذلك لهم فتنةً وسببَ ضلالةٍ؛ لأنهم يقولون: غلبناهم لأنَّا على الحق، وهم على الباطل.

والآخر: لا تسلِّطهم علينا فيفتنونا عن ديننا، ورجح ابن عطية هذا؛ لأنه

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٧)، ومسلم (٢٣٧١).

دعاء لأنفسهم، وأما على القول الآخر فهو دعاء للكفار، ولكن مقصدهم ليس الدعاء للكفار، وإنما هو دعاء لأنفسهم بالنصر؛ بحيث لا يَفتتن الكفار بذلك[1].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢٨١).

[﴿ ۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً ۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَـٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَـٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٩ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٠ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ۝١١ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٢ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلْقُبُورِ ۝١٣ ﴾].

﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ لما أمر الله المسلمين بعداوة الكفار ومقاطعتهم امتثلوا ذلك على ما كان بينهم وبين الكفار من القرابة، فعلم الله صدقهم فآنسهم بهذه الآية، ووعدهم بأن يجعل بينهم مودة، وهذه المودة كملت في فتح مكة فإنه أسلم حينئذ سائر قريش.

وقيل: المودَّة تزوُّج النبي ﷺ أمَّ حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب سيد قريش ورد ابن عطية هذا القول بأن تزوج أم حبيبة كان قبل نزول هذه الآية[1].

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢٨٢).

﴿لَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ رخص الله للمسلمين في مبرَّة(١) من لم يقاتلهم(٢) من الكفار، واختُلف فيهم على أربعة أقوال:

الأول: أنهم قبائل من العرب منهم خزاعة وبنو الحارث بن كعب؛ كانوا قد صالحوا رسول الله ﷺ على أن لا يقاتلوه، ولا يُعِينوا عليه.

الثاني: أنهم مِن كفار قريش، من لم يقاتل المسلمين ولا أخرجهم من مكة.

والآية على هذين القولين منسوخة بالقتال.

الثالث: أنهم النساء والصبيان، وفي هذا ورد أن أسماء بنت أبي بكر الصديق قالت: يا رسول الله إن أمي قدمت عليّ وهي مشركة أفأصلها؟ قال: «**نعم صِلِي أمَّك**»(٣).

الرابع: أنه أراد من كان بمكة من المؤمنين الذين لم يهاجروا.

وأما الذين نهى الله عن مودتهم لأنهم قاتلوا المسلمين وظاهروا على إخراجهم: فهم كفار قريش.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ﴾ أي: اختبروهن لتعلموا صدق إيمانهن، وإنما سماهن مؤمنات لظاهر حالهن.

وقد اختُلف في هذا الامتحان على ثلاثة أقوال:

أحدها: أن تُستحلف المرأة أنها ما هاجرت بسبب بغضها في زوجها،

---

(١) في هامش د: «خ: مودة».

(٢) في د: «من لم يقاتلوهم في الدين».

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٢٠)، ومسلم (١٠٠٣).

ولا لخوفٍ ولا غير ذلك من أعراض الدنيا سوى حب الله ورسوله والدار الآخرة.

والثاني: أن يُعرض عليها شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

والثالث: أن تُعرض عليها الشروط المذكورة بعد هذا؛ مِن ترك الإشراك والسرقة وقتل أولادهن، وترك الزنا والبهتان والعصيان فإذا أقرَّت بذلك فهو امتحانها، قالته عائشة رضي الله عنها.

﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ نزلت هذه الآية إِثْر صلح الحديبية، وكان ذلك الصلح قد تضمن أن يَردَّ المسلمون إلى الكفار كل من جاء مسلمًا من الرجال والنساء، فنسخ الله أمْر النساء بهذه الآية، ومنع مِن ردِّ المؤمنة إلى الكفار إذا هاجرت إلى المسلمين، وكانت المرأة التي هاجرت حينئذ أُميمة بنت بشر امرأة حسان بن الدَّحداحة، وقيل: سُبيعة الأسلمية، ولما هاجرت جاء زوجها فقال: يا محمد ردها علينا، فإن ذلك في الشرط لنا عليك، فنزلت الآية، فامتحنها رسول الله ﷺ فلم يردَّها، وأعطى مهرها لزوجها.

وقيل: نزلت في أم كلثوم بنت عقبة ابن أبي معيط، هربت من زوجها إلى المسلمين.

واختلف في الرجال هل حكمهم في ذلك كالنساء فلا تجوز المهادنة على ردِّ من أسلم منهم، أو تجوز حتى الآن؟ على قولين.

والأظهر: الجواز؛ لأنه إنما نسخ ذلك في النساء.

﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ هذا تعليلٌ للمنع من ردِّ المرأة إلى الكفار، وفيه دليل على ارتفاع النكاح بين المشركين والمسلمات.

﴿وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟﴾ يعني: أعطوا الكفار ما أعطوا نساءهم من الصَّدُقات إذا هاجرن، ثم أباح للمسلمين تزوُّجهن بالصَّداق.

﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ العِصَم: جمع عصمة النكاح، فأمر الله المسلمين أن يفارقوا نساءهم الكوافر، يعني: المشركات من عبدة الأوثان، فالآية على هذا محكمة.

وقيل: يعني: كل كافرة، فعلى هذا: نُسخ منها جواز تزوج الكتابيات بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

وروي أن الآية نزلت في امرأة لعمر بن الخطاب، كانت كافرة فطلقها.

﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ أي: اطلبوا من الكفار ما أنفقتم من الصدُقات على أزواجكم، اللاتي فَرَرْنَ إلى الكفار، وليَطلب الكفار منكم ما أنفقوا على أزواجهم اللاتي هاجرن إلى المسلمين.

﴿وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟﴾ معنى ﴿فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ﴾: هروب نساء المسلمين إلى الكفار.

والخطاب في قوله: ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾ و﴿فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم﴾: للمسلمين.

وقوله: ﴿عَاقَبْتُمْ﴾ ليس من العقاب على الذنب، وإنما هو:

من العُقْبى؛ أي: أصبتم عقبى وهي الغنيمة.

أو من التعاقب على الشيء، كما يتعاقب الرجلان على الدابة إذا ركبها هذا مرة وهذا مرة أخرى، فلما كان نساء المسلمين يهربون[١] إلى الكفار ونساء الكفار يهربون[٢] إلى المسلمين جَعل ذلك كالتعاقب على النساء.

وسبب الآية: أنه لما قال الله: ﴿وَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ﴾ قال الكفار: لا نرضى بهذا الحكم، ولا نعطي صَداق من فرَّت زوجته إلينا من المسلمين، فأنزل الله هذه الآية الأخرى، وأمر الله المسلمين أن يدفعوا الصَّداق لمن فرَّت زوجته من المسلمين إلى الكفار.

ويكون هذا المدفوع من مال الغنائم على قول من قال: إن معنى ﴿فَعَاقَبْتُمْ﴾: غنمتم.

وقيل: من مال الفيء.

وقيل: من الصدُقات التي كانت تدفع للكفار إذا فرَّ أزواجهم إلى المسلمين، فأزال الله دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه.

وهذه الأحكام التي تضمنتها هذه الآية قد ارتفعت؛ لأنها نزلت في قضايا معينة، وهي مهادنة النبي ﷺ مع مشركي العرب، ثم زالت هذه الأحكام بارتفاع الهدنة؛ إذ لا تجوز لنا مهادنة المشركين من العرب، إنما هو في حقهم الإسلام أو السيف، وإنما تجوز مهادنة أهل الكتاب والمجوس؛ لأن

---

(١) في د، هـ: «يهربن».

(٢) في د، هـ: «يهربن».

الله قال في المشركين: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقال في أهل الكتاب: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقال النبي ﷺ في المجوس: «سُنُّوا بهم سنة أهل الكتاب»[١].

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ﴾ هذه البيعة بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، وكان رسول الله ﷺ يبايعهن بالكلام، ولا تَمَسُّ يده يد امرأة، ورد هذا في الحديث الصحيح عن عائشة[٢].

وقيل: إنه غمس يده في إناء فيه ماء ثم دفعه إلى النساء فغمسنَ أيديَهن فيه.

﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ﴾ معناه عند الجمهور: أن تَنسب المرأة إلى زوجها ولدًا ليس له، وكانت المرأة تلتقط الولد فتقول لزوجها: هذا ولدي منك.

وإنما قال: ﴿يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ﴾؛ لأن بطنَها الذي تحمل فيه الولد بين يديها وفرجَها الذي تلد به بين رجليها.

واختار ابن عطية: أن يكون البهتان هنا على العموم في أن يُنسب إلى الرجل غيرُ ولده، أو يُفترَى على أحد بالقول، أو تكذب المرأة فيما ائتمنها الله عليه من الحيض والحمل وغير ذلك[٣].

وإلى هذا أشار بعض الناس بأن قال: ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ﴾ يراد به: اللسان والفم، وبين الأرجل يراد به: الفروج.

﴿وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ أي: لا يعصينك فيما جاءت به الشريعة من

---

(١) رواه مالك في الموطأ (٧٤٢).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧١١)، ومسلم (١٨٦٦).
(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٢٨٧).

الأوامر والنواهي، ومن ذلك: النهي عن النياحة وشق الجيوب، ووصل الشعر وغير ذلك مما كان نساء الجاهلية يفعلْنه.

وورد في الحديث: «أن النساء لما بايعْنَ رسول الله ﷺ هذه المبايعة، فقرَّرهنَّ على أن لا يسرقن قالت هند بنت عتبة - وهي امرأة أبي سفيان بن حرب -: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح، فهل عليَّ إن أخذت من ماله بغير إذنه، قال: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»، فلما قررهن على أن لا يزنين، قالت هند: يا رسول الله أتزني الحرة؟ فقال ﷺ: «لا تزني الحرة»، يعني في غالب الأمر، وذلك أن الزنا في قريش إنما كان في الإماء، فلما قال: ﴿وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ﴾ قالت: نحن ربَّيناهم صغارًا وقتلتهم أنت ببدر كبارًا، فضحك رسول الله ﷺ، فلما وقَفهنَّ على أن لا يعصينه في معروف، قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيَك»[1].

وهذه المبايعة للنساء غير معمول بها اليوم؛ لأنه أجمع العلماء على أنه ليس للإمام أن يشترط عليهن هذا، فإما أن تكون منسوخة ولم يذكر الناسخ، أو يكون تَرْكُ هذه الشروط؛ لأنها قد تقرَّرت[2] وعُلِمت من الشريعة بالضرورة، فلا حاجة إلى اشتراطها.

﴿لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: اليهود، وكان بعض فقراء المسلمين يتودَّد إليهم ليصيبوا من أموالهم.

وقيل: يعني: كفار قريش.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٥٩٦).

(٢) في ب: «قُرِّرت».

والأول أظهر؛ لأن الغضب قد صار عرفًا لليهود كقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

﴿قَدْ يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ من قال: إن القوم الذين غضب الله عليهم هم اليهود: فمعنى ﴿يَئِسُوا۟ مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾: يئسوا من خير الآخرة والسعادة فيها.

ومن قال: إن القوم الذين غضب الله عليهم هم كفار قريش: **فالمعنى**: يئسوا من وجود الآخرة وصحَّتها؛ لأنهم مكذبون بها تكذيبًا جزمًا.

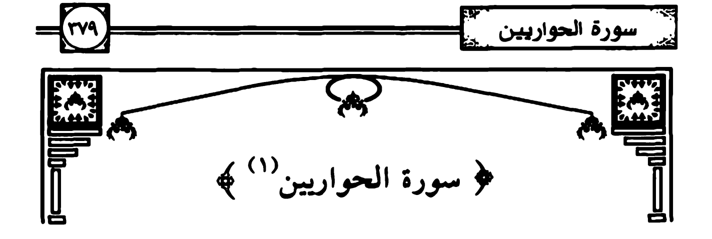
وقوله: ﴿كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ يَحتمل وجهين:

أحدهما: أن يريد: كما يئس الكفار المكذبون بالبعث من بعث أصحاب القبور، فقوله: ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ﴾ يتعلق بـ ﴿يَئِسَ﴾، وهو على حذف مضاف.

والآخر: أن يكون ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ﴾ لبيان الجنس؛ أي: كما يئس الكفار الذين في القبور من سعادة الآخرة؛ لأنهم تيقنوا أنهم يعذَّبون[1] فيها.

* * *

(١) في ب، د: «معذبون».



﴿ سورة الحواريين[1] ﴾

[﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾﴾].

﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ في سببها ثلاثة أقوال:

أحدها: -قول ابن عباس-: أن جماعة قالوا: وددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى الله فنعمله، ففرض الله الجهاد، فكرهه قوم، فنزلت الآية.

والآخر: أن قومًا من شبان المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو

---

(١) قال السخاوي في «جمال القراء وكمال الإقراء» (ص: ٩٢): «سورة الصف، وتسمى سورة الحواريين».

بما لم يفعلوا، ويقولون: فعلنا وصنعنا، وذلك كذب، فنزلت؛ زجرًا لهم.

والثالث: أنها نزلت في المنافقين؛ لأنهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن معكم ومنكم، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك، وهذا ضعيف؛ لأنه خاطبهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، إلا أن يريد أنهم آمنوا بزعمهم، وفيما يُظهِرون.

ومع ذلك فحكم الآية على العموم في زجْر مَن يقول ما لا يفعل.

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ كان بعض السلف يستحيي أن يعظ الناس؛ لأجل هذا الآية، ويقول: أخاف من مقت الله.

والمقت: هو البغض لريبة أو نحوها.

وانتصب ﴿مَقْتًا﴾ على التميز، و﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ فاعل ﴿كَبُرَ﴾.

وقيل: فاعل ﴿كَبُرَ﴾ محذوفٌ، تقديره: كبر فعلُكم مقتًا، و﴿أَن تَقُولُوا۟﴾ بدل من الفاعل المحذوف، أو خبر ابتداء مضمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ ورود هذه الآية هنا دليل على أن الآية التي قبلها في شأن القتال.

وقال بعض الناس: قتال الرَّجَّالة أفضل من قتال الفرسان؛ لأن التراصَّ فيه يتمكَّن أكثر مما يتمكن للفرسان، قال ابن عطية: هذا ضعيف، خفِي على قائله مقصدُ الآية، وليس المراد نفس التصافّ، وإنما المقصد: الثبوت والجد في القتال[1].

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٢٩٢).

﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ المرصوص: هو الذي ضُمَّ بعضُه إلى بعض.

وقيل: هو المعقود بالرصاص، ولا يبعد أن يكون هذا أصل اللفظة.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ كانوا يؤذونه بسوء الكلام ويعصيانه وتنقُّصه[١].

وانظر في «الأحزاب» قوله: ﴿لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ [الأحزاب: ٦٩][٢].

﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ هذا إقامة حجة عليهم، وتوبيخٌ لهم، وتقبيحٌ لإذايته مع علمهم بأنه رسول الله، ولذلك أدخل «قد» الدالة على التحقيق.

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ هذه عقوبةٌ على الذنب بذنب.

وزيغ القلب: هو ميله عن الحق.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إنما قال موسى: ﴿يَـٰقَوْمِ﴾، وقال عيسى: ﴿يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ لأنه لم يكن له فيهم أبٌ.

﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ معناه مذكور في «البقرة» في قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾ [البقرة: ٤١][٣].

﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ عن كعب: أن الحواريين قالوا لعيسى: يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم، أمة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء.

---

(١) في أ، د، هـ: «وتنقيصه».

(٢) انظر (٣/٥٦٨).

(٣) انظر (١/٣٠٨).

﴿اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب فلا نبي بعدي»(١).

وأحمد: مشتقٌ من الحمد.

ويَحتمل أن يكون: فعلًا سمِّي به، أو يكون صفة سمي بها كأحمر.

ويحتمل أن يكون: بمعنى حامد، أو بمعنى محمود كمحمد.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يحتمل أن يريد: عيسى أو محمد عليهما الصلاة والسلام.

ويؤيد الأول: اتصاله بما قبله.

ويؤيد الثاني: قوله: ﴿وَهُوَ يُدْعَىٰ إِلَى الْإِسْلَامِ﴾؛ لأن الداعيَ إلى الإسلام هو محمد ﷺ.

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ ذكر في «براءة»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٥٣٢)، ومسلم (٢٣٥٤).

(٢) انظر (٢/ ٤٨٩).

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾].

﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ الآيةَ؛ تفسيرٌ للتجارة المذكورة.

قال الأخفش: هو عطف بيان عليها.

وقال الزمخشري: هو استئناف[1].

﴿يَغْفِرْ لَكُمْ﴾ جزمٌ في جواب ﴿تُؤْمِنُونَ﴾؛ لأنه بمعنى الأمر، وقد قرأ ابن مسعود: «آمنوا وجاهدوا» على الأمر.

وقال الفراء: هو جواب ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾؛ لأنه يقتضي التحضيض.

﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ارتفع ﴿أُخْرَىٰ﴾ على أنه خبر ابتداء مضمر تقديره: ولكم نعمة أخرى.

أو[2] انتصب على أنه مفعول بفعل مضمر تقديره: ويمنحكم أخرى.

وقيل: هو مخفوض بالعطف على ﴿تِجَٰرَةٍ﴾، وهذا ضعيف.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٣٩١).

(٢) في ب، ج، د، هـ: «و».

﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ تفسير للأخرى، فهو بدل منها، أو خبر ابتداء مضمر تقديره هي نصْرٌ.

﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قال الزمخشري: عطفٌ على ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾؛ لأنه في معنى الأمر(١).

﴿كُونُوٓا۟ أَنصَارًا لله﴾ جمع ناصر، وقد غلَب اسم الأنصار على الأوس والخزرج، وسماهم الله به، وليس ذلك المراد هنا.

﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هذا التشبيه محمول على المعنى؛ لأن ظاهره: كونوا أنصارًا لله كقول عيسى، والمعنى: كونوا أنصارًا لله كما كان الحواريون حين قال لهم عيسى: من أنصاري إلى الله.

وقد ذكر في «آل عمران» معنى الحواريين و﴿أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾(٢).

﴿فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ قيل: إنهم ظهروا بالحجة.

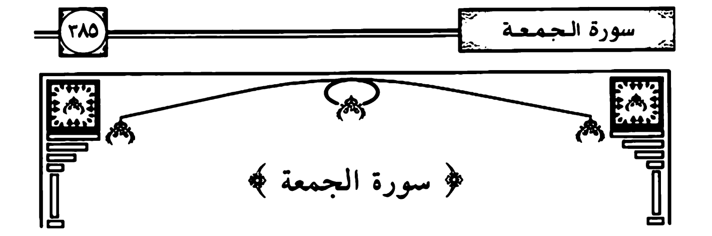
وقيل: بل غلبوا الكفار بالقتال بعد رفع عيسى عليه السلام.

وقيل: إن ظهور المؤمنين منهم هو بمحمد ﷺ.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٣٩٥).

(٢) انظر (١/ ٥٤٣).



﴿ سورة الجمعة ﴾

[﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾].

﴿ٱلْقُدُّوسِ﴾ ذكر في «الحشر»(١).

﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

و﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾: هم العرب، وقد ذكر معنى الأمي في «الأعراف»(٢).

﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطفٌ على ﴿ٱلْأُمِّيِّـۧنَ﴾، وأراد بهؤلاء: فارس، سئل

---

(١) انظر صفحة ٣٦٢.

(٢) انظر (٢/ ٣٩٥).

رسول الله ﷺ: من هؤلاء الآخَرون؟ فأخذ بيد سليمان الفارسي، وقال: «**لو كان العلم بالثريا لناله رجال من هؤلاء**»[(١)] يعني: فارس.

وقيل: هم الروم.

و﴿مِنۡهُمۡ﴾ على هذين القولين يريد به: في البشرية وفي الدين، لا في النسب.

وقيل: هم أهل اليمن.

وقيل: هم التابعون.

وقيل: هم سائر المسلمين.

والأول أرجح؛ لوروده في الحديث الصحيح.

﴿لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ﴾ أي: لم يلحقوا بهم وسيلحقون، وذلك أن «لمَّا» لنفْي الماضي القريب من الحال.

﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى نبوة محمد ﷺ وهداية الناس به.

﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ يعني: اليهودَ، ومعنى ﴿حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ﴾ كُلِّفوا العمل بها والقيامَ بأوامرها ونواهيها، و﴿ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا﴾: لم يطيعوا[(٢)] أمرها، ولم يعملوا بها، شبههم الله بالحمار الذي يحمل الأسفار على ظهره، ولا يدري ما فيها.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٧٩٥٠).

(٢) في هـ: «يطيقوا».

﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ يعني: اليهود الذين كذَّبوا محمدًا ﷺ وهم الذين حملوا التوراة ولم يحملوها؛ لأن التوراة تنطق بنبوته ﷺ، فكل من قرأها ولم يؤمن به فقد خالف التوراة.

﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ﴾ ذكر في «البقرة»[1].

* * *

(١) انظر (١/ ٣٤٠).

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝١٠ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾].

﴿إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ النداء للصلاة: هو الأذان لها.

و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ﴾ بيانٌ لـ ﴿إِذَا﴾، وتفسير له.

و﴿ذِكۡرِ ٱللَّهِ﴾ يراد به: الخطبة والصلاة.

★ ويتعلق بهذه الآية ثماني مسائل:

الأولى: اختُلف في الأذان للجمعة:

هل هو سنة كالأذان لسائر الصلوات؟

أو واجب لظاهر هذه الآية؟؛ لأنه شرَط في السعي لها أن يكون عند الأذان، والسعيُ واجب فالأذان واجب.

الثانية: كان الأذان للجمعة على عهد رسول الله ﷺ على جدار المسجد.

وقيل: على باب المسجد.

وقيل: كان بين يديه ﷺ وهو على المنبر، وقد كان بنو أمية يأخذون بهذا، وبقي بقرطبة زمانًا وهو باق بالمشرق إلى الآن.

قال أبو محمد ابن الفَرس: قال مالك في «المجموعة»[١]: إن هشام بن عبد الملك هو الذي أحدث الأذان بين يديه، قال: وهذا دليل على أن الحديث في ذلك ضعيف[٢].

الثالثة: كان المؤذن[٣] للجمعة واحدًا، ثم زاد عثمان ﷺ النداءَ على الزَّوراء ليسمع الناس، واختلف الفقهاء هل المستحب أن يؤذن فيها اثنان أو ثلاثة؟

الرابعة: السعي في الآية بمعنى المشي لا بمعنى الجري، وقرأ عمر بن الخطاب: «فامضوا إلى ذكر الله» وهذا تفسير للسعي، فهو بخلاف السعي في قول رسول الله ﷺ: «**إذا نودي للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون**»[٤].

الخامسة: حضور الجمعة واجب؛ لحمل الأمر الذي في الآية على الوجوب باتفاق، إلا أنها لا تجب على المرأة ولا الصبي ولا المريض باتفاق.

ولا على العبد والمسافر عند مالك والجمهور، خلافًا للظاهرية، وتعلقوا بعموم الآية.

وحجة الجمهور: قول رسول الله ﷺ: «**الجمعة واجبة على كل مسلم في**

---

(١) المجموعة على مذهب مالك وأصحابه، كتاب ألَّفه محمد بن إبراهيم بن عبدوس (ت ٢٦٠هـ) من كبار أصحاب سحنون. انظر: الديباج المذهب (٢/ ١٧٤).
(٢) أحكام القرآن، لابن الفرس (٣/ ٥٥٨).
(٣) في أ: «الأذان».
(٤) أخرجه البخاري (٦٣٦)، ومسلم (٦٠٢).

جماعة إلا أربعة: عبد مملوك، أو امرأة، أو صبي، أو مريض»[١].

وحجتهم في المسافر: أن رسول الله ﷺ كان لا يقيم الجمعة في السفر.

واختُلف هل تسقط الجمعة بسبب المطر أم لا؟

وهل يجوز للعروس التخلف عنها أم لا؟

والمشهور: أنها لا تسقط عنهما؛ لعموم الآية.

السادسة: اختلف متى يتعين الإقبال إلى الصلاة؟

فقيل: إذا زالت الشمس.

وقيل: إذا أذن المؤذن، وهو ظاهر الآية.

السابعة: اختُلف في الموضع الذي يجب منه السعي إلى الجمعة؟

فقيل: ثلاثة أميال وهو مذهب مالك.

وقيل: ستة أميال.

وقيل: تجب على مَن داخِلَ المصر.

وقيل: على من سمع النداء.

وقيل: على من آواه الليل إلى أهله.

الثامنة: اختلف في الوالي هل هو من شرط[٢] الجمعة أم لا؟ على قولين، والمشهور: سقوطه؛ لأن الله لم يشترطه في الآية.

---

(١) أخرجه أبو داوود (١٠٦٧).

(٢) في أ، هـ: «شروط».

﴿وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ أمرٌ بترك البيع يوم الجمعة إذا أخذ المؤذنون في الأذان، وذلك على الوجوب، فيقتضي تحريم البيع.

واختلف في البيع الذي يعقد في ذلك الوقت هل يفسخ أم لا؟

واختلف في بيع من لا تلزمهم الجمعة من النساء والعبيد؛ هل يجوز في ذلك الوقت أم لا؟

والأظهر: جوازه؛ لأنه إنما منع منه مَن يُدعَى إلى الجمعة، ويجري النكاح في ذلك الوقت مجرى البيع في المنع.

﴿فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا الأمر للإباحة باتفاق، حكَى الإجماعَ على ذلك ابن عطية[١] وابن الفرس[٢].

﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ **قيل**: معناه طلب المعاش، فالأمر على هذا إباحة، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الفضل المبتغى: عيادة مريض، أو صلة صديق، أو اتباع جِنازة»[٣].

وقيل: هو طلب العلم.

وإن صح الحديث لم يُعدَل إلى سواه.

﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ سبب الآية: أن رسول الله ﷺ كان قائمًا على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عِير من الشام بطعام،

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٠٤).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ٥٦٣).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٦٤٤).

وصاحب أمرها دِحية بن خليفة الكلبي، وكانت عادتهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والصياح سرورًا بها، فلما دخلت العير كذلك انفضَّ أهل المسجد إليها، وتركوا رسول الله ﷺ قائمًا على المنبر، ولم يبق معه إلا اثنا عشر رجلًا، قال جابر بن عبد الله: أنا أحدهم.

وذكر بعضهم: أن منهم العشرة المشهود لهم بالجنة.

واختُلف في الثاني عشر:

فقيل: عبد الله بن مسعود.

وقيل: عمار بن ياسر.

وقيل: إنما بقي معه ﷺ ثمانية.

وروي أنه ﷺ قال: **«لولا هؤلاء لقد كانت الحجارة سُوِّمت في السماء على المنفضِّين»**[١].

وظاهر الآية: يقتضي أن الجماعة شرط في الجمعة وهو مذهب مالك والجمهور، إلا أنهم اختلفوا في مقدار الجماعة الذين تنعقد بهم الجمعة؟

فقال مالك: ليس في ذلك عدد محدود، وإنما هم جماعة تقوم بهم قرية.

وروى ابن الماجشون عن مالك: ثلاثون[٢].

وقال الشافعي: أربعون.

وقال أبو حنيفة: ثلاثة مع الإمام.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٥/ ٢٣٦).

(٢) في ب زيادة: «رجلًا».

وقيل: اثنا عشر، عددَ الذي بقوا مع النبي ﷺ.

فإن قيل: لم قال: ﴿ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا﴾ بضمير المفرد وقد ذكر التجارة واللهو؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد: انفضوا إلى اللهو وانفضوا إلى التجارة، ثم حَذف أحدهما؛ لدلالة الآخر عليه. قاله الزمخشري[١].

والآخر: أنه قال ذلك تهمُّمًا بالتجارة؛ إذ كانت أهم، وكانت هي سبب اللهو، ولم يكن اللهو سببَها، قاله ابن عطية[٢].

﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾ اختلفوا في القيام في الخطبة هل هو واجب أم لا؟

وإذا قلنا بوجوبه فهل هو شرط فيها أم لا؟

فمن أوجبه واشترطه: أخذ بظاهر الآية من ذكر القيام.

ومن لم يوجبه: رأى أن ما فعله النبي ﷺ من ذلك لم يكن على الوجوب.

ومذهب مالك: أن مِن سنة الخطبة الجلوس قبلها والجلوس بين الخطبتين.

وقال أبو حنيفة: لا يجلس بين الخطبتين؛ لظاهرِ الآية، وذِكْرِ القيام فيها دون جلوس.

وحجة مالك: فعل رسول الله ﷺ.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٤٢٠).

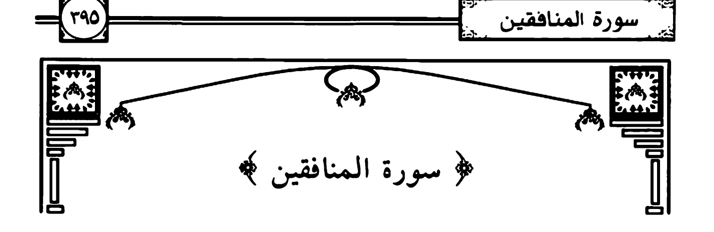
(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٣٠٥-٣٠٦).

﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ إن قيل: لم قدَّم اللهو هنا على التجارة وقدم التجارة قبل هذا على اللهو؟

فالجواب: أن كل واحد من الموضعين جاء على ما ينبغي فيه؛ وذلك أن العرب تارة يبتدئون بالأكثر ثم ينزلون إلى الأقل، كقولك: «فلان يخون في الكثير والقليل» فبدأت بالكثير ثم أردفت عليه الخيانة فيما دونه، وتارة يبتدئون بالأقل ثم يرتقون إلى الأكثر، كقولك: «فلان أمين على القليل والكثير» فبدأت بالقليل ثم أردفت عليه الأمانة فيما هو أكثر منه، ولو عُكس في كل واحد من المثالين لم يكن حسنًا؛ فإنك لو قدمتَ في الخيانة ذكر القليل لعُلم أنه يخون في الكثير من باب أولى وأحرى، ولو قدمتَ في الأمانة ذكر الكثير لعُلم أنه أمين في القليل من باب أولى وأحرى، فلم يكن لذكره بعد ذلك فائدة.

وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا رَأَوْا۟ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ قدم التجارة هنا ليبيِّن أنهم ينفضون إليها، وأنهم مع ذلك ينفضون إلى اللهو الذي هو دونها، وقوله: ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ قدم اللهو ليبين أن ما عند الله خير من اللهو، وأنه أيضًا خير من التجارة التي هي أعظم منه، ولو عكَس كل واحد من الموضعين لم يَحسن.

* * *



﴿ سورة المنافقين ﴾

[﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۝١ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ۝٣ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٨﴾].

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ كانوا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، فلذلك كذَّبهم الله في قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ أي: كذبوا في دعواهم الشهادة بالرسالة.

وأما قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ فليس من كلام المنافقين، وإنما هو من كلام الله تعالى، ولو لم يذكره لكان يوهم أن قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ

﴿ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ إبطالٌ للرسالة، فوسَّطه بين حكاية قول المنافقين وبين تكذيبهم؛ ليُزيل هذا الوهم وليحقِّق الرسالة، وعلى هذا ينبغي أن يوقف على قوله: ﴿لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾.

﴿جُنَّةً﴾ ذكر في «المجادلة»(١).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ الإشارةُ:

إلى سوء عملهم.

أو إلى فضيحتهم وتوبيخهم.

وأما قوله: ﴿ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ فيحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون فيمن آمن منهم إيمانًا صحيحًا، ثم نافق بعد ذلك.

والآخر: أن يريد: آمنوا في الظاهر، كقوله: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا﴾ [البقرة: ١٤].

﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ يعني: أنهم حِسانُ الصُّور.

﴿وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ يعني: أنهم فصحاء.

والخطاب في قوله: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ﴾ وفي قوله: ﴿تَسْمَعْ﴾: للنبي ﷺ، ولكل مخاطَب.

﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ شبَّههم بالخشب في قلة أفهامهم، فكان لهم مَنظر بلا مَخْبر.

---

(١) انظر صفحة ٣٤٤.

وقال الزمخشري: إنما شبههم بالخشب المسندة إلى حائط؛ لأن الخُشب إذا كانت كذلك لم يكن فيها منفعة، بخلاف الخشب التي تكون في سَقف أو مغروسةً في جدار؛ فإن فيها حينئذ منفعة فالتشبيه على هذا في عدم المنفعة[١].

وقيل: كانوا يستندون في مجلس رسول الله ﷺ، فشبههم في استنادهم بالخشب المسنَدة إلى الحائط.

﴿يَحْسِبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ عبارةٌ عن شدَّة خوفهم من المسلمين، وذلك أنهم كانوا إذا سمعوا صياحًا ظنوا أن النبي ﷺ يأمر بقتلهم.

﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهم يتضمن ذمَّهم وتقبيحَ أحوالهم.

﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ أي: كيف يصرفون عن الإيمان مع[٢] ظهوره؟

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ أي: أمالوها إعراضًا واستكبارًا.

وقَصصُ هذه الآية وما بعدها: أن رسول الله ﷺ خرج في غزوة بني المصطلق، فبلغ الناس إلى ماء ازدحموا عليه، فكان ممن ازدحم جَهْجاه ابن سعيد[٣] أجير لعمر بن الخطاب، وسِنان الجُهني حليفٌ لعبد الله بن أبي ابن سلول رأس المنافقين، فلطم الجهجاه سنانًا، فغضب سنان ودعا

---

(١) الكشاف (١٥/ ٤٢٩).

(٢) في ب، د: «بعد».

(٣) الذي سيرة ابن هشام (٢/ ٢٩٠): «جهجاه بن مسعود»، وفي الإصابة (٢/ ٢٦٤): «جهجاه بن سعيد، وقيل: ابن قيس، وقيل: ابن مسعود».

بالأنصار ودعا الجهجاه بالمهاجرين، فقال عبد الله بن أبيٍّ: والله ما مَثلنا ومَثلُ هؤلاء - يعني المهاجرين - إلا كما قال الأول: «سَمِّنْ كلبَك يأكُلْك»، ثم قال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يعني بالأعزِّ: نفسه وأتباعه، ويعني بالأذلِّ: رسول الله ﷺ ومن معه، ثم قال لقومه: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون بالمدينة بسبب معونتكم وإنفاقكم عليهم، ولو قطعتم ذلك عنهم لفرُّوا عن مدينتكم، فسمعه زيد بن أرقم فأخبر بذلك رسولَ الله ﷺ، فبلغ ذلك عبد الله بن أبي، فحلف أنه ما قال شيئًا من ذلك، وكذَّب زيدًا، فنزلت السورة عند ذلك، فبعث رسول الله ﷺ في زيد، وقال له: «لقد صدَّقك الله يا زيد»، فخَزِيَ عبد الله بن أبي، ومقته الناس، فقيل له: امض إلى رسول الله ﷺ يستغفرْ لك!، فلوَى رأسه إنكارًا لهذا الرأي، وقال: أمرتموني بالإسلام فأسلمت، وأمرتموني بأداء زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني أن أسجد لمحمد!، ثم مات عبد الله بن أبيٍّ بعد ذلك بقليل(١).

وأُسندت هذه الأقوال التي قالها عبد الله بن أبيٍّ إلى ضمير الجماعة؛ لأنه كان له أتباع من المنافقين يوافقونه عليها.

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ روي أنه لما نزلت ﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ﴾ [التوبة: ٨٠] قال رسول الله ﷺ: «لأزيدن على السبعين» فلما فعل عبد الله بن أبيٍّ وأصحابه ما فعلوا شدَّد الله

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٢/ ٦٥٥).

عليهم في هذه السورة، وأخبر أنه لا يغفر لهم بوجه[١].

وفي هذا نظر؛ لأن هذه السورة نزلت في غزوة بني المصطلق قبل الآية الأخرى بمدَّة.

* * *

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١١/ ٥٩٩).

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ۝٩ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١١﴾].

﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: لا تَشغلْكم.

و﴿ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ هنا: على العموم في الصلاة والدعاء والعبادة.

وقيل: يعني: الصلاة المكتوبة.

والعموم أولى.

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ عمومٌ في الزكاة وصدقة التطوع والنفقة في الجهاد وغير ذلك.

وقيل: يعني: الزكاة المفروضة.

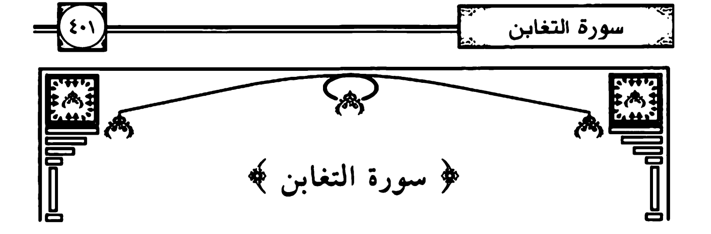
والعموم أولى.

﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالجزم: عطفٌ على موضع جواب الشرط[1].

وقرأ أبو عمرٍو ﴿وَأَكُونَ﴾ بالنصب عطفٌ على ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾.

---

(١) والتقدير: إن تؤخرني أصَّدقْ وأكنْ من الصالحين. المحرر الوجيز (٨/ ٣١٦).



﴿ سورة التغابن ﴾

[﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ ﴾].

﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ في تأويل الآية وجهان:

أحدهما: هو الذي خلقكم فكان يجب على كل واحد منكم الإيمان به، لكن منكم من كفر ومنكم من آمن، فالكفر والإيمان على هذا: هو اكتساب العبد.

والآخر: أن المعنى: هو الذي خلقكم على صنفين: فمنكم من خلقه

مؤمنًا ومنكم من خلقه كافرًا، فالإيمان والكفر على هذا: هو ما قضى الله على كل أحد.

والأول أظهر؛ لأن عطفه على ﴿خَلَقَكُمْ﴾ بالفاء يقتضي أنَّ الكفر والإيمان واقعان بعد الخلقة، لا في أصل الخلقة.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ذكر معناه في مواضع[1].

﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ تعديد نعمةٍ في حُسنِ خِلقة بني آدم؛ لأنهم أحسن صورة من جميع أنواع الحيوان وإن وجد بعض الناس قبيح المنظر، فلا يخرجه ذلك عن حسْن الصورة الإنسانية، وإنما هو قبيحٌ بالنظر إلى من هو أحسن منه من الناس.

وقيل: يعني: العقل والإدراك الذي خُصَّ به الإنسان.

والأول أرجح؛ لأن الصورة إنما تنطلق على الشكل.

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ خطاب لقريش وسائر الكفار.

﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا﴾ معناه: أنهم استبعدوا أن يرسل الله بشرًا، أو تكبروا عن اتباع بشر.

والبشر: يقع على الواحد والجماعة.

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟﴾ قال عبد الله بن عمر: زعم كناية عن كذب[2].

---

(١) انظر (٢/٥٣٩)، (٢/٧٢٨)، (٣/٧١٢).

(٢) أخرجه الطبري بإسناده في تفسيره (٢٣/ ٩) إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال: «زعم: كُنْيَة الكذب».

﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾:

﴿لَتُنَبَّؤُنَّ﴾.

أو ﴿خَبِيرٌ﴾.

أو محذوفٌ تقديره: اذكر.

ويحتمل أن يكون مبتدأ وخبره ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾، يعني: يوم القيامة.

و﴿ٱلتَّغَابُنُ﴾: مستعارٌ مِن تغابُن الناس في التجارة، وذلك إذا فاز السعداء بالجنة، فكأنهم غبَنوا الأشقياء في منازلهم التي كانوا ينزلون منها لو كانوا سعداء، فالتغابن على هذا بمعنى الغَبْن، وليس على المتعارف في صيغة تفاعل من كونها بين اثنين، كقولك: تضارب وتقاتل، إنما هي فعلُ واحدٍ كقولك: تواضع، قاله ابن عطية[١].

وقال الزمخشري: يعني: نزول السعداء منازل الأشقياء ونزول الأشقياء منازل السعداء، والتغابن على هذا بين اثنين، قال: وفيه تهكُّم بالأشقياء؛ لأن نزولهم في جهنم ليس في الحقيقة بغَبْن للسعداء[٢].

* * *

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٢١).

(٢) الكشاف (١٥/ ٤٥٥).

[﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟ وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾].

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ يحتمل أن يريد بالمصيبة:

الرزايا، وخصَّها بالذكر لأنها أهم على الناس.

أو يريد جميع الحوادث من خير وشر.

و﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عبارةٌ عن قضائه وإرادته تعالى.

﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ قيل: معناه: من يؤمن بأن كل شيء بإذن الله يهد الله قلبه للتسليم والرضا بقضاء الله، وهذا حسَنٌ، إلا أن العموم أحسن منه.

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْۚ﴾ سببها: أن قومًا أسلموا وأرادوا الهجرة، فثبطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة، فحذرهم الله من طاعتهم في ذلك.

وقيل: نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أراد الجهاد فاجتمع

أهله وأولاده[١] فشكَوا من فراقه، فرقَّ لهم ورجع، ثم إنه ندم وهم بمعاقبتهم فنزلت الآية محذرة من فتنة الأولاد، ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله: ﴿وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟﴾ الآيةَ.

ولفظ الآية مع ذلك على عمومه في التحذير ممن يكون للإنسان عدوًّا من أهله وأولاده، سواء كانت عداوتهم بسبب الدين أو الدنيا.

﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ترغيبٌ في الآخرة وتزهيد في الأموال والأولاد التي فتن الناس بها.

﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ قيل: إن هذا ناسخ لقوله: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وروي أنه لما نزل ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ شق ذلك على الناس حتى نزل ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾.

وقيل: لا نسخ بينهما؛ لأن ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ معناه: فيما استطعتم؛ إذ لا يمكن أن يفعل أحد إلا ما يستطيع، فهذه الآية - على هذا - مبيِّنة لتلك، وتحرز بالاستطاعة من الإكراه والنسيان وما لا يؤاخذ به العبيد.

وإعراب ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ ظرفية.

﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ منصوبٌ بإضمار فعل لا يظهر عند سيبويه.

وقيل: هو مفعول بـ ﴿أَنفِقُوا۟﴾؛ لأن الخير بمعنى المال.

وقيل: هو نعتٌ لمصدر محذوف تقديره: أنفقوا إنفاقًا خيرًا لأنفسكم.

---

(١) في أ، هـ: «وولده».

﴿وَمَن يُوقَ﴾ ذكر في «الحشر»[١].

﴿إِن تُقْرِضُوا﴾ ذكر في «البقرة»[٢].

﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾ ذكر في «اللغات»[٣].

---

(١) انظر صفحة ٣٥٦.

(٢) انظر (١/ ٤٦٧).

(٣) انظر المواد (١٢٩)، و(٥٤٠).





﴿ سورة الطلاق ﴾

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحۡصُواْ ٱلۡعِدَّةَۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمۡۖ لَا تُخۡرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخۡرُجۡنَ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ لَا تَدۡرِي لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحۡدِثُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ أَمۡرٗا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ فَارِقُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖ وَأَشۡهِدُواْ ذَوَيۡ عَدۡلٖ مِّنكُمۡ وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴿٢﴾ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ﴿٣﴾ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾﴾].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ إن قيل: لم نودي النبي ﷺ وحده ثم جاء بعد ذلك خطاب الجماعة؟

فالجواب: أنه لما كان حكم الطلاق يشترك فيه النبي ﷺ وأمته، قيل: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ خطابًا له ولهم، وخُصَّ هو ﷺ بالنداء أولًا تعظيمًا له، كما يقال لرئيس القوم وكبيرهم: «يا فلان افعلوا»، أي: افعل أنت وقومك، ولأنه ﷺ هو المبلغ إلى أمته[1]، فكأنه قال: يا أيها النبي إذا طلقت أنت وأمتك.

وقيل: تقديره: يا أيها النبي قل لأمتك إذا طلقتم، وهذا ضعيف؛ لأنه يقتضي أن هذا الحكم مختص بأمته دونه.

وقيل: إنه خوطب النبي ﷺ بـ ﴿طَلَّقْتُمُ﴾ تعظيمًا له، كما تقول للرجل المعظَّم: «أنتم فعلتم»، وهذا أيضًا ضعيف؛ لأنه يقتضي اختصاصه ﷺ بالحكم دون أمته.

ومعنى ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ﴾ هنا: إذا أردتم الطلاق.

واختُلف في الطلاق هل هو مباح أو مكروه؟

وأما إذا كان على غير وجه السنة فهو ممنوع، ولكن يلزم.

وأما اليمين بالطلاق فممنوع[2].

﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ تقديره: طلقوهن مستقبلاتٍ لعدتهن، ولذلك قرأ عثمان وابن عباس وأبيّ بن كعب: «فطلقوهن في قُبُلِ عِدَّتهن»، وقرأ

---

(١) في ب، د: «لأمته».

(٢) في أ، ب: «فهو ممنوع».

ابن عمر: «لِقُبُلِ عدتهن»، ورويت القراءتان عن رسول الله ﷺ[١].

ومعنى ذلك كله: أن لا يطلقها وهي حائض، فهو منهي عنه بإجماع؛ لأنه إذا فعل ذلك لم يقع طلاقه في الحال التي أمره الله بها وهو استقبال العدة.

واختلف في النهي عن الطلاق في الحيض هل هو معلَّل بتطويل العدة، أو هل هو تعبد؟

والصحيح أنه معلل بذلك.

وينبني على هذا الخلاف فروع:

منها: هل يجوز إذا رضيت به المرأة أم لا؟

ومنها: هل يجوز طلاقها وهي حامل أم لا؟

ومنها: هل يجوز طلاقها قبل الدخول وهي حائض أم لا؟

فالتعليل بتطويل العدَّة يقتضي جواز هذه الفروع، والتعبد يقتضي المنع.

ومن طلق في الحيض لزمه الطلاق، ثم أُمر بالرجعة على وجه الإجبار عند مالك، ودون إجبار عند الشافعي حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء طلق وإن شاء أمسك، حسَبما ورد في حديث ابن عمر حين طلق امرأته وهي حائض فذكر ذلك عمر للنبي ﷺ فقال له: «**مرة فليراجعها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر؛ فإن شاء طلق وإن شاء أمسك**»[٢].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٢٧٥)، وعبد الرزاق في مصنفه (٦/ ٣٠٣)، (٦/ ٣٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٥٢٥١)، ومسلم (١٤٧١).

واشترط مالك أن يطلقها في طهر لم يمسها فيه؛ لتعتد بذلك الطهر، فإنه إن طلقها في طهر بعد أن جامعها فيه فلا تدري هل تعتد بالوضع أو بالأقراء؟ فليس طلاقًا لعدتها كما أمره الله.

﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ أمَر بذلك؛ لما يبنَى عليها من الأحكام، في الرجعة والسكنى والميراث وغير ذلك.

﴿لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ نهى الله ﷻ أن يُخرج الرجل المرأة المطلقة من المسكن الذي طلقها فيه، ونهاها أن تخرج هي باختيارها، فلا يجوز لها المبيت عن بيتها، ولا أن تغيب عنه نهارًا إلا لضرورة التصرف، وذلك لحفظ النسب وصيانة المرأة، فإن كان المسكن مِلكًا للزوج، أو مكترًى عنده لزمه إسكانها فيه، وإن كان المسكن لها فعليه كراؤه مدة العدة، وإن كانت قد أمتعته فيه مدة الزوجية؛ ففي لزوم خَرْجِ[1] العدة له قولان في المذهب، والصحيح لزومه؛ لأن الإمتاع قد انقطع بالطلاق.

﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾ اختُلف في هذه الفاحشة التي أباحت خروج المعتدة ما هي؟ على خمسة أقوال:

الأول: أنها الزنا، فتَخرج لإقامة الحدِّ، قاله الليث بن سعد والشعبي.

الثاني: أنه سوء الكلام مع الأصهار، فتخرج ويسقط حقها من السكنى، ويلزمها الإقامة في مسكن تتخذه حفظًا للنسب، قاله ابن عباس، ويؤيده قراءة أبي بن كعب: «إلا أن يفحشْنَ عليكم».

(١) في ب، ج: «خروج»!.

الثالث: أنه جميع المعاصي من القذف والزنا والسرقة وغير ذلك، فمتى فعلت شيئًا من ذلك سقط حقها في السكنى، قاله ابن عباس أيضًا، وإليه مال الطبري[(١)].

الرابع: أنه الخروج عن[(٢)] بيتها خروجَ انتقال فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السكنى، قال ابن الفرس: وإلى هذا ذهب مالك في المرأة إذا نشزت في العدة[(٣)].

الخامس: أنه النشوز قبل الطلاق، فإذا طلقها بسبب نشوزها فلا يكون عليه سكنى، قاله قتادة.

﴿لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ المراد به: الرجعة عند الجمهور، أي: أحصوا العدة وامتثلوا ما أمرتم به، لعل الله يحدث الرجعة لنسائكم.

وقيل: المعنى: لعل الله يحدث أمرًا من نسخ هذه الأحكام، وهذا بعيد.

وقيل: إن سبب الرجعة المذكورة في الآية: تطليق النبي ﷺ لحفصة بنت عمر، فأمره الله بمراجعتها.

﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ يريد: آخر العدة.

والإمساك بمعروف: هو تحسين العشرة، وتوفية النفقة.

والفراق بالمعروف: هو أداء الصداق، والإمتاع حين الطلاق، والوفاء بالشروط ونحو ذلك.

---

(١) تفسير الطبري (٢٣/ ٣٥).

(٢) في ب، د: «من».

(٣) أحكام القرآن (٣/ ٥٧٤).

﴿وَأَشْهِدُواْ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ هذا خطاب للأزواج، والإشهاد المأمور به: هو على الرجعة عند الجمهور، وقد اختلف فيه هل هو واجب أو مستحب؟ على قولين في المذهب.

وقال ابن عباس: هو الشهادة على الطلاق وعلى الرجعة، وذلك أظهر؛ لأن الإشهاد به يرفع الإشكال والنزاع، ولا فرق في هذا بين الرجعة والطلاق.

وقد ذكرنا العدالة في «البقرة»[1].

وقوله: ﴿ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ يدل على إنه إنما يشهد في الطلاق والنكاح الرجالُ دون النساء، وهو مذهب مالك، خلافًا لمن أجاز شهادة النساء في ذلك.

وقوله: ﴿مِّنكُمْ﴾ يعني: من المسلمين.

وقيل: من الأحرار، فيؤخذ من ذلك: ردُّ شهادة العبيد، وهو مذهب مالك.

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ﴾ هذا خطاب للشهود.

وإقامة الشهادة:

يحتمل أن يريد به: القيام بها، فإذا استُشهد وجب عليه أن يشهد، وهو فرض كفاية، وإلى هذا المعنى أشار ابن الفرس[2].

---

(١) انظر (١/ ٤٩٨).

(٢) أحكام القرآن (٣/ ٥٧٦).

ويحتمل أن يريد: إقامتها بالحق دون ميل ولا غرض، وبهذا فسره الزمخشري[١]، وهو أظهر؛ لقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ فهو كقوله: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥].

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ما تقدم من الأحكام.

﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا﴾ قيل: إنها في الطلاق، ومعناها: من يتق الله فيطلق طلقة واحدة، حسَبما تقتضيه السنة يجعل له مخرجًا بجواز الرجعة متى ندم على الطلاق، وفي هذا المعنى روي عن ابن عباس أنه قال لمن طلق ثلاثًا: إنك لم تتق الله فبانَتْ منك امرأتُك، ولا أرى لك مخرجًا؛ أي: لا رجعة لك.

وقيل: إنها على العموم؛ أي: من يتق الله في أقواله وأفعاله يجعل الله له مخرجًا من كرب الدنيا والآخرة، وقد روي هذا أيضًا عن ابن عباس، وهذا أرجح لخمسة أوجه:

أحدها: حمل اللفظ على عمومه، فيدخل في ذلك الطلاق وغيره.

الثاني: أنه روي أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أُسر ولده وضُيق عليه رزقُه، فشكى ذلك إلى رسول الله ﷺ فأمره بالتقوى، فلم يلبث إلا يسيرًا وانطلق ولده ووسع الله رزقه.

والثالث: أنه روي عن رسول الله ﷺ أنه قرأها فقال: «مخرجًا من شبهات الدنيا، ومن غمرات الموت، ومن شدائد يوم القيامة»[٢].

---

(١) الكشاف (١٥/ ٤٧١).

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره (٩/ ٣٣٦).

والرابع: روي أنه ﷺ قال: «إني لأعلم آية لو أخذ الناس بها لكفتهم ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾» الآيةَ، فما زال يقرؤها ويعيدها.

الخامس: قوله: ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾، فإن هذا لا يناسب الطلاق وإنما يناسب التقوى على العموم.

قال بعض العلماء: الرزق على نوعين:

رزق مضمون لكل حي طول عمره، وهو الغذاء الذي تقوم به الحياة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

ورزق موعود للمتقين خاصة، وهو المذكور في هذه الآية.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ أي: كافيهِ بحيث لا يحتاج معه إلى غيره. وقد تكلمنا على التوكل في «آل عمران»[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ أي: يَبلغ ما يريد ولا يُعجِزه شيء، وهذا حضٌّ على التوكل وتأكيد له؛ لأن العبد إذا تحقق أن الأمور كلها بيد الله توكل عليه وحده ولم يعوِّل على سواه[٢].

﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ أي: مقدارًا معلومًا ووقتًا محدودًا.

﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ روي أنه لما نزل قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قالوا: يا رسول الله فما عدة من لا قُرْءَ لها من صِغَرٍ أو كبر؟ فنزلت هذه الآية

---

(١) انظر (١/ ٥٩٠).

(٢) في ج: «ما سواه».

مُعْلمة أن المطلقة إذا كانت ممن لا تحيض فعدتها ثلاثة أشهر، فقوله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ﴾ يعني: التي انقطعت حيضتها لكبر سنها، وقوله: ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ يعني: الصغيرة التي لم تبلغ المحيض، وهو معطوف على ﴿وَٱلَّـٰٓـِٔي يَئِسْنَ﴾، أو مبتدأ وخبره محذوف تقديره: واللائي لم يحضن كذلك.

وقوله: ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ هو من الريب بمعنى الشك، وفي معناه قولان:

أحدهما: إن ارتبتم في حكم عدتها فاعلموا أنها ثلاثة أشهر.

والآخر: إن ارتبتم في حيضتها هل انقطع أو لم ينقطع.

فهي على التأويل الأول: في التي انقطعت حيضتها لكبرها حسَبما ذكرنا، وهو الصحيح.

وهي على التأويل الثاني: في المرتابة وهي التي غابت عنها الحيضة وهي في سن من تحيض، وقد اختلف العلماء في عدتها على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها ثلاثة أشهر خاصة حسَبما تقتضيه الآية على هذا التأويل.

والآخر: أنها ثلاثة أشهر بعد تسعة أشهر تستبرئ بها أمَد الحمل، وهذا مذهب مالك، وقدوته في ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

والثالث: أنها تعتد بالأقراء ولو بقيت ثلاثين سنة حتى تبلغ سن من لا تحيض، وهو مذهب الشافعي وأبي حنيفة.

﴿وَأُولَـٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ هذه الآية عند مالك والشافعي وأبي حنيفة وسائر العلماء: عامة في المطلقات والمتوفَّى عنهن، فمتى كانت إحداهن حاملًا فعدتها وضع حملها.

وقال علي بن أبي طالب وابن عباس: إنما هذه الآية في المطلقات الحوامل فهن اللاتي عدتهن وضع حملهن، وأما المتوفى عنها إذا كانت حاملًا فعدتها - عندهما - أبعد الأجلين: إما الوضع أو انقضاء الأربعة الأشهر وعشرٍ.

فحجة الجمهور: حديث سبيعة الأسلمية أنها كانت تحت سعد بن خولة فتوفي في حجة الوداع وهي حبلى، فلما وضعت خطبها أبو السنابل بن بَعْكَك، فسألت رسول الله ﷺ فقال لها: «انكحي من شئت»[1].

وقد ذُكر أن ابن عباس رجع إلى هذا الحديث لما بلغه، ولو بلغ عليًا رضي الله عنه لرجع إليه.

وقال عبد الله بن مسعود: إن هذه الآية التي نزلت في سورة النساء القصرى -يعني: سورة «الطلاق»- نزلت بعد الآية التي في «البقرة»: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]. فهي مخصَّصة لها حسَبما قاله جمهور العلماء.

﴿أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ أمر الله بإسكان المطلقات طول العدة.

فأما المطلقة غير المبتوتة: فيجب لها على زوجها السكنى والنفقة باتفاق.

وأما المبتوتة: ففيها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها يجب لها السكنى دون النفقة، وهو مذهب مالك والشافعي.

والثاني: أنها يجب لها السكنى والنفقة، وهو مذهب أبي حنيفة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٣١٨)، ومسلم (١٤٨٤).

والثالث: أنها ليس لها سكنى ولا نفقة.

فحجة مالك: حديث فاطمة بنت قيس، وهو أن زوجها طلقها ألبتة، فقال لها رسول الله ﷺ: «ليس لك عليه نفقة»[١]، فيؤخذ من هذا أن لها السكنى دون النفقة.

وحجة من أوجب لها السكنى والنفقة: قول عمر بن الخطاب: لا ندع آيةً من كتاب ربنا لقول امرأة، فإني سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «لها السكنى والنفقة»[٢].

وحجة من لم يجعل لها لا سكنى ولا نفقة: أن في بعض الروايات عنها أنها قالت: لم يجعل لي رسول الله ﷺ نفقة ولا سكنى[٣].

وقوله: ﴿مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم﴾ معناه: أسكنوهن مكانًا من بعض مساكنكم، فـ ﴿مِنْ﴾ للتبعيض، ويفسِّر ذلك قول قتادة: لو لم يكن له إلا بيت واحد أسكنها في بعض جوانبه.

﴿مِن وُجْدِكُمْ﴾ الوُجْد: هو الطاقة والسعة في المال، فالمعنى: أسكنوهن مسكنًا مما تقدرون عليه.

وإعرابه: عطف بيان لقوله: ﴿حَيْثُ سَكَنتُم﴾.

ويجوز في الوجد ضم الواو وفتحها وكسرها بمعنى واحد، والضم أكثر وأشهر.

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٨٠).
(٢) أخرجه مسلم (١٤٨٠).
(٣) أخرجه مسلم (١٤٨٠).

﴿وَإِن كُنَّ أُولَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ اتفق العلماء على وجوب النفقة في العدة للمطلقة الحامل؛ عملًا بهذه الآية؛ سواء كان الطلاق رجعيًا أو بائنًا.

واتفقوا على أن للمطلقة غير الحامل النفقة في العدة إذا كان الطلاق رجعيًا.

فإن كان بائنًا فاختلفوا في نفقتها حسَبما ذكرناه.

وأما المتوفَّى عنها إذا كانت حاملًا:

فلا نفقة لها عند مالك والجمهور؛ لأنهم رأوا أن هذه الآية إنما هي في المطلقات.

وقال قوم: لها النفقة في التركة.

﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ المعنى: إن أرضع هؤلاء الزوجات المطلقات أولادكم فآتوهن أجرة الرضاع، وهي النفقة وسائر المؤن حسَبما ذُكر في كتب الفقه.

﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ﴾ هذا خطاب للرجال والنساء، والمعنى: أن يأمر كل واحد صاحبه بخير من المسامحة والرفق والإحسان.

وقيل: معنى ﴿وَأْتَمِرُوا﴾ تشاوروا، ومنه: ﴿إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ﴾ [القصص: ٢٠].

﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ المعنى: أن تشطَّطت الأم على الأب في أجرة الرضاع، وطلبت منه كثيرًا؛ فللأب أن يسترضع لولده امرأة أخرى بما

هو أرفق به، إلا أن لا يقبل الطفل غير ثدي أمه، فتجبر حينئذ على رضاعه بأجرة مثلها ومِثْل الزوج.

﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ أمرٌ بأن ينفق كل أحد على مقدار حاله[1]، ولا يكلف الزوج ما لا يطيق، ولا تُضيَّع الزوجة بل يكون الحال معتدلًا.

وفي الآية دليل على أن النفقة تختلف باختلاف أحوال الناس، وهو مذهب مالك، خلافًا لأبي حنيفة فإنه اعتبر الكفاية.

ومن عجَز عن نفقة امرأته: فمذهب مالك والشافعي أنها تطلق عليه، خلافًا لأبي حنيفة.

وإن عجَز عن الكسوة دون النفقة: ففي التطليق عليه قولان في المذهب.

* * *

(١) في ب، ج: «ماله».

[﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾].

﴿فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا﴾ أي: حاسبنا أهلها.

قيل: يعني: الحساب في الآخرة، وكذلك العذاب المذكور بعده.

وقيل: يعني: في الدنيا، وهذا أرجح؛ لأنه ذكر عذاب الآخرة بعد ذلك في قوله: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾، ولأن قوله: ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ و﴿وَعَذَّبْنَٰهَا﴾ بلفظ الماضي؛ فهو حقيقة فيما وقع، مجاز فيما لم يقع.

فمعنى ﴿فَحَاسَبْنَٰهَا﴾ أي: واخذناهم بجميع ذنوبهم ولم يغتفر لهم شيء من صغائرها.

والعذاب: هو عقابهم في الدنيا.

والنُّكُر: هو الشديد الذي لم يعهد مثله.

﴿قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا﴾ الذكر هنا: هو القرآن، والرسول: هو محمد ﷺ.

وإعراب ﴿رَّسُولًا﴾: مفعول بفعل مضمر تقديره: أرسل رسولًا، هذا

الذي اختاره ابن عطية[١]، وهو أظهر الأقوال.

وقيل: إن الذكر والرسول معًا يراد بهما القرآن، والرسول على هذا: بمعنى الرسالة.

وقيل: إنهما يراد بهما القرآن، على حذف مضاف تقديره: ذكرًا ذا رسول.

وقيل: يراد بهما النبي ﷺ، والذكر من أسمائه، **وهذا ضعيف**.

وقيل: ﴿رَسُولًا﴾ مفعول بالمصدر الذي هو الذكر.

وقال الزمخشري: الرسول هو جبريل أُبدل من الذكر؛ لأنه نزل به، أو سمِّي ذكرًا لكثرة ذكره لله[٢].

وهذا كله بعيد.

﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ لا خلاف أن السموات سبع.

وأما الأرض فاختلف فيها:

فقيل: إنها سبع أرضين؛ لظاهر هذه الآية، ولقوله ﷺ: **«من غصب شبرًا من أرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرَضين»**[٣].

وقيل: إنما هي واحدة.

فقوله: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾:

على القول الأول: يعني به المماثلة في العدد.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٣٦).

(٢) الكشاف (١٥/ ٤٨٤).

(٣) أخرجه البخاري (٢٤٥٢)، ومسلم (١٦١٠).

وعلى القول الثاني: يعني به المماثلة في عِظَم الجِرْم وكثرة العُمَّار، وغير ذلك.

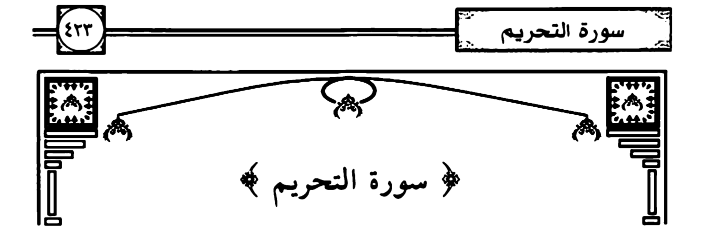
والأول أرجح.

﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ **يحتمل أن يريد بالأمر:**

الوحيَ.

أو أحكامَ الله وتدبيره لخلقه.

* * *



﴿ سورة التحريم ﴾

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧﴾].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ في سبب نزولها روايتان:

إحداهما: أن رسول الله ﷺ جاء يومًا إلى بيت زوجه حفصة بنت عمر ابن الخطاب، فوجدها قد مرت لزيارة أبيها، فبعث في جاريته مارية فقال معها[(١)] في البيت، فجاءت حفصة فقالت: يا رسول الله أما كان في نسائك أهون عليك مني؟ أتفعل هذا في بيتي وعلى فراشي؟ فقال لها رسول الله ﷺ

(١) في د: «فقعد معهما»، وفي هـ: «فدخل معها».

مترضيًا[١] لها: «أيرضيك أن أحرمها؟»، قالت: نعم، فقال: «**إني قد حرَّمتها**»[٢].

والرواية الأخرى: أن رسول الله ﷺ كان يدخل على زوجه زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلًا، فاتفقت عائشة وحفصة وسودة بنت زمعة على أن تقول له من دنا منها: أكلتَ مَغافير، والمغافير: صمغ العُرْفُط، وهو حلو كريه الريح، ففعلن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**لا ولكني شربت عسلًا**»، فقلن له: جرسَتْ نحله العرفط[٣]، فقال رسول الله ﷺ: «**لا أشربه أبدًا**»، وكان يكره أن توجد منه رائحة كريهة، فدخل بعد ذلك على زينب فقالت: ألا أسقيك من ذلك العسل؟ فقال: «**لا حاجة لي به**»[٤].

فنزلت الآية عتابًا له على أن يضيق على نفسه بتحريم الجارية أو تحريم العسل.

والرواية الأولى أشهر، وعليها تكلم الناس في فقه السورة.

وقد خرَّج الرواية الثانية البخاري وغيره.

ولنتكلم على فقه التحريم:

فأما تحريم الطعام والمال وسائر الأشياء ما عدا النساء:

فلا يلزم، ولا شيء عليه عند مالك.

---

(١) في ب، ج، د: «مرتضيًا».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٨٤).

(٣) أي: أكلتْ العرفطَ، يقال للنحل: الجوارس. النهاية لابن الأثير (٢/ ٦٢٤).

(٤) أخرجه البخاري (٥٢٦٨)، ومسلم (١٤٧٤).

وأوجب عليه أبو حنيفة كفارة.

وأما تحريم الأمَة:

فإن نوى به العتق لزم.

وإن لم ينوِ به ذلك لم يلزم. وكان حكمه ما ذكرنا في الطعام.

وأما تحريم الزوجة: فاختلف الناس فيه على أقوال كثيرة:

فقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وابن عباس وعائشة وغيرهم: إنما يلزم[١] فيه كفارة يمين.

وقال مالك في المشهور عنه: ثلاث تطليقات في المدخول بها، ويُنَوَّى في غير المدخول بها فيُحكم بما نوى من طلقة أو اثنتين أو ثلاث.

وقال ابن الماجشون: هي ثلاث في الوجهين.

وروي عن مالك: أنها طلقة بائنة.

وقيل: طلقة رجعية.

﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ﴾ أي: تطلب رضا أزواجك بتحريم ما أحل الله لك، يعني: تحريمه للجارية ابتغاء رضا حفصة، وهذا يدلُّ على أنها نزلت في تحريم الجارية.

وأما تحريم العسل فلم يقصد به رضا أزواجه، وإنما تركه لرائحته.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ في هذا إشارة إلى أن الله غفر له ما عاتبه عليه من

---

(١) في أ، هـ: «تلزم».

التحريم، على أن عتابه في ذلك إنما كان كرامة له، وإنما وقع العتاب على تضييقه ﷺ على نفسه، وامتناعه مما كان له فيه أرَب.

وبئس ما قال الزمخشري في أن هذا كان منه زلة؛ لأنه حرَّم ما أحل الله![١]، وذلك قلة أدب على منصب النبوة.

﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ﴾ التحِلَّة: هي الكفارة.

وأحال تعالى هنا على ما ذكر في سورة «المائدة» من صفتها[٢].

واختلف في المراد بها هنا:

[أ-] **فأما على قول من قال: إن الآية نزلت في تحريم الجارية: فاختلف في ذلك:**

فمن قال: إن التحريم يلزم فيه كفارة يمين استدلَّ بها.

ومن قال: إن التحريم يلزم منه[٣] طلاق قال: إن الكفارة هنا إنما هي لأن رسول الله ﷺ حلف، فقال: «والله لا أطؤها أبدًا».

[ب-] **وأما على القول بأن الآية نزلت في تحريم العسل: فاختلف أيضًا:**

فمن أوجب في تحريم الطعام كفارةً قال: هذه الكفارة للتحريم.

ومن قال: لا كفارة فيه قال: إنما هذه الكفارة؛ لأنه حلف أن لا يشربه.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٤٩١).

(٢) انظر (٢/ ٢٠٦).

(٣) في أ، هـ: «فيه».

وقيل: هي في يمينه ﷺ أن لا يدخل على نسائه شهرًا.

﴿وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ﴾ يحتمل أن يكون:

بمعنى الولي الناصر.

أو بمعنى السيد الأعظم.

﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ اختُلف في هذا الحديث على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه تحريم الجارية، فإنه لما حرمها قال لحفصة: «لا تخبري بذلك أحدًا».

والآخر: أنه قال[1]: إن أبا بكر وعمر يليان الأمر من بعده[2].

والثالث: أنه قوله: «شربت عسلًا».

والأول أشهر.

و﴿بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ﴾ حفصة.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ﴾ كانت حفصة قد أخبرت عائشة بما أسرَّ إليها رسول الله ﷺ من تحريم الجارية، فأخبر الله رسوله ﷺ بذلك، فعاتب حفصة عن إفشائها لسره وطلقها، ثم أمره الله بمراجعتها فراجعها، وقيل: لم يطلقها.

---

(١) في د زيادة: «لحفصة».

(٢) في د: «بعدي».

فقوله: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ حذف المفعول وهو عائشة، وقوله: ﴿وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلعه على إخبارها به.

وقيل: معناه: أظهر الله عليه[1] الحديثَ، من الظهور.

وقوله: ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُۥ﴾ أي: عاتب حفصة على بعضه وأعرض عن بعضه؛ حياء وتكرُّمًا، فإن من عادة الفضلاء التغافل عن الزلات والتقصير في العتاب.

وقرئ ﴿عَرَفَ﴾ بالتخفيف؛ من المعرفة.

﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ أي: لما أخبر النبي ﷺ حفصة بأنها قد أفشت سره، ظنت أن عائشة هي التي أخبرته به، فقالت له: ﴿مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا﴾ فلما أخبرها أن الله هو الذي أنبأه به سكتت وسلَّمت.

﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ هذا خطاب لعائشة وحفصة، وتوبتهما: مما جرى منهما في قصة تحريم الجارية أو العسل.

ومعنى ﴿صَغَتْ﴾: أي: مالت عن الصواب، وقرأ ابن مسعود: «زاغت».

والمعنى: إن تتوبا إلى الله فقد صدر منكما ما يوجب التوبة.

﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ﴾ المعنى: إن تعاونتما عليه ﷺ بما يسوؤه من إفراط الغَيرة، وإفشاء سره ونحو ذلك فإن له من ينصره.

و﴿مَوْلَىٰهُ﴾ هنا:

يحتمل أن يكون بمعنى السيد الأعظم، فيوقف على ﴿مَوْلَىٰهُ﴾، ويكون

---

(١) أي: على النبي ﷺ. الكشاف (١٥/ ٤٩٧).

﴿وَجِبْرِيلُ﴾ مبتدأ، و﴿ظَهِيرٌ﴾ خبره وخبر ما عُطف عليه.

ويحتمل أن يكون المولى هنا بمعنى: الولي الناصر، فيكون ﴿وَجِبْرِيلُ﴾ معطوفًا، فيوصل مع ما قبله، ويوقف على ﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ويكون ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ مبتدأ و﴿ظَهِيرٌ﴾ خبره، وهذا أظهر وأرجح لوجهين:

أحدهما: أن معنى الناصر أليق بهذا الموضع، فإن ذلك كرامة للنبي ﷺ وتشريفٌ له، وأما إذا كان بمعنى السيد فذلك يشترك فيه النبي ﷺ مع غيره؛ لأن الله تعالى مولى جميع خلقه بهذا المعنى، فليس في ذلك إظهار مزية له.

الوجه الثاني: أنه ورد في الحديث الصحيح: أنه لما وقع ذلك جاء عمر إلى رسول الله ﷺ فقال: «**يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء؛ فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل معك وأبو بكر معك وأنا معك**»[1]، فنزلت الآية موافقةً لقول عمر، فقوله: «معك» يقتضي معنى النصرة.

﴿وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ اختلف في ﴿وَصَٰلِحُ﴾ هل هو مفرد أو جمع محذوف النون للإضافة؟

فعلى القول بأنه مفرد: هو أبو بكر الصديق، وقيل: علي بن أبي طالب.

وعلى القول بأنه جمع: فهو على العموم في كل صالح.

﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ﴾ الآيةَ؛ نصرة للنبي ﷺ.

وروي أن عمر قال ذلك ونزل القرآن بموافقته، ولقد قال عمر حينئذ

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٩).

للنبي ﷺ: «والله يا رسول الله لئن أمرتني بضرب عنق حفصة لضربت عنقها»[١].

وقد ذكرنا معنى الإسلام والإيمان والقنوت[٢].

والسائحات: معناه الصائمات، قاله ابن عباس، وقد روي عن النبي ﷺ[٣].

وقيل: معناه مهاجرات.

وقيل: ذاهبات إلى الله؛ لأن أصل السياحة الذهاب في الأرض.

وقوله: ﴿ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾ قال بعضهم: المراد بالأبكار هنا: مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون[٤]؛ فإن الله يزوج النبي ﷺ إياهما في الجنة، وهذا يفتقر إلى نقل صحيح.

ودخلت الواو هنا للتقسيم، ولو سقطت لاختلّ المعنى؛ لأن الثيوبة والبكارة لا يجتمعان.

وقال الكوفيون: هي واو الثمانية، وذلك ضعيف.

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾ أي: أطيعوا الله، وأمروا أهليكم بطاعته؛ لتقوا

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٧٩).

(٢) انظر (٣/ ٥٤٤).

(٣) ذكره الزجاج في معاني القرآن وإعرابه (٥/ ١٩٤) من دون إسناد، ولم أقف على إسناد له.

(٤) كذا العبارة في جميع النسخ الخطية!، ولعل صوابها: «والمراد بالثيبات: آسية امرأة فرعون». انظر: التعريف والإعلام للسهيلي (ص: ٣٤٢).

أنفسكم وأهليكم بطاعته من النار، فعبر بالمسبَّب وهو وقاية النار عن السبب وهو الطاعة.

﴿وَقُودُهَا﴾ ذكر في «البقرة»[١].

﴿مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ يعني: زبانية النار.

وغِلَظُهم[٢] وشدتهم: يحتمل أن يريد:

في أجرامهم.

أو في قسوة[٣] قلوبهم.

﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ قيل: إن هذا تأكيد لقوله: ﴿لَّا يَعْصُونَ﴾.

وقيل: إن معنى ﴿لَّا يَعْصُونَ﴾ امتثال الأمر، ومعنى ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ جِدُّهم ونشاطهم فيما يؤمرون به من عذاب الناس.

﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ﴾ يعني: يوم القيامة.

ويحتمل أن يكون هذا:

خطابًا من الله للكفار.

أو خطابًا من الملائكة.

---

(١) انظر (١/٢٩١).

(٢) في ب: «وغلظتهم».

(٣) في ب، ج: «قساوة».

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٩ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١ وَمَرۡيَمَ ٱبۡنَتَ عِمۡرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتۡ مِنَ ٱلۡقَٰنِتِينَ ١٢﴾].

﴿تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ قال عمر بن الخطاب: التوبة النصوح: هي أن يتوب من الذنب ثم لا يعود إليه أبدًا، ولا يريد أن يعود.

وقيل: معناه: توبة خالصة، فهو من قولهم: عسل ناصحٌ: إذا خلُص من الشمع.

وقيل: هي أن تضيق على التائب الأرض بما رحبت، كتوبة الثلاثة الذين خلفوا.

وقال الزمخشري: وصفت التوبة بالنصح على الإسناد المجازي، والنصح في الحقيقة صفة التائبين، وهو أن ينصحوا بالتوبة أنفسَهم[(١)].

(١) الكشاف (١٥/ ٥١١).

وقد تكلَّمنا على التوبة في قوله: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا﴾ [النور: ٣١] في «النور»[١].

﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ العامل في ﴿يَوْمَ﴾ يحتمل أن يكون:

ما قبله.

أو ما بعده.

أو محذوف تقديره: اذكر.

والوقف والابتداء يختلف على ذلك.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ يحتمل أن يكون:

معطوفًا على ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾.

أو مبتدأ وخبره بعده.

﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ﴾ ذكر في «الحديد»[٢].

﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ ذكر في «براءة»[٣].

﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ قيل: اسم امرأة نوح والغة، واسم امرأة لوط والهة، وهذا يفتقر إلى صحة النقل.

﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ قال ابن عباس: خانت امرأة نوح في أنها كانت تقول: إنه

---

(١) انظر (٣/ ٢٩١).

(٢) انظر صفحة ٣١٣.

(٣) انظر (٢/ ٥١٠).

مجنون، وخانت امرأة لوط بأنها كانت تخبر قومه بأضيافه إذا قدموا عليه، وكانتا مع ذلك كافرتين.

وقيل: خانتا بالزنا، وأنكر ابن عباس ذلك وقال: ما زنت امرأة نبي قط؛ تنزيهًا من الله لهم عن هذا النقص.

وضرب الله المثل بهاتين المرأتين للكفار الذين بينهم وبين الأنبياء وسائل، كأنه يقول: لا يغني أحد عن أحد ولو كان أقرب الناس إليه؛ كقرب امرأة نوح وامرأة لوط من أزواجهما.

وقيل: هو مثَل لأزواج النبي ﷺ فيما ذكر في أول السورة، وهذا باطل؛ لأن الله إنما ضربه للذين كفروا.

﴿ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ﴾ اسمها آسية، وكانت قد آمنت بموسى عليه السلام، فبلغ ذلك فرعون فأمر بقتلها، فدعت بهذا الدعاء فقبض الله روحها، وروي في قَصصها غير هذا مما يطول وهو غير صحيح.

﴿مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ تعني: كفره وظلمه.

وقيل: مضاجعته لها، وهذا ضعيف.

﴿أَحۡصَنَتۡ فَرۡجَهَا﴾ يعني: الفرج الذي هو الجارحة، وإحصانها له: هو صيانتها وعِفَّتها عن كل مكروه.

وقيل: يعني فرج درعها، وهذا ضعيف.

﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ عبارةٌ عن نفخ جبريل في فرجها، فخلق الله فيه عيسى عليه السلام.

وأضاف الله الروح إلى نفسه إضافةَ مخلوق إلى خالقه، وفي ذلك تشريف له.

﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِۦ﴾ كلمات ربها: يحتمل أن يريد بها: الكتب التي أنزل.

أو كلامه مع الملائكة وغيرهم.

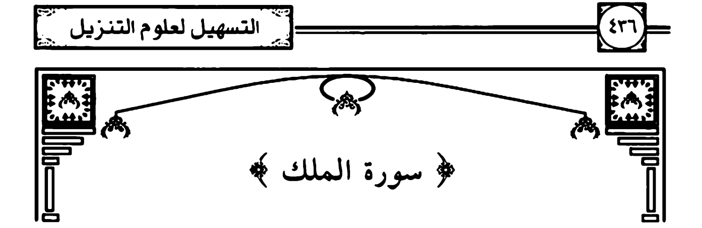
وَ﴿كِتَابِهِۦ﴾ بالتوحيد: يحتمل أن يريد به: التوراة، أو الإنجيل، أو جنس الكتب.

وقرئ بالجمع يعني: جميع كتب الله.

﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ أي: من العابدين.

فإن قيل: لم قال ﴿مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ بجمع المذكر وهي أنثى؟

فالجواب: أن القنوت صفة تجمع الرجال والنساء، فغلَّب الذكور.



﴿ سورة الملك ﴾

ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يقرأ هذه السورة كل ليلة إذا أخذ مضجعه[١].

وأنه ﷺ قال: «إنها تنجي من عذاب القبر»[٢].

[﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾].

﴿تَبَٰرَكَ﴾ فعل مشتقٌّ من البركة.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٦٥٩)، والترمذي (٢٨٩٢)، والنسائي في الكبرى (٩/ ٢٦١).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٨٩٠).

وقيل: معناه: تعاظم.

وهو مختص بالله تعالى، ولم يُنطق له بمضارع.

﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ يعني: مُلك السموات والأرض والدنيا والآخرة.

وقيل: يعني: مُلْك الملوك في الدنيا، فهو كقوله: ﴿مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦].

والأول أعم وأعظم.

﴿خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ يعني: موت الخلق وحياتهم.

وقيل: الموت: الدنيا؛ لأن أهلها يموتون، والحياة: الآخرة؛ لأنها باقية، فهو كقوله: ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وهو على هذا وصفٌ بالمصدر.

والأول أظهر.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليختبركم، واختبار الله لعباده إنما هو لتقوم عليهم الحجة بما يصدر منهم، وقد كان الله علم ما يفعلون قبل كونه.

والمعنى: ليبلوكم فيجازيَكم بما ظهر منكم.

﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ روي أن رسول الله ﷺ قرأها فقال: «أيكم أحسن عقلًا(١)، وأشدكم لله خوفًا، وأورع عن محارم الله، وأسرع في طاعة الله»(٢).

---

(١) في أ، ب، ج، هـ: «عملًا»، والمثبت موافق لما في الرواية.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/ ٣٣٥).

﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ أي: بعضها فوق بعض.

والطباق:

مصدرٌ وُصفت به السموات.

أو على حذف مضاف تقديره: ذوات طباق.

وقيل: إنه جمع طَبقة.

﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ أي: من قلةِ تناسُبٍ وخروج عن الإتقان، والمعنى: أن خلقة السموات في غاية الإتقان، بحيث ليس فيها ما يَعيبها من الزيادة والنقصان والاختلاف.

وقيل: أراد خِلقةَ جميع المخلوقات.

ولا شك أن جميع المخلوقات متقنةٌ، ولكن تخصيص الآية بخلقة السماوات أظهر؛ لورودها بعد قوله: ﴿خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾، فكأن قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ بيانٌ وتكميل لما قبله.

والخطاب في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ و﴿ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾ وما بعده: للنبي ﷺ، أو لكل مخاطَب ليعتبر.

﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ الفطور: الشقوق، جمع فَطْر وهو الشَّق.

ورجْعُ البصر: ترديده في النظر.

ومعنى الآية: الأمر بالنظر إلى السماء فلا يرى فيها شِقاق ولا خَلل[١]،

---

(١) في د: «خلال».

بل هي ملتئمة مستوية.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: انظر نظرًا بعد نظر للتثبت والتحقيق.

وقال الزمخشري: معنى التثنية في ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ التكثير، لا مرتين خاصة، كقولهم: «لبيك» فإن معناه إجاباتٌ كثيرة[١].

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ الخاسئ: هو المبعَد عن الشيء الذي طَلب.

والحسير: هو الكليل الذي أدركه التعب.

فمعنى الآية: أنك إذا نظرت إلى السماء مرة بعد مرة لترى فيها شِقاقًا أو خَللًا رجع بصرك ولم تر شيئًا من ذلك؛ فكأنه خاسئ؛ لأنه لم يَحصل له ما طلب من رؤية الشقاق والخلل، وهو مع ذلك كليلٌ من شدة النظر وكثرة التأمل.

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ السماء الدنيا: هي القريبة منا.

والمصابيح: يراد بها النجوم.

فإن كانت النجوم كلها في السماء الدنيا فلا إشكال.

وإن كانت في غيرها من السماوات فقد زُيِّنت السماء الدنيا؛ لأنها ظاهرة فيها لنا.

ويحتمل أن يريد أنه زيَّن السماء الدنيا بالنجوم التي فيها دون التي في

---

(١) الكشاف (١٥/٥٣٨).

غيرها، على أن القول بمواضع الكواكب وفي أيِّ سماءٍ هي لم يرد في الشريعة.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ أي: جعلنا منها رجومًا؛ لأن الكواكب الثابتة ليست تَرجم الشياطين، فهو كقولك: «أكرمت بني فلان»: إذا أكرمتَ بعضهم.

والرجوم: جمع رجْمٍ، وهو مصدر سُمِّي به ما يُرجم به.

قال الزمخشري: معنى كون النجوم رجومًا للشياطين: أن الشهب تنقضُّ من النجوم لرجم الشياطين الذين يسترقون السمع من السماء، فالشهب الراجمة منفصلة من نار الكواكب، لا أن الراجمة هي الكواكب أنفسها؛ لأنها ثابتة في الفلك(١).

قال قتادة: خلق الله النجوم لثلاثة أشياء: زينةٌ السماء، ورجومٌ الشياطين وليهتدَى بها في ظلمات البر والبحر.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ يعني: للشياطين.

﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ الشَّهيق: أقبح ما يكون من صوت الحمار، ويعني به هنا:

ما يُسمع من صوت جهنم؛ لشدَّة غليانها وهَوْلها.

أو شهيق أهلها.

والأول أظهر.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٥٤٢).

﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: تغلي بأهلها غليان القدر بما فيها.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: تكاد جهنم ينفصل بعضها من بعض؛ لشدَّة غيظها على الكفار.

فيحتمل:

أن تكون هي المغتاظة بنفسها.

ويحتمل أن يريد غيظ الزبانية.

والأول أظهر؛ لأن حال الزبانية يُذكر بعد هذا.

وغيظ النار يحتمل:

أن يكون حقيقة بإدراك يخلقه الله لها.

أو يكون عبارةً عن شدتها.

﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ أي: كلما أُلقي في جهنم جماعة من الكفار سألهم الزبانية: هل جاءكم[1] نذير؟ أي: رسول، وهذا السؤال على وجه التوبيخ وإقامة الحجة عليهم، ولذلك اعترفوا فقالوا: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾.

وقوله: ﴿كُلَّمَآ﴾ يقتضي أن يقال ذلك لكل جماعةٍ تُلقَى في النار.

﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ يحتمل أن يكون:

من قول ملائكة النار للكفار.

أو من قول الكفار للرسل في الدنيا.

---

(١) في أ، ب: «جاءهم».

﴿وَقَالُوا﴾ الضمير للكفار؛ أي: لو كنا نسمع كلام الرسل ونعقل الصواب ما كنا في أصحاب السعير.

﴿فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ﴾ اعترافهم هذا في وقتٍ لا ينفعهم الاعتراف.

وذنبهم هنا: يراد به تكذيب الرسل.

﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ انتصب ﴿فَسُحْقًا﴾ بفعل مضمرٍ على معنى الدعاء عليهم.

﴿بِالْغَيْبِ﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: وهم غائبون عن الناس، ففي ذلك وصفٌ لهم بالإخلاص.

والآخر: أن الغيب ما غاب عنهم من أمور الآخرة وغيرها، على أن هذا القول إنما يحسن في قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣].

﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ المعنى: سواءٌ جهرتم أو أسررتم فإن الله يعلم الجهر والسر.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ هذا برهان على أن الله تعالى يعلم كل شيء؛ لأن الخالق يعلم مخلوقاته.

ويحتمل أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾:

فاعلًا يراد به الخالق، والمفعول محذوفٌ تقديره: ألا يعلم الخالق خَلْقَه.

أو يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ مفعولًا، والفاعل مضمر تقديره: ألا يعلم الله من خلق.

والأول أرجح؛ لأن ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ إذا كان مفعولًا اختصَّ بمن يعقل، والمعنى الأول يعم من يعقل ومن لا يعقل.

* * *

[﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾].

﴿ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ فعول هنا بمعنى: مفعول، أي: مذلولة، فهي كرَكوب وحَلوب.

﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ ابن عباس: هي الجبال.

وقيل: الجوانب والنواحي.

وقيل: الطرق.

والمعنى: تعديد النعمة في تسهيل المشي على الأرض، فاستعار لها الذِّلَّ والمناكب؛ تشبيهًا بالدواب.

﴿وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ يعني: البعث يوم القيامة.

﴿ءَأَمِنتُم﴾ الآيةَ؛ مقصودها التهديد والتخويف للكفار، وكذلك الآية التي بعدها.

﴿تَمُورُ﴾ ذكر في «الطور»[١].

﴿حَاصِبًا﴾ يحتمل أن يريد: حجارةً، أو ريحًا شديدة.

﴿نَذِيرِ﴾ بمعنى الإنذار، وكذلك ﴿نَكِيرِ﴾ بمعنى الإنكار.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ تنبيهٌ على الاعتبار بطيران الطيور في الهواء من غير شيء يمسكها.

و﴿صَافَّاتٍ﴾ جمع صافَّة، وهي التي تبسط جناحيها للطيران.

والقبض: ضم الجناحين إلى الجنب.

وعطف ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ على ﴿صَافَّاتٍ﴾؛ لأن الفعل في معنى الاسم تقديره: قابضات.

فإن قيل: لِمَ لمْ يقل «قابضات» على طريقة ﴿صَافَّاتٍ﴾؟

فالجواب: أن بسط الجناحين هو الأصل في الطيران، كما أن مدَّ الأطراف هو الأصل في السباحة، فذُكر بصيغة اسم الفاعل؛ لدوامه وكثرته، وأما قبض الجناحين فإنما يفعله الطير[٢] قليلًا للاستراحة والاستعانة، فذَكره بلفظ الفعل؛ لقلته.

---

(١) انظر صفحة ٢٢٣.

(٢) في ب، ج، هـ: «الطائر».

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ خطاب للكفار على وجه التوبيخ والتهديد وإقامة الحجة عليهم.

ودخلت «أَمْ» التي يراد بها الإنكار على «مَنْ» فأدغمت فيها، وكذلك ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾.

والضمير في ﴿أَمْسَكَ﴾: لله؛ أي: من يرزقكم إن مَنع الله رزقه.

﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي: تمادوا في العتوّ والنفور عن الإيمان.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ الآيةَ؛ توقيفٌ على الحالتين، أيهما أهدى، والمراد بها: توبيخ الكفار.

وفي معناها قولان:

أحدهما: أن المشي هنا استعارة في سلوك طريقة الهدى والضلال في الدنيا.

والآخر: أنه حقيقة في المشي في الآخرة؛ لأن الكافر يُحمل إلى جهنم على وجهه.

فأما على القول الأول:

فقيل: إن الذي يمشي مكبًّا: أبو جهل، والذي يمشي سويًّا: محمد ﷺ، وقيل: حمزة.

وقيل: هي على العموم في كل مؤمن وكافر.

وقد تمشي هذه الأقوال أيضًا على القول الثاني.

والمكب: هو الذي يقع على وجهه، يقال: أكب الرجلُ، وكبَّه غيره، فالمتعدي دون همزة، والقاصر بالهمزة، بخلاف سائر الأفعال.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ الضمير للكفار، والوعد يراد به: البعث، أو عذابهم في الدنيا.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ ضمير الفاعل للكفار، وضمير المفعول للعذاب الذي يتضمَّنه الوعد.

﴿زُلْفَةً﴾ أي: قريبًا.

وقيل: عِيانًا.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ظهر فيها السوء لما حل بهم.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ تفتعلون من الدعاء؛ أي: تطلبون وتستعجلون به.

والقائلون لذلك: الملائكة، أو يقال لهم بلسان الحال(١).

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ الآيةَ؛ سببها: أن الكفار كانوا يتمَّنون هلاك

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ نظيره قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾، وهذا معنى ما قاله المصنف أنه افتعال من الدعاء بمعنى طلب الشيء، وعدي بالباء كقوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾، وقول المصنف: «والقائلون لذلك: الملائكة، أو يقال لهم بلسان الحال»، أقول: منشأ هذا التردد أن الفعل مبني للمفعول «قيل»، فيحتمل ما ذكره المصنف، ويحتمل أن القائل هو الله، توبيخا للكافرين، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾﴾. والله أعلم.

النبي ﷺ والمسلمين، فأمره الله أن يقول لهم: إن أهلكني الله وأهلك من معي أو رحمنا؛ فإنكم لا تنجون من العذاب الأليم على كل حال.

والهلاك هنا يحتمل أن يراد به: الموت، أو غيره.

ومعنى ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾: من يمنعهم من العذاب.

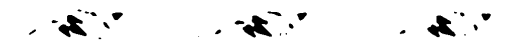
﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ الآيةَ؛ احتجاجٌ على المشركين.

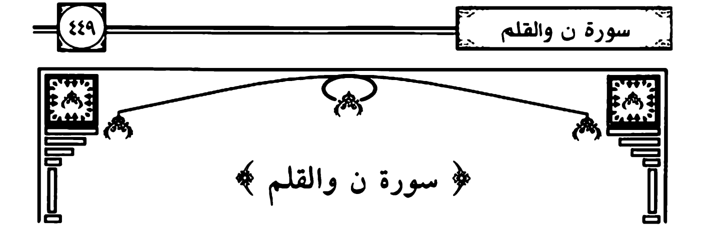
والغَور: مصدر وصف به فهو بمعنى غائر؛ أي: ذاهب في الأرض.

والمعين: الكثير.

واختلف هل وزنه فَعِيل أو مَفعول؟

فالمعنى: إن غار ماؤكم الذي تشربون هل يأتيكم إله غير الله بماء معين؟





﴿ سورة ن والقلم ﴾

[﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۝٨ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ۝١١ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ۝١٤ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٥ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ۝٢٢ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝٢٤ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ۝٢٥ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ۝٢٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۝٢٧ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ۝٢٨ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ۝٣٠ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾].

﴿ نٓ ﴾ حرفٌ من حروف الهجاء، وقد تقدم الكلام عليها في «البقرة»[(١)].

ويختص ﴿ نٓ ﴾ بأنه قيل: إنه حرف من «الرحمن»، فإن حروف الرحمن

(١) انظر (١/ ٢٦١).

في ﴿الٓر﴾ و﴿حمٓ﴾، و﴿نٓ﴾.

وقيل: إن نون[١] هنا يراد به: الحوت، وزعموا أنه الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع، وهذا لا يصح.

على أن النون بمعنى الحوت معروف في اللغة، ومنه: ذو النون.

وقيل: إن نون هنا يراد به الدِّواة، وهذا غير معروف في اللغة.

ويَبطل قول من قال إنه الحوت أو الدواة: بأنه لو كان كذلك لكان معربًا بالرفع أو النصب أو الخفض، ولكان في آخره تنوين، فكونه موقوفًا دليل على أنه حرف هجاء نحو ﴿الٓمٓ﴾ وغيره من حروف الهجاء الموقوفة.

﴿وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ اختُلف فيه على قولين:

أحدهما: أنه القلم الذي كُتب به في اللوح المحفوظ، فالضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ للملائكة.

والآخر: أنه القلم المعروف عند الناس، أقسم الله به لما فيه من المنافع والحِكَم، والضمير في ﴿يَسْطُرُونَ﴾ على هذا لبني آدم.

﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ هذا جواب القسم، وهو خطاب لمحمد ﷺ معناه: نفي ما نسبه الكفار له من الجنون.

و﴿بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ اعتراضٌ بين ﴿مَآ﴾ وخبرها، كما تقول: «أنت - بحمد الله - فاضل».

---

(١) في ب، د: «ن».

والمجرور في موضع الحال، وقال الزمخشري: إن العامل فيه: ﴿بِمَجْنُونٍ﴾[١].

﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ ذكر في «فصلت»[٢].

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ هذا ثناءٌ على خُلُق رسول الله ﷺ، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان خلق رسول الله ﷺ القرآن»[٣] تعني: التأدب بآدابه وامتثال أوامره.

وعبَّر ابن عباس عن الخلق بالدين والشرع، وذلك رأس الخلق.

وتفصيل ذلك: أن رسول الله ﷺ جمع كل فضيلة، وحاز كل خَصلة جميلة، فمن ذلك: شرف النسب، ووفور العقل، وصحة الفهم، وكثرة العلم، وكثرة العبادة، وشدَّة الحياء، والسخاء، والصدق، والشجاعة، والصبر، والشكر، والمروءة، والتؤدة، والاقتصاد، والزهد، والتواضع، والشفقة، والعدل، والعفو، وكظم الغيظ، وصلة الرحم، وحسن المعاشرة، وحسن التدبير، وفصاحة اللسان، وقوة الحواس، وحسن الصورة، وغير ذلك، حسَبما ورد في أخباره وسِيَره ﷺ ولذلك قال ﷺ: «بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»[٤].

وقال الجنيد: سمي خُلُقه عظيمًا؛ لأنه لم تكن له همة سوى الله ﷻ.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٥٦٧).
(٢) انظر صفحة ٦.
(٣) أخرجه مسلم (٧٤٦).
(٤) أخرجه أحمد (٨٩٥٢).

﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ قيل: إن ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ هنا بمعنى المجنون.

ويحتمل غير ذلك من معاني الفتنة.

والخطاب في قوله: ﴿فَسَتُبۡصِرُ﴾ للنبي ﷺ، وفي قوله: ﴿وَيُبۡصِرُونَ﴾ لكفار قريش.

واختلف في الباء التي في قوله: ﴿بِأَييِّكُمُ﴾ على أربعة أقوال:

الأول: أنها زائدة.

الثاني: أنها غير زائدة، والمعنى: بأيكم الفتنة، فأوقع ﴿ٱلۡمَفۡتُونُ﴾ موقع الفتنة كقولهم: «ما له معقول» أي: عقل.

الثالث: أن الباء بمعنى «في»، والمعنى: في أيِّ فريق منكم المفتون، واستحسن ابن عطية هذا[1].

الرابع: أن المعنى: «بأيكم فتنة المفتون» ثم حَذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه.

﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾ المداهنة: هي الملاينة والمداراة فيما لا ينبغي، وروي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: لو عبدت آلهتنا لعبدنا إلهك، فنزلت الآية.

ولم ينتصب ﴿فَيُدۡهِنُونَ﴾ في جواب التمني؛ بل رفعه بالعطف على ﴿تُدۡهِنُ﴾. قاله ابن عطية[2].

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٦٧).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٣٦٨).

وقال الزمخشري: هو خبر مبتدإ محذوف تقديره: فهم يدهنون[١].

﴿حَلَّافٍ﴾ كثير الحَلِف في الحق والباطل.

﴿مَّهِينٍ﴾ هو الضعيف الرأي والعقل.

قال ابن عطية: هو مِن مَهُنَ: إذا ضعف، فالميم فاء الفعل[٢].

وقال الزمخشري: هو من المهانة، وهي الذِّلة والحقارة[٣].

وقال ابن عباس: المهين: الكذاب.

﴿هَمَّازٍ﴾ هو الذي يَعيب الناس.

﴿مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ﴾ أي: كثير المشي بالنميمة، يقال: نميم ونميمة بمعنى واحد، قال رسول الله ﷺ: «**لا يدخل الجنة نمام**»[٤].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي: شحيح؛ لأن الخير هنا هو المال.

وقيل: معناه: مناع من الخير؛ أي: يمنع الناس من الإسلام، والعمل الصالح.

﴿مُعْتَدٍ﴾ من العدوان، وهو الظلم.

﴿أَثِيمٍ﴾ من الإثم، وهو ارتكاب المحرمات.

﴿عُتُلٍّ﴾ أي: غليظ الجسم، قاسي القلب، بعيد الفهم، كثير الجهل.

---

(١) الكشاف (١٥/ ٥٧٣).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٣٦٨).

(٣) الكشاف (١٥/ ٥٧٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥).

﴿زَنِيمٍ﴾ أي: ولد زنا.

وقيل: هو الذي في عنقه زَنَمةٌ كزنمة الشاة التي تتعلَّق في حلْقها.

وقيل: معناه: مريب قبيح الأفعال.

وقيل: ظلوم.

وقيل: لئيم[١].

وقوله: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أي: بعد ما ذكرنا من عيوبه، فهذا الترتيب في الوصف لا في الزمان.

واختلف في الموصوف بهذه الأوصاف الذميمة:

فقيل: لم يُقصد بها شخصٌ معين، بل كل من اتصف بها.

وقيل: المقصود بها: الوليد بن المغيرة؛ لأنه وصفه بأنه ذو مال وبنين، وكان كذلك.

وقيل: أبو جهل.

وقيل: الأخنس بن شَرِيق، ويؤيد هذا: أنه كانت له زنَمة في عنقه، قال ابن عباس: عرفناه بزنمته، وكان أيضًا من ثقيف، ويعدُّ في بني زُهرة، فيصح وصفه بزنيم على القولين.

وقيل: الأسود بن عبد يغوث.

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾﴾ في موضع مفعول من أجله، متعلِّق بقوله: ﴿وَلَا تُطِعْ﴾ أي: لا تطعه بسبب كثرة ماله وبنيه.

---

(١) في ب، د: «لائم».

ويجوز أن يتعلق بما بعده، والمعنى على هذا: أنه قال في القرآن: أساطير الأولين؛ لأنه ذو مال وبنين، يتكبر بماله وبنيه، والعامل في ﴿أَن كَانَ﴾ على هذا فعلٌ من المعنى، ولا يجوز أن يعمل فيه ﴿قَالَ﴾ الذي هو جواب ﴿إِذَا﴾؛ لأن ما بعد الشرط لا يعمل فيما قبله.

والأول أظهر.

وقد تقدم معنى ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾ أصل الخرطوم: أنف السَّبُع، ثم استعير للإنسان استخفافًا به، وتقبيحًا له.

والمعنى: نجعل له سِمَةً وهي العلامة على خرطومه.

واختلف في هذه السمة:

فقيل: هي الضربة بالسيف يوم بدر.

وقيل: علامة من نار تجعل على أنفه في جهنم.

وقيل: علامة تجعل على أنفه يوم القيامة؛ ليعرف بها.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: بلونا قريشًا كما بلونا أصحاب الجنة، وكانوا إخوة من بني إسرائيل لهم جنة، روي: أنها بمقربة من صنعاء، فحلفوا أن لا يعطوا مسكينًا منها شيئًا، وباتوا عازمين على ذلك، فأرسل الله على جنتهم طائفًا من نار فأحرقتها، فلما أصبحوا إلى جنتهم لم يروها، فحسبوا أنهم أخطؤوا الطريق، ثم تبينوها فعرفوها، وعلموا أن الله عاقبهم فيها بما

---

(١) انظر (٢/ ٢٥٤).

قالوا، فندموا وتابوا إلى الله.

ووجه تشبيه قريش بأصحاب الجنة: أن الله أنعم على قريش ببعث محمد ﷺ، كما أنعم على أصحاب الجنة بالجنة، فكفر هؤلاء بهذه النعمة كما فعل أولئك، فعاقبهم الله كما عاقبهم.

وقيل: شبَّه قريشًا لما أصابهم الجوع بشدة القحط، حين دعا عليهم رسول الله ﷺ؛ بأصحاب الجنة لما هلَكت جنتهم.

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ أي: حلفوا أن يقطعوا غَلَّة جنتهم عند الصباح، وكانت الغلة تمرًا[1].

﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ في معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: لم يقولوا: «إن شاء الله» حين حلفوا ليصرمُنَّها.

والآخر: لا يستثنون شيئًا من ثمرها إلا أخذوه لأنفسهم.

والثالث: لا يتوقفون في رأيهم ولا ينثنوا عنه؛ أي: لا يرجعون عنه.

﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾ قال الفراء: الطائف الأمر الذي يأتي بالليل.

﴿فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ فيه أربعة أقوال:

الأول: أصبحت كالليل؛ لأنها اسودَّتْ لِما أصابها، والصريم في اللغة: الليل.

الثاني: أصبحت كالنهار؛ لأنها ابيضَّت كالحصيد، ويقال: «صريم» لليل وللنهار.

---

(١) في ج، د، هـ: «ثمرًا».

الثالث: أن الصريم: الرماد الأسود بلغة بعض العرب.

الرابع: أصبحت كالمصرومة؛ أي: المقطوعة.

﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ أي: نادى بعضهم بعضًا حين أصبحوا، وقال بعضهم لبعض: ﴿اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ﴾ أي: جنتكم ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ لها أي: حاصدين[1] لثمرها.

﴿يَتَخَافَتُونَ﴾ يكلِّم بعضهم بعضًا في السر، ويقولون: ﴿لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾.

و﴿أَن﴾ في قوله: ﴿أَنِ اغْدُوا﴾ و﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا﴾ حرف عبارة وتفسير.

﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ في الحرد أربعة أقوال:

الأول: أنه المنع.

والثاني: أنه القصد.

الثالث: أنه الغضب.

الرابع: أن الحرد اسم علَمٍ للجنة.

و﴿قَادِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون:

من القدرة؛ أي: قادرين في زعمهم.

أو من التقدير بمعنى التضييق؛ أي: ضيَّقوا على المساكين.

﴿إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ أي: أخطأنا طريق الجنة، قالوا ذلك لما لم يعرفوها، فلما

---

(١) في د: «قاطعين».

عرفوها ورأوا ما أصابها قالوا: ﴿بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ﴾ أي: حَرمنا الله خيرها.

﴿قَالَ أَوۡسَطُهُمۡ﴾ أي: خيرهم وأفضلهم، ومنه: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣] أي: خِيارًا.

﴿لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾ أي: تقولون: «سبحان الله».

وقيل: هو عبارة عن طاعة الله وتعظيمه.

وقيل: أراد الاستثناء في اليمين بقولهم[١]: «إن شاء الله».

والأول أظهر؛ لقولهم بعد ذلك: ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ﴾.

والمعنى: أن هذا الذي هو أفضلهم كان قد حضَّهم على التسبيح.

﴿يَتَلَٰوَمُونَ﴾ أي: يلوم[٢] بعضهم بعضًا:

على ما كانوا عزموا عليه من منع المساكين.

أو على غفلتهم عن التسبيح، بدليل قوله: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ لَوۡلَا تُسَبِّحُونَ﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبۡدِلَنَا خَيۡرًا مِّنۡهَآ﴾ يَحتمل أنْ طلبوا البدل: في الدنيا، أو في الآخرة.

والأول أرجح؛ لأنه روي عن ابن مسعود أن الله أبدلهم جنة يحمل البغل منها عنقودًا.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡعَذَابُۖ﴾ أي: مثل هذا العذاب الذي نزل بأهل الجنة ينزل بقريش.

---

(١) في أ، ج، هـ: «كقولهم».

(٢) في أ: «يلوموا».

[﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾].

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ الهمزة للإنكار؛ أي: كيف يُسوِّي الله بين المسلمين والمجرمين؟ بل يجازي كل أحد بعمله.

والمراد بالمجرمين هنا: الكفار.

﴿مَا لَكُمْ﴾ توبيخ للكفار، و﴿مَا﴾ مبتدأ و﴿لَكُمْ﴾ خبره، وتمَّ الكلام هنا؛ فينبغي أن يوقف عليه.

﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ توبيخ آخر، أي: كيف تحكمون بأهوائكم وتقولون ما ليس لكم به علم؟

﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ هذه الجملة معمول ﴿تَدْرُسُونَ﴾، وكان أصل ﴿إِنَّ﴾ الفتح وكسرت لأجل اللام التي في خبرها، و﴿تَخَيَّرُونَ﴾ معناه: تختارون لأنفسكم.

ومعنى الآية: هل لكم كتاب من عند الله تدرسون فيه أنَّ لكم ما تختارونه لأنفسكم.

﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ المعنى: هل حلفنا لكم أيمانًا أن لكم ما تحكمون؟

ومعنى ﴿بَٰلِغَةٌ﴾: ثابتة واصلة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿إِنَّ لَكُمْ﴾ هو جواب القسم الذي يقتضيه[1] الأيمان، ولذلك أكده بـ ﴿إِنَّ﴾ واللام.

و﴿مَا تَحْكُمُونَ﴾ هو اسم ﴿إِنَّ﴾، دخلت عليه اللام المؤكدة.

﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ۝٤٠﴾ أي: يا محمد! اسأل قريشًا أيهم زعيم بهذه الأمور؟

والزعيم: هو الضامن للأمر، القائمُ به.

﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾ هذا تعجيز للكفار، ومعناه: إن كان لكم شركاء يقدرون على شيء فأتوا بهم.

واختلف هل قوله: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ﴾:

في الدنيا؛ أي: أحضروهم حتى يرى حالهم؟

أو هل يقال لهم ذلك يوم القيامة؟

والشركاء: هم المعبودون من الأصنام وغيرها.

---

(١) في أ: «تقتضيه».

وقال الزمخشري: معناه: أم لكم ناس يشاركونكم في هذا القول، ويوافقونكم عليه؟ فأتوا بهم، يعني: أنهم لا يوافقهم أحد عليه[١].

والأول أظهر.

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال المتأولون: ذلك عبارة عن هول يوم القيامة وشدَّته، وفي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ينادي منادٍ يوم القيامة لتتبع كل أمة ما كانت تعبد، فيَتْبَع الشمس من كان يعبد الشمس، ويتبع القمر من كان يعبد القمر، ويتبع كل أحد ما كان يعبد، ثم تبقى هذه الأمة وغُبَّرات[٢] من أهل الكتاب معهم منافقوهم فيقال لهم: ما شأنكم؟ فيقولون: ننتظر ربنا، قال: فيجيئهم الله في غير الصورة التي عرفوه، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، قال فيقول: أتعرفونه بعلامة ترونها؟ فيقولون: نعم، فيكشف لهم عن ساق، فيقولون: نعم أنت ربنا ويخرون للسجود فيسجد كل مؤمن، وترجع أصلاب المنافقين عظمًا واحدًا فلا يستطيعون سجودًا»[٣].

وتأويل الحديث كتأويل الآية[٤].

---

(١) الكشاف (١٥/ ٥٩٤).

(٢) جمع غُبَّر: أي: بقايا. النهاية لابن الأثير (٧/ ٢٩٦٥)

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(٤) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قول المصنف ﷺ: «﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ قال المتأولون: ذلك عبارةٌ عن هول يوم القيامة وشدّته» إلخ، أقول: اكتفى المؤلف ﷺ بذكر قول المتأولين في الآية، وهو أن معنى ﴿يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ أي: يكشف عن هول يوم القيامة، والساق على هذا هي الشدة، ومن معاني الساق في اللغة الشدة، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ أي: اتصلت الشدة بالشدة عند الموت، وذكر المؤلف الحديث =

﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ تفسيره في الحديث الذي ذكرنا.

فإن قيل: كيف يُدعون في الآخرة إلى السجود وليست الآخرة دار تكليف؟

فالجواب: أنهم يدعون إليه على وجه التوبيخ لهم على تركهم السجود لله في الدنيا، لا على وجه التكليف والعبادة.

﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ أي: قد كانوا في الدنيا يُدعون إلى السجود فيمتنعون منه، وهم سالمون في أعضائهم قادرون عليه.

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ تهديد للمكذبين بالقرآن.

وإعراب ﴿وَمَن يُكَذِّبُ﴾ مفعول معه، أو معطوف.

وقد ذكرنا في «الأعراف» ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ وما بعده[1].

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ معناه: أنت لا تسألهم أجرة على الإسلام فتثقل عليهم، فلا عذر لهم في تركهم الإسلام.

وقد فسرنا هذا وما بعده في «الطور»[2].

= وأجراه مجرى الآية، والقول الثاني الذي أعرض عنه المؤلف أن المراد بالساق ساق الله تعالى، كما في رواية في الصحيح: «فيكشف ربنا عن ساقه»، فالحديث يفسر الآية، فيكون معناها: يوم يكشف ربنا عن ساقه، ويؤيد ذلك أنه حينئذ يسجد له كل من كان يسجد في الدنيا استجابة وطاعة، ويعجز المنافقون عن السجود، كما يدل لذلك الآية والحديث، والآية تحتمل القولين، وتفسيرها بما دل عليه الحديث أولى؛ فإن السنة تفسر القرآن.

(١) انظر (٢/ ٤٢٢).

(٢) انظر صفحة ٢٣١.

﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ يقتضي مسالمة للكفار، نُسخت بالسيف.

﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ هو يونس عليه السلام، وسماه صاحب الحوت؛ لأن الحوت ابتلعه، وهو أيضًا ذو النون، والنون هو الحوت.

وقد ذكرنا قصته في «الأنبياء»[١] و«الصافات»[٢].

فنهى الله محمدًا ﷺ أن يكون مثله في الضجر والاستعجال حتى ذهب مغاضبًا.

وروي أن هذه الآية نزلت لما همَّ النبي ﷺ أن يدعو على الكفار.

﴿إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ هذا آخر ما جرى ليونس، ونداؤه: هو قوله في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

والمكظوم: الشديد الحزن.

﴿لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ﴾ هذا جواب ﴿لَوۡلَآ﴾، والمنفي هو الذمُّ، لا نَبْذُه بالعراء؛ فإنه قد قال في «الصافات»: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُ بِٱلۡعَرَآءِ﴾ [الصافات: ١٤٥].

فالمعنى: لولا رحمة الله لنبذ بالعراء وهو مذموم، لكنه نبذ وهو غير مذموم.

وقد ذكرنا العراء في «الصافات»[٣].

﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ﴾ عبارة عن شدة عداوتهم.

---

(١) انظر (٣/ ١٦٤).
(٢) انظر (٣/ ٦٨٢).
(٣) انظر (٣/ ٦٨٤).

و﴿إِن﴾ مخفَّفة من الثقيلة، بدليل دخول اللام.

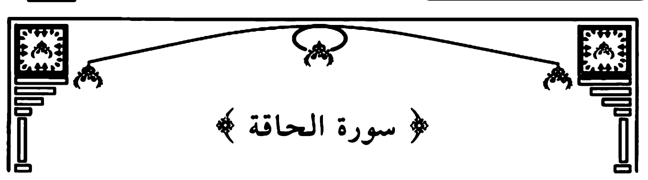
و﴿لَيَزْلِقُونَكَ﴾ معناه: يُهلكونك، كقولك: «نظر فلان إلى عدوه نظرًا كاد يصرعه»، وأصله: مِن زلق القدم.

وقرئ بفتح الياء وضمها، وهما لغتان.

وقيل: إن المعنى: يأخذونه بالعين، وكان ذلك في بني أسد، كان الرجل منهم يجوع ثلاثة أيام فلا يتكلم على شيء إلا أصابه بالعين، فأراد بعضهم أن يصيب النبي ﷺ فعصمه الله من ذلك.

وقال الحسن: دواء الإصابة بالعين قراءة هذه الآية.

﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ يعني: القرآن؛ أي: هو موعظة وتذكير للخلق.



﴿ سورة الحاقة ﴾

[﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ وَالْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ﴾].

﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾﴾ هي القيامة، ووزنها فاعِلة.

وسميت الحاقة:

لأنها تَحِقُّ، أي: يصح وجودها، ولا ريب في وقوعها.

أو لأنها حَقَّت[1] لكل أحد جزاء عمله.

أو لأنها تبدي حقائق الأمور.

﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢﴾ ﴿مَا﴾ استفهامية يراد بها التعظيم، وهي مبتدأ وخبرها ما بعده، والجملة خبر ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾.

وكان الأصل: «الحاقة ما هي؟»، ثم وضع الظاهر موضع المضمر زيادةً في التعظيم والتهويل.

وكذلك ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ لفظه الاستفهام، والمراد به: التعظيم والتهويل.

﴿بِٱلْقَارِعَةِ﴾ هي القيامة، سميت بذلك؛ لأنها تَقرع القلوب بأهوالها.

﴿بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ يعني: الصيحة التي أخذت ثمود، وسميت بذلك لأنها جاوزت الحدَّ في الشدة.

وقيل: الطاغية مصدر، فكأنه قال: أهلكوا بطغيانهم، فهو كقوله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١﴾ [الشمس: ١١].

وقيل: هي صفة لمحذوف تقديره: أهلكوا بسبب الفِعلة الطاغية، أو الفئة الطاغية.

---

(١) في ب: «حَقَّقت».

والباء:

على هذين القولين: سببية.

وعلى القول الأول: كقولك: «قتلت زيدًا بالسيف».

﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ ذكر في «فصلت»[١].

﴿عَاتِيَةٍ﴾ أي شديدة، وسميت بذلك؛ لأنها عَتتْ على عاد.

وقيل: عَتت على خُزَّانها[٢]، فخرجت بغير إذنهم.

﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ﴾ روي أنها بدأت صبيحة يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال، وتمادت بهم إلى آخر يوم الأربعاء تكملةَ الشهر.

﴿حُسُومًا﴾ ابن عباس: معناه: كاملةً متتابعة لم يتخلَّلْها غير ذلك.

وقيل: معناه شؤمًا ونَحسًا.

وقيل: هو جمع حاسم، من الحسم وهو القطع؛ أي: قطعتهم بالإهلاك.

فـ ﴿حُسُومًا﴾:

على القولين الأولين: مصدر في موضع الحال.

وعلى الثالث: حال، أو مفعول من أجله.

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ﴾ جمع صريع، وهو المطروح بالأرض.

---

(١) انظر صفحة ١٣.

(٢) في د: «خزنتها».

والضمير المجرور يعود:

على منازلهم؛ لأن المعنى يقتضيها وإن لم يتقدم ذكرها.

أو على الأيام والليالي.

أو على الريح.

﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ تقدم في «القمر» معنى تشبيههم بأعجاز النخل[1].

والخاوية: هي التي خَلتْ من طول بِلَاها وفسادِها.

﴿مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ أي: من بقيَّة.

وقيل: من فئة باقية.

وقيل: إنه مصدر بمعنى البقاء.

﴿وَمَن قَبْلَهُ﴾ يريد: من تقدم قبله من الأمم الكافرة، وأقربهم إليه قوم شعيب، والظاهر أنهم المراد؛ لأن عادًا وثمود قد ذُكرَا، وقوم لوط هم المؤتفكات، وقوم نوح قد أشير إليهم في قوله: ﴿لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾.

وقرئ ﴿قِبَلَهُ﴾ بكسر القاف وفتح الباء، ومعناه: جنده وأتباعه.

﴿بِالْخَاطِئَةِ﴾ إما أن يكون:

مصدرًا بمعنى الخطيئة.

أو صفةً لمحذوف تقديره: بالفِعلة الخاطئة.

---

(١) انظر صفحة: ٢٥٨.

﴿فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ إن عاد الضمير على فرعون وقومه: فالرسول موسى عليه السلام.

وإن عاد على المؤتفكات: فالرسول لوط عليه السلام.

وإن عاد على الجميع: فالرسول اسم جنس، أو بمعنى الرسالة.

﴿رَّابِيَةً﴾ أي: عظيمة، وهو من قولك: ربا الشيء: إذا كثر.

﴿طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ عبارة عن كثرته، فيحتمل أن يريد:

أنه طغى على أهل الأرض.

أو على خُزَّانه.

يعني: وقت طوفان نوح عليه السلام.

﴿حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ هي السفينة.

فإن أراد سفينة نوح: فمعنى ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾: حملنا آباءكم؛ لأن كل مَن على الأرض من ذرية نوح وأولاده الثلاثة الذين كانوا معه في السفينة.

وإن أراد جنس السفن: فالخطاب على حقيقته.

﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً﴾ الضمير للفِعلة، وهي الحَمل في السفينة.

وقيل: للسفينة:

فإن أراد جنس السفن: فالمعنى: أنها تذكرة بقدرة الله ونعمته لمن ركبها أو سمع بها.

وإن أراد سفينة نوح: فقد قيل: إن الله أبقاها حتى رأى بعضَ عِيدانها أوائل هذه الأمة.

﴿وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ الضمير يعود على ما عاد عليه ضمير ﴿لِنَجْعَلَهَا﴾، وهذا يقوِّي أن يكون للفعلة.

والأذن الواعية: هي التي تفهم ما تسمع وتحفظه، يقال: وَعَيْتُ العلم: إذا حصَّلتَه، ولذلك عبَّر بعضهم عنها بأنها التي عقَلت عن الله.

وروي أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا عليّ»، قال عليّ: فما نسيت بعد ذلك شيئًا سمعته[1].

قال الزمخشري: إنما قال: ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ بالتوحيد والتنكير؛ للدلالة على قلة الوعاة، ولتوبيخ الناس بقلة من يعي منهم، وللدلالة على أن الأذن الواحدة إذا عقَلت عن الله تعالى فهي المعتبرة عند الله دون غيرها[2].

﴿نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ يعني: نفخة الصعق، وهي الأولى.

﴿فَدُكَّتَا﴾ الضمير للأرض والجبال.

ومعنى ﴿دُكَّتَا﴾: ضرب بعضها ببعض حتى تندقَّ، وقال الزمخشري: والدكُّ أبلغ من الدق[3].

وقيل: معناه: بسطت حتى تستويَ الأرض والجبال.

﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ أي: قامت القيامة.

وقيل: صخرة بيت المقدس، وهذا ضعيف.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٢٢٢).

(٢) الكشاف (١٥/ ٦١٣).

(٣) الكشاف (١٥/ ٦١٦).

﴿وَاهِيَةٌ﴾ أي: مسترخية ساقطة القوة، ومنه قولهم: «دار واهية» أي: ضعيفة الجُدرات.

﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا﴾ الملك هنا: اسم جنس.

والأرجاء: الجوانب، واحدها رَجا - مقصور -، والضمير يعود على السماء.

والمعنى: إن الملائكة يكونون يوم القيامة على جوانب السماء؛ لأنها إذا وهت وقفوا على أطرافها.

وقيل: يعود على الأرض؛ لأن المعنى يقتضيه، وإن لم يتقدم ذكرها، وروي في ذلك أن الله يأمر الملائكة فتقف صفوفًا على جوانب الأرض.

والأول أظهر وأشهر.

﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ابن عباس: هي ثمانية صفوف من الملائكة، لا يعلم أحد عدَّتهم.

وقيل: ثمانية أملاك، رؤوسهم تحت العرش وأرجلهم تحت الأرض السابعة، ويؤيد هذا: ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة قوَّاهم الله بأربعة سواهم»[١].

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ خطاب لجميع العالم.

والعرض: البعث و[٢]الحساب.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٢٢٩).

(٢) في أ، هـ: «أو».

﴿خَافِيَةٌ﴾ أي: حالٌ خافية من الأعمال والسرائر.

ويَحتمل المعنى: لا يخفى من أجسادكم شيء؛ لأنهم يحشرون حفاة عراة.

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ الكتاب هنا: صحائف الأعمال.

﴿فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ﴾ ﴿هَآؤُمُ﴾ اسم فعل.

قال ابن عطية: معناه: تعالوا[١].

وقال الزمخشري: هو صوت يفهم منه معنى: «خُذْ»، و﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ مفعولٌ يطلبه ﴿هَآؤُمُ﴾ و﴿ٱقْرَءُواْ﴾ من طريق المعنى، تقديره: «هاؤم كتابي اقرؤوا كتابي» ثم حُذف[٢] لدلالة الآخر عليه[٣].

وعمل فيه:

العامل الثاني، -وهو ﴿ٱقْرَءُواْ﴾- عند البصريين.

والعامل الأول -وهو ﴿هَآؤُمُ﴾ - عند الكوفيين.

والدليل على صحة قول البصريين: أنه لو أُعمل الأول لقال: «اقرؤوه».

والهاء في ﴿كِتَٰبِيَهْ﴾ للوقف، وكذلك في ﴿حِسَابِيَهْ﴾ و﴿مَالِيَهْ﴾ و﴿سُلْطَٰنِيَهْ﴾

وكان الأصل أن تسقط في الوصل، لكنها ثبتت فيه مراعاة لخط المصحف، وقد أسقطها في الوصل بعضهم.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٢).

(٢) أي: حذف مفعول ﴿هَآؤُمُ﴾.

(٣) الكشاف (١٥/ ٦٢١).

ومعنى الآية: أن العبد الذي يُعطى كتابه بيمينه يقول للناس: «اقرؤوا كتابيه» على وجه الاستبشار والسرور بكتابه.

﴿إِنِّي ظَنَنتُ﴾ الظن هنا: بمعنى اليقين.

﴿رَّاضِيَةٍ﴾ أي: ذات رضا، كقولهم: تامِرٌ لصاحب التمر.

قال ابن عطية: ليست بناء اسم فاعل[١].

وقال الزمخشري: يجوز أن يكون اسم فاعل، نُسب الفعل إليها مجازًا، وهو لصاحبها حقيقة[٢].

﴿قُطُوفُهَا﴾ جمع قِطْف - بكسر القاف -[٣] وهو ما يُجتنَى من الثمار ويقطف كالعنقود.

﴿دَانِيَةٌ﴾ أي: قريبة، وروي أن العبد يأخذها بفمه من شجرها، على أيِّ حال كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع.

﴿أَسْلَفْتُمْ﴾ أي: قدمتم من الأعمال الصالحة.

﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ أي: الماضية، يعني: أيام الدنيا.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ﴾ هم الكفار بدليل قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾﴾، فجعل علة إعطائهم كتبهم[٤] بشمالهم عدمَ إيمانهم.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٣).

(٢) الكشاف (١٥/ ٦٢٢).

(٣) قوله «بكسر القاف» زيادة من أ، هـ.

(٤) في أ، د: «كتابهم».

وأما المؤمنون فيعطون كتبهم[١] بأيمانهم.

لكن اختلف فيمن يدخل النار منهم، هل يعطى كتابه قبل دخوله النار؟ أو بعد خروجه منها؟ وهذا أرجح لقوله: ﴿هَآؤُمُ اقْرَءُوا كِتَٰبِيَهْ﴾؛ لأن هذا كلام مسرور، فيبعد أن يقوله من يُحمل إلى النار.

﴿فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾ أي: يتمنى أنه لا يعطاه[٢] كتابه.

وقال ابن عطية: يتمنى أن يكون معدومًا لا يجري عليه شيء[٣].

والأول أظهر.

﴿يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: ليت الموتة الأولى كانت القاضية، بحيث لا يكون بعدها بعث ولا حياة.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾﴾ يحتمل أن يكون:

نفيًا.

أو استفهامًا يراد به النفي.

﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾﴾ أي: زال عني ملكي وقدرتي.

وقيل: ذهبت عني حجتي.

﴿خُذُوهُ﴾ خطاب للزبانية، يقوله لهم:

الله تعالى.

---

(١) في أ، ج، د: «كتابهم».

(٢) في د: «لا يعطى».

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٣).

أو الملائكة بأمر الله.

﴿فَغُلُّوهُ﴾ أي: اجعلوا غُلًّا في عنقه.

وروي أنها نزلت في أبي جهل.

﴿ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ معنى ﴿ذَرْعُهَا﴾: أي مبلغ أذرع كَيلها.

واختلف في هذا الذراع:

فقيل: إنه الذراع المعروف.

وقيل: هو بذراع الملَك.

وقيل: في الذراع سبعون باعًا، كل باع كما بين مكة والكوفة.

ولله در الحسن البصري في قوله: الله أعلم بأي ذراع هي!.

وجعلها سبعين ذراعًا؛ لإرادة وصفها بالطول، فإن السبعين من الأعداد التي تَقصد بها العرب التكثير.

ويحتمل أن تكون هذه السلسلة:

لكل واحد من أهل النار.

أو تكون بين جميعهم، وقد حكى الثعلبي ذلك[١].

﴿فَاسْلُكُوهُ﴾ أي: أَدخلوه، وروي أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج على دبره، فـ ﴿اسْلُكُوهُ﴾ على هذا من المقلوب في المعنى، كقولهم: «أدخلتُ القَلَنْسُوة في رأسي».

---

(١) الكشاف والبيان (١٠/ ٣١).

وروي: أنها تُلوَى عليه حتى تَغُمَّه وتضغطه، فالكلام على هذا على وجهه وهو المسلوك فيها.

وإنما قدم قوله: ﴿فِي سِلْسِلَةٍ﴾ على ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ لإرادة الحصر؛ أي: لا تسلكوه إلا في هذه السلسلة.

وكذلك قدَّم ﴿الْجَحِيمَ﴾ على ﴿صَلُّوهُ﴾ لإرادة الحصر أيضًا.

﴿طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ يحتمل:

أن أراد إطعام المسكين، فوضع الاسم موضع المصدر.

أو يقدر: «لا يحض على بذل طعام المسكين».

وأضاف الطعام إلى المسكين؛ لأن له إليه نسبةٌ.

ووصْفُه بأنه لا يحض على طعام المسكين يدل على أنه لا يطعمه من باب أولى وأحرى.

وهذه الآية تدل على عِظَم الصدقة وفضلها؛ لأنه قرن منع طعام المسكين بالكفر بالله.

﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ فيه قولان:

أحدهما: ليس له صديق.

والآخر: ليس له شراب، ولا طعام إلا من غسلين، فإن الحميم: الماء الحار، والغسلين: صديد أهل النار عند ابن عباس.

وقيل: شجر يأكله أهل النار.

وقال اللغويون: هو ما يجري من الجراح إذا غُسلت، وهو «فِعْلين» من الغَسل.

﴿ٱلۡخَٰطِـُٔونَ﴾ جمع خاطئ وهو الذي يفعل ضد الصواب متعمَّدًا، والمخطئ: الذي يفعله بغير تعمُّد.

* * *

[﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾﴾].

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ «لا» زائدة غير نافية.

﴿بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ يعني: جميع الأشياء؛ لأنها تنقسم إلى ما يُبصَر وما لا يبصر، كالدنيا والآخرة، والإنس والجن، والأجسام والأرواح، وغير ذلك.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ هذا جواب القسم، والضمير للقرآن.

والرسول الكريم: جبريل.

وقيل: محمد عليهما الصلاة والسلام.

﴿قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ﴾ قال ابن عطية: يحتمل أن تكون ﴿مَّا﴾:

نافيةً، فنفى إيمانهم بالجملة.

أو تكون مصدرية، فوصف إيمانهم بالقلة[١].

وقال الزمخشري: القلة هنا بمعنى العدم؛ أي: لا تؤمنون ولا تذَّكَّرون ألبتة[٢].

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٧).

(٢) الكشاف (١٥/ ٦٣٠).

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾﴾ التقوُّل: هو أن ينسب إلى أحد ما لم يقل.

ومعنى الآية: لو تقوَّل علينا محمد لعاقبناه، ففي ذلك برهان على أن القرآن[١] من عند الله.

﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾ ابن عباس: اليمين هنا: القوة، ومعناه: لو تقوَّل علينا لأخذناه بقوتنا.

وقيل: هي عبارة عن الهوان، كما يقال لمن يُسجَن: أُخِذ بيده وبيمينه.

وقال الزمخشري: معناه: لو تقوَّل علينا لقتلناه، ثم صور صورة القتل ليكون أهول، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾﴾؛ لأن السيَّاف إذا أراد أن يضرب المقتول في جيده أخذ بيده اليمنى؛ ليكون ذلك أشد عليه؛ لنظره إلى السيف[٢].

﴿ٱلْوَتِينَ﴾ نياط القلب، وهو عرق إذا قُطع مات صاحبه، فالمعنى: لقتلناه.

﴿فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ الحاجز: المانع، والمعنى: لو عاقبناه لم يمنعه أحد منكم ولم يدفع عنه عقابنا[٣].

وإنما جمع ﴿حَٰجِزِينَ﴾؛ لأن ﴿أَحَدٍ﴾ في معنى الجماعة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ﴾ الضمير: للقرآن.

---

(١) في ب زيادة: «كلام الله وهو . . .».
(٢) الكشاف (١٥/ ٦٣٢).
(٣) في أ، هـ: «عقابًا».

وقيل: لمحمد ﷺ.

والأول أظهر.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: حسرة عليهم في الآخرة؛ لأنهم يتأسَّفون إذا رأوا ثواب المؤمنين.

﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾﴾ قال الكوفيون: هذا من إضافة الشيء إلى نفسه، كقولك: مسجد الجامع.

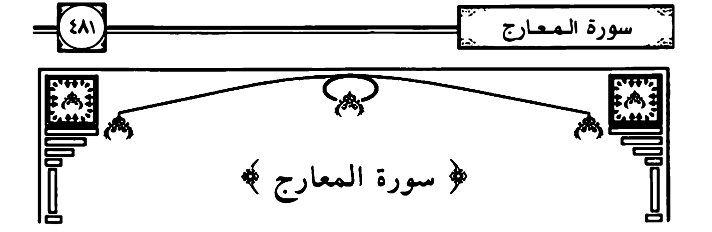
وقال الزمخشري: المعنى: عين اليقين، ومحض اليقين[١].

وقال ابن عطية: ذهب الحذاق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من وجوهه[٢].

---

(١) الكشاف (١٥/ ٦٣٤).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٣٩٨).



﴿ سورة المعارج ﴾

[﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ① لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ② مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ ③ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ④ فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ⑤ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ⑥ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ⑦ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلۡمُهۡلِ ⑧ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ⑨ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ⑩ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ⑪ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ⑫ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي تُـٔۡوِيهِ ⑬ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ⑭ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ⑮ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ⑯ تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ⑰ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ⑱ ۞ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ⑲ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعٗا ⑳ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ㉑ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ㉒ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ㉓ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ㉔ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ㉕ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ㉖ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ㉗ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ㉘ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ㉙ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ㉚ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ㉛ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ㉜ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ㉝ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ㉞ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾].

﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾ من قرأ ﴿سَأَلَ﴾ بالهمز: احتمل معنيين:

أحدها: أن يكون بمعنى الدعاء؛ أي: دعا داعٍ بعذاب واقع، وتكون الإشارة إلى قول الكفار: «أمطر علينا حجارة من السماء»، وكان الذي قالها النضر بن الحارث.

والآخر: أن يكون بمعنى الاستخبار؛ أي: سأل سائل عن عذاب واقع، والباء على هذا بمعنى: «عن»، وتكون الإشارة إلى قولهم: «متى هذا الوعد؟» وشبه ذلك.

وأما من قرأ ﴿سَالَ﴾ بغير همز: فيحتمل وجهين:

الأول: أن يكون مخفَّفًا من المهموز، فيكون فيه المعنيان المذكوران.

والثاني: أن يكون من سال السيل: إذا جرى، ويؤيد ذلك: قراءة ابن عباس: «سال سَيْلٌ»، وتكون الباء على هذا كقولك: «ذهبت بزيد».

وإذا كان من السيل احتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون شبَّه العذاب في شدته وسرعة وقوعه بالسيل.

وثانيهما: أن يكون حقيقة، قال زيد بن ثابت: في جهنم واد يقال له: سائل.

فتلخَّص من هذا: أن في القراءة بالهمز[1] معنيين، وفي القراءة بغير همز أربعة معان.

﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ يحتمل:

[أ-] أن يتعلَّق بـ ﴿وَاقِعٍ﴾، وتكون اللام:

بمعنى «على».

أو تكون صفة للعذاب.

---

(١) في أ، ب، ج، هـ زيادة: «يحتمل»!.

[ب-] أو يتعلق بـ ﴿سَالَ﴾ إذا كانت بمعنى: دَعا، أي: دعا للكافرين بعذاب.

[ج-] أو يكون مستأنفًا، كأنه قال: هو للكافرين.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ يحتمل أن يتعلق:

بـ ﴿وَاقِعٍ﴾؛ أي: واقع من عند الله.

أو بـ ﴿دَافِعٌ﴾؛ أي: ليس له دافع من عند الله.

أو يكون صفة لـ ﴿عَذَابٍ﴾.

أو مستأنفًا.

﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ﴾ جمع مَعْرَج، وهو المصعد إلى علْوٍ، كالسُّلَّم والمدارج التي يُرتقى بها.

قال ابن عطية: هي هنا مستعارة في الفضائل والصفات الحميدة[١].

وقيل: هي المراقي إلى السماء، وهذا أظهر؛ لأنه فسَّرها بما بعدها من عروج الملائكة والروح إليه، أي: إلى عرشه، ومن حيث تهبط أوامره وقضاياه[٢].

فالعروج: هو من الأرض إلى العرش[٣].

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٠١).

(٢) في هـ: «وقضاؤه».

(٣) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قول المصنف رحمه الله: «قال ابن عطية: هي هنا مستعارة في الفضائل والصفات الحميدة»، أقول: يريد ابن عطية أن المعارج أمور معنوية، =

والروح هنا: جبريل عليه السلام بدليل قوله: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

وقيل: الروح: ملائكة حفَظة على الملائكة، وهذا ضعيف مفتقر إلى صحة نقله.

وقيل: الروح: جنس أرواح الناس وغيرهم.

﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ اختلف في هذا اليوم على قولين:

أحدهما: أنه يوم القيامة.

والآخر: أنه في الدنيا.

والصحيح: أنه يوم القيامة؛ لقول رسول الله ﷺ في حديث مانع الزكاة: «ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي زكاتها إلا صُفِّحت له صفائح من نار يكوى بها جبينه وجنبه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين العباد»[1] يعني: يوم القيامة.

= وهي صفات الكمال، فلا تدل على علو الذات في حقه تعالى، بل على علو القدر، وهذا يتفق مع مذهب نفاة علو الله بذاته، ولكن ابن جزي رحمه الله رجَّح أن المعارج هي المصاعد إلى السماء، بدليل قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ﴾، ولكنه قال: تعرج الملائكة والروح إليه أي: إلى عرشه، وهذا تأويلٌ بصرف الكلام عن ظاهره، وهو أنها تعرج إلى الله، ولا موجب لهذا التأويل إلا النزعة إلى نفي العلو الذي هو مذهب القوم، وقد جاء في السنة ما يشهد لظاهر الآية، وهو قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» وفيه: «ثم يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي» الحديث. والصواب في الآية أن الملائكة والروح تعرج إلى الله.

(١) أخرجه مسلم (٩٨٧).

ثم اختلف:

هل مقداره خمسون ألف سنة حقيقة؟ **وهذا هو الأظهر.**

أو هل وصف بذلك لشدة أهواله؟ كما يقال: «يوم طويل» إذا كان فيه مصائب وهموم.

وإذا قلنا إنه في الدنيا: **فالمعنى**: أن الملائكة والروح يعرجون في يوم لو عَرج فيه الناس لعرجوا في خمسين ألف سنة.

وقيل: الخمسون ألف سنة هي مدة الدنيا، والملائكة تعرج وتنزل في هذه المدة.

وهذا كله على أن يكون قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ يتعلق بـ ﴿تَعْرُجُ﴾.

ويحتمل أن يكون ﴿فِي يَوْمٍ﴾ صفةً للعذاب، فيتعين أن يكون اليوم يوم القيامة، والمعنى على هذا مستقيم.

﴿فَاصْبِرْ﴾ هذا متصل بما قبله من العذاب وغيره، أي: اصبر على أقوال الكافرين حتى يأتيهم العذاب، ولذلك وصفه بالقرب؛ مبالغةً في تسلية النبي ﷺ.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝٦﴾ **يحتمل أن يعود الضمير:**

على العذاب.

أو على اليوم الذي مقداره خمسون ألف سنة.

والبعيد يحتمل أن يراد به:

بُعْد الزمان.

أو بُعْد الإمكان.

وكذلك القرب يحتمل أن يراد به:

قرب الزمان؛ لأن كل آت قريب، ولأن الساعة قد قربت.

أو قرب الإمكان؛ لقدرة الله عليه.

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨﴾ ﴿يَوْمَ﴾ هنا:

[أ-] بدل من ﴿يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾.

[ب-] أو بدل من الضمير المنصوب في ﴿وَنَرَىٰهُ﴾.

[ج-] أو منصوب:

بقوله: ﴿قَرِيبًا﴾.

أو بقوله: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾.

أو بفعل مضمر تقديره: اذكر، أو: يقعُ العذاب يوم تكون السماء كالمهل.

والمهل: هو دُرْدِيُّ الزيت، شبَّه السماء به في سوادها وانكدار أنوارها يوم القيامة.

وقيل: هو ما أذيب من الفضة ونحوها، شبَّه السماء به في تلوُّنه.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ العِهن: هو الصوف، شبَّه الجبال به في انتفاشه وتخلخل[1] أجزائه.

---

(١) في ج، د: «وتخلل».

وقيل: هو الصوف المصبوغ ألوانًا، فكيون التشبيه في الانتفاش، وفي اختلاف الألوان؛ لأن الجبال منها بيض وسود وحمر.

﴿وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ الحميم هنا: الصديق، والمعنى: لا يسأل أحد من حميمه نصرة ولا إغاثة[١]؛ لعلمه أنه لا يقدر له على شيء.

وقيل: لا يسأله عن حاله؛ لأن كل أحد مشغول بنفسه.

﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ يقال: بَصُرَ الرجلُ بالرجل: إذا رآه، وبصَّرتُه إياه -بالتشديد-: إذا أريتَه إياه.

والضميران يعودان على الحميمين؛ لأنهما في معنى الجمع.

والمعنى: أن كل حميم يُبَصَّر حميمَه يوم القيامة فيراه، ولكنه لا يسأله.

﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ﴾ يعني: امرأته.

﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ يعني: القرابة الأقربين.

﴿تُـْٔوِيهِ﴾ أي: تضمُّه، فيحتمل أن يريد:

تضمه في الانتماء إليها.

أو في نصرته وحفظه من المضرَّات.

﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ الفاعل الافتداء الذي يقتضيه ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾، وهذا الفعل معطوف على ﴿لَوْ يَفْتَدِى﴾، وإنما عطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾ إشعارًا ببعد النجاة وامتناعها، ولذلك زجره عن ذلك بقوله: ﴿كَلَّآ﴾.

---

(١) في أ، هـ: «إعانة».

﴿إِنَّهَا لَظَىٰ﴾ الضمير للنار؛ لأن العذاب يدل عليها.

ويحتمل أن يكون ضميرَ القصة وفسَّره بالخبر.

و﴿لَظَىٰ﴾ علَم لجهنم، مشتقٌّ من اللظى بمعنى اللهب.

﴿نَزَّاعَةٌ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾﴾ الشوى: أطراف الجسد.

وقيل: جلد الرأس، فالمعنى: أن النار تنزعها ثم تعاد.

و﴿نَزَّاعَةٌ﴾ بالرفع:

بدل من ﴿لَظَىٰ﴾.

أو خبر ابتداء مضمر.

أو خبرٌ لـ ﴿إِنَّهَا﴾ إن جعلنا ﴿لَظَىٰ﴾: منصوبًا على التخصيص، أو بدلًا من الضمير.

أو خبرٌ ثان لـ ﴿إِنَّهَا﴾ إن جعلنا ﴿لَظَىٰ﴾ خبرًا لها.

و﴿نَزَّاعَةً﴾ بالنصب: حال.

﴿تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾﴾ يعني: الكفار الذين تولوا عن الإسلام.

ودعاؤها لهم: عبارة عن أخذها لهم.

وقال ابن عباس: تدعوهم حقيقة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

وقيل: معناه: تُهلِك، حكاه الخليل عن العرب.

﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴿١٨﴾﴾ يقال: أوعيتُ المال وغيره: إذا جمعتَه في وعاء.

فالمعنى: جمع المال وجعله في وعاء، وهذه إشارة إلى قوم من أغنياء الكفار جمعوا المال من غير حِلِّه ومنعوه من حقه.

﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ الإنسان هنا: اسم جنس، بدليل الاستثناء منه.

وسئل أحمد بن يحيى مؤلف «الفصيح» عن الهلوع؟ فقال: قد فسَّره الله فلا تفسيرَ أبيَن من تفسيره وهو قوله: ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾[1].

وذكر الله ذلك على وجه الذم لهذا الخُلُق، ولذلك استثنى منه المصلين؛ لأن صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزَعون من شرها ولا يبخلون بخيرها.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ الدوام عليها: هو المواظبة بطول العمر.

والمحافظة عليها المذكورة بعد هذا: هي أداؤها في أوقاتها وتوفية الطهارة لها.

﴿حَقٌّ مَّعۡلُومٌ﴾ قد ذكرنا في «الذاريات» معنى ﴿حَقٌّ﴾، والسائل والمحروم[2].

ووصفه هنا بالمعلوم:

إن أراد الزكاة: فهي معلومة المقدار شرعًا.

---

(١) نقله في الكشاف (١٦/١٨).

(٢) انظر صفحة ٢١٠.

وإن أراد غيرها: فمعنى المعلوم: أن العبد يجعل على نفسه وظيفةً معلومة عنده.

﴿غَيْرُ مَأْمُونٍ﴾ أي: لا يكون أحد آمنًا منه؛ فإن الأمن من عذاب الله حرام، فلا ينبغي للعبد أن يزول عنه الخوف حتى يدخل الجنة.

﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ﴾ ذكر في «المؤمنين»، وكذلك ﴿لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ﴾[١].

﴿وَالَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ﴾ قال ابن عباس: يعني: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

وقال الجمهور: يعني: الشهادة عند الحكام، ثم اختلف على هذا في معنى القيام بها؟

فقيل: هو التحقيق لها، كقوله ﷺ: «على مثل الشمس فاشهد[٢]»[٣].

وقيل: هو المبادرة إلى أدائها من غير امتناع.

فأما إن دعي الشاهد إلى الأداء: فهو واجب عليه.

وأما إذا لم يُدع إلى الأداء: فإن الشهادة على ثلاثة أقسام:

أحدها: حقوق الناس، فلا يجوز أداؤها حتى يدعوه صاحب الحق إلى ذلك.

---

(١) انظر (٣/ ٢٢٧).

(٢) في ب، هـ: «فاشهدوا».

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ١١٠)، وابن عدي في الضعفاء (٤/ ٦٩).

والثاني: حقوق الله التي يستدام فيها التحريم كالطلاق والعتق والأحباس، فيجب أداء الشهادة بذلك، دُعي أو لم يدع.

الثالث: حقوق الله التي لا يستدام فيها التحريم كالحدود، فهذا ينبغي ستره حتى يدعى إليه.

* * *

[﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾].

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾﴾ أي: مسرعين مقبلين إليك بأبصارهم، كان رسول الله ﷺ إذا صلَّى أقبل إليه الكفار ينظرون إليه ويستمعون قراءته.

ومعنى ﴿قِبَلَكَ﴾: في جهتك وما يليك.

﴿عِزِينَ﴾ أي: جماعاتٍ شتى وهو جمع عِزَة - بتخفيف الزاي -، وأصله: عِزْوَة، وقيل: عِزْهَة، ثم حذفت لامها وجمعت بالواو والنون عوضًا من اللام المحذوفة.

﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ كانوا يقولون: إن كان ثَم جنة فنحن أهلها.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عما طمعوا فيه من دخول الجنة.

﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ﴾ كنايةٌ عن المنيِّ الذي خلق منه الإنسان.

وفي المقصود بهذا الكلام ثلاثة أوجه:

الأول: تحقير الإنسان والردُّ على المتكبرين، كما قال بعضهم: إن الإنسان خلق من نطفة مَذِرة[1]، ويصير جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العَذِرة.

---

(١) المذرة: القذرة. القاموس المحيط (م ذ ر).

الثاني: الردُّ على الكفار في طمعهم أن يدخلوا الجنة، كأنه يقول: إنا خلقناكم مما خلقنا منه سائر الناس، فلا يدخل أحد الجنة إلا بالعمل الصالح؛ لأنكم سواء في الخلقة.

الثالث: الاحتجاج على البعث بأن الله خلقهم من ماء مهين، فهو قادر على أن يعيدهم، كقوله: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧] إلى آخر السورة.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ معناه: أقسم، و«لا» زائدة.

﴿بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ ذكرت في «الصافات»[1].

﴿إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ تهديد للكفار بإهلاكهم، وإبدال قومٍ خير منهم.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: مغلوبين، والمعنى: إنا لا نَعجِز عن التبديل المذكور، أو عن البعث.

﴿فَذَرْهُمْ﴾ وعيد لهم، وفيه مهادنة منسوخة بالسيف.

﴿يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ يعني: يوم القيامة، بدليل أنه أبدل منه: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ﴾ وهي القبور.

﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نَصْبٍ يُوفِضُونَ﴾ النَّصْب: الأصنام، وأصله: كل ما نُصب إلى الإنسان، فهو يَقصد إليه مسرعًا؛ مِن علَم أو بناء أو غير ذلك.

---

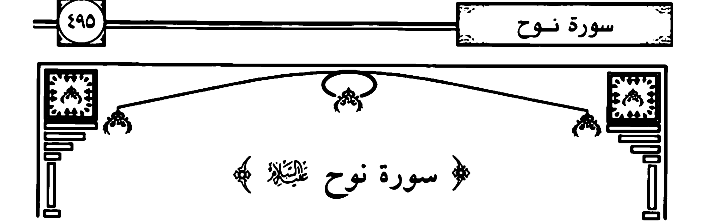
(١) انظر (٣/ ٦٥٤).

وفيه لغات: فتح النون وإسكان الصاد، وضمهما، وضم النون وإسكان الصاد.

و﴿يُوفِضُونَ﴾ معناه: يسرعون.

والمعنى: أنهم يسرعون الخروج من القبور إلى المحشر، كما يسرعون المشي إلى أصنامهم في الدنيا.

* * *



﴿ سورة نوح عليه السلام ﴾

[﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ۝٣ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٤ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ۝١٢ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ۝١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۝١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ۝١٩ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾].

﴿أَنْ أَنذِرْ﴾ و﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾: مفسِّرة.

أو مصدرية على تقدير: «بأن أنذر» و«بأن اعبدوا».

والأول أظهر.

﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يريد:

عذاب الآخرة.

أو الغرق الذي أصابهم.

﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿مِّن﴾ هنا للتبعيض أي: يغفر لكم ما فعلتم من الذنوب قبل أن تسلموا؛ لأن الإسلام يَجبُّ ما قبله، ولم يضمن أن يغفر لهم ما بعد إسلامهم؛ لأن ذلك في مشيئة الله تعالى.

وقيل: إن ﴿مِّن﴾ هنا زائدة، وذلك باطل؛ لأن «مِن» لا تزاد عنه سيبويه إلا في غير الواجب.

وقيل: هي لبيان الجنس.

وقيل: لابتداء الغاية.

وهذان قولان ضعيفان في المعنى.

والأول هو الصحيح؛ لأن التبعيض فيه متجه.

﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ظاهر هذا: يقتضي أنهم إن فعلوا ما أُمروا به أُخروا إلى أجل مسمى، وإن لم يفعلوا لم يؤخَّروا، وذلك مقتضَى القول بالأجلين، وهو مذهب المعتزلة، وعلى هذا حملها الزمخشري[١].

وأما على مذهب أهل السنة: فهي من المشكلات، وتأولها ابن عطية فقال: ليس للمعتزلة في الآية تعلق؛ لأن المعنى: أن نوحًا ﷺ لم يعلم هل هم ممن يؤخَّر أو ممن يعاجَل؟ ولا قال لهم: إنكم تؤخرون عن أجلٍ قد

---

(١) الكشاف (١٦/٢٩).

حان، لكن قد سبق في الأزل إنهم إمَّا ممن قُضي له بالإيمان والتأخير، أو ممن قضي له بالكفر والمعاجلة[١].

وكأنَّ نوحًا ﷺ قال لهم: آمنوا يظهر في الوجود أنكم ممن قُضي له بالإيمان والتأخير، وإن بقيتم على كفركم يظهر في الوجود أنكم ممن قُضي عليه بالكفر والمعاجلة، فكأنَّ الاحتمال الذي يقتضيه ظاهر الآية إنما هو فيما يُبرزه الغيب من حالهم؛ إذ يمكن أن يُبرز إمَّا الإيمان والتأخير، وإما الكفر والمعاجلة، وأما عند الله: فالحال الذي يكون منهم معلوم مقدَّر محتوم، وأجلهم كذلك معلوم مقدر محتوم.

﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾ هذا يقتضي أن الأجل محتوم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [يونس: ٤٩]، وفي هذا حجة لأهل السنة وتقوية للتأويل الذي ذكرنا، وفيه أيضًا ردٌّ على المعتزلة في قولهم بالأجلين.

ولما كان كذلك قال الزمخشري: إن ظاهر هذا مناقض لما قبله من الوعد بالتأخير إن آمنوا، وتأول ذلك على مقتضى مذهبه بأن الأجل الذي لا يؤخر هو الأجل الثاني، وذلك أن قوم نوح قضَى الله أنهم إن آمنوا عمرهم الله مثلًا ألف عام، وإن لم يؤمنوا عمرهم تسع مئة عام، فالألف عام هي التي لا تؤخر إذا جاءت، والتسع مئة عام هي التي وعدوا بالتأخير عنها إلى الألف عام إن آمنوا[٢].

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤١٦).

(٢) الكشاف (١٦/ ٢٩).

﴿دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ أي: دعوتهم ليؤمنوا فتغفر لهم، فذَكر المغفرة التي هي مسبَّبٌ عن الإيمان؛ ليظهر قبح إعراضهم عنه؛ فإنهم أعرضوا عن سعادتهم.

﴿جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ﴾ فعلوا ذلك لئلا يسمعوا كلامه، فيحتمل:

أنهم فعلوا ذلك حقيقة.

أو يكون ذلك عبارة عن إفراط إعراضهم حتى كأنهم فعلوا ذلك.

﴿وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ﴾ أي: جعلوها غِشاوة عليهم؛ لئلا يسمعوا كلامه، أو لئلا يراهم.

ويحتمل:

أنهم فعلوا ذلك حقيقة.

أو يكون عبارة عن إفراط إعراضهم.

﴿وَأَصَرُّواْ﴾ أي: داموا على كفرهم.

﴿دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ إعراب ﴿جِهَارًا﴾:

مصدر من المعنى، كقولك: قعد القرفصاء.

أو صفة لمصدر محذوف تقديره: دُعاءً جهارًا.

أو مصدر في موضع الحال؛ أي: مجاهرًا.

﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ ذكر أولًا أنه دعاهم بالليل والنهار، ثم ذكر أنه دعاهم جهارًا، ثم ذكر أنه جمع بين الجهر والإسرار، وهذه غاية

الجد في النصيحة وتبليغ الرسالة صلى الله على نبينا وعليه.

قال ابن عطية: الجهار: دعاؤهم في المحافل ومواضع اجتماعهم، والإسرار: دعاء كل واحد على حدته[١].

﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾ ﴿مِّدْرَارًا﴾: مِفْعَالٌ من الدَّرِّ، وهو كثرة الماء.

وفي الآية دليل على أن الاستغفار يوجب نزول الأمطار، ولذلك خرج عمر بن الخطاب إلى الاستسقاء فلم يزد على أن استغفر ثم انصرف، فقيل له: ما رأيناك استسقيت؟ فقال: «والله لقد استسقيت أبلغ الاستسقاء»، ثم نزل المطر[٢].

وشكا رجل إلى الحسن الجدبَ، فقال له: استغفر الله.

﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ فيه أربعة تأويلات:

أحدها: أن الوقار بمعنى: التوقير والكرامة، فالمعنى: ما لكم لا ترجون أن يوقِّركم الله في دار ثوابه. قال ذلك الزمخشري، وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ على هذا: بيان للموقِّر، ولو تأخر لكان صفة لـ ﴿وَقَارًا﴾[٣].

الثاني: أن الوقار بمعنى: التؤدة والتثبت، والمعنى: ما لكم لا ترجون الله تعالى متثبِّتين؛ حتى تتمكنوا من النظر بوقاركم[٤]، وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ على

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤١٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٢٩٣).

(٣) الكشاف (١٦/ ٣٤).

(٤) في أ: «يتمكنوا من النظر لوقارهم».

هذا: مفعول دخلت عليه اللام، كقولك: «ضربت لِزيدٍ»، وإعراب ﴿وَقَارًا﴾ على هذا: مصدر في موضع الحال.

الثالث: أن الرجاء هنا بمعنى الخوف، والوقار بمعنى: العظمة والسلطان، فالمعنى: ما لكم لا تخافون عظمة الله وسلطانه، و﴿لِلَّهِ﴾ على هذا صفة[1] للوقار في المعنى.

الرابع: أن الرجاء بمعنى الخوف، والوقار بمعنى الاستقرار، من قولك: وقَرَ في المكان: إذا استقر فيه، والمعنى: ما لكم لا تخافون الاستقرار في دار القرار إما في الجنة أو النار.

﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾ أي: طورًا بعد طور، يعني: أن الإنسان كان نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، إلى سائر أحواله.

وقيل: الأطوار: الأنواع المختلفة، فالمعنى: أن الناس على أنواع في ألوانهم وأخلاقهم وألسنتهم وغير ذلك.

﴿طِبَاقًا﴾ ذكر في «الملك»[2].

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ القمر إنما هو في السماء الدنيا، وساغ أن يقول ﴿فِيهِنَّ﴾ لأن القمر لما كان في إحداهن فهو في الجميع، كقولك: فلان في الأندلس كذا: إذا كان في بعضها.

---

(١) كذا في النسخ الخطية، ولعلَّ الصواب: «صلةً للوقار»، أي: لا تخافون عظمةً لله. انظر: الكشاف (١٦/ ٣٥).

(٢) انظر صفحة ٤٣٨.

والشمس في السماء الرابعة، وقيل: في الخامسة.

وجَعْل القمرِ نورًا والشمس سراجًا؛ لأن ضوء السراج أقوى من النور، فإن السراج هو الذي يضيء فيُبصَر به، والنور قد يكون أقل من ذلك.

﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ هذه عبارة عن إنشائهم من تراب الأرض.

و﴿نَبَاتًا﴾:

مصدر على غير الصَّدْر[١].

أو يكون تقديره: أنبتكم فنبتُّم نباتًا.

ويحتمل أن يكون منصوبًا على الحال.

﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ يعني: بالدفن.

﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ يعني: بالبعث من القبور.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ شبه الأرض بالبساط في امتدادها واستقرار الناس عليها.

وأخذ بعضهم من لفظ البساط أن الأرض بسيطة غير كُرَيَّةٍ[٢]، خلافًا لما ذهب إليه أهل التعديل، وفي ذلك نظر.

﴿سُبُلًا فِجَاجًا﴾ ذكر في «الأنبياء»[٣].

---

(١) انظر التعليق في ١/٥٣٣.

(٢) في أ، ب، هـ: «كورية»، وفي المصباح المنير (ك ر ي): «والنسبة إليها [أي: إلى الكُرَة] كُرَيٌّ وَكُرَيَّةٌ على لفظها».

(٣) انظر (٣/ ١٤٢).

[﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾].

﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ يعني: اتبعوا أغنياءهم وكبراءهم.

وقرئ ﴿وَوَلَدُهُ﴾ بفتحتين، و﴿وُلْدُهُ﴾ بضم الواو وسكون اللام، وهما بمعنى واحد.

﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا﴾ الكبَّار - بالتشديد - أبلغ من الكُبَار - بالتخفيف -، والكبَار المخفف أبلغ من الكبير.

﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ﴾ أي: وصَّى بعضهم بعضًا بذلك.

﴿وَلَا تَذَرُنَّ وُدًّا وَلَا سُوَاعًا﴾ هذه أسماء أصنامٍ كان قوم نوح يعبدونها.

وروي أنها أسماء رجال صالحين كانوا في صدر الدنيا، فلما ماتوا صوَّرهم أهل ذلك العصر من حجارة، وقالوا: ننظر إليها لنتذكر أعمالهم، فهلك ذلك الجيل وكثر تعظيم مَن بعدهم لتلك الصور، حتى عبدوها من دون الله، ثم انتقلت تلك الأصنام بأعيانها - وقيل: بل الأسماء فقط - إلى قبائل من العرب، فكان ودٌّ لكلْبٍ بدُومة الجندل، وكان سواع لهذيل، وكان يغوث لمراد، وكان يعوق لهمَذان، وكان نسرٌ لذي الكلاع من حمير.

وقرئ ﴿وُدًّا﴾ بفتح الواو وضمها، وهما لغتان.

﴿وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا﴾ الضمير للرؤساء من قوم نوح، والمعنى: أضلوا كثيرًا من أتباعهم.

وهذا من كلام نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكذلك ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ من كلامه، وهو دعاء عليهم.

وقال الزمخشري: إنه معطوف على قوله: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ والتقدير: قال: رب إنهم عصوني، وقال: ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾[1].

﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟﴾ هذا من كلام الله، إخبارٌ عن أمرهم.

و«ما» زائدة للتأكيد.

وإنما قدم هذا المجرور للتأكيد أيضًا؛ ليبين أن إغراقهم وإدخالهم النارَ إنما كان بسبب خطيئاتهم، وهي الكفر وسائر المعاصي.

﴿فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ يعني: جهنم، وعبَّر عن ذلك بالفعل الماضي؛ لأن الأمر محقَّق.

وقيل: أراد عرضهم على النار، وعبر عنه بالإدخال.

﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ ﴿دَيَّارًا﴾: من الأسماء المستعملة في النفي العام، يقال: ما في الدار دَيَّارٌ؛ أي: ما بها أحد، ووزنه: فَيْعَال، وكان أصله: دَيْوَار، ثم قلبت الواو ياء وأدغمت في الياء.

وليس وزنه فَعَّال؛ لأنه لو كان كذلك لقيل: دوَّار؛ لأنه مشتق من الدَّوْر أو من الدار.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٤٠-٤١).

وروي أن نوحًا عليه السلام لم يدع على قومه بهذا الدعاء إلا بعد أن يئس من إيمانهم، وبعد أن أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم.

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾ يؤخذ من هذا: أن سنة الدعاء أن يقدم الإنسان الدعاء لنفسه على الدعاء لغيره، وكان والدا نوح عليه السلام مؤمنين.

قال ابن عباس: لم يكن لنوح أب كافر ما بينه وبين آدم عليهما السلام، واسم والد نوح: لَمَكُ بن مُتَوَشْلِخ وأمه شَمخا بيت أنوش، حكاه الزمخشري[١].

﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا﴾ قيل: بيته: المسجد.

وقيل: السفينة.

وقيل: شريعته، سماها بيتًا استعارة، وهذا بعيد.

وقيل: داره، وهذا أرجح؛ لأنه الحقيقة.

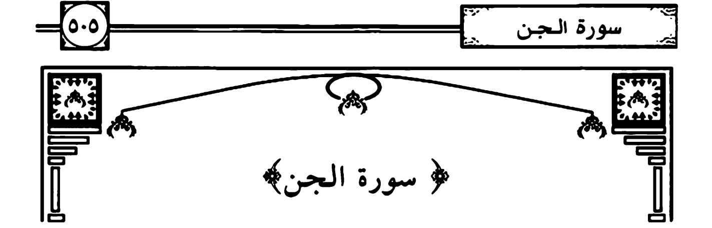
﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ هذا دعاء بالمغفرة لكل مؤمن ومؤمنة على العموم، وفيه دليل على جواز ذلك، خلافًا لمن قال من المتأخرين أنه لا يجوز الدعاء بالمغفرة لجميع المؤمنين على العموم، وهذا خطأ وتضييق لرحمة الله الواسعة.

قال بعض العلماء: إن الإله الذي استجاب لنوح عليه السلام، فأغرق بدعوته جميع أهل الأرض الكفار، حقيقٌ أن يستجيب له فيرحم بدعوته جميع المؤمنين والمؤمنات.

﴿تَبَارًا﴾ أي: هلاكًا.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٤٤).



﴿سورة الجن﴾

[﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُ تَعَالَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ تَقُولَ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ ۖ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾].

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ تقدمت في «الأحقاف» قصة هؤلاء الجن الذين استمعوا القرآن من النبي ﷺ وأسلموا(١).

---

(١) انظر صفحة ١٢٥.

﴿فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ أي: قال بعضهم لبعض.

و﴿عَجَبٗا﴾ مصدر وصف به للمبالغة؛ لأن العجَب مصدر قولك: عجبتُ عجَبًا.

وقيل: هو على حذف مضاف تقديره: ذا عجب.

﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ جَدُّ الله: جلاله وعظمته.

وقيل: غناه، من قولك: فلان مجدودٌ: إذا استغنى.

وقرئ ﴿إِنَّهُۥ﴾ في هذا الموضع بفتح الهمزة وكسرها، وكذلك فيما بعده إلى قوله: ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلۡمُسۡلِمُونَ﴾.

فأما الكسر:

فاستئنافٌ.

أو عطف على ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا﴾؛ لأنه كُسر في معمول القول، فيكون ما عطف عليه من قول الجن.

وأما الفتح:

فقيل: إنه عطفٌ على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ﴾، وهذا خطأ من طريق المعنى؛ لأن قوله: ﴿ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ﴾ في موضع معمول ﴿أُوحِيَ﴾، فيلزم أن يكون المعطوف عليه مما أوحي، وأن لا يكون من كلام الجن!، وهو من كلام الجن.

وقيل: إنه معطوف على الضمير المجرور في قوله: ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ وهذا ضعيف؛ لأن الضمير المجرور لا يعطف عليه إلا بإعادة الخافض.

وقال الزمخشري: هو معطوف على محل الجار والمجرور في ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ كأنه قال: صدقناه وصدقنا أنه تعالى جدُّ ربنا، وكذلك ما بعده[1].

ولا خلاف في فتح ثلاثة مواضع هي: ﴿أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ﴾، و﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾، و﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾؛ لأن ذلك مما أوحي، لا من كلام الجن.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطٗا﴾ هذا من كلام الجن، وسفيههم: أبوهم إبليس.

وقيل: هو اسم جنس لكل سفيه منهم، واختار ذلك ابن عطية[2].

والشطط: التعدي ومجاوزة الحد.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا﴾ أي: ظننا أن الأقوال التي كان الجن والإنس يقولونها على الله صادقة وليست بكذب؛ لأنا ظننا أنه لا يكذب أحد على الله.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٞ مِّنَ ٱلۡإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٖ مِّنَ ٱلۡجِنِّ﴾ تفسير هذا: ما روي أن العرب كانوا إذا حلَّ أحدهم بوادٍ صاح بأعلى صوته: «يا عزيزَ هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك»، ويعتقد أن ذلك الجني الذي بالوادي يحميه.

﴿فَزَادُوهُمۡ رَهَقٗا﴾ ضمير الفاعل: للجن، وضمير المفعول: للإنس، والمعنى: أن الجن زادوا الإنس ضلالًا وإثمًا لما عاذوا بهم.

---

(١) الكشاف (١٦/٤٨).

(٢) المحرر الوجيز (٨/٤٢٨).

أو زادوهم تخويفًا لما رأوا ضعف عقولهم.

وقيل: ضمير الفاعل: للإنس، وضمير المفعول: للجن، **والمعنى**: إن الإنس زادوا الجن تكبرًا وطغيانًا لما عاذوا بهم، حتى كان الجني يقول: أنا سيد الجن والإنس.

﴿وَإِنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ الضمير في ﴿ظَنُّوا۟﴾ لكفار الإنس، و﴿ظَنَنتُمْ﴾ خطاب الجن بعضهم لبعض.

فالمعنى: أن كفار الإنس والجن ظنوا أن لن يبعث الله أحدًا.

والبعث هنا يحتمل أن يريد به:

بعث الرسل.

أو البعث من القبور.

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَـٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ هذا إخبار عما حدث عند مبعث النبي ﷺ مِن منع الجن من استراق السمع في السماء ورجمهم بالنجوم.

واللمس: المس، واستعير هنا للطلب.

والحرس: اسم مفرد في معنى الحُرَّاس، كالخَدَم في معنى الخُدَّام، ولذلك وُصِفَ بشديدٍ وهو مفرد.

ويحتمل أن يريد به:

الملائكة الحُرَّاس.

النجوم الحارسة، وكرر الشهب؛ لاختلاف اللفظ.

﴿وَإِنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ المقاعد: جمع مقعد، وقد فسر رسول الله ﷺ صورة قعود الجن أنهم كانوا واحدًا فوق واحد، فمتى أُحرق الأعلى طَلع الذي تحته مكانه، فكانوا يسترقون الكلمة فيلقونها إلى الكهان ويزيدون معها، ثم يزيد الكهان للكلمة مئة كذبة[١].

﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ الرصد اسم جمع للراصد[٢]، كالحرَس للحارس.

وقال ابن عطية: هو مصدر وُصف به[٣]، ومعناه: مُنتظَر.

قال بعضهم: إن رمي الجن بالنجوم إنما حدث بعد مبعث النبي ﷺ.

واختار ابن عطية والزمخشري: أنه كان قبل المبعث قليلًا، ثم زاد بعد المبعث وكثر حتى منع الجن من استراق السمع بالكلية[٤].

والدليل أنه كان قبل المبعث: قول رسول الله ﷺ لأصحابه وقد رأى كوكبًا انقضَّ: «ما كنتم تقولون لهذا في الجاهلية؟» قالوا: كنا نقول وُلد ملِك أو مات ملك، فقال رسول الله ﷺ: «ليس الأمر كذلك»، ثم وصف استراق الجن للسمع[٥]، وقد ذكر شعراء الجاهلية ذلك في أشعارهم.

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ، قال ابن عطية: معناه

---

(١) أخرجه البخاري (٤٨٠٠).

(٢) في أ، ب، هـ: «للواحد».

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٤٣١).

(٤) المحرر الوجيز (٨/ ٤٣٠)، والكشاف (١٦/ ٥٤).

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٢٩).

لا ندري أيؤمِن الناس بهذا النبي فيَرشدوا، أو يكفرون به فينزلَ بهم الشر؟[١]

وقال الزمخشري: معناه: لا ندري هل أراد الله بأهل الأرض خيرًا أو شرًا من عذاب أو رحمة، أو من خذلان أو توفيق؟

﴿وَإِنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: منا قوم دون ذلك فحذف الموصوف، وأراد به: الذين ليس صلاحهم كاملًا، أو الذين ليس لهم صلاح، فإن «دون» قد تكون بمعنى «أقل»، أو بمعنى «غير».

﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾ الطرائق: المذاهب والسِّيَر وشبهها، والقِدَد: المختلفة وهو جمع قِدَّة.

وهذا بيان للقسمة المذكورة قبلُ، وهو على حذف مضاف؛ أي: كنا ذوي طرائق، أو كنا في طرائق.

﴿وَإِنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الظن هنا: بمعنى العلم.

قال ابن عطية: هذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم[٢].

ويحتمل أن يكونوا اعتقدوا هذا الاعتقاد قبل إسلامهم.

﴿وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ يعنون: القرآن.

﴿فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ البخس: النقص والظلم، والرهَق: تحميل ما لا يطاق.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٣١).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٤٣٢).

وقال ابن عباس: البخس: نقص الحسنات، والرهق: الزيادة في السيئات.

﴿وَمِنَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ﴾ يعني: الظالمين، يقال قسَط الرجل: إذا جار، وأقسط - بالألف -: إذا عدل.

وهاهنا انتهى ما حكاه الله من كلام الجن.

وأما قوله: ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ تَحَرَّوْاْ رَشَدًا﴾ فيحتمل:

أن يكون من بقية كلامهم.

أو يكون ابتداء كلام الله تعالى، وهو الذي اختاره ابن عطية[1].

وأما قوله: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ﴾ فهو من كلام الله باتفاق، وليس من كلامهم.

﴿تَحَرَّوْاْ﴾ أي: قصدوا الرَّشَد.

﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ الماء الغدقُ: هو الكثير، وذلك استعارة في توسيع الرزق.

والطريقة: هي طريقة الإسلام وطاعة الله، فالمعنى: لو استقاموا على ذلك لوسَّع الله أرزاقهم، فهو كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وقيل: هي طريقة الكفر، والمعنى على هذا: لو استقاموا على الكفر لوسع الله عليهم في الدنيا؛ إملاءً لهم واستدراجًا، ويؤيد هذا قوله: ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٣٣).

والأول أظهر.

والضمير في ﴿اسْتَقَامُوا﴾ يحتمل أن يكون:

للمسلمين.

أو للقاسطين المذكورين.

أو لجميع الجن.

أو للجن الذين استمعوا النبي[١] ﷺ.

أو لجميع الخلق.

﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ إن كانت الطريقة الإيمان والطاعة: فمعنى الفتنة: الاختبار هل يشكرون أم لا؟

وإن كانت الطريقة الكفر: فمعنى الفتنة: الإضلال والاستدراج.

﴿نَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ معنى ﴿نَسْلُكْهُ﴾: ندخله.

والصَّعَد: الشديد المشقة، وهو مصدر صَعِد يَصعَد، ووصف بالمصدر للمبالغة، يقال: فلان في صعَدٍ؛ أي: في مشقة.

وقيل: صعَدٌ: جبل في النار[٢].

﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ أراد المساجد على الإطلاق وهي بيوت عبادة الله، وروي: أن الآية نزلت بسبب تغلُّب قريش على الكعبة.

---

(١) في د، هـ: «للنبي».

(٢) في هـ: «جهنم».

وقيل: أراد الأعضاء التي يُسجَد عليها، واحدها مَسجَد - بفتح الجيم -، وهذا بعيد.

وعطف ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ على ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾.

وقال الخليل: معنى الآية: لأنَّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدًا؛ أي: لهذا السبب فلا تعبدوا غير الله، فالعامل في ﴿أَنَّ﴾: ﴿فَلَا تَدْعُوا۟﴾.

﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ هنا: محمد ﷺ ووصفه بالعبودية؛ اختصاصًا له وتقريبًا[١] وتشريفًا.

وقال الزمخشري: إنما سماه هنا ﴿عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، ولم يقل الرسول أو النبي؛ لأن هذا واقع في كلام رسول الله ﷺ عن نفسه؛ لأنه مما أوحي إليه، فذَكر النبيُّ ﷺ نفسَه على ما يقتضيه التواضع والتذلل[٢].

وهذا الذي قاله بعيد، مع أنه إنما يتمكن على قراءة ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾ بفتح الهمزة، فيكون عطفًا على ﴿أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ﴾، وأما على القراءة بالكسر على الاستئناف: فيكون إخبارًا من الله، أو من جملة كلام الجن، فيَبطل ما قاله.

﴿كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ اللِّبَد: الجماعات، واحدها لِبْدَة.

والضمير في ﴿كَادُوا۟﴾ يحتمل:

أن يكون للكفار من الناس، أي: كادوا يجتمعون على الردِّ عليه وإبطال أمره.

---

(١) في هامش د: «خ: وتكريمًا».

(٢) الكشاف (١٦/ ٦٤).

أو يكون للجن الذين استمعوا، أي: كادوا يجتمعون عليه لاستماع القرآن، والتبرُّك به.

* * *

[﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾].

﴿مُلْتَحَدًا﴾ أي: ملجأ.

﴿إِلَّا بَلَٰغًا﴾ بدل من ﴿مُلْتَحَدًا﴾؛ أي: لا أجد ملجئًا[1] إلا بلاغ الرسالة.

أو بدل من ﴿ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾: أي: لا أملك شيئًا إلا بلاغ الرسالة.

ويحتمل أن يكون استثناء منقطعًا.

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾ قال الزمخشري: هذا الجار والمجرور ليس بصلةٍ لبلاغٍ، إنما هو بمعنى: بلاغًا كائنًا من الله[2].

ويحتمل عندي: أن يكون متعلقًا بـ ﴿بَلَٰغًا﴾، والمعنى: بلاغ عن الله.

﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ قال الزمخشري: إنه معطوف على ﴿بَلَٰغًا﴾، كأنه قال: إلا التبليغ والرسالة[3].

---

(١) في ب، هـ: «منجى».
(٢) الكشاف (١٦/ ٧٠).
(٣) الكشاف (١٦/ ٧٠).

ويحتمل أن يكون ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ معطوفًا على اسم الله.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ جمع ﴿خَٰلِدِينَ﴾ على معنى ﴿وَمَن يَعْصِ﴾؛ لأنه في معنى الجمع.

والآية في الكفار، وحملها المعتزلة على عصاة المؤمنين؛ لأن مذهبهم خلودُهم في النار.

والدليل على أنها في الكفار وجهان:

أحدهما: أنها مكية، والسور المكية إنما الكلام فيها مع الكفار.

والآخر: دلالة ما قبلها وما بعدها على أن المراد بها الكفار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ تعلَّقت ﴿حَتَّىٰٓ﴾ بقوله: ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ وجُعلت غاية لذلك.

والمعنى: أنهم يَكْفرون ويتظاهرون عليه حتى إذا رأوا ما يوعدون، قال ذلك الزمخشري، وقال أيضًا: يجوز أن يتعلق بمحذوفٍ يدل عليه المعنى، كأنه قيل: لا يزالون على ما هم عليه من الكفر حتى إذا رأوا ما يوعدون[1]، وهذا أظهر.

﴿قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ ﴿إِنْ﴾ هنا نافية، والمعنى: قل: لا أدري أقريب ما توعدون أم بعيد، وعبَّر عن بُعده بقوله: ﴿أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا﴾.

ويعني بـ ﴿مَّا تُوعَدُونَ﴾: قتْلَهم ببدر، أو يوم القيامة.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٧١).

﴿فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ أي: لا يُطلع على علم الغيب أحدًا إلا من ارتضى، وهم الرسل؛ فإنه يطلعهم على ما شاء من ذلك.

و﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ﴾ لبيان الجنس، لا للتبعيض.

والرسول هنا يَحتمل أن يراد به:

الرسل من الملائكة، وعلى هذا حملها ابن عطية[١].

أو الرسل من بني آدم، وعلى هذا حملها الزمخشري[٢]، واستَدل بها على نفي كرامات الأولياء الذين يدَّعون المكاشَفة بالغيوب؛ فإن الله خص الاطلاع على الغيب بالرسل دون غيرهم.

وفيها أيضًا دليل على إبطال الكِهانة والتنجيم وسائر الوجوه التي يدعِي أهلُها الاطلاع على الغيب؛ لأنهم ليسوا من الرسل.

﴿فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ المعنى: أن الله يسلك من بين يدي الرسول ومن خلفه ملائكة يكونون رصَدًا يحفظونه من الشياطين[٣].

وقد ذكرنا ﴿رَصَدًا﴾ في هذه السورة.

قال بعضهم: ما بعث الله رسولًا إلا ومعه ملائكة يحرسونه حتى يبلغ رسالة[٤] ربه.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٣٨).

(٢) الكشاف (١٦/ ٧٣).

(٣) في أ، ب، ج: «الشيطان».

(٤) في ج: «رسالات».

﴿لِيَعۡلَمَ أَن قَدۡ أَبۡلَغُواْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ في الفاعل بـ ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾ ثلاثة أقوال:

الأول: أي: ليعلم اللهُ أن الرسل قد أبلغوا رسالات ربهم، أي: يعلمه موجودًا، وقد كان علم ذلك قبل كونه.

الثاني: ليعلم محمدٌ أن الملائكة الرصَد قد أبلغوا رسالات ربهم.

الثالث: ليعلم من كفر أن الرسل قد أبلغوا الرسالة.

والأول أظهر.

وجَمَعَ الضمير في ﴿أَبۡلَغُواْ﴾ وفي ﴿رَبِّهِمۡ﴾ حملًا على المعنى؛ لأن ﴿مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ﴾ يراد به جماعة.

﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ أي: أحاط الله بما عند الرسل من العلوم والشرائع.

وهذه الجملة معطوفة على قوله: ﴿لِّيَعۡلَمَ﴾؛ لأن معناه أنه قد علم، قال ذلك ابن عطية[١].

ويحتمل أن تكون هذه الجملة في موضع الحال.

﴿وَأَحۡصَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ عَدَدَۢا﴾ هذا عمومٌ في جميع الأشياء.

و﴿عَدَدَۢا﴾ منصوب:

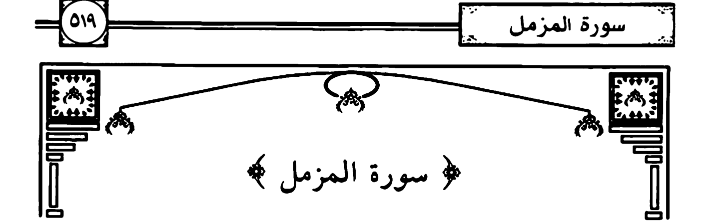
على الحال.

أو تمييز.

أو مصدر من معنى ﴿أَحۡصَىٰ﴾.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٣٨).



﴿ سورة المزمل ﴾

[﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ② نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ③ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ④ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ⑤ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ⑥ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ⑦ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ⑧ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ⑨ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ⑩ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ⑪ إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ⑫ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ⑬ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ⑭ إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ⑮ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ⑯ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ⑰ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ⑱ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ⑲ ﴾].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ① ﴾ نداء للنبي ﷺ.

ووزن ﴿ ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ مُتفَعِّل فأصله: مُتَزَمِّل، ثم سكنت التاء وأدغمت في الزاي.

وفي تسمية النبي ﷺ بالمزمل ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه كان في وقت نزول الآية متزمِّلًا في كساء أو لحاف، والتزمُّل: الالتفاف في الثياب بضم وتشمير، هذا قول عائشة والجمهور.

الثاني: أنه كان قد تزمل في ثيابه للصلاة.

الثالث: أن معناه المتزمل للنبوَّة، أي: المشمِّر، المُجِدُّ في أمرها.

والأول هو الصحيح؛ لما ورد في البخاري ومسلم: «أن رسول الله ﷺ لما جاءه الملك وهو في غار حراء في ابتداء الوحي رجع ﷺ إلى خديجة ترعد فرائصه، فقال: زملوني زملوني»، فنزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[١]، وعلى هذا نزلت ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾، فالتزمُّل[٢] على هذا: تزمله من أجل الرعب الذي أصابه أولَ ما جاء جبريل.

وقال الزمخشري: كان نائمًا في قطيفة فنودي ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ①﴾؛ ليُهَجِّنَ[٣] إليه الحالةَ التي كان عليها من التزمُّل في القطيفة؛ لأنه سبب للنوم الثقيل المانع من قيام الليل[٤]. وهذا القول بعيد غير سديد.

وقال السهيلي: في ندائه بالمزمل فائدتان:

إحداهما: الملاطفة، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطَب نادوه باسم مشتق من حالته التي هو عليها، كقول النبي ﷺ لعلي: «قم أبا تراب»[٥].

والفائدة الأخرى: التنبيه لكل متزمل راقد بالليل؛ ليتنبَّه إلى ذكر الله؛

---

(١) أخرجه البخاري (٤)، ومسلم (١٦١).

(٢) في ب، هـ: «فالمتزمل».

(٣) أي: يقبِّح، والتهجين: التقبيح. القاموس المحيط (هـ ج ن).

(٤) الكشاف (١٦/ ٧٧).

(٥) أخرجه البخاري (٤٤١)، ومسلم (٢٤٠٩).

لأن الاسم المشتق من الفعل يشترك فيه المخاطب وكل من اتصف بتلك الصفة[١].

﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ هذا الأمر بقيام الليل اختلف هل هو واجب أو مندوب؟

فعلى القول بالندب: هو ثابت غير منسوخ.

وأما على القول بالوجوب: ففيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه فرض على النبي ﷺ وحده، ولم يزل فرضًا عليه حتى توفي.

الثاني: أنه فرض عليه وعلى أمته، فقاموا حتى انتفخت أقدامهم، ثم نُسخ بقوله في آخر السورة: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ الآيةَ، وصار تطوعًا، هذا قول عائشة رضي الله عنها وهو الصحيح.

واختلف كم بقي فرضًا؟

فقالت عائشة: عامًا.

وقيل: ثمانية أشهر.

وقيل: عشرة أعوام، فالآية الناسخة على هذا مدنية.

الثالث: أنه فرض عليه ﷺ وعلى أمته، وهو ثابت غير منسوخ، ولكن ليس الليل كله، إلا ما تيسر منه، وهو مذهب الحسن وابن سيرين.

﴿إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ في معنى هذا الكلام أربعة أقوال:

الأول - وهو الأشهر والأظهر -: أن الاستثناء من الليل، وقوله: ﴿نِّصْفَهُۥٓ﴾

---

(١) التعريف والإعلام للسهيلي (ص: ٣٥٥-٣٥٦).

بدل من ﴿ٱلَّيۡلَ﴾، أو من: «قليلٍ»، وجعل النصف قليلًا بالنسبة إلى الجميع.

والضميران في: ﴿ٱنقُصۡ مِنۡهُ﴾، و﴿زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ عائدان على النصف.

والمعنى: أن الله خيَّره بين ثلاثة أحوال، وهي: أن يقوم نصف الليل، أو يَنقص من النصف قليلًا، أو يزيد[١] عليه.

القول الثاني: قال الزمخشري: ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ استثناء من النصف، كأنه قال: «نصف الليل إلا قليلًا»[٢].

فخيَّره على هذا بين حالتين، وهما: أن يقوم أقل من النصف أو أكثر منه، وهذا ضعيف؛ لأن قوله: ﴿أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ قد تضمن معنى النقص من النصف؛ فلا فائدة زائدة في استثناء القليل من النصف.

القول الثالث: قال الزمخشري أيضًا: يجوز أن يريد بقوله: ﴿ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا﴾ نصف النصف، وهو الربع، ويكون الضمير في قوله: ﴿أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ يعود على ذلك؛ أي: زد على الربع فيكون ثلثًا[٣].

فالتخيير على هذا: بين قيام النصف أو الثلث أو الربع، وهذا أيضًا بعيد.

القول الرابع: قال ابن عطية: يحتمل أن يكون معنى ﴿إِلَّا قَلِيلٗا﴾ الليالي التي يمنعه العذر من القيام فيها، والمراد بـ ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ على هذا: الليالي، فهو جنس[٤]، وهذا بعيد؛ لأنه قد فسر هذا القليل المستثنى بما

---

(١) في أ، ج، هـ: «يزاد».

(٢) الكشاف (١٦/ ٨٣).

(٣) الكشاف (١٦/ ٨٧).

(٤) المحرر الوجيز (٨/ ٤٤١).

بعد ذلك من نصف الليل أو النقص منه أو الزيادة عليه، فدلَّ ذلك على أن المراد بالليل المستثنى بعضُ أجزاء الليل، لا بعض الليالي.

فإن قيل: لم قيَّد النقص من النصف بالقلة فقال: ﴿أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ وأطلق في الزيادة فقال: ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ ولم يقل «قليلًا»؟

فالجواب: أن الزيادة تحسُن فيها الكثرة؛ فلذلك لم يقيدها بالقلة، بخلاف النقص، فإنه لو أطلقه لاحتمل أن ينقص من النصف كثيرٌ.

﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ الترتيل: هو التمهل والمد وإشباع الحركات وبيان الحروف، وذلك مُعينٌ على التفكر في معاني القرآن، بخلاف الهذِّ الذي لا يَفقه صاحبُه ما يقول، وكان رسول الله ﷺ يُقَطِّع قراءته حرفًا حرفًا، ولا يمرُّ بآية رحمة إلا وقف وسأل، ولا يمرُّ بآية عذاب، إلا وقف وتعوَّذ[1].

﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ هذه الآية اعتراض بين آيات قيام الليل.

والقول الثقيل: هو القرآن، واختلف في وصفه بالثِّقَل على خمسة أقوال:

أحدها: أنه سمي ثقيلًا؛ لِمَا كان النبي ﷺ يلقاه من الشدة عند نزول الوحي عليه، حتى إن جبينه ليتفصَّد[2] عرَقًا في اليوم الشديد البرد، وقد كان يثقل جسمه ﷺ بذلك حتى إنه إذا أُوحي إليه وهو على ناقته برَكت به، وأوحي إليه وفَخِذه على فخذ زيد بن ثابت فكادت أن تُرَضَّ فَخِذُ زيد، والثقل على هذا: حقيقة.

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٤٠)، وأبو داود (٨٧١)، والنسائي في الكبرى (١/ ٣٦١)، وابن ماجه (١٣٥١).

(٢) في ب، ج، هـ: «يتفصد».

الثاني: أنه ثقيل على الكفار بإعجازه ووعيده.

الثالث: أن ثقيل في الميزان.

الرابع: أنه كلام له وزنٌ ورجحان.

الخامس: أنه ثقيل لما تضمَّن من التكاليف والأوامر والنواهي، وهذا اختيار ابن عطية[١]، وعلى هذا يناسب الاعتراضُ بهذه الآية قيامَ الليل؛ لمشقته.

﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ في الناشئة سبعة أقوال:

الأول: أنه النفس الناشئة بالليل؛ أي: التي تنشأ[٢] من مَضجعها وتقوم للصلاة.

الثاني: الجماعة الناشئة الذين يقومون للصلاة.

الثالث: العبادة الناشئة بالليل؛ أي: تحدث فيه.

الرابع: الناشئة: القيام بعد النوم، فمن قام أول الليل قبل أن ينام فلم يقم ناشئةً[٣].

الخامس: الناشئة القيام أول الليل بعد العشاء.

السادس: الناشئة بين المغرب والعشاء.

السابع: ناشئة الليل: ساعاته كلها.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٤٢).

(٢) في أ، هـ: «تنشوا»!.

(٣) في ب: «ناشئة الليل»، وفي د: «ناشئًا».

﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا﴾ يَحتمل معنيين:

أحدهما: أثقل وأصعب على المصلي، ومنه قول النبي ﷺ: «**اللهم أشدد وطأتك على مضر**»[1]، والأثقل أعظم أجرًا، **فالمعنى**: تحريض على قيام الليل؛ لكثرة الأجر.

الثاني: أشدُّ ثبوتًا؛ من أجل الخلوة وحضور الذهن والبعد عن الناس، ويقرب هذا من معنى ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾.

وقرئ ﴿وِطَاءً﴾ بكسر الواو على وزن فِعَال، ومعناه: موافقةً؛ أي: يوافق القلبُ اللسانَ بحضور[2] الذهن.

﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ السبح هنا: عبارة عن التصرف في الأشغال.

والمعنى: يكفيك النهار للتصرف في أشغالك، وتفرَّغْ بالليل لعبادة ربك.

وقيل: **المعنى**: إن فاتك شيء من صلاة الليل فأدِّه بالنهار؛ فإنه طويل يسع فيه ذلك.

﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ﴾ **قيل**: معناه قل: «بسم الله الرحمن الرحيم» في أول صلاتك.

واللفظ أعم من ذلك.

﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ أي: انقطع إليه بالعبادة والتوكل عليه وحده.

وقيل: التبتل: رفض الدنيا.

---

(١) أخرجه البخاري (٨٠٤)، ومسلم (٦٧٥).

(٢) في د: «لحضور».

و﴿تَبۡتِيلٗا﴾ مصدرٌ على غير الصَّدْر[١].

﴿فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ الوكيل: هو القائم بالأمور، والذي توكل إليه الأشياء، فهو أمرٌ بالتوكل على الله.

﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: على ما يقول الكفار، والآية منسوخة بالسيف.

وقيل: إنما المنسوخ المهادنة التي يقتضيها قوله تعالى: ﴿وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا﴾، وأما الصبر فمأمور به في كل وقت.

﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ هذا تهديد لهم، وانتصب ﴿ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ على أنه مفعول معه، أو معطوف.

﴿أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ أي: التنعُّم في الدنيا.

وروي أن الآية نزلت في بني المغيرة، وهم قوم من قريش كانوا متنعمين في الدنيا.

﴿أَنكَالٗا﴾ جمع نِكْلٍ، وهو القيد من الحديد.

ويروى أنها قيود سود من نار.

﴿وَطَعَامٗا ذَا غُصَّةٖ﴾ يعني: شجرة الزقوم، ومعنى ﴿ذَا غُصَّةٖ﴾: يَغَصُّ به؛ أي: يَختنق.

وقيل: هو شوك من نار يعترض في حلوقهم[٢] لا ينزل ولا يخرج.

---

(١) انظر التعليق في ١/٥٣٣.

(٢) في د: «حلقومهم».

وروي أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية فصُعق[(١)].

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: تهتزُّ وتزلزل.

والعامل في ﴿يَوْمَ﴾: معنى الكلام المتقدم، وهو ﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا﴾.

﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا﴾ الكثيب: كُدْسُ الرمل، والمهيل: اللين الرِّخو الذي تَهِيلُه[(٢)] الريح أي: تنشره[(٣)]، وزنه مفعول.

والمعنى: أن الجبال تصير إذا نسفت يوم القيامة مثل الكثيب.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ خطاب لجميع الناس؛ لأن رسول الله ﷺ بعث إلى الناس كافة.

وقال الزمخشري: هو خطاب لأهل مكة[(٤)].

﴿شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي: يشهد على أعمالكم من الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية.

وإنما يشهد على من أدركه؛ لقوله ﷺ: «أقول كما قال أخي عيسى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ [المائدة: ١١٧]»[(٥)].

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني: موسى عليه السلام، وهو المراد بقوله: ﴿فَعَصَىٰ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٣٨٥).

(٢) في أ، هـ: «تثيره»، في ب، ج: «تنشره».

(٣) قوله «أي: تنشره» لم ترد في أ، ب، ج، هـ.

(٤) الكشاف (١٦/ ١٠٠).

(٥) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).

فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ﴾ فاللام للعهد.

﴿أَخْذًا وَبِيلًا﴾ أي: غليظًا شديدًا.

﴿يَوْمًا﴾ مفعول به، وناصبه: ﴿تَتَّقُونَ﴾ أي: كيف تتقون يوم القيامة وأهواله إن كفرتم.

وقيل: هو مفعول به[1]، على أن يكون ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بمعنى: جحدتم.

وقيل: هو ظرف؛ أي: كيف لكم بالتقوى يوم القيامة.

ويحتمل أن يكون العامل فيه محذوف تقديره: اذكر، أو قوله: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾.

﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ ﴿ٱلْوِلْدَٰنَ﴾ جمع وليد، وهو الطفل الصغير.

والشِّيب - بكسر الشين -: جمع أَشيب، ووزنه فُعْل بضم الفاء، وكسرت لأجل الياء.

و﴿يَجْعَلُ﴾ يحتمل أن يكون مسندًا:

إلى الله تعالى.

أو إلى اليوم.

والمعنى: أن الأطفال يَشيبون يوم القيامة:

فقيل: إن ذلك حقيقة.

وقيل: إنه عبارة عن هول ذلك اليوم.

---

(١) أي: مفعول بـ ﴿كَفَرْتُمْ﴾. الكشاف (١٦/ ١٠٠).

وقيل: إنه عبارة عن طوله.

﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ الانفطار: الانشقاق.

والضمير المجرور يعود على اليوم؛ أي: تتفطر[١] السماء بشدة هوله.

ويحتمل أن يعود على الله؛ أي: تتفطر[٢] بأمره وقدرته.

والأول أظهر.

و﴿ٱلسَّمَآءُ﴾ مؤنثة، وجاء ﴿مُنفَطِرٌ﴾ بالتذكير:

لأن تأنيثها غير حقيقي.

أو على الإضافة، تقديره: ذات انفطار.

أو لأنه أراد السقف.

﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ الضمير في ﴿وَعْدُهُۥ﴾ يحتمل أن يعود:

على اليوم.

أو على الله.

والأول أظهر؛ لأنه ملفوظ به.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ الإشارة إلى ما تقدم من المواعظ والوعيد.

﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ يريد: سبيل التقرب إلى الله.

ومعنى الكلام: حضٌّ على ذلك وترغيب فيه.

---

(١) في د، هـ: «تنفطر».

(٢) في د، هـ: «تنفطر».

[﴿ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾ ﴾].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾ هذه الآية نزلت ناسخة لما أُمر به في أول السورة من قيام الليل.

ومعناها: إن الله يعلم أنك ومن معك من المسلمين تقومون قيامًا مختلفًا، مرة يكثر ومرة يقل؛ لأنكم لا تقدرون على إحصاء أوقات الليل وضبطها، فإنه لا يقدر على ذلك إلا الله، فخفف عنكم وأمركم أن تقرؤوا ما تيسر من القرآن.

﴿وَنِصْفِهِ وَثُلُثِهِ﴾ من قرأهما بالخفض: فهو عطف على ﴿ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾؛ أي: تقوم أقل من ثلثي الليل وأقل من نصفه ومن ثلثه.

ومن قرأ بالنصب: فهو عطف على ﴿أَدْنَىٰ﴾؛ أي: تقوم أدنى من ثلثي الليل وتقوم نصفَه تارة وثلثه تارة.

﴿وَطَآئِفَةٌ﴾ يعني: المسلمين، وهو معطوف على الضمير الفاعل في ﴿تَقُومُ﴾.

﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ الضمير يعود على ما يفهم من سياق الكلام؛ أي: لن تحصوا تقدير الليل.

وقيل: معناه: لن تطيقوه؛ أي: لن تطيقوا قيام الليل كله.

﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ عبارة عن التخفيف، كقوله: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المجادلة: ١٣].

﴿فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْءَانِ﴾ أي: إذا لم تقدروا على قيام الليل كله، فقوموا بعضه، واقرؤوا في صلاتكم بالليل ما تيسر من القرآن، وهذا الأمر للندب.

وقال ابن عطية: هو للإباحة عند الجمهور[١].

وقال قوم - منهم الحسن وابن سيرين -: هو فرض لا بدَّ منه ولو أقل ما يمكن، حتى قال بعضهم: من صلى الوتر فقد امتثل هذا الأمر.

وقيل: كان فرضًا ثم نسخ بالصلوات الخمس.

وقال بعضهم: هو فرض على أهل القرآن دون غيرهم.

﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ ذكر الله في هذه الآية الأعذار التي[٢] لبني آدم تمنعهم من قيام الليل، فمنها: المرض، ومنها: السفر للتجارة وهي الضرب في الأرض ابتغاء فضل الله، ومنها: الجهاد.

ثم كرر الأمر بقراءة ما تيسر:

تأكيدًا للأمر به.

أو تأكيدًا للتخفيف، وهذا أظهر؛ لأنه ذكره بإثْرِ الأعذار.

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ﴾ يعني: المكتوبتين.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٤٧).

(٢) في د زيادة: «تكون».

﴿وَأَقْرِضُوا اللَّهَ﴾ معناه تصدقوا، وقد ذكر في «البقرة»[١].

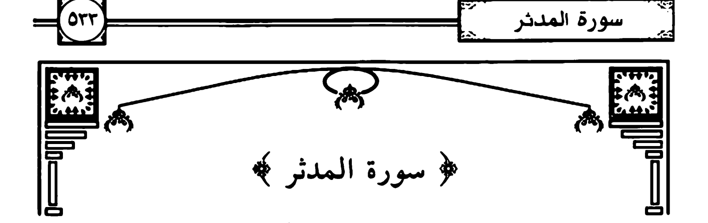
﴿هُوَ خَيْرًا﴾ نصب ﴿خَيْرًا﴾؛ لأنه مفعول ثان لـ ﴿تَجِدُوهُ﴾، والضمير فصْلٌ.

﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ قال بعض العلماء: إن الاستغفار بعد الصلاة مستنبط من هذه الآية، وكان رسول الله ﷺ إذا سلم من صلاته استغفر ثلاثًا[٢].

---

(١) انظر (١/ ٤٦٧).

(٢) أخرجه مسلم (٥٩١).



﴿ سورة المدثر ﴾

[﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ۝١٤ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ۝١٥ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ۝١٦ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ۝١٧ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ۝٢٥ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧ لَا تُبْقِى وَلَا تَذَرُ ۝٢٨ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾] .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾ وزنه: مُتَفَعِّل، ومعناه: الذي تدثَّر في كساء أو ثياب. وتسميته بذلك كتسميته بالمزمل حسَبما ذكرنا في موضعه[1].

وقال السهيلي: في ندائه بـ ﴿ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ ثلاث فوائد: الاثنتان اللتان ذكرتا

---

(١) انظر صفحة ٥١٩.

في «المزمل»، وفائدة ثالثة؛ وهي: أن العرب يقولون: «النذير العُريان»، للنذير الذي يكون في غاية الجِد والتشمير، والنذير[١] بالثياب ضد هذا، فكأنه تنبيهٌ على ما يجب من التشمير[٢].

وقيل: إن هذه أول سورة نزلت من القرآن.

والصحيح أن سورة «اقرأ» نزلت قبلها.

﴿قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ أي: أنذر الناس، وهذه بِعثة عامة.

﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ أي: عظِّمه.

ويحتمل أن يريد قول: «الله أكبر»، ويؤيد ذلك: ما روي عن أبي هريرة: أن المسلمين قالوا: بم نفتتح صلاتنا؟ فنزلت: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾[٣].

وقول: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ من المقلوب الذي يقرأ من أوله وآخره.

﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه حقيقة في تطهير الثياب من النجاسة.

واختلف على هذا: هل يحمل على الوجوب؛ فتكون إزالة النجاسة واجبة؟، أو على الندب؛ فتكون سنة؟

والآخر: أنه يراد به: الطهارة من الذنوب والعيوب، فالثياب على هذا: مجاز.

---

(١) في ب: «التدثر»، وفي ج: «والمدثر»

(٢) التعريف والإعلام للسهيلي (ص: ٣٥٧-٣٥٨).

(٣) ذكره ابن عطية في تفسيره (٨/ ٤٥١) ولم أقف على إسناد له.

الثالث: أن معناه: لا تلبس الثياب من مكسب خبيث.

﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الرجز: الأوثان، روي ذلك عن رسول الله ﷺ[1]، وهو قول عائشة.

والآخر: أن الرِجز: السُّخْط والعذاب، وهذا أصله في اللغة، فمعناه: اهجر ما يؤدي إليه ويوجبه.

الثالث: أنه المعاصي والفجور، قال بعضهم: كل معصية رِجز.

﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦﴾ يحتمل قوله: ﴿تَمْنُن﴾ أن يكون:

من معنى العطاء.

أو معنى المنّ، وهو ذكر العطاء وشبهه.

أو معنى الضعف.

فإن كان من العطاء: ففيه وجهان:

أحدهما: أن معناه: لا تعط شيئًا لتأخذ أكثر منه، قال بعضهم: هذا خاص بالنبي ﷺ ومباح لأمَّته.

والآخر: لا تعط الناس عطاء وتستكثره؛ فإن الكريم يستقلُّ ما يُعطي وإنْ كان كثيرًا.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٥)، ومسلم (١٦١) من حديث جابر، وفي بعض طرقه «قال أبو سلمة: والرجز: الأوثان»، فيكون هذا من تفسير أبي سلمة وليس من تفسير النبي ﷺ.

وإن كان من المنِّ بالشيء: ففيه وجهان:

الأول: لا تمنن على الناس بنبوتك تستكثر بأجر أو مكسب تطلبه.

الثاني: لا تمنن على الله بعملك تستكثر أعمالك ويقع لك بها إعجاب.

وإن كان من الضعف: فمعناه لا تضعف عن تبليغ الرسالة وتستكثر ما حمَّلناك من ذلك.

﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ۝٧﴾ أي: اصبر لوجهه وطلب رضاه.

ويحتمل أن يريد الصبر:

على المكاره والمصائب.

أو على إذاية الكفار له.

أو على العبادة.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ يعني: نُفخ في الصور.

ويحتمل أن يريد: النفخة الأولى، أو الثانية.

﴿ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ۝١١﴾ هذا وعيد وتهديد.

ونزلت الآية في الوليد بن المغيرة باتفاق.

وفي معنى ﴿وَحِيدٗا﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: روي أنه كان يلقَّب الوحيد؛ أي: لا نظير له في ماله وشرفه، فكونه وحيدًا نعمةٌ عدَّدها الله عليه.

الثاني: أن معناه: خلقته منفردًا ذليلًا.

الثالث: أن معناه: خلقته وحدي، فـ ﴿وَحِيدًا﴾ على هذا من صفة الله تعالى، وإعرابه على هذا: حال من الضمير الفاعل في قوله: ﴿خَلَقْتُ﴾.

وهو على القولين الأولين: حال من الضمير المفعول.

﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾﴾ أي: كثيرًا، واختلف في مقداره؛ **فقيل**: ألف دينار، **وقيل**: عشرة آلاف.

وقيل: يعني: الأرض؛ لأنها مُدَّت.

﴿وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾﴾ أي: حضورًا، وروي أنه كان له عشرة من الأولاد[1] - وقيل: ثلاثة عشر - لا يفارقونه.

وأسلم منهم ثلاثة، وهم: خالد، وهشام، وعِمَارة.

﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾﴾ أي: بسطت له في الدنيا بالمال والعزة وطيب العيش.

﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾﴾ أي: يطمع في الزيادة على ما أعطاه الله، وهذه غاية الحرص.

﴿كَلَّآ﴾ زجرٌ عما طمع فيه من الزيادة.

﴿عَنِيدًا﴾ أي: معاندًا مخالفًا.

والآيات هنا: يراد بها القرآن؛ لأن الوليد قال فيه: إنه سحر.

ويحتمل أن يريد الدلائل.

---

(١) في ب، د، هـ: «الولد».

﴿سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ الصعود: العقبة الصعبة، روي عن النبي ﷺ أنها عقبة في جهنم، كلما صعِدها الإنسان ذاب ثم يعود[1].

فالمعنى: سأشق عليه بتكليفه الصُّعود فيها.

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾﴾ أي: ﴿فَكَّرَ﴾ فيما يقول، ﴿وَقَدَّرَ﴾ في نفسه ما يقول في القرآن؛ أي: هيَّأ كلامه.

روي أن الوليد سمع القرآن فأعجبه وكاد يسلم، ودخل إلى أبي بكر الصديق، فعاتبه أبو جهل، وقال له: إن قريشًا قد أبغضتك لمقاربتك أمر محمد، وما يخلِّصك عندهم إلا أن تقول في كلام محمد قولًا يرضيهم، فافتُتِن وقال: أفعلُ ذلك، ثم فكر فيما يقول في القرآن فقال: أقول شعر؟ ما هو شعر، أقول كاهن؟ ما هو بكاهن، أقول: إنه سحر وإنه قول البشر؛ أي: ليس منزلًا من عند الله.

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾﴾ دعاءٌ عليه وذم، وكرره تأكيدًا لذمه وتقبيحِ حاله.

قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون مقتضاه: استحسان منزعه الأول حين أعجبه القرآن، فيكون قوله: ﴿قُتِلَ﴾ لا يراد به الدعاء عليه، وإنما هو كقولهم: «قاتل الله فلانًا ما أشجعه!»، يريدون التعجب من حاله واستعظامَ وصفه[2].

وقال الزمخشري: يحتمل أن يكون ثناءً عليه على طريقة الاستهزاء،

---

(١) أخرجه البيهقي في كتاب البعث والنشور (ص: ٢٨١).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٤٥٧).

أو حكايةً لقول قريش؛ تهكُّمًا بهم[١].

﴿ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾﴾ أي: نظر في قوله، وقدَّر ما يقول.

﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾﴾ البُسور: هو تقطيب الوجه، وهو أشد من العبوس.

وفعَل ذلك من حسده للنبي ﷺ، أو عبس في وجهه ﷺ، أو عبس لما ضاقت عليه الحيل ولم يدر ما يقول.

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ أي: أعرض عن الإسلام.

﴿سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ أي: يُنقل عمن تقدم.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾﴾ تعظيمٌ لها وتهويل.

﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾﴾ مبالغة في وصف عذابها؛ أي: لا تدع غاية من العذاب إلا أذاقته إياه.

أو[٢] لا تبقي شيئًا ألقي فيها إلا أهلكته، وإذا أُهلك[٣] لم تذره هالكًا بل يعود إلى العذاب.

﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ معنى ﴿لَوَّاحَةٌ﴾: مغيِّرة، يقال: لاحَه السفرُ وغيْرُه: إذا غيَّره.

والبَشَر: جمع بَشَرة، وهي الجلدة.

فالمعنى: أنها تحرق الجلود وتسوِّدها.

---

(١) الكشاف (١٦/ ١٢٥).

(٢) في ب، ج، د، هـ: «و».

(٣) في ب: «أهلكته».

وقيل: ﴿لَوَّاحَةٌ﴾: مِن لاح: إذا ظهر، والبشَر: الناس؛ أي: تلوح للناس.

وقال الحسن: تلوح لهم من مسيرة خمس مئة عام.

﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ يعني: الزبانية خزَنة جهنم:

فقيل: هم تسعة عشرة ملكًا.

وقيل: تسعة عشر صفًا.

وقيل: تسعة عشر صنفًا من الملائكة.

والأول أشهر.

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ سبب هذه الآية: أنه لما نزل ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ قال أبو جهل لقريش: أيعجِز عشرة منكم عن واحد من هؤلاء التسعة عشر أن يبطشوا به؟ فنزلت الآية.

ومعناها: أنهم ملائكة لا طاقة لكم بهم.

وروي: أن الواحد منهم يرمي بالجبل على الكفار.

﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: جعلناهم هذا العدد ليفتتن الكفار بذلك ويطمعوا أن يغلبوهم، ويقولوا ما قالوا.

﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي: يعلم أهل التوراة والإنجيل أن ما أخبر به محمد ﷺ من عدد ملائكة النار حق؛ لأنه موافق لما في كتبهم.

﴿وَلَا يَرْتَابَ﴾ أي: لا يشك ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أن ما قاله محمد ﷺ حق.

فإن قيل: كيف نفَى عنهم الشك بعد أن وصفهم باليقين والمعنى واحد، وهو تكرار؟

فالجواب: أنه لما وصفهم باليقين نفى عنهم أن يشكوا فيما يُستقبل بعد يقينهم الحاصل الآن، فكأنه وصفهم باليقين في الحال والاستقبال.

وقال الزمخشري: ذلك مبالغة وتأكيد[١].

﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ المرض: عبارة عن الشك، وأكثر ما يطلق ﴿ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ على المنافقين.

فإن قيل: هذه السورة مكية ولم يكن حينئذ منافقون وإنما حدث المنافقون بالمدينة؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن معناه: يقول المنافقون إذا حدثوا، ففيه إخبار بالغيب.

والآخر: أن يريد: مَن كان بمكة من أهل الشك.

وقولهم: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ استبعادٌ لأن يكون هذا من عند الله.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ يَحتمل القصد بهذا وجهين:

أحدهما: وصف جنود الله بالكثرة؛ أي: هم من كثرتهم لا يعلمهم إلا الله.

والآخر: رفع اعتراض الكفار على التسعة عشر؛ أي: لا يعلم أعداد

---

(١) الكشاف (١٦/ ١٣٥-١٣٦).

جنود الله إلا هو؛ لأن منهم عددًا قليلًا ومنهم عددًا كثيرًا حسَبما أراد الله.

﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ الضمير:

لجهنم.

أو للآيات المتقدمة.

* * *

[﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾].

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للكفار عن كفرهم.

وقال الزمخشري: هي إنكار لأن يكون لهم ذكرى[1].

﴿إِذْ أَدْبَرَ﴾ أي: ولَّى.

وقرئ ﴿دَبَرَ﴾ بغير ألف، والمعنى واحد.

وقيل: معناه: دبَر الليلُ النهارَ؛ أي: جاء في دبره.

﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾﴾ أي: أضاء، ومنه الإسفار بصلاة الصبح.

﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾﴾ الضمير:

لجهنم.

أو للآيات والنذارة؛ أي: هي من الأمور العظام.

---

(١) الكشاف (١٦/ ١٣٨).

و﴿ٱلْكُبَرِ﴾ جمع كُبرى.

وقال ابن عطية: جمع كبيرة[١].

والأول هو الصحيح.

﴿نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾﴾ تمييزٌ.

أو حال من ﴿لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ﴾.

وقيل: النذير هنا: الله، فالعامل فيه على هذا محذوف، وهذا ضعيف.

وقيل: هو حال من أول السورة؛ أي: «قم فأنذر نذيرًا»، وهذا بعيد، قال الزمخشري: هو من بِدَع التفاسير[٢].

﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ التقدُّم: عبارة عن سلوك طريق الهدى، والتأخر ضده.

و﴿لِمَن شَآءَ﴾ بدل من البشر.

أي: هم متمكنون من التقدم أو التأخر.

وقيل: معناه الوعيد، كقوله: ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

وعلى هذا أعرب الزمخشري ﴿أَن يَتَقَدَّمَ﴾ مبتدأ و﴿لِمَن شَآءَ﴾ خبره[٣].

والأول أظهر.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٦٢).

(٢) الكشاف (١٦/ ١٤٠).

(٣) الكشاف (١٦/ ١٤٠).

﴿رَهِينَةٌ﴾ قال ابن عطية: الهاء في ﴿رَهِينَةٌ﴾ للمبالغة، أو على تأنيث النفس[١].

وقال الزمخشري: ليست بتأنيث «رهين»؛ لأن فعيلًا بمعنى مفعول يستوي فيه المذكر والمؤنث، وإنما هي بمعنى الرَّهن؛ أي: كل نفس رهْنٌ عند الله بعملها[٢].

﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾﴾ أي: أهل السعادة؛ فإنهم فكوا رقابهم بأعمالهم الصالحة، كما يفكُّ الراهن رهنه بأداء الحق.

وقال عليّ بن أبي طالب: أصحاب اليمين: هم الأطفال؛ لأنهم لا أعمال لهم يُرتهنون بها.

وقال ابن عباس: هم الملائكة.

﴿يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: يسأل بعضهم بعضًا عن حال المجرمين الذين في النار.

﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾﴾ أي: ما أدخلكم النار؟

وهذا خطاب للمجرمين، يحتمل أن خاطبهم به: المسؤولون، أو الملائكة.

فأجابوهم بقولهم: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ وما بعده، أي: هذا هو الذي أوجب دخولهم النار.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٦٤).

(٢) الكشاف (١٦/ ١٤١-١٤٢).

وإنما أخر التكذيب بيوم الدين؛ تعظيمًا له؛ لأنه أكبر جرائمهم.

﴿نَخُوضُ﴾ الخوض: هو كثرة الكلام بما لا ينبغي من الباطل وشبهه.

﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ۝٤٧﴾ هو الموت عند المفسرين.

وقال ابن عطية: إنما اليقين الذي أرادوا: ما كانوا يكذِّبون به في الدنيا، فيتيقَّنوه بعد الموت[1].

﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ۝٤٨﴾ إنما ذلك لأنهم كفار، وأجمع العلماء أنه لا يشفع أحد في الكفار.

وجمْع ﴿ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ دليلٌ على كثرتهم، كما ورد في الآثار: «**يشفع**[2] **الملائكة والأنبياء والعلماء والشهداء والصالحون**»[3].

﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝٤٩﴾ يعني: كفار قريش.

﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفَرَةٌ ۝٥٠﴾ المستنفَرة بفتح الفاء: التي استنفرها الفزَع. وبالكسر: بمعنى النافرة.

شبه الكفار بالحمير[4] النافرة في جهلهم ونفورهم عن الإسلام، ويعني: حمير الوحش.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٦٥).

(٢) في ب، د: «تشفع».

(٣) أخرجه البخاري (٧٤٣٩) ومسلم (١٨٣) بلفظ: «فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون» في حديث طويل، وأخرجه ابن ماجه (٤٣١٣) بلفظ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء».

(٤) في د: «بالحمر».

﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ۝٥١﴾ ابن عباس: القسورة: الرماة.

وقال أيضًا: هو الأسد.

وقيل: أصوات الناس.

وقيل: الرجال الشِّداد.

وقيل: سواد أول الليل.

﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ۝٥٢﴾ المعنى: يطمع كل إنسان منهم أن ينزل عليه كتابٌ من عند الله.

ومعنى ﴿مُّنَشَّرَةً﴾: منشورة غير مطوية؛ أي: طرية كما كتبت لم تُطْوَ بعد، وذلك أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لن نتبعك حتى تأتي كلَّ واحد منا بكتاب من السماء فيها[1]: «من رب العالمين إلى فلان بن فلان» نؤمر باتباعك.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عما أرادوه.

﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ أي: هذه هي العلة والسبب في إعراضهم.

﴿كَلَّا﴾ تأكيدٌ للردع الأول.

أو ردع عن عدم خوفهم للآخرة.

﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ الضمير:

لما تقدم من الكلام.

أو للقرآن بجملته.

---

(١) في ب، د: «فيه».

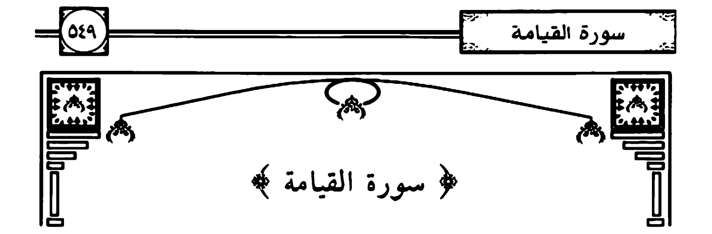
﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾﴾ فاعل ﴿شَآءَ﴾ ضمير يعود على ﴿مَن﴾، وفي ذلك حض وترغيب.

وقيل: الفاعل هو الله.

ثم قيد فعل العبد بمشيئة الله.

﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ أي: هو أهلٌ لأن يُتَّقَى؛ لشدة عقابه، وهو أهل لأن يَغفر الذنوب؛ لكرمه وسعة رحمته وفضله.

* * *



﴿ سورة القيامة ﴾

[﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَـٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۝٦ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَـٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۝٢١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ۝٢٤ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾].

﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ في الموضعين: معناه أقسم، و﴿لَآ﴾ زائدة لتأكيد القسم.

وقيل: هي استفتاح كلام بمنزلة: «ألا».

وقيل: هي نفيٌ لكلام الكفار.

﴿بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ هي التي تلوم نفسها على فعل الذنوب، أو التقصير في الطاعة؛ فإن النفوس على ثلاثة أنواع:

فخيرها: النفس المطمئنة.

وشرها: النفس الأمارة بالسوء.

وبينهما: النفس اللوامة.

وقيل: اللوامة: هي المذمومة الفاجرة، وهذا بعيد؛ لأن الله لا يقسم إلا بما يعظِّم من المخلوقات، ويستقيم إن كان ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ نفيًا للقسم.

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾﴾ الإنسان هنا: للجنس، والإشارة به إلى الكفار المنكرين للبعث.

ومعناه: أيظن أن لن نجمع عظامه للبعث بعد فنائها في التراب؟

وهذه الجملة هي التي تدل على جواب القسم المتقدم.

﴿بَلَىٰ﴾ تقديره: نجمعها.

﴿قَٰدِرِينَ﴾ منصوب على الحال من الضمير في ﴿نَّجْمَعَ﴾، والتقدير: نجمعها ونحن قادرون.

﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ البنان: الأصابع، وفي المعنى قولان:

أحدهما: أنه إخبار بالقدرة على البعث؛ أي: قادرين على أن نسوي أصابعه؛ أي: نخلقها بعد فنائها مستويةً متقَنة، وإنما خص الأصابع دون سائر الأعضاء؛ لدقة عظامها وتفرقها.

والآخر: أنه تهديد في الدنيا؛ أي: قادرين أن نجعل أصابعه مستوية ملتصقة، كيد الحمار وخف الجمل، فلا يمكنه تصريف يديه في منافعه.

والأول أليق بسياق الكلام.

﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ هذه الجملة معطوفة على ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾، ويجوز أن تكون استفهامًا مثلها، أو تكون خبرًا.

وليست ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب عن الكلام الأول بمعنى إبطاله؛ وإنما هي للخروج منه إلى ما بعده.

و﴿يَفْجُرَ﴾ معناه: يفعل أفعال الفجور.

وفي معنى ﴿أَمَامَهُ﴾ ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه عبارة عما يستقبل من الزمان، أي: يفجر بقية عمره.

الثاني: أنه عبارة عن اتباع أغراضه وشهواته، يقال: مشى فلان قُدَّامه: إذا لم يرجع عن شيء يريده.

والضمير على هذين القولين: يعود على الإنسان.

الثالث: أن الضمير يعود على يوم القيامة، والمعنى: يريد الإنسان أن يفجر قبل يوم القيامة.

﴿يَسْئَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ۝٦﴾ ﴿أَيَّانَ﴾ معناها: «متى».

وهذا السؤال عن يوم القيامة هو على وجه الاستخفاف والاستبعاد له.

﴿بَرِقَ الْبَصَرُ﴾ هذا إخبار عن يوم القيامة.

وقيل: عن حالة الموت، وهذا خطأ؛ لأن القمر لا يخسف عند موت أحد، ولا يجمع بينه وبين الشمس.

و﴿بَرَقَ﴾ بفتح الراء: معناه لمع وصار له بريق.

وقُرئ بكسر الراء، ومعناه تحيَّر من الفزع.

وقيل: معناه: شَخَصَ، فيتقارب معنى الفتح والكسر.

﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨﴾ ذهب ضوئه، يقال: خسف هو، وخسَفه الله.

والخسوف للقمر، والكسوف للشمس.

وقيل: الكسوف: ذهاب بعض الضوء، والخسوف: ذهاب جميعه.

وقيل: هما بمعنى واحد.

﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩﴾ في جمعهما ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهما يجمعان حيث يُطلعهما الله من المغرب.

والآخر: أنهما يجمعان يوم القيامة، ثم يقذف بهما في النار -وقيل: في البحر-، فتكون النار الكبرى.

الثالث: أنهما يجمعان[1] فيذهب ضوءهما.

﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ أي: لا ملجأ ولا مُغيث.

﴿بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ أي: بجميع أعماله ما قدَّم منها في أول عمره وما أخر في آخره.

وقيل: ما قدم في حياته وما أخر من سُنَّة أو وصية بعد مماته.

وقيل: ما قدم من المعاصي وأخر من الطاعات.

وقيل: ما قدم لنفسه من ماله وما أخر منه لورثته.

﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤﴾ في معناه قولان:

أحدهما: أنه شاهدٌ على نفسه بأعماله؛ إذ تشهد عليه جوارحه يوم القيامة.

---

(١) في د: «يجتمعان».

والآخر: أنه حجة بينة؛ لأن خِلْقته تدل على خالقه، فوُصف بالبِصَارة مجازًا؛ لأن من نظر فيه أبصر الحق.

والأول أليق بما قبله وما بعده، كأنه قال: ينبأ الإنسان يومئذ بأعماله، بل هو يشهد بأعماله وإن لم ينبأ بها، وكذلك يلتئم مع قوله: ﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾، ويكون هو جواب ﴿لَوْ﴾ حسبما نذكره.

﴿وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن المعاذير: الأعذار؛ أي: الإنسان يشهد على نفسه بأعماله ولو اعتذر عن قبائحها.

والآخر: أن المعاذير: الستور؛ أي أن الإنسان يشهد على نفسه يوم القيامة ولو سَدل الستور على نفسه في الدنيا حين يفعل القبائح.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾﴾ الضمير في ﴿بِهِۦ﴾ يعود على القرآن، دلت على ذلك قرينة الحال.

وسبب الآية: أن رسول الله ﷺ كان إذا نزل عليه جبريل بالقرآن يحرك به شفتيه؛ مخافة أن ينساه لحينه، فأمره الله أن يُنصت ويستمع[(١)].

وقيل: كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب عليه ذلك، وشق عليه، فنزلت الآية.

والأول هو الصحيح؛ لأنه ورد في البخاري وغيره.

---

(١) أخرجه البخاري (٥)، ومسلم (٤٤٨).

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ۝١٧﴾ ضمن الله له أن يجمعه في صدره، فلا يحتاج إلى تحريك شفتيه عند نزوله.

ويحتمل ﴿قُرْءَانَهُ﴾ هنا وجهين:

أحدهما: أن يكون بمعنى القراءة، فإن القرآن قد يكون مصدرًا مِن قرأت.

والآخر: أن يكون معناه: تأليفه في صدره، فهو مصدر من قولك: قرأت الشيء أي: جمعتُه.

﴿فَإِذَا قَرَأْنَهُ فَأَتَّبِعْ قُرْءَانَهُ ۝١٨﴾ أي: إذا قرأه جبريل، فجعل قراءة جبريل قراءة الله؛ لأنها من عنده.

ومعنى ﴿فَأَتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾ استمع قراءته واتبعها بذهنك؛ لتحفظها.

وقيل: اتبع القرآن في الأوامر والنواهي.

﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩﴾ أي: علينا أن نبينه لك ونجعلك تحفظه.

وقيل: علينا أن نبين معانيه وأحكامه.

فإن قيل: ما مناسبة قوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ﴾ الآيةَ، لما قبلها؟

فالجواب: أنه لعله نزل معه في حين واحد فجعل على ترتيب النزول.

﴿بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا، وهذا الخطاب توبيخ للكفار ومن كان على مثل حالهم في حب الدنيا.

و﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن ذلك.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ﴾ بالضاد أي: ناعمة، ومنه ﴿نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ [المطففين: ٢٤].

﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ هذا من النظر بالعين، وهو نصٌّ في نظر المؤمنين إلى الله تعالى في الآخرة، وهو مذهب أهل السنة.

وأنكره المعتزلة، وتأولوا ﴿نَاظِرَةٌ﴾ بأن معناه: منتظرة، وهذا باطل؛ لأن «نظَر» بمعنى انتظر يتعدى بغير حرف جر، تقول: نظرتك أي: انتظرتك، وأما المتعدي بـ «إلى» فهو من نظر العين، ومنه قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ﴾ [يونس: ٤٣].

وقال بعضهم: «إلى» هنا ليست بحرف جر، وإنما هي واحد «الآلاء» بمعنى النعم، وهذا تكلف في غاية البعد.

وتأوله الزمخشري: بأن معناه كقول الناس: «فلان ناظر إلى فلان» إذا كان يرتجيه ويتعلق به[1]، وهذا بعيد.

وقد جاء عن النبي ﷺ في النظر إلى الله أحاديث صحيحة مستفيضة صريحة المعنى لا تحتمل التأويل، فهي تفسير للآية.

﴿بَاسِرَةٌ﴾ أي: عابسة تظهر عليها الكآبة، والبُسور: أشد من العبوس.

﴿تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ۝٢٥﴾ أي: مصيبة قاصمة الظهر.

والظن هنا يحتمل أن يكون: على أصله، أو بمعنى اليقين.

---

(١) الكشاف (١٦/ ١٧١).

[﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾].

﴿إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ﴾ يعني: حالة الموت.

و﴿التَّرَاقِيَ﴾: جمع تَرْقُوَة، وهي عظام أعلى الصدر.

والفاعل بـ ﴿بَلَغَتِ﴾: نفس الإنسان، دل على ذلك سياق الكلام.

وهو عبارة عن حال الحشرجة وسياق الموت.

﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾﴾ أي: قال أهل المريض: مَن يَرقِيه عسى أن يشفيَه؟

وقيل: معناه: أن الملائكة تقول: من يَرقَى بروحه؛ أي: يصعد بها إلى السماء؟

فالأول: من الرُّقية، وهو أشهر وأظهر.

والثاني: من الرُّقِيّ، وهو العلوُّ.

﴿وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ أي: تيقَّن المريض أن ذلك الحال فراق الدنيا وفراق أهله وماله.

﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ﴿٢٩﴾﴾ هذه عبارة عن شدة كرب الموت وسكراته، أي: التفت ساقه على الأخرى عند السياق.

وقيل: هو مجاز، كقولك: «كشفت الحرب عن ساقها»: إذا اشتدت.

وقيل: معناه: ماتت ساقه فلا تحمله.

وقيل: التفَّت: أي: لفها الكفَن إذا كُفِّن.

وفي قوله: ﴿ٱلسَّاقُ﴾ و﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ ضرب من ضروب التجنيس.

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ هذا جواب ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾.

و﴿ٱلْمَسَاقُ﴾ مصدر من السَّوق، كقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾﴾ «لا» هنا نافية، و﴿صَدَّقَ﴾ هنا يحتمل أن يكون: من التصديق بالله ورسله.

أو من الصدقة.

ونزلت هذه الآية وما بعدها في أبي جهل.

﴿يَتَمَطَّىٰٓ﴾ أي: يتبختر في مشيه[1]، وذلك عبارة عن التكبر والخيلاء، وكانت هذه المِشْية معروفة في بني مخزوم الذين كان أبو جهل منهم.

﴿أَوْلَىٰ لَكَ﴾ وعيد وتهديد.

﴿فَأَوْلَىٰ﴾ وعيد ثان، ثم كرر ذلك تأكيدًا.

ويروى أن رسول الله ﷺ لبَّبَ[2] أبا جهل وقال له: «إن الله يقول لك: أولى لك فأولى». فنزل القرآن بموافقة ذلك[3].

---

(١) في ب: «مشيته».

(٢) أي: جمع ثيابه عند نحره في الخصومة، ثم جرَّه. القاموس المحيط (ل ب ب).

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٣/ ٥٢٥).

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ هذا توبيخ، ومعناه: أيظن أن يترك من غير بعث ولا حساب ولا جزاء، فهو كقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥].

والإنسان هنا: جنس.

وقيل: نزلت في أبي جهل.

ولا يبعد أن يكون سببها خاصًّا ومعناها عامٌّ.

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ تُمْنَىٰ﴾ النطفة: النقطة، و﴿تُمْنَىٰ﴾: من قولك: أمنى الرجل.

ومعنى الآية: الاستدلال بخِلقة الإنسان على بعثه، كقوله: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

والعلقة: الدم؛ لأن المنيَّ يصير في الرحم دمًا.

﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ أي: خلقه بشرًا فسوى صورته؛ أي: أتقنها.

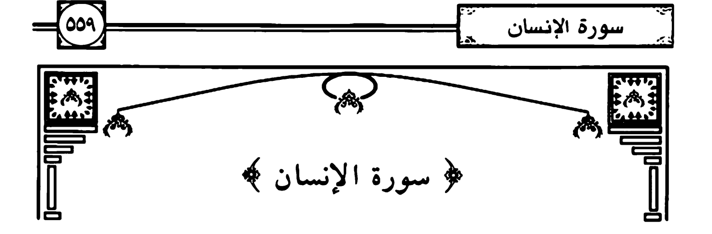
﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾ هذا تقرير واحتجاج.

وروي أن رسول الله ﷺ: «كان إذا قرأ آخر هذه السورة قال: بلى»[١]، وفي رواية: «سبحانك اللهم بلى»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٩١).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٨٤).



﴿ سورة الإنسان ﴾

[﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ۝٤ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ۝٧ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ۝١٤ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۟ ۝١٥ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ۝١٦ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ۝١٨ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ۝١٩ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ۝٢٠ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ۝٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾].

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ ﴿هَلْ﴾ هنا بمعنى التقرير، لا لمجرد الاستفهام.

وقيل: هي بمعنى «قد».

و﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ هنا: جنس، والحين الذي أتى عليه: حين كان معدومًا قبل أن يخلق.

وقيل: الإنسان هنا: آدم، والحين الذي أتى عليه: حين كان طينًا قبل أن ينفخ فيه الروح، وهذا ضعيف لوجهين:

أحدهما: قوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ وهو هنا جنس باتفاق؛ إذ لا يصح هذا في آدم.

والآخر: أن مقصد الآية تحقير الإنسان.

﴿مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ أي: أخلاط، واحدها: مَشَجٌ بفتح الميم والشين.

وقيل: مَشْجٌ بوزن: عَدْلٍ.

وقال الزمخشري: ليس ﴿أَمْشَاجٍ﴾ بجمع، وإنما هو مفرد كقولهم: «بُرْمَةٌ أعشارٌ»، ولذلك وقع صفة للمفرد.

واختلف في معنى الاختلاط هنا:

فقيل: اختلاط الدم والبلغم والصفراء والسوداء.

وقيل: اختلاط ماء الرجل والمرأة، وروي أن عظام الإنسان وعصبه من ماء الرجل، وأن لحمه وشحمه من ماء المرأة.

وقيل: معناه: ألوان وأطوار، أي: يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة.

﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ أي: نختبره، وهذه الجملة في موضع الحال، أي: خلقناه مبتلين له.

وقيل: معناه: نَصْرِفه في بطن أمه نطفة ثم علقة.

﴿فَجَعَلْنَهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ هذا معطوف على ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾.

ومَن جعل ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ بمعنى نصرفه في بطن أمه: فهذا عطف عليه.

وقيل: إن ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾ مؤخر في المعنى؛ أي: جعلناه سميعًا بصيرًا لنبتليه، وهذا تكلف بعيد.

﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي: سبيل الخير والشر، ولذلك قسم الإنسان إلى قسمين: شاكرٍ وكفورٍ، وهما حالان من الضمير في ﴿هَدَيْنَهُ﴾.

والهدى هنا: بمعنى بيان الطريقين، ومَوْهبة العقل الذي يميز به بينهما.

ويحتمل أن يكون بمعنى الإرشاد؛ أي: هدى المؤمن للإيمان والكافر للكفر، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٨][(١)].

﴿سَلَٰسِلَا﴾ من قرأه بغير تنوين: فهو الأصل؛ إذ هو لا ينصرف؛ لأنه جمعٌ لا نظير له في الآحاد.

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قول المصنف ﷺ: «ويحتمل أن يكون بمعنى الإرشاد» إلخ، أقول: يريد أن الهدى في قوله ﴿هَدَيْنَهُ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى أرشدناه، فإن كان الإرشاد عنده بمعنى دللْناه؛ فهو بمعنى البيان، وهو المعنى الأول الذي ذكره المصنف، وإن كان بمعنى دعوناه إليه فلا يصح؛ فإنه تعالى لا يدعو إلا إلى سبيل الحق وطريق الخير، وعلى هذا فالصواب أن الهدى بمعنى البيان، وهو المعنى الأول الذي قدمه المؤلف، وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: الهدى والضلال، والكفر والإيمان؛ كلٌّ من عند الله، أي: بقَدره ومشيئته، وهذا هو معنى الإيمان بالقدر خيره وشره. وقوله: «ومَوهبةِ العقل الذي يميِّز به بينهما» لعله يريد أن العقل مما يميِّز به بين طريق الخير وطريق الشر، لا أنه لا يستقل بذلك، بل التمييز التام بين الطريقين إنما يكون بما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ومن قرأ بالتنوين: فله ثلاث توجيهات:

أحدها: أنها لغة لبعض العرب، يصرفون كل ما لا ينصرف إلا «أفْعَل».

والآخر: أن النون بدل من حرف الإطلاق، وأجرى الوصل مُجرى الوقف.

والثالث: أن يكون صاحب هذه القراءة رَاويةً للشعر، قد عوَّد لسانه صرف ما لا ينصرف، فجرى على ذلك.

﴿ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمع بارٍّ أو بَرٍّ، ومعناه: العاملون بالبر وهو غاية التقوى والعمل الصالح، حتى قال بعضهم: الأبرار هم الذين لا يؤذون الذرَّ.

﴿مِن كَأْسٍ﴾ ذكر في «الصافات»[1] معنى الكأس.

و﴿مِن﴾ هنا يحتمل أن تكون: للتبعيض، أو لابتداء الغاية.

﴿مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ أي: تمزج الخمر بالكافور.

وقيل: المعنى: أنه كافور في طيب رائحته، كما تمدح طعامًا فتقول: هذا مسك.

﴿عَيْنًا﴾ بدل من ﴿كَافُورًا﴾ على القول بأن الخمر تمزج بالكافور.

وبدل من موضع ﴿مِن كَأْسٍ﴾ على القول الآخر، كأنه قال: يشربون خمرًا خمرَ عين.

وقيل: هو مفعول بـ ﴿يَشْرَبُونَ﴾.

---

(١) انظر (٣/ ٦٦٤).

وقيل: منصوب بإضمار فعل.

﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ قال ابن عطية: الباء زائدة، والمعنى: يشربها[1]، وهذا ضعيف؛ لأن الباء إنما تزاد في مواضع ليس هذا منها.

وإنما هي كقولك: «شربت الماء بالعسل»؛ لأن العين المذكورة يمزج بها الكأس من الخمر.

﴿عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ وصْفهم بالعبودية فيه معنى التقريب والاختصاص، كقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ أي: يُجْرُونها[2] حيث شاؤوا من منازلهم تفجيرًا سهلًا لا يصعب عليهم.

وفي الأثر أن في قصر النبي ﷺ في الجنة عينًا تنفجر إلى قصور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين.

﴿مُسْتَطِيرًا﴾ أي: منتشرًا شائعًا، ومنه: «استطار الفجر»: إذا انتشر ضوؤه.

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ نزلت هذه الآية وما بعدها في عليّ بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين ﷺ، فإنهم كانوا صائمين فلما وضعوا فطرهم ليأكلوه جاء مسكين فدفعوه له، وباتوا طاوين وأصبحوا صائمين، فلما وضعوا فطرهم جاء يتيم فدفعوه له، وباتوا طاوين وأصبحوا صائمين، فلما وضعوا فطرهم جاء أسير فدفعوه له، وباتوا طاوين.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٤٨٨).

(٢) في أ، هـ: «يفجرونها»، والمثبت موافق لعبارة الكشاف (١٦/ ١٨٩).

والآية على هذا مدنية؛ لأن عليًّا إنما تزوج فاطمة بالمدينة.

وقيل: هي مكية، وليست في علي.

﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ الضمير[١] للطعام؛ أي: يطعمونه مع حبه والحاجة إليه، فهو كقوله: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

ففي قوله: ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ تتميم، وهو من أدوات البيان.

وقيل: الضمير لله.

وقيل: للإطعام المفهوم من ﴿يُطْعِمُونَ﴾.

والأول أرجح وأظهر.

﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ قد ذكرنا المسكين[٢] واليتيم[٣].

وأما الأسير ففيه خمسة أقوال:

أحدها: أن الأسير الكافر بين[٤] المسلمين، ففي إطعامه أجر؛ لأن في كل ذي كبد رطبة[٥] أجرًا، وقيل: نسخ ذلك بالسيف.

والآخر: أنه الأسير المسلم إذا خرج من دار الحرب لطلب الفدية.

---

(١) في أ، هـ: «عائد».
(٢) انظر (٢/ ٥٠٢).
(٣) انظر (١/ ٣٣١).
(٤) في ج: «بيد».
(٥) في ب، د: «رطب».

والثالث: أنه المملوك.

والرابع: أنه المسجون.

والخامس: أنه المرأة؛ لقوله ﷺ «استوصوا بالنساء خيرًا؛ فإنهنَّ عوانٍ عندكم»[١]، وهذا بعيد.

والأول أرجح؛ لأنه روي أن النبي ﷺ كان يؤتى بالأسير المشرك فيدفعه إلى بعض المسلمين ويقول له: «أحسن إليه»[٢].

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ عبارة عن الإخلاص لله، ولذلك فسروه وأكدوه[٣] بقولهم: ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾.

والشُّكور: مصدر كالشكر.

ويحتمل أنهم قالوا هذا الكلام:

بألسنتهم.

أو قالوه في نفوسهم، فهو عبارة عن النية والقصد.

﴿يَوْمًا عَبُوسًا﴾ وَصْفُ اليوم بالعبوس مجازٌ على وجهين:

أحدهما: أن يصف اليوم بصفة أهله، كقولهم: «نهاره صائم» و«ليله قائم»، وروي أن الكافر يعبس يومئذ حتى يسيل الدم من عينيه مثل القَطِران.

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٦٩٥)، والترمذي (١١٦٣)، والنسائي (٨/ ٢٦٤)، وابن ماجه (١٨٥١).

(٢) ذكره الزمخشري في الكشاف (١٦/ ١٩١) عن الحسن مرسلًا، ولم أقف على إسناده.

(٣) في ب، د: «فسره وأكده».

والآخر: أن يشبَّه في شدَّته بالأسد العبوس.

﴿قَمۡطَرِيرٗا﴾ قال ابن عباس: معناه طويل.

وقيل: شديد.

﴿وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا﴾ النضرة: التنعم. وهذا في مقابلة عبوس الكافر.

وقوله: ﴿فَوَقَىٰهُمُ﴾ و﴿وَلَقَّىٰهُمۡ﴾ من أدوات البيان، وهو[1].

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ أي: بصبرهم على الجوع وإيثار غيرهم على أنفسهم، حسَبما ذكرنا من قصة علي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ.

وقد ذكرنا ﴿ٱلۡأَرَآئِكِ﴾[2].

﴿لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا﴾ عبارة عن اعتدال هوائها؛ أي: ليس فيها حر ولا برد.

والزمهرير: هو البرد الشديد.

وقيل: هو القمر بلغة طيِّئ، والمعنى على هذا: أن الجنةَ[3] ضياءٌ؛ فلا يحتاج فيها إلى شمس ولا قمر.

﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا﴾ معناه: أن ظلال الأشجار متدلية[4] عليهم، قريبة

---

(١) في جميع النسخ الخطية هنا بياض بمقدار كلمة تقريبًا!، ولعله المناسب أن يكتب مكانه: «التجنيس»، وانظر المقدمة (١/ ١١٤).

(٢) انظر (٣/ ٢٦)، (٣/ ٦٤٤).

(٣) في د: «في الجنة».

(٤) في هامش د: «خ: مدنية».

منهم؛ لأن الشيء المُظِلَّ إذا بَعُدَ فتَر[١] ظله.

وإعراب ﴿وَدَانِيَةً﴾: معطوف على ﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾.

وقال الزمخشري: هو معطوف على الجملة التي قبلها، وهي ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾؛ لأن هذه جملةٌ في حكم المفرد، تقديره: «غيرَ رائين فيها شمسًا ولا زمهريرًا، ودانيةً» ودخلت الواو للدلالة على أن الأمرين مجتمعان لهم، أي: جامعين بين البعد عن الحر والبرد وبين دنوِّ الظِّلال[٢].

وقيل: هو صفة لـ ﴿جَنَّةً﴾، عطفت بالواو كقولك: «فلان عالم وصالح».

وقيل: هو معطوف عليها؛ أي: وجنةً أخرى دانيةً عليهم ظلالها.

﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ القطوف: جمع قِطْفٍ، وهو العنقود من النخل والعنب، وشبه ذلك.

وتذليلها: هو أن تتدلى إلى الأرض.

وروي: أن أهل الجنة يقطعون الفواكه على أي حال كانوا من قيام أو جلوس أو اضطجاع؛ لأنها تتدلى لهم كما يريدون.

وهذه الجملة:

في موضع الحال من ﴿وَدَانِيَةً﴾؛ أي: دانية في حال تذليل قطوفها.

أو معطوفة عليها.

---

(١) في د: «بعُد».

(٢) الكشاف (١٦/ ١٩٥).

﴿بِـَٔانِيَةٍ﴾ هي جمع إناء ووزنها أَفْعِلة.

وقد ذكرنا الأكواب في «الواقعة»[١].

﴿قَوَارِيرَا﴾ القوارير: هي الزجاج.

فإن قيل: كيف يتفق أنها زجاج مع قوله: ﴿مِن فِضَّةٍ﴾؟

فالجواب: أن المراد: أنها في أصلها من فضة وهي تُشْبه الزجاج في صفائها وشَفيفها.

وقيل: هي من زجاج، وجعلها من فضة على وجه التشبيه؛ لشرف الفضة وبياضها.

ومن قرأ ﴿قَوَارِيرَا﴾:

بغير تنوين: فهو على الأصل.

ومن نوَّنه: فعلى ما ذكرنا في ﴿سَلَٰسِلَا﴾.

﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ هذه صفة للقوارير، والمعنى: قدَّروها على قدر الأكُفِّ، أو على قدر ما يحتاجون من الشرب، قال مجاهد: هي لا تَفيض ولا تَغيض.

وقيل: قدروها على حسَب ما يشتهون.

والضمير الفاعل في ﴿قَدَّرُوهَا﴾ يحتمل أن يكون:

للشاربين بها.

أو للطائفين بها.

---

(١) انظر صفحة ٦٨٥.

﴿مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ هو كما ذكرنا في ﴿مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾.

﴿سَلْسَبِيلًا﴾ معناه: سلسٌ منقادُ الجِرْية.

وقيل: سهل الانحدار في الحلق[١].

يقال: شرابٌ سلسل وسلسال وسلسبيل: بمعنى واحد.

وزيدت الباء في التركيب؛ للمبالغة في سلاسته، فصارت الكلمة خماسية.

وقيل: «سل» فعل أمر و«سبيلًا» مفعول به، وهذا في غاية الضعف.

﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ ذكر في «الواقعة»[٢].

﴿لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ شبههم باللؤلؤ: في الحسن[٣] والبياض، وبالمنثور منه: في كثرتهم وانتشارهم في القصور.

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ مفعول ﴿رَأَيْتَ﴾ محذوفٌ؛ ليكون الكلام على الإطلاق في كل ما يرى فيها.

و﴿ثَمَّ﴾ ظرف مكان.

وقال الفراء: تقديره: «إذا رأيت ما ثَم»، فـ«ما» مفعولة ثم حذفت.

قال الزمخشري: هذا خطأ؛ لأن «ثمَّ» صلة لـ«ما»، ولا يجوز حذف الموصول وترك الصلة[٤].

---

(١) في ج: «الحلوق».
(٢) انظر صفحة ٢٨٥.
(٣) في ب: «اللون».
(٤) الكشاف (١٦/٢٠٣).

﴿وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ يعني: كثرة ما أعطاهم الله، حتى إن أدنى أهل الجنة منزلةً له مثل الدنيا وعشرة أمثاله معه، حسَبما ورد في الحديث[١].

وقيل: أراد أن الملائكة تسلم عليهم، وتستأذن عليهم، فهم بذلك كالملوك.

﴿عَالِيهِمْ﴾ بسكون الياء: مبتدأ خبره: ﴿ثِيَابُ سُندُسٍ﴾ أي: ما يعلوهم من الثياب ثيابُ سندس.

وقُرئ بالنصب: على الحال من الضمير في ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أو في ﴿حَسِبْتَهُمْ﴾.

وقال ابن عطية: العامل فيه ﴿وَلَقَّىٰهُمْ﴾ أو ﴿وَجَزَىٰهُم﴾، وقال أيضًا: يجوز أن ينتصب على الظرف؛ لأن معناه: «فوقَهم»[٢].

وقد ذكرنا معنى السندس والإستبرق[٣].

وقرئ: ﴿خُضْرٌ﴾:

بالخفض: صفة لـ ﴿سُندُسٍ﴾.

وبالرفع: صفة لـ ﴿ثِيَابُ﴾.

و﴿وَإِسْتَبْرَقٌ﴾:

بالرفع: عطف على ﴿ثِيَابُ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٩)، وفيه: «مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا».
(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٤٩٧).
(٣) انظر (٣/ ٢٦).

وبالخفض: عطف على ﴿سُندُسٍ﴾.

﴿وَحُلُّوٓاْ﴾ وزنه: فُعِّلُوا، ومعناه: جُعل لهم حَلْيٌ.

﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ ذكرنا الأساور في «الكهف»[١].

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾، وفي موضع آخر: ﴿أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾؟

فالجواب: أن ذلك يختلف باختلاف درجات أهل الجنة، قال رسول الله ﷺ: «جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما»[٢]، فلعل الذهب للمقربين، والفضة لأهل اليمين.

ويحتمل أن يكون أهل الجنة لهم أساور من فضة ومن ذهب معًا.

﴿شَرَابًا طَهُورًا﴾ أي: ليس بنجس كخمر الدنيا.

وقيل: معناه: أنه لم تعصره الأقدام.

وقيل: معناه: لا يصير بولًا.

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ أي: يقال لهم هذا، يقوله الله تعالى أو الملائكة.

---

(١) انظر (٣/٢٦).

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٧٨)، ومسلم (١٨٠).

[﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ الَّيْلِ فَاسْجُدْ لَهُ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣١﴾﴾].

﴿ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ ﴿أَوْ﴾ هنا للتنويع، فالمعنى: لا تطع النوعين: فاعلًا للإثم، ولا كافرًا.

وقيل: هي بمعنى الواو؛ أي: جامعًا للوصفين؛ لأن هذه هي حالة الكفار.

وروي أنه الآية نزلت في أبي جهل.

وقيل: إن الآثم: عتبة بن ربيعة، والكفور: الوليد بن المغيرة.

والأحسن أنها على العموم؛ لأن لفظها عام، وإن كان سبب نزولها خاصًا.

﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ هذا أمرٌ بذكر الله في كل وقت.

وقيل: هو إشارة إلى الصلوات الخمس، فالبكرة: صلاة الصبح، والأصيل: الظهر والعصر، ومن الليل: المغرب والعشاء.

﴿إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ﴾ أي: الدنيا، والإشارة إلى الكفار.

واليوم الثقيل: يوم القيامة، ووصفه بالثِّقَل[1] عبارةٌ عن هوله وشدته.

---

(١) في د: «بالثقيل».

﴿وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ الأَسْرُ: الخِلقة.

وقيل: المفاصل والأوصال.

وقيل: القوة.

﴿بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ أي: أهلكناهم وأبدلنا منهم غيرهم.

وقيل: مسخناهم فبدلنا صورهم.

وهذا تهديد.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ الإشارةُ:

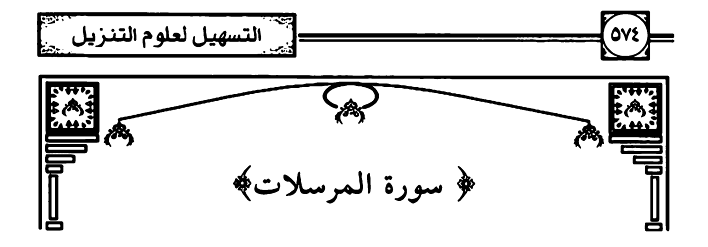
إلى الآية.

أو السورة.

أو الشريعة بجملتها.

﴿فَمَن شَآءَ﴾ تحضيض وترغيب، ثم قيَّد مشيئتهم بمشيئة الله.

﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: يعذب الظالمين.



﴿ سورة المرسلات ﴾

[﴿ وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا الرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ الْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَالَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴾].

اختُلف في معنى المرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات على قولين:

أحدهما: أنها الملائكة.

والآخر: أنها الرياح.

فعلى القول بأنها الملائكة:

سماهم المرسلات؛ لأنه تعالى يرسلهم بالوحي وغيره.

وسماهم العاصفات؛ لأنهم يَعصفون كما تعصف الرياح في سرعة مضيِّهم[1] إلى امتثال أوامر الله تعالى.

وسماهم الناشرات؛ لأنهم ينشرون أجنحتهم في الجو، أو ينشرون الشرائع في الأرض، أو ينشرون صحائف الأعمال.

وسماهم الفارقات؛ لأنهم يفرِّقون بين الحق والباطل.

وعلى القول بأنها الرياح:

سماها المرسلات؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرۡسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ﴾ [الروم: ٤٨].

وسماها العاصفات من قوله: ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ [يونس: ٢٢]؛ أي: شديدة.

وسماها الناشرات؛ لأنها تنشر السحاب في الجو، ومنه قوله: ﴿يُرۡسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨].

وسماها الفارقات؛ لأنها تفرِّق بين السحاب ومنه قوله: ﴿وَيَجۡعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨].

وأما ﴿ٱلۡمُلۡقِيَـٰتِ ذِكۡرًا﴾: فهم الملائكة؛ لأنهم يلقون الذكر للأنبياء ﷷ.

والأظهر في المرسلات والعاصفات: أنها الرياح[2]؛ لأن وصف الريح بالعصف حقيقة.

---

(١) في د: «مشيهم».

(٢) في أ، د: «الريح».

والأظهر في الناشرات والفارقات: أنها الملائكة؛ لأن الوصف بالفارقات أليق بهم من الرياح، ولأن الملقيات المذكورة بعدها هي الملائكة، ولم يقل أحد إنها الرياح.

ولذلك عطَف المتجانسَينِ بالفاء فقال: ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ﴾ ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ﴾، ثم عطف ما ليس من جنسها بالواو فقال: ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ﴾، ثم عطف عليه المتجانسينِ بالفاء.

وقد قيل في ﴿الْمُرْسَلَٰتِ﴾ و﴿الْمُلْقِيَٰتِ﴾: إنهم الأنبياء عليهم السلام.

﴿عُرْفًا﴾ معناه: فضلًا وإنعامًا، وانتصابه: على أنه مفعول من أجله.

وقيل: معناه: متتابِعةً، وهو مصدر في موضع الحال.

وأما ﴿عَصْفًا﴾ و﴿نَشْرًا﴾ و﴿فَرْقًا﴾: فمصادر.

وأما ﴿ذِكْرًا﴾: فمفعول به.

﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ العذر: فسَّره ابن عطية[١] وغيره بمعنى: إعذار الله إلى عباده؛ لئلا تبقى لهم حجة أو عذر.

وفسره الزمخشري: بمعنى الاعتذار، يقال: عَذَر: إذا محا الإساءة[٢].

وأما ﴿نُذُرًا﴾ فمن الإنذار وهو التخويف.

وقرئ بضم الذال في الموضعين وبإسكانها.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٥٠٤).

(٢) الكشاف (١٦/ ٢٢٢).

ويحتمل أن يكونا مصدرَينِ، فيكون نصبهما:

على البدل من ﴿ذِكۡرًا﴾.

أو مفعولًا من أجله.

أو مفعولًا بـ ﴿ذِكۡرًا﴾.

ويحتمل أن يكون ﴿عُذۡرًا﴾ جمع عَذير أو عاذر، و﴿نُذُرًا﴾ جمع نذير، فيكون نصبهما: على الحال.

﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٞ ۝٧﴾ يعني: البعث والجزاء، وهو جواب القسم.

﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتۡ ۝٨﴾ أي: زال ضوؤها.

وقيل: مُحِيتْ.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتۡ ۝٩﴾ أي: انشقت.

﴿وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ نُسِفَتۡ ۝١٠﴾ أي: صارت غبارًا.

﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتۡ ۝١١﴾ أي: جُعل لها وقت معلوم، فحان ذلك الوقت وجمعت للشهادة على الأمم يوم القيامة.

وقرئ ﴿وُقِّتَتْ﴾ بالواو وهو الأصل، والهمزة بدل من الواو.

﴿لِأَيِّ يَوۡمٍ أُجِّلَتۡ ۝١٢﴾ هو من الأجل، كالتوقيت من الوقت.

وفيه توقيفٌ يراد به تعظيمٌ لذلك اليوم، ثم بينه بقوله: ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡفَصۡلِ ۝١٣﴾ أي: [1] يفصل فيه بين العباد، ثم عظَّمه بقوله: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ﴾.

---

(١) في ب زيادة: «يوم».

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ تكراره في هذه السورة:

قيل: إنه تأكيد.

وقيل: بل في كل آية ما يقتضي التصديق، فجاء ﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥﴾ راجعًا إلى ما قبله في كل موضع منها.

﴿أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦﴾ يعني: الكفار المتقدمين، كقوم نوح وغيرهم.

﴿ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧﴾ يعني: قريشًا وغيرهم من الكفار بمحمد ﷺ، وهذا وعيد لهم ظهَر مِصداقه يوم بدر وغيره.

﴿كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي: مثلَ هذا الفعل نفعل بكل مجرم؛ يعني الكفار.

﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠﴾ يعني: المنيّ، والمهين: الضعيف.

﴿فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١﴾ يعني: رحم المرأة وبطنها.

﴿إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢﴾ يعني: وقت الولادة، وهو معلوم عند الله، وهو تسعة أشهر أو أقل منها أو أكثر.

﴿فَقَدَّرۡنَا﴾ بالتشديد: من التقدير، وبالتخفيف: من القدرة.

فإذا كان من القدرة: اتفق مع قوله: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ﴾.

وإذا كان من التقدير: فهو تجنيس.

﴿أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦﴾ الكِفات: مِن كفَتَ: إذا ضَمَّ وجمع.

فالمعنى: أن الأرض تَكْفِتُ الأحياء على ظهرها، والموتى في بطنها.

وانتصب ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾ على أنه مفعول بـ ﴿كِفَاتًا﴾؛ لأن الكفات اسم لم يُضَمُّ ويُجمَع، فكأنه قال: جامعةً أحياءً وأمواتًا.

ويجوز أن يكون المعنى: تكفتهم أحياءً وأمواتًا، فيكون نصبهما على الحال من الضمير.

وإنما نكَّر ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ۝٢٦﴾؛ للتفخيم، ودلالةً على كثرتهم.

﴿رَوَٰسِىَ﴾ يعني: الجبال.

﴿شَٰمِخَٰتٍ﴾ أي: مرتفعات.

﴿مَّآءً فُرَاتًا﴾ أي: حلوًا.

﴿ٱنطَلِقُوٓا۟﴾ خطاب للمكذبين.

وقرأ يعقوب بفتح اللام على أنه فعل ماض.

ثم كرَّره؛ لبيان المنطلَق إليه.

﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ يعني: دخان جهنم، ومنه: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝٤٣﴾ [الواقعة: ٤٣].

﴿ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ أي: يتفرع من الدخان ثلاث شعب فتُظِلُّهم، بينما يكون المؤمنون في ظِلِّ العرش.

وقيل: إن هذه الآية في عَبَدَةِ الصليب؛ لأنه[1] على ثلاثة شعب، فيقال لهم انطلقوا إليه.

---

(١) أي: الصليب.

﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ نفَى عنه أن يُظلهم كما يُظل العرشُ المؤمنين، ونفى أيضًا أن يمنع عنهم اللهب.

﴿إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾﴾ الضمير في ﴿إِنَّهَا﴾ لجهنم.

والقصر: واحد القصور، وهي الديار العِظام، شبه الشَّرر به في عِظَمه وفي ارتفاعه في الهواء.

وقيل: هو الغليظ من الشجر، واحده قَصْرةٌ، كجمرة وجمْر.

﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ﴾ في الجمالات قولان:

أحدهما: أنه جمع جِمَالٍ، شبه بها الشرر، و﴿صُفْرٌ﴾ على ظاهره؛ لأن لون النار يضرب إلى الصفرة.

وقيل: ﴿صُفْرٌ﴾ هنا: بمعنى سودٌ، يقال: جمل أصفر أي: أسود، وهذا أليق بوصف[(١)] جهنم.

الثاني: أن الجمالات: قطع النحاس الكبار، فكأنه مشتق من الجُمْلة.

وقرئ ﴿جُمَٰلَتٌ﴾ بضم الجيم، وهي قُلُوس السفن، وهي حبالها العِظام.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ هذا في مواطن، وقد يتكلمون في مواطن أخر؛ كقوله: ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾ [النحل: ١١١].

﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ تعجيز لهم، وتعريض بكيدهم في الدنيا، وتقريع عليه.

---

(١) في أ، هـ: «الوصف».

[﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ يقال لهم ذلك في الجنة: بلسان الحال، أو بلسان المقال.

﴿هَنِيٓـًٔۢا﴾ نصبٌ:

على الحال.

أو على الدعاء.

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟﴾ خطاب للكفار على وجه التهديد، تقديره: قل لهم: كلوا وتمتعوا قليلًا في الدنيا.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ هذا إخبار عن حال الكفار في الدنيا.

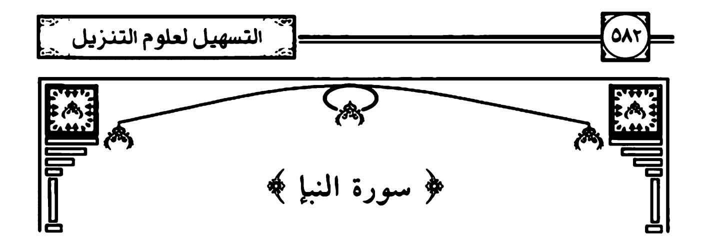
وذِكْر الركوع: عبارةٌ عن الصلاة.

وقيل: معنى ﴿ٱرْكَعُوا۟﴾: اخشعوا وتواضعوا لله.

وقيل: هو إخبار عن حال المنافقين يوم القيامة؛ لأنهم إذا قيل لهم: اركعوا لا يقدرون على الركوع، كقوله تعالى: ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم: ٤٢].

والأول أشهر وأظهر.

﴿فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ الضمير للقرآن.



﴿ سورة النبإ ﴾

[﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝٢ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٥ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ۝١٧ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ۝١٨ وَفُتِحَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ۝١٩ وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ۝٢١ لِلطَّاغِينَ مَآبًا ۝٢٢ لَابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ۝٢٣ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥ جَزَاءً وِفَاقًا ۝٢٦ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ۝٢٧ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَّابًا ۝٢٨ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا ۝٢٩ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾].

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١﴾ أصل ﴿عَمَّ﴾: «عَنْ مَا»، ثم أدغمت النون في الميم، وحذفت ألف «ما»؛ لأنها استفهامية، تقديرها: عن أي شيء يتساءلون؟

وليس المراد بها هنا مجرد الاستفهام، وإنما المراد تفخيم الأمر.

والضمير في ﴿يَتَسَاءَلُونَ﴾:

لكفار قريش.

أو لجميع الناس.

ومعناه: يسأل بعضهم بعضًا.

﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢﴾ هو ما جاءت به الشريعة من التوحيد والبعث والجزاء وغير ذلك.

ويتعلق ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ بفعل محذوف يفسره الظاهر، تقديره: يتساءلون عن النبإ.

ووقعت هذه الجملة جوابًا عن الاستفهام، وبيانًا للمسؤول عنه، كأنه لما قال: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾ أجاب فقال: يتساءلون عن النبإ العظيم.

وقيل: يتعلق ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ﴾ بـ ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ الظاهر، والمعنى على هذا: لأيِّ شيء يتساءلون عن النبإ العظيم؟

والأول أفصح وأبرع، وينبغي على ذلك أن يوقف على قوله: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١﴾.

﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ۝٣﴾ إن كان الضمير في ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ لكفار قريش فاختلافهم:

أن منهم من يقطع بالتكذيب، ومنهم من يشك.

أو يكون اختلافهم قول بعضهم: سحر، وقول بعضهم: شعر وكهانة وغير ذلك.

وإن كان الضمير لجميع الناس: فاختلافهم أن منهم المؤمن والكافر.

﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤﴾ ردعٌ وتهديد، ثم كرره للتأكيد.

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ۝٦﴾ أي: فراشًا.

وإنما ذكر الله تعالى هنا هذه المخلوقات على جهة[١] التوقيف؛ ليقيم الحجة على الكفار فيما أنكروه من البعث، كأنه يقول: إن الإله الذي قدَر على خِلقة هذه المخلوقات العظام قادر على إحياء الناس بعد موتهم.

ويَحتمل أن يذكرها حجةً على التوحيد؛ لأن الذي خلق هذه المخلوقات هو الإله وحده لا شريك له.

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧﴾ شبهها بالأوتاد؛ لأنها تمسك الأرض أن تميد.

﴿وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨﴾ أي: مُزدوجِينَ[٢] ذكرًا وأنثى.

وقيل: معناه: أنواعًا في ألوانكم وصوركم وألسنتكم.

﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩﴾ أي: راحة لكم.

وقيل: معناه قطعًا للأعمال والتصرف، والسَّبْت: القطع.

وقيل: معناه: مَوْتًا؛ لأن النوم هو الموت الأصغر، ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا﴾ شبهه بالثياب التي تُلبَس؛ لأنه يَستر[٣] عن العيون.

﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا﴾ أي: تُطلب فيه المعيشة، فهو على حذف مضاف تقديره: ذا معاش.

وقال الزمخشري: معناه يُعاش فيه، فجعله بمعنى الحياة في مقابلة

---

(١) في ب، د: «وجه».

(٢) في ج: «من زوجين».

(٣) في أ، هـ: «ستر».

السُّبات الذي بمعنى الموت[١].

﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢﴾ يعني: السموات.

﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ يعني: الشمس، والوهَّاج: الوقَّاد الشديد الإضاءة.

وقيل: الحار الذي يضطرم من شدة لهَبِه.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤﴾ يعني: المطر.

و﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾: هي السحاب، وهو مأخوذ:

من العَصر؛ لأن السحاب تنعصر فينزل منها الماء.

أو من العُصْرة؛ بمعنى الإغاثة، ومنه: ﴿وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ [يوسف: ٤٩].

وقيل: هي السماوات.

وقيل: هي الرياح.

والثجَّاج: السريع الاندفاع.

﴿لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥﴾ الحب: هو القمح والشعير وسائر الحبوب، والنبات: هو العشب.

﴿وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ أي: ملتفَّة، وهو جمع لُفّ بضم اللام، وقيل: بالكسر.

وقيل: لا واحد له.

﴿كَانَ مِيقَاتًا﴾ أي: في وقت معلوم.

﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ يعني: نفخة القيام من القبور.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٢٤٤).

﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ أي: جماعاتٍ.

﴿فَكَانَتْ أَبْوَابًا﴾ أي: تنفتح فيكون فيها شِقاق كالأبواب.

﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ﴾ أي: حُملت.

﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ عبارة عن تلاشيها وفنائها.

والسراب في اللغة: ما يظهر على البعد أنه ماء، وليس ذلك المراد هنا، وإنما هو تشبيه به في أنه لا شيء.

﴿مِرْصَادًا﴾ أي: موضع الرَّصْد، والرَّصْد: هو الارتقاب والانتظار؛ أي: تنتظر الكفار ليدخلوها.

وقيل: معناه: طريقًا للمؤمنين يجوزون عليها إلى الجنة؛ لأن الصراط منصوب على جهنم.

﴿مَآبًا﴾ أي: مرجعًا.

﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾﴾ جمع حِقْبة أو حقب[1]، وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدودة.

وقيل: إنها محدودة، ثم اختلف في مقدارها:

فروي عن النبي ﷺ أنها ثلاثون ألف سنة[2].

---

(١) في المحرر الوجيز (٨/ ٥١٧): «جمع حُقَب بضم الحاء وفتح القاف، وحِقَب بكسر الحاء، وحُقُب بضمها وضم القاف».

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣٣٩٥) من حديث أبي أمامة، وقال: «بسند ضعيف».

وقال ابن عباس: ثمانون سنة.

وقيل: ثلاث مئة سنة.

وعلى القول بالتحديد: فالمعنى: أنهم يبقون فيها أحقابًا، كلما انقضى حقبٌ جاء آخر إلى غير نهاية.

وقيل: إنه كان يقتضي أن مدة العذاب تنقضي، ثم نسخ بقوله: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾، وهذا خطأ؛ لأن الأخبار لا تُنسخ.

وقيل: هي في عُصاة المؤمنين الذين يخرجون من النار، وهذا خطأ؛ لأنها في الكفار لقوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾.

وقيل: معناها أنهم يبقون أحقابًا[1] لا يذوقون فيها بردًا ولا شرابًا، ثم يبدل لهم نوع آخر من العذاب.

﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا﴾ أي: لا يذوقون برودةً تخفف عنهم حر النار.

وقيل: لا يذوقون ماء باردًا.

وقيل: البرد هنا النوم.

والأول أظهر.

﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ۝٢٥﴾ استثناء من الشراب، وهو متصل.

والحميم: الماء الحار.

---

(١) في أ، هـ: «أحيانًا».

والغسَاق: صديد أهل النار، وقد ذكر في سورة «داود»[١].

﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي: موافقًا أعمالهم؛ لأن أعمالهم كفر وجزاؤهم النار.

و﴿وِفَاقًا﴾:

مصدر وصف به.

أو هو على حذف مضاف تقديره: ذا وفاق.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ هذا مثل ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا﴾ وقد ذكر[٢].

﴿كِذَّابًا﴾ بالتشديد: مصدر بمعنى تكذيب.

وبالتخفيف: بمعنى:

الكذب.

أو المكاذبة؛ وهي تكذيب بعضهم لبعض.

﴿فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠﴾ قال رسول الله ﷺ: «ما نزل في أهل النار أشد من هذه الآية»[٣].

* * *

(١) انظر (٣/ ٧٢٥).

(٢) انظر (٢/ ٥٣٩)، (٣/٣٣٢).

(٣) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١٠/ ١١٧).

[﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾].

﴿مَفَازًا﴾ أي: موضع فوز، يعني: الجنة.

﴿حَدَآئِقَ﴾ أي: بساتين.

﴿وَكَوَاعِبَ﴾ جمع كاعب، وهي الجارية التي خرج ثديها.

﴿أَتْرَابًا﴾ أي: على سن واحد(١).

﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: ملأى.

وقيل: صافية.

والأول أشهر.

﴿عَطَآءً حِسَابًا﴾ أي: كافيًا، مِن أَحسَبه الشيءُ: إذا كفاه.

وقيل: معناه: على حسَب أعمالهم.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالرفع: مبتدأ، أو خبر ابتداء مضمر.

وبالخفض صفة لـ ﴿رَّبِّكَ﴾.

و﴿الرَّحْمَٰنُ﴾ بالخفض: صفة.

---

(١) في ب: «واحدة».

وبالرفع: خبر المبتدأ، أو خبر ابتداء مضمر.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ قال ابن عطية: الضمير للكفار؛ أي: لا يملكون أن يخاطبوه بمعذرة ولا غيرها[١].

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يقدرون أن يخاطبهم كقوله: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾.

وقال الزمخشري: الضمير لجميع الخلق؛ أي: ليس بأيديهم شيء من خطاب الله[٢].

﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ﴾ قيل: هو جبريل.

وقيل: ملَك عظيم يكون هو وحده صفًّا، والملائكة صفًّا.

وقيل: يعني: أرواح بني آدم، فهو اسم جنس.

و﴿يَوْمَ﴾ يتعلق:

بـ ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾.

أو بـ ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾.

﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ﴾ الضمير للملائكة والروح؛ أي: تمنعهم الهيبة من الكلام[٣] إلا بعد أن يأذن الله لهم، وقول الصواب يكون في ذلك الموطن على هذا.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٥٢٣).

(٢) الكشاف (١٦/ ٢٥٨).

(٣) في ب: «كلام الله».

وقيل: الضمير للناس خاصة، والصواب المشار إليه: قول: «لا إله إلا الله»؛ أي: من قالها في الدنيا.

﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي: الحق وجوده ووقوعه.

﴿فَمَن شَآءَ﴾ تحضيضٌ وترغيب.

﴿عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني: عذاب الآخرة، ووصفَه بالقرب:

لأن كل آت قريب.

أو لأن الدنيا على آخرها.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ المرء هنا: عموم في المؤمن والكافر.

وقيل: هو المؤمن.

وقيل: هو الكافر.

والعموم أحسن؛ لأن كل أحد يرى ما عمل، كقوله تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ الآيةَ [الزلزلة: ٧].

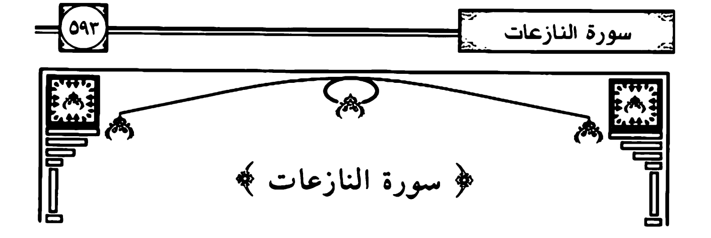
﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ تمنى أن يكون يوم القيامة ترابًا فلا يحاسب ولا يجازَى.

وقيل: تمنى أن يكون في الدنيا ترابًا؛ أي: لم يخلق.

وروي أن البهائم تحشر؛ ليقتصَّ لبعضها من بعض، ثم تُردُّ ترابًا، فيتمنى الكافر أن يكون مثلها، وهذا يقوِّي الأول.

وقيل: الكافر هنا: إبليس، يتمنى أن يكون[1] من تراب، مثل آدم وذريته؛ لما رأى ثوابهم، وقد كان احتقر التراب في قوله: ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

(١) في د زيادة: «يوم القيامة».



﴿ سورة النازعات ﴾

[﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ۝١ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ۝٢ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ۝٣ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ۝٤ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ۝٥ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ۝٧ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ۝٩ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ۝١٠ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ۝١١ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ۝١٢ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ۝١٤ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۝١٥ إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ۝١٦ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَىٰ أَنْ تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩ فَأَرَاهُ الْآيَةَ الْكُبْرَىٰ ۝٢٠ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ۝٢١ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ۝٢٢ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ ۝٢٤ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ ۝٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَىٰ﴾].

اختُلف في معنى النازعات والناشطات والسابقات والسابحات والمدبرات:

فقيل: إنها الملائكة.

وقيل: النجوم.

فعلى القول بأنها الملائكة:

سماهم نازعات؛ لأنهم ينزِعون نفوس بني آدم من أجسادهم[1].

---

(١) في ب، ج، د: «أجسادها».

وناشطات؛ لأنهم يَنشِطونها؛ أي: يُخرجونها، فهو من قولك: نَشَطتُ الدلوَ من البئر: إذا أخرجتَها.

وسابحات؛ لأنهم يَسبحون في سيرهم؛ أي: يسرعون، فيسبقون، فيدبِّرون أمور العباد والرياح والمطر وغير ذلك حسَبما يأمرهم الله.

وعلى القول بأنها النجوم:

سماها نازعات؛ لأنها تنزع من المشرق إلى المغرب.

وناشطات؛ لأنها تَنشِط من برج إلى برج.

وسابحات؛ لأنها تسبح في الفَلَك، ومنه: ﴿كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٣]، فتسبق في جريها، فتدبِّر أمرًا من علم الحساب.

وقال ابن عطية: لا أعلم خلافًا أن ﴿الْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكة[١].

وحكى الزمخشري فيها ما ذكرنا[٢].

وقد قيل في النازعات والناشطات: إنها النفوس، تَنزِعُ من معنى النزع بالموت، فتَنشِط من الأجساد.

وقيل في السابحات والسابقات: إنها الخيل، وإنها السفن.

﴿غَرْقًا﴾ إن قلنا: إن النازعات الملائكة: ففي معنى ﴿غَرْقًا﴾ وجهان:

أحدهما: أنه من الغرَق؛ أي: تغرق الكفار في جهنم.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٥٢٧).

(٢) الكشاف (١٦/ ٢٦٤-٢٦٧).

والآخر: أنه من الإغراق في الأمر، بمعنى المبالغة فيه؛ أي: تبالغ في نزع النفوس حتى تخرجها من أقاصي الأجساد.

وإن قلنا: إن النازعات النجوم: فهو من الإغراق بمعنى المبالغة؛ أي: تبالغ في نزعها فتقطع الفلَك كله.

وإن قلنا: إنها النفوس: فهو أيضًا من الإغراق؛ أي: تغرق في الخروج من الجسد.

وإعراب:

﴿غَرْقًا﴾ مصدر في موضع الحال.

و﴿نَشْطًا﴾ و﴿سَبْحًا﴾ و﴿سَبْقًا﴾: مصادر.

و﴿أَمْرًا﴾ مفعول به.

وجواب القسم: محذوف، وهو بعث الموتى، بدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.

وقيل: الجواب: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝﴾ على تقدير حذف لام التأكيد[١].

وقيل: هو: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ۝﴾ وهذا بعيد؛ لبعده عن القسم، ولأنه إشارة إلى قصة فرعون، لا لمعنى القسم.

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ قيل: الراجفة: النفخة الأولى في الصور، والرادفة: النفخة الثانية؛ لأنها تتبعها، ولذلك سماها رادفة، من

---

(١) كأنه قال: «ليومَ». المحرر الوجيز (٨/ ٥٢٨).

قولك: رَدِفتُ الشيءَ: إذا تبعتَه، وفي الحديث: «إن بينهما أربعين عامًا»[١].

وقيل: الراجفة: الموت، والرادفة: القيامة.

وقيل: الراجفة: الأرض، من قوله: ﴿تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، والرادفة: السماء لأنها تنشق يومئذ.

والعامل في ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ محذوف، وهو الجواب المقدر، تقديره: «لتبعثن يوم ترجف الرجفة».

وإن جعلنا: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ﴾ الجواب: فالعامل في ﴿يَوْمَ﴾ معنى قوله: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾، ويكون: ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ۝٧﴾ في موضع الحال.

ويحتمل أن يكون العامل فيه ﴿تَتْبَعُهَا﴾.

﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨﴾ أي: شديدة الاضطراب، والوجيف والوجيب بمعنى واحد.

وارتفع ﴿قُلُوبٌ﴾ بالابتداء، و﴿وَاجِفَةٌ﴾ خبره.

وقال الزمخشري: ﴿وَاجِفَةٌ﴾ صفة، والخبر: ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾[٢].

﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ ۝٩﴾ كناية عن الذل والخوف.

وإضافة الأبصار إلى القلوب على تجوز، والتقدير: قلوبُ أصحابها[٣].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٦٦).

(٢) الكشاف (١٦/ ٢٧٢).

(٣) كذا في النسخ الخطية، ولعله سبق قلم، والصواب: «أبصارُ أصحابِها». الكشاف (١٦/ ٢٧٢).

﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ إِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً﴾ هذا حكاية قول الكفار في الدنيا.

ومعناه على الجملة: إنكار البعث، فالهمزة في قولهم: ﴿أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ﴾ للإنكار، ولذلك اتفق القراء على قراءته بالهمزتين، إلا أن منهم من سهَّل الثانية ومنهم من حققها.

واختلفوا في ﴿إِذَا كُنَّا عِظَٰمًا﴾:

فمنهم من قرأه بهمزة واحدة؛ لأنه ليس موضع استفهام ولا إنكار.

ومنهم من قرأه بهمزتين؛ تأكيدًا للإنكار المتقدم.

ثم اختلف في معنى ﴿ٱلْحَافِرَةِ﴾ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الحالة الأولى، يقال: «رجع فلان في حافرته»: إذا رجع إلى حاله الأولى، فالمعنى: أئنا لمردودون إلى الحياة بعد الموت؟

والآخر: أن الحافرة: الأرض، بمعنى محفورة، فالمعنى: أئنا لمردودون إلى وجه الأرض بعد الدفن في القبور؟

والثالث: أن الحافرة: النار.

والعظام النَّخِرة: البالية المتعفنة[1].

وقرئ ﴿نَّخِرَةً﴾ بألف، وبحذف الألف، وهما بمعنى واحد؛ إلا أن حذف الألف أبلغ؛ لأن «فَعِلٌ» أبلغُ من «فَاعِلٌ».

---

(١) في ب، ج، د: «المتفتتة».

وقيل: معناه: العظام المجوفة التي تمر[١] بها الريح فيُسمع لها نخير.

والعامل في ﴿إِذَا كُنَّا﴾ محذوف، تقديره: إذا كنا عظامًا نبعث؟

ويحتمل أن يكون العامل فيه: ﴿لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾، ولكن إنما يجوز هذا على قراءة ﴿إِذَا كُنَّا﴾ بهمزة واحدة على الخبر، ولا يجوز على قراءته بهمزتين؛ لأن همزة الاستفهام لا يعمل ما قبلها فيما بعدها.

﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾﴾ الكرة: الرجعة.

والخاسرة: منسوبة إلى الخسران، كقوله: ﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾﴾ [الحاقة: ٢١]؛ أي: ذات رضا، أو معناه: خاسرٌ أصحابها.

ومعنى هذا الكلام: أنهم قالوا: إن كان البعث حقًّا فكرَّتنا خاسرة؛ لأنا ندخل النار.

﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ يعني: النفخة في الصور للقيام من القبور.

وهذا من كلام الله تعالى؛ ردًّا على الذين أنكروا البعث، كأنه يقول: لا تظنوا أنه صعب على الله بل هو عليه يسير، فإنما يُنفخ[٢] في الصور نفخةٌ واحدة فيقوم الناس من قبورهم.

﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ ﴿إِذَا﴾ هنا فجائية، والساهرة: وجه الأرض، والباء: ظرفية.

والمعنى: إذا نفخ في الصور حصلوا بالأرض أسرعَ شيء.

---

(١) في أ، هـ: «يمر».

(٢) في أ، هـ: «ننفخ».

﴿هَلۡ أَتَىٰكَ﴾ توقيفٌ وتنبيه، وليس المراد به مجرد الاستفهام.

﴿طُوًى﴾ ذكر في «طه»[١].

﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ تفسير للنداء.

﴿فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ أن تتطهَّر من الكفر والذنوب والعيوب والرذائل.

وقال بعضهم: ﴿تَزَكَّىٰ﴾: تُسْلم.

وقيل: تقول: «لا إله إلا الله».

والأول أعم.

﴿فَأَرَىٰهُ ٱلۡأٓيَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ قلب العصا حية، وإخراج يده بيضاء.

وجعَلهما واحدةً؛ لأن الثانية تبعٌ للأولى.

ويحتمل أن يريد الأولى وحدها.

﴿ثُمَّ أَدۡبَرَ يَسۡعَىٰ ﴿٢٢﴾﴾ الإدبار: كناية عن إعراضه عن الإيمان.

و﴿يَسۡعَىٰ﴾ عبارة عن جدِّه في الكفر، وفي إبطال أمر موسى عليه السلام.

وقيل: هو حقيقة؛ أي: قام من مجلسه يفرُّ من مُجالسة موسى، أو يهرب من العصا لما صارت ثعبانًا.

﴿فَحَشَرَ﴾ أي: جمع جنوده وأهل مملكته.

---

(١) انظر (٣/ ٩٣).

﴿فَنَادَىٰ﴾ أي: نادى قومه وقال لهم ما قال.

ويحتمل أنه:

ناداهم بنفسه.

أو أمر من يناديهم.

والأول أظهر، وقد روي أنه قام فيهم خطيبًا فقال ما قال.

﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْآخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ۝٢٥﴾ النكال: مصدر بمعنى التنكيل، والعامل فيه ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنه بمعناه.

وقيل: العامل محذوف.

و﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ هي: دار الآخرة، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾: الدنيا، فالمعنى: نكال الآخرة بالنار، ونكال الأولى بالغرق.

وقيل: ﴿ٱلْآخِرَةِ﴾ قوله: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾، ﴿وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

وقيل: بالعكس.

فالمعنى: أخذه الله وعاقبه على كلمته الآخرة وكلمته الأولى.

* * *

[﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾﴾].

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ هذا توقيف قُصد به الاستدلال على البعث؛ فإن الذي خلق السماء قادر على خلق الأجساد بعد فنائها.

﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ السَّمْك: غِلَظ السماء، وهو الارتفاع الذي بين سطح السماء الأسفل الذي يلينا وسطحها الأعلى الذي يلي ما فوقها.

ومعنى رَفْعِه: أنه جعله مسيرة خمس مئة عام.

وقيل: السَّمْك: السقف.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ أي: أتقن خِلْقتها.

وقيل: جعلها مستوية ليس فيها مرتفَع ولا منخفض.

﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أي: جعله مظلمًا، يقال: غطَش الليلُ: إذا أظلم، وأغطشه الله.

﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ أي: أظهر ضوء الشمس في وقت الضحى.

وأضاف الليل والضحى إلى السماء من حيث إنهما ظاهران منها وفيها.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠﴾ أي: بسطها.

واستدل بها من قال: إن الأرض بسيطة غير كُرَيَّةٍ.

وقد ذكرنا في «فصلت» الجمع بين هذا وبين قوله: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ [فصلت: ١١][1].

﴿أَخۡرَجَ مِنۡهَا مَآءَهَا وَمَرۡعَىٰهَا ۝٣١﴾ نسب الماء والمرعى إلى الأرض؛ لأنهما يخرجان منها.

فإن قيل: لم قال: ﴿أَخۡرَجَ﴾ بغير حرف العطف؟

فالجواب: أن هذه الجملة في موضع الحال، أو تفسير لما قبلها، قاله الزمخشري[2].

﴿وَٱلۡجِبَالَ أَرۡسَىٰهَا ۝٣٢﴾ أي: أثبتها.

ونصْبُ ﴿ٱلۡجِبَالَ﴾ بفعل مضمر يدل عليه الظاهر، وكذلك ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾.

﴿مَتَٰعًا لَّكُمۡ﴾ تقديره: فعل ذلك كله تمتيعًا لكم ولأنعامكم؛ لأن بني آدم والأنعام ينتفعون بكل ما ذكر.

﴿ٱلطَّآمَّةُ﴾ هي القيامة.

وقيل: النفخة الثانية.

واشتقاقها من قولك: طمَّ الأمرُ: إذا علا وغلب.

---

(١) انظر صفحة ٩.

(٢) الكشاف (١٦/ ٢٨١-٢٨٢).

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ۝٣٦﴾ أي: أُظهرت لكل من يرى، فهي لا تخفى على أحد.

﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ ذكر في سورة «الرحمن»[١].

﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ أي: ردَّها عن شهواتها وأغراضها الفاسدة.

قال بعض الحكماء: إذا أردت الصواب فانظر هواك وخالفْه.

وقال سهلٌ التَّستري: لا يَسلم من الهوى إلا الأنبياء وبعض الصديقين.

﴿أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ ذكر في «الأعراف»[٢].

﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ أي: من ذِكْر[٣] زمانها، والمعنى: لست في شيء من ذكر ذلك، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يَسأل عن الساعة كثيرًا، فلما نزلت هذه الآية انتهى»[٤].

﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي: منتهى علمها، لا يعلم متى تكون إلا هو وحده.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ۝٤٥﴾ أي: إنما بعثت لتنذر بها، وليس عليك الإخبار بوقتها.

وخَصَّ الإنذار بمن يخشاها؛ لأنه هو الذي ينفعه الإنذار.

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ۝٤٦﴾ أخبر أنهم إذا رأوا الساعة

---

(١) انظر: (٢٧٥).

(٢) انظر: (٢/٤٢٤).

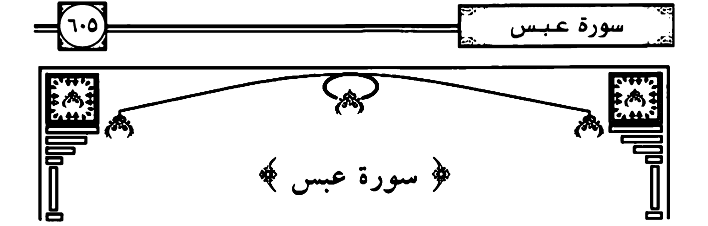
(٣) في ب: «ذكرى».

(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠/ ٣٢٣).

ظنوا أنهم لم يلبثوا في الدنيا أو في القبور إلا عشية يوم أو ضحى يوم.

وأضاف الضحى إلى العشية؛ لما بينهما من الملابسة؛ إذ هما في يوم واحد.

* * *



﴿ سورة عبس ﴾

[﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ۝١٢ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ۝١٦ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۝١٨ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ۝٢٠ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ۝٣٢ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝٣٣ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝٣٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝٣٩ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝٤٠ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝٤١ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾].

سبب نزول صدر هذه السورة: أن رسول الله ﷺ كان حريصًا على إسلام قريش، وكان يدعو أشرافهم إلى الله تعالى ليسلموا، فيُسلم بإسلامهم غيرُهم، فبينما هو يومًا مع رجل من عظمائهم، قيل: هو الوليد بن المغيرة، وقيل: عتبة بن ربيعة، وقيل: أمية بن خلف، وقال ابن عباس: كانوا جماعة = إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، فقال: يا رسول الله علمني مما

علمك الله، وكرر ذلك وهو لا يعلم بتشاغله بالقوم، فكره رسول الله ﷺ قطع الأعمى لكلامه، فعبس وأعرض عنه، وذهب الرجل الذي كان مع رسول الله ﷺ، فنزلت الآية[(١)].

فكان رسول الله ﷺ إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم بعد ذلك يقول: «مرحبا بمن عاتبني فيه ربي»، ويبسط له رداءه[(٢)]، وقد استخلفه على المدينة مرتين.

﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١﴾ أي: عبس في وجه الأعمى وأعرض عنه.

قال ابن عطية: في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العتْب؛ لأن في ذلك بعض الإعراض[(٣)].

وقال الزمخشري: في الإخبار بالغَيبة زيادة في الإنكار[(٤)].

وقال غيرهما: هو إكرام للنبي ﷺ وتنزيه له عن المخاطبة بالعتاب، وهذا أحسن.

﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢﴾ في موضع مفعول من أجله، وهو منصوب بـ ﴿تَوَلَّىٰٓ﴾ أو ﴿عَبَسَ﴾.

وذِكْر ابن أم مكتوم بلفظ الأعمى؛ ليدل أن عماه هو الذي أوجب احتقاره.

وفي هذا دليل على أن ذكر هذه العاهات جائز إذا كان لمنفعة، أو يُشْهَرُ

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١٠٣).

(٢) ذكره مكي بن أبي طالب في الهداية (٨٠٥٣) من قول سفيان الثوري، ولم أقف على إسناده.

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٥٣٦).

(٤) الكشاف (١٦/ ٢٩١).

صاحبُها بها، ومنه قول المحدِّثين: سليمان الأعمش، وعبد الرحمن الأعرج وغير ذلك.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ أي: أيُّ شيء يُطْلعك على حال هذا الأعمى ﴿لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: يتطهر وينتفع في دينه بما يسمع منك.

﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦﴾ أي: تتعرَّض[1] للغني؛ رجاء أن يسلم.

﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧﴾ أي: لا حرج عليك إذا[2] لا يتزكى هذا الغني.

﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝٨﴾ إشارة إلى عبد الله بن أم مكتوم.

ومعنى ﴿يَسْعَىٰ﴾: يسرع في مشيه؛ من حرصه على طلب الخير.

﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝٩﴾ أي: يخشى الله، أو يخاف الكفار وإذايتهم له على إتيانك.

وقيل: جاء وليس معه من يقوده، فكان يخشى أن يقع، وهذا ضعيف.

﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠﴾ أي: تشتغل عنه بغيره، من قولك: لَهِيتُ عن الشيء: إذا تركتَه.

وروي أن رسول الله ﷺ تأدَّب بما أدبه الله في هذه السورة فلم يُعرض بعدها عن فقير ولا تعرَّض لغني، وكذلك اتبعه فضلاء العلماء، فكان الفقراء في مجلس سفيان الثوري كالأمراء، وكان الأغنياء يتمنون أن يكونوا فقراء.

---

(١) في أ، ج، هـ: «يتعرَّض».

(٢) في أ، ب: «إذ».

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن معاودة ما وقع العتاب فيه.

﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: إن هذا الكلام المتقدّم تذكرةٌ؛ أي: موعظة للنبي ﷺ.

والآخر: إن القرآن تذكرة لجميع الناس، فلا ينبغي أن يُؤثَر فيه أحد على أحد، وهذا أرجح؛ لأنه يناسبه: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾، وما بعده.

وأنَّث الضمير في قوله: ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾ على معنى: القصة، أو الموعظة، أو السورة، أو القراءة.

وذكَّره في قوله: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ على معنى: الوعظ، أو الذكر، أو القرآن.

﴿فِى صُحُفٍ﴾ صفة لـ ﴿تَذْكِرَةٌ﴾؛ أي: ثابتة في صحف، وهي الصحف المنتسَخة من اللوح المحفوظ.

وقيل: هي مصاحف المسلمين.

﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ إن كانت الصحف المصاحف: فمعناه مرفوعة المقدار.

وإن كان صحف الملائكة: فمعناه:

كذلك.

أو مرفوعة في السماء.

و﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ أي: منزَّهة عن أيدي الشياطين.

﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾﴾ هم الملائكة.

والسَّفَرة: جمع سافر؛ وهو الكاتب؛ لأنهم يكتبون القرآن في الصحف.

وقيل: لأنهم سفراء بين الله وبين عباده.

وقيل: يعني: القرَّاء من الناس.

والأول أرجح، وقد قال رسول الله ﷺ: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة»[١]، أي: أنه يعمل مثل عملهم في كتابة القرآن وتلاوته، أو له من الأجر على القرآن مثل أجورهم.

﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ دعاءٌ عليه؛ على ما جرت به عادة العرب من الدعاء بهذا اللفظ.

ومعناه: تقبيح حاله، وأنه ممن يستحق أن يقال له ذلك.

وقيل: معناه: لُعِن، وهو بعيد.

﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ تعجُّب[٢] من شدَّة كفره، مع أنه يجب عليه خلاف ذلك.

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ توقيف وتقرير، ثم أجاب عنه بقوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ﴾ يعني: المنيَّ.

ومقصد الكلام: تحقير الإنسان، وأنه يجب عليه أن يعظم الرب الذي خلقه.

﴿فَقَدَّرَهُۥ﴾ أي: هيأه لما يَصلُح له، ومنه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

(٢) في أ: «تعجيب».

وقيل: معناه: جعله على مقدار معلوم في أعضائه وأجله ورزقه وغير ذلك.

﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ نصب ﴿ٱلسَّبِيلَ﴾ بفعل مضمر فسَّره ﴿يَسَّرَهُۥ﴾.

وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: يسر سبيل خروجه من بطن أمه.

والآخر: أنه سبيل الخير أو الشر، كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

الثالث: سبيل النظر السديد المؤدي إلى الإيمان.

والأول أرجح؛ لعطفه على قوله: ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ۝١٩﴾، وهو قول ابن عباس.

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ۝٢١﴾ أي: جعله ذا قبر، يقال: قَبَرتُ الميت: إذا دفنتَه، وأقبرتُه: إذا أمرتَ أن يُدفَن.

﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝٢٢﴾ أي: بعثه من قبره، يقال: نشَر الميتُ: إذا قام، وأنشرَه اللهُ.

والإشارة بـ ﴿إِذَا شَآءَ﴾ ليوم القيامة، أي: الوقت الذي قدَّر أن يَنشره فيه.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان عما هو فيه.

﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ أي: لم يقض الإنسان - على تطاول عمره - ما أمره الله.

قال بعضهم: لا يقضي أحدٌ أبدًا جميع ما افترض الله عليه؛ إذ لا بدَّ للعبد من تفريط.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ أمرٌ بالاعتبار في الطعام؛ كيف خلقه الله بقدرته، ويسَّره برحمته، فيجب على العبد طاعتُه وشكره، ويَقبُح معصيته والكفر به.

وقيل: فلينظر إلى طعامه إذا صار رجيعًا؛ فيرى حقارة الدنيا وخساسة نفسه.

والأول أشهر وأظهر في معنى الآية، على أن القول الثاني صحيح.

وانظر كيف فسره بقوله: ﴿إِنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ وما بعده؛ ليعدِّد النعم ويظهر القدرة.

وقرئ ﴿أَنَّا صَبَبْنَا﴾ بفتح الهمزة؛ على البدل من الطعام.

﴿شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يعني: بخروج النبات منها.

﴿حَبًّا﴾ يعني: القمح والشعير وسائر الحبوب.

﴿وَقَضْبًا﴾ قيل: هي الفِصْفِصة[1].

وقيل: علف البهائم.

واختار ابن عطية: أنها البقول وشبهها مما يؤكل رَطبًا[2].

---

(١) هي نَبات كالبرسيم. المعجم الوسيط.

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٥٤١).

﴿غُلْبًا﴾ أي: غليظة ناعمة.

﴿وَأَبًّا﴾ الأبُّ: المرعى عند ابن عباس والجمهور.

وقيل: التِّبْن[١].

وقد توقف في تفسيره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

﴿الصَّآخَّةُ﴾ من أسماء القيامة، وهي مشتقة من قولك: صخَّ الآذانَ: إذا أصمَّها بشدة صياحه، فكأنه إشارة:

إلى النفخة في الصور.

أو إلى شدة الأمر حتى يَصِخُّ[٢] من يسمعه؛ لصعوبته.

وقيل: هي من قولك: أصاخ للحديث: إذا استمعه.

والأول هو الموافق للاشتقاق.

﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ الآيةَ، ذكر فرار الإنسان من أحبابه، ورتبهم على ترتيب الحنُوِّ والشفقة، فبدأ بالأقل وختم بالأكثر؛ لأن الإنسان أشد شفقة على بنيه مِن كلِّ مَن تقدم ذكره؛ وإنما يفر منهم لاشتغاله بنفسه.

وقيل: إن فراره منهم؛ لئلا يطالبوه بالتَّبِعات.

والأول أرجح وأظهر؛ لقوله: ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ أي: هو مشغول بشأنه من الحساب والثواب والعقاب، حتى لا يسعه ذكر غيره،

---

(١) في ج، د: «التين» بالياء، والمثبت هو الصواب، كما في تفسير الثعلبي الكشاف والبيان (١٠/ ١٣٣).

(٢) في د: «يصم».

وانظر قول الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يومئذ: «نفسي نفسي»[(١)].

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝٣٨﴾ أي: مضيئة من السرور، وهو من قولك: أسفر الصبح: إذا أضاء.

﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ أي: غبار.

والقترة أيضًا: الغبار.

فقال ابن عطية: الغبرة: هي من العبوس والكرب، كما يعتري وجهَ المهموم والمريض، والقترة: هي غبار الأرض[(٢)].

وقال الزمخشري: الغبرة: غبار يعلوها، والقترة: سواد، فيعظم قبحها[(٣)] باجتماع الغبار والسواد[(٤)].

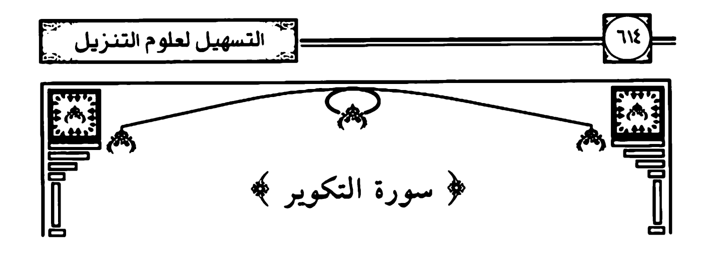
---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٥٤٣).

(٣) في ج: «قبحهم».

(٤) الكشاف (١٦/ ٣٠٣).



﴿ سورة التكوير ﴾

ذكر الله في هذه السورة أهوال القيامة، وما يعتري الموجودات حينئذ من التغيير.

[﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ۝٤ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝٧ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ۝١١ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ۝١٣ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ۝١٤ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ۝١٨ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾].

﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ ابن عباس: ذهب ضوؤها فأظلمت.

وقيل: رمي بها.

وقيل: اضمحلَّت.

وأصله من تكوير العمامة؛ لأنها إذا لُفَّت زال انبساطها وصغر جِرْمها.

﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾ أي: تساقطت من مواضعها.

وقيل: تغيرت.

والأول أرجح؛ لأنه موافق لقوله: ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ۝٢﴾ [الانفطار: ٢].

وروي أن الشمس والنجوم تطرح في جهنم؛ ليراها من عبدها، كما قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ أي: حُملت، وبعد ذلك تُفَتُّ[1] فتصير هباء ثم تتلاشى.

﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ العشار: جمع عُشَراء، وهي الناقة الحامل التي مر لحملها عشرة أشهر، وهي أنفس ما عند العرب وأعزُّها، فلا تُعطَّل إلا من شدة الهول.

وتعطيلها: هو تركها مسيَّبة، أو ترك حلبها.

﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾ أي: جُمعت، وفي صفة حشرها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها تحشر؛ أي: تبعث يوم القيامة، ليقتصَّ لبعضها من بعض ثم تكون ترابًا.

والآخر: أنها تحشر بموتها دَفعة واحدة عند هول القيامة، قاله ابن عباس، وقال: إنها لا تُبعث، وإنه لا يَحضر القيامةَ إلا الإنس والجن.

والثالث: أنها تجمع في أول أهوال القيامة وتفرُّ في الأرض، فذلك حشرها.

---

(١) في ب: «تفتتت»، وفي د: «تفتت».

﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ۝﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: ملئت وفجِّر بعضها إلى بعض حتى تعود بحرًا واحدًا.

والآخر: مُلئت نيرانًا؛ لتعذيب أهل النار.

والثالث: فُرِّغت من مائها ويَبست.

وأصله: من سجَّرتُ التنور: إذا ملأتَها.

فالقول الأول والثاني: أليق بالأصل.

والأول والثالث: موافق لقوله: ﴿فُجِّرَتْ﴾ [الانفطار: ٣].

﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ۝﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن التزويج بمعنى التنويع؛ لأن الأزواج هي الأنواع، فالمعنى: جعل الكافر مع الكافر والمؤمن مع المؤمن.

والآخر: زوِّجت نفوس المؤمنين بزوجاتهم من الحور العين.

والثالث: زوجت الأرواح والأجساد؛ أي: رُدَّت إليها عند البعث.

والأول هو الراجح؛ لأنه مروي عن النبي ﷺ[1]، وعن عمر بن الخطاب وابن عباس.

﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝﴾ الموؤودة: هي البنت التي كان بعض العرب يدفنها حية من كراهته لها، ومن غَيرته عليها، فتُسأل يوم القيامة: ﴿بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝﴾ على وجه التوبيخ لقاتلها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣٣٣٠).

وقرأ ابن عباس: «وإذا الموؤودة سَألتْ» - بفتح السين والهمزة - «بأيِّ ذنبٍ قُتِلْتُ» - بضم القاف وسكون اللام وضم التاء -.

واستدل ابن عباس بهذه الآية على أن أولاد المشركين في الجنة؛ لأن الله ينتصر لهم ممن ظلمهم.

﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠﴾ هي صحف الأعمال، تنشر ليقرأ كل أحد كتابه.

وقيل: هي الصحف التي تتطاير بالأيمان والشمائل بالجزاء.

﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١﴾ الكَشْطُ: هو التقشير، كما يُكشط جلدة الشاة حين تسلخ.

وكشط السماء: هو طيها كطي السجل، قاله ابن عطية[1].

وقيل: معناه كُشفت، وهذا أليق بالكشط.

﴿وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢﴾ أي: أوقدت وأُحميت[2].

﴿وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ ۝١٣﴾ أي: قربت.

﴿عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّآ أَحۡضَرَتۡ ۝١٤﴾ هذا جواب ﴿إِذَا﴾ المكررة في المواضع قبل هذا.

ومعناه: علمت كل نفس ما أحضرت من عمل، فلفظ النفس مفرد يراد به الجنس والعموم.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٥٤٨).

(٢) في أ، هـ: «وحميت».

قال ابن عطية: إنما أفردها؛ ليبين حقارتها وذِلَّتها[١].

وقال الزمخشري: هذا من عكس كلامهم الذي يقصد به الإفراط فيما يعكس عنه، كقوله: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الحجر: ٢] ومعناه التكثير، وكذلك هنا معناه: أعم الجموع[٢].

و﴿مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ عبارة عن الحسنات والسيئات.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ ذكرت نظائره[٣].

﴿بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ يعني: الدراري السبعة، وهي الشمس والقمر وزُحَل وعُطَارد والمريخ والزُّهَرة والمشتري.

وذلك أن هذه الكواكب تَخنس في جريها؛ أي: تتقهقر، فيكون النجم في البرج ثم يَكرُّ راجعًا.

وهي جواري في الفلك.

وهي تَكنِس[٤] في أبراجها؛ أي: تستتر، وهو مشتق من قولك: كنَسَ الوحشِيُّ: إذا دخل كِنَاسَه، وهو موضعه.

وقيل: يعني: الدراري الخمسة؛ لأنها تستتر بضوء الشمس.

وقيل: يعني: النجوم كلها؛ لأنها تَخنس في جريها، وتكنس بالنهار؛

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٥٤٩).

(٢) الكشاف (١٦/ ٣١٣-٣١٤).

(٣) انظر صفحة ٢٩٧.

(٤) في أ، هـ: «تتكنس».

أي: تستتر، وتخفى بضوء الشمس.

وقيل: يعني: بقر الوحش، فـ ﴿الْخُنَّسِ﴾ على هذا: من خنَسِ الأنف، و﴿ٱلْكُنَّسِ﴾ من سُكْناها في كِنَاسِها.

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ يقال عسعس الليل: إذا كان غير مستحكم الظلام:

فقيل: ذلك في أوله.

وقيل: في آخره، وهذا أرجح؛ لأن آخر الليل أفضل(١)، ولأنه أعقبه بقوله: ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ أي: استطار واتسع ضوؤه.

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ الضمير للقرآن.

والرسول الكريم: جبريل.

وقيل: محمد ﷺ.

قال السهيلي: لا يجوز أن يقال إنه محمد عليه السلام؛ لأن الآية نزلت في الرد على الذين قالوا: إن محمدًا قال القرآن، فكيف يخبر الله أنه قوله؟، وإنما أراد جبريل، وأضاف القرآن إليه؛ لأنه جاء به، وهو في الحقيقة قول الله تعالى(٢).

وهذا الذي قال السهيلي لا يلزم؛ فإنه قد يضاف إلى محمد ﷺ؛ لأنه تلقاه عن جبريل عليه السلام، وجاء به إلى الناس.

ومع ذلك فالأظهر: أنه جبريل؛ لأنه وصفه بقوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ وقد وصف

---

(١) في هامش ب صححت: «أضوأ».

(٢) التعريف والإعلام للسهيلي (ص: ٣٦٥).

جبريل بهذا في قوله: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ٥ - ٦].

﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ يتعلق بـ ﴿ذِى قُوَّةٍ﴾.

وقيل: بـ ﴿مَكِينٍ﴾، وهذا أظهر.

والمكين: الذي له مكانة؛ أي: جاه وتقريب.

﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ هذا الظرف إشارة إلى الظرف المذكور قبله، وهو قوله: ﴿عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: مطاعٍ في ملائكة ذي العرش.

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢﴾ هو محمد ﷺ باتفاق.

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ ضمير الفاعل: لمحمد ﷺ، وضمير المفعول: لجبريل عليه السلام.

وهذه الرؤية: هي رؤيته له بغار حراء على كرسي بين السماء والأرض.

وقيل: هي الرؤية التي رآه عند سدرة المنتهى في الإسراء.

ووصف هذا الأفق بالمبين؛ لأنه روي أنه كان في الشرق[١] من حيث تطلع الشمس، وأيضًا فكل أفق فهو مبين.

﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤﴾ الضمير للنبي ﷺ.

ومن قرأ بالضاد: فمعناه بخيل؛ أي: لا يَبخَل بأداء ما أُلقي إليه من الغيب، وهو الوحي.

ومن قرأ بالظاء: فمعناه متَّهم؛ أي: لا يُتَّهم على الوحي، بل هو أمين عليه.

---

(١) في أ، هـ: «المشرق».

ورجَّح بعضهم هذه القراءة: بأن الكفار لم يَنسبوا رسول الله ﷺ إلى البخل بالوحي، بل اتهموه، فنفَى عنه ذلك.

﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥﴾ الضمير للقرآن.

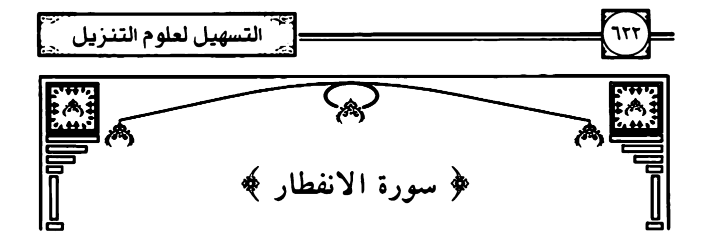
﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦﴾ خطابٌ لكفار قريش؛ أي: ليس لكم زوال عن هذه الحقائق.

وقد تقدم تفسير بقية السورة في نظائره فيما تقدم[1].

* * *

---

(١) انظر الصفحات ٤٦٤، ٥٤٧، ٥٧٣.



﴿ سورة الانفطار ﴾

[﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤ عَلِمَتۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ وَأَخَّرَتۡ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨ كَلَّا بَلۡ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعۡلَمُونَ مَا تَفۡعَلُونَ ۝١٢ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٖ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ۝١٤ يَصۡلَوۡنَهَا يَوۡمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمۡ عَنۡهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ ۝١٩﴾].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتۡ ۝١﴾ أي: انشقت.

﴿وَإِذَا ٱلۡكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتۡ ۝٢﴾ أي: سقطت من مواضعها.

﴿وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ فُجِّرَتۡ ۝٣﴾ أي: فرِّغت.

وقيل: فجِّر بعضها إلى بعض فاختلطت.

﴿وَإِذَا ٱلۡقُبُورُ بُعۡثِرَتۡ ۝٤﴾ أي: نُبشت عن الموتى الذين فيها.

وقال الزمخشري: أصله من البعث والبحث فضمت إليها الراء، والمعنى: بُحثت وأخرج موتاها(١).

---

(١) الكشاف (١٦/ ٣٢٣).

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾ هذا هو الجواب، ومعناه: علمت كل نفس جميع أعمالها.

وقيل: ما قدمت في حياتها وما أخرت مما تركته بعد موتها من سُنَّة[1] سنَّتها أو وصيَّة أوصت بها.

وأفردت النفس والمراد بها العموم حسَبما ذكرنا في «التكوير»[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾ خطاب لجنس بني آدم.

﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ هذا توبيخ وعتاب، معناه: أيُّ شيءٍ غرَّك بربك حتى كفرت به، أو عصيته، أو غفَلت عنه؟

فدخل في العتاب: الكفار وعصاة المؤمنين، ومن يغفُل عن الله في بعض الأحيان من الصالحين.

وروي أن رسول الله ﷺ قرأ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ فقال: «غرَّه جهله»[3].

وقال عمر: «غرَّه جهله وحمقه»، وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب: ٧٢]».

وقيل: غرَّه الشيطان المسلَّط عليه.

وقيل: غرَّه ستر الله عليه.

---

(١) في أ، هـ: «حسنة».

(٢) انظر صفحة ٦١٧.

(٣) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٤٦).

وقيل: غرَّه طمعه في عفو الله عنه.

ولا تعارض بين هذه الأقوال؛ لأن كل واحد منها مما يغرُّ الإنسان، إلا أن بعضها يغرُّ قومًا وبعضها يغر قومًا آخرين.

فإن قيل: ما مناسبة وصفه بالكريم هنا للتوبيخ على الغرور؟

فالجواب: أن الكريم ينبغي أن يعبد ويطاع؛ شكرًا لإحسانه ومقابلةً لكرمه، ومن لم يفعل ذلك فقد كفر النعمةَ[1] وأضاع الشكر الواجب.

﴿فَعَدَّلَكَ﴾ بالتشديد والتخفيف؛ أي: عدَّل أعضاءك وجعلها متوازنة[2]، فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى، ولا إحدى العينين أكبر من الأخرى، ولا إحداهما كَحْلاء والأخرى زرقاء، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضه[3] أسود، وشبه ذلك من الموازنة.

﴿فِيٓ أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ المجرور يتعلق بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾، و﴿مَّا﴾ زائدة.

والمعنى: ركبك في أي صورة شاء من الحسن والقبح، والطول والقِصَر، والذكورة والأنوثة[4]، وغير ذلك من اختلاف الصور.

ويحتمل أن يتعلق المجرور بمحذوف تقديره: ركبك حاصلًا في أي صورة.

---

(١) في ب، د: «بالنعمة».

(٢) في أ، هـ: «متوازية».

(٣) في ج: «وبعضها».

(٤) في ب: «والذكورية والأنوثية».

وقيل: يتعلق بـ ﴿عَدَلَكَ﴾ على أن يكون بمعنى صرَفك؛ أي: صرفك إلى أي صورة شاء، وهذا بعيد، ولا يتمكن إلا مع قراءة ﴿عَدَلَكَ﴾ بالتخفيف.

﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن الغرور المذكور قبلُ، أو التكذيبِ المذكور بعدُ.

﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ هذا خطاب للكفار.

والدين هنا يحتمل أن يكون بمعنى الشريعة، أو الحساب، أو الجزاء.

﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝١٠﴾ يعني: الملائكة الذين يكتبون أعمال بني آدم.

﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾ يعلمون الأعمال بمشاهدتهم لها.

وأما ما لا يُرى ولا يسمع من الخواطر والنيات والذكر بالقلب:

فقيل: إن الله ينفرد بعلم ذلك.

وقيل: إن الملك يجد لها ريحًا يدركها به.

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣﴾ في هذه الآية وفيما بعدها من أدوات البيان: المطابقة والترصيع.

﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ۝١٦﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: لا يخرجون منها إذا دخلوها.

والآخر: لا يغيبون عنها في البرزخ قبل دخولها؛ لأنهم يعرضون عليها غدوًا وعشيًا.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧﴾ تعظيم له وتهويل، وكرَّره للتأكيد، والمعنى: أنه من شدته بحيث لا يدري أحدٌ مقدار هوله وعظَمته.

﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ﴾ أي: لا يقدر أحد على منفعة أحد.

وقرئ ﴿يَوۡمَ﴾:

بالرفع:

على البدل من ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾.

أو على إضمار مبتدإ.

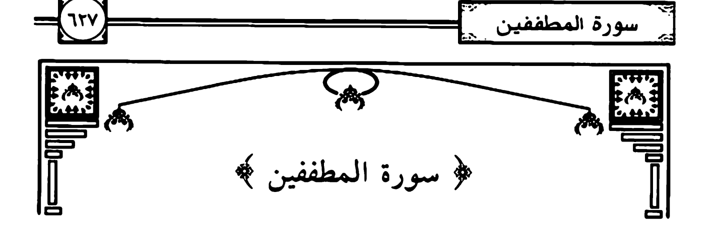
وبالنصب:

على الظرفية بإضمار فعل تقديره: يُجازَون يوم الدين.

أو النصب على المفعولية بإضمار فعل تقديره: اذكر.

ويجوز أن يفتح؛ لإضافته إلى غير متمكّن، وهو في موضع رفع.

* * *



﴿ سورة المطففين ﴾

[﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣ أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝٧ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝٨ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ۝١١ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٤ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ ۝١٦ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ۝١٧ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٢٠ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝٢٢ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٢٣ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝٢٤ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢٨ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ۝٣١ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝٣٢ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ۝٣٣ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝٣٤ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝٣٥ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾].

﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ التطفيف في اللغة: هو البخس والنقص، فسره بذلك

الزمخشري[١]، واختاره ابن عطية[٢].

وقيل: هو تجاوز الحد في زيادة أو نقصان، واختاره ابن الفرس[٣]، وهو أظهر؛ لأن المراد به هنا: بخس حقوق الناس في المكيال والميزان، بأن يزيد الإنسان على حقه أو يَنقص من حق غيره.

وسبب نزول السورة: أنه كان بالمدينة رجل يقال له أبو جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطي بالأنقص[٤]، فالسورة على هذا مدنية.

وقيل: مكية؛ لذكر أساطير الأولين.

وقيل: نزل بعضها بمكة، ونزل أمر التطفيف بالمدينة؛ إذ كانوا أشد الناس فسادًا في هذا المعنى، فأصلحهم الله بهذه السورة.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢﴾ معنى ﴿ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾: قبضوا منهم بالكيل، فـ ﴿عَلَىٰ﴾ بمعنى «مِن»، وإنما أبدلت منها؛ لما تضمَّن الكلام من معنى التحامل عليهم.

ويجوز أن يتعلق ﴿عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ بـ ﴿يَسۡتَوۡفُونَ﴾، وقُدِّم المعمول لإفادة التخصيص.

﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ﴾ معنى ﴿يُخۡسِرُونَ﴾: يَنقصون حقوقَ الناس وهو من الخسارة، يقال: خَسرَ الرجلُ، وأَخسره غيرُه: إذا جعله يخسر.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٣٣٣).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٥٥٧).

(٣) أحكام القرآن (٣/ ٦١٣).

(٤) في أ: «بالناقص».

و﴿ كَالُوهُمْ﴾ معناه: كالوا لهم، و﴿وَزَنُوهُمْ﴾ معناه: وزنوا لهم، ثم حذف حرف الجرِّ فانتصب المفعول؛ لأن هذين الفعلين يتعدى كل واحد منهما تارة بنفسه وتارة بحرف جرٍّ، يقال: كِلْتُكَ وكِلْتُ لك، ووَزنتك ووزنت لك بمعنى واحد.

وحُذف المفعول الثاني، وهو المكيل والموزون.

والواو التي هي ضمير الفاعل: للمطففين.

و«هم» الذي هو ضمير المفعول: للناس.

فالمعنى: إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم طعامًا أو غيره مما يكال أو يوزن بخَسوهم[1] حقوقهم.

وقيل: إن «هم» في قوله: ﴿ كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ﴾ تأكيد للضمير الفاعل.

وقد روي عن حمزة أنه كان يقف على «كالوا» و«وزنوا» ثم يبتدئ «هم»؛ ليبين هذا المعنى، وهو ضعيف من وجهين:

أحدهما: أنه لم يثبت في المصحف ألف بعد الواو في «كالوا» و«وزنوا» فدلَّ ذلك على أن «هم» ضمير المفعول.

والآخر: أن المعنى على هذا: أن المطففين إذا تولوا الكيل أو الوزن نَقصوا، وليس ذلك بمقصود؛ لأن الكلام واقع في الفعل لا في المباشِر، ألَا ترى أن ﴿ ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ معناه: قبضوا منهم، و﴿ كَالُوهُمْ﴾ و﴿وَزَنُوهُمْ﴾ معناه: دفعوا لهم؛ فقابل القبض بالدفع، وأما على هذا الوجه الضعيف

(١) في د: «يخسرونهم».

فهو خروج عن المقصود.

قال ابن عطية: ظاهر الآية: أن الكيل والوزن على البائع وليس ذلك بالجلي، قال: وصدر الآية في المشترين، فهم الذين يستوفون؛ أي[١]: يشاحُّون ويطلبون الزيادة، وقوله: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝٣﴾ في البائعين؛ فهم الذين يُخْسِرون المشتري[٢].

﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝٤ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥﴾ يعني: يوم القيامة، وهذا تهديد للمطففين، وإنكار لفعلهم.

وكان عبد الله بن عمر إذا مر بالبائع يقول له: «اتق الله!، وأوف الكيل، فإن المطففين يُوقفون يوم القيامة لعظمة الرحمن».

﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦﴾ الظرف:

منصوب: بقوله: ﴿مَّبْعُوثُونَ﴾، وقيل: بفعل مضمر.

أو بدل من ﴿يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

وقيام الناس يوم القيامة على حسَب اختلافهم، فمنهم من يقوم خمسين ألف سنة وأقل من ذلك، حتى إن المؤمن يقوم على قدر صلاة مكتوبة.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ على التطفيف، أو افتتاحُ كلام.

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ﴾ كتاب الفجار: هو ما يكتب من أعمالهم.

---

(١) في د: «أو».

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٥٥٨).

والفجار هنا يَحتمل أن يراد به:

الكفار.

أو المطففين وإن كانوا مسلمين.

والأول أظهر؛ لقوله بعد هذا: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾﴾.

و﴿سِجِّينٌ﴾: اسم علَم منقول من صفة، على وزن فِعِّيل للمبالغة، وقد عظَّم أمره بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾﴾، ثم فسَّره بأنه: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾﴾ أي: مسطورٌ بيِّنُ الكتابة، وهو كتاب جامع يكتب فيه أعمال الشياطين والكفار والفجار.

وهو مشتق من السِّجْن بمعنى الحبس:

لأنه سبب الحبس والتضييق في جهنم.

أو لأنه مطروح في مكان الهوان والعذاب كالسجن، فقد روي عن النبي ﷺ: «أنه في الأرض السفلى»[١]، وروي عنه: «أنه في بئر هنالك»[٢]، وحكى كعب عن التوراة: «أنه في شجرة سوداء هنالك»[٣].

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون معنى الآية: أن عِدَاد[٤] الفجار في سجين؛ أي: كُتبوا هنالك في الأزل[٥].

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١٩٧).

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ١٩٦).

(٣) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٥٢).

(٤) في أ، ب، د: «عدد»، والمثبت موافق لعبارة المحرر الوجيز.

(٥) المحرر الوجيز (٨/ ٥٥٩).

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قد ذكر[١].

﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي: غطَّى على قلوبهم ما كسَبوا من الذنوب، فطمس بصائرَهم، فصاروا لا يعرفون الرشد من الغي.

وفي الحديث: «إن العبد إذا أذنب ذنبًا صارت نكتة سوداء في قلبه، فإذا زاد ذنبًا آخر زاد السواد، فلا يزال كذلك حتى يتغطى، وهو الرَّين»[٢].

﴿لَّمَحْجُوبُونَ﴾ حجْبُ الكفار عن الله دليلٌ على أن المؤمنين لا يُحجبون عنه، وقد استدل بها مالك والشافعي على صحة رؤية المؤمن لله في الآخرة.

وتأولها المعتزلة أن معناها: محجوبون عن رحمته.

﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾ عِلِّيُّون: اسم علم للكتاب الذي تكتب فيه الحسنات، وهو جمع منقول من صفةٍ علَى وزنِ فِعِّيل للمبالغة، وقد عظَّمه بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾﴾، ثم فسَّره بقوله: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾، وهو مشتقٌّ من العلوِّ؛ لأنه سببٌ في ارتفاع الدرجات في الجنة، أو لأنه مرفوع في مكان عَلِيٍّ، فقد روي عن النبي ﷺ أنه تحت العرش[٣].

وقال ابن عباس: هو[٤] الجنة.

وارتفع ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ في الموضعين: على أنه خبر ابتداء مضمر، تقديره: هو كتاب.

---

(١) انظر: (٢/٢٥٤).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٥٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤).

(٣) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٥٤).

(٤) في ب زيادة: «في».

وقال ابن عطية: ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝٩﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾ والظرف[١] مُلغًى[٢]. **وهذا تكلُّف يَفسد به المعنى.**

وقد روي في الأثر ما يفسر الآية، وهو «أن الملائكة تصعد بصحيفة فيها عمل العبد، فإن رضيه الله قال: اجعلوه في عليين، وإن لم يرضه قال: اجعلوه في سجين»[٣].

﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ يعني: الملائكة المقربين.

﴿ٱلْأَرَآئِكِ﴾ قد ذكر[٤].

﴿يَنظُرُونَ﴾ روي عن النبي ﷺ أنه قال: «ينظرون إلى أعدائهم في النار»[٥].

وقيل: ينظرون إلى الجنة وما أعطاهم الله فيها.

﴿نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي: بهجته ورَوْنقه، كما يُرى في وجوه أهل الرفاهيَة والعافية.

والخطاب في ﴿تَعْرِفُ﴾: للنبي ﷺ، أو لكل مخاطب من غير تعيين.

﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ﴾ الرحيق: الخمر الصافية.

والمختوم: قد فسره الله بأن ختامه مسك.

---

(١) الذي هو ﴿لَفِى سِجِّينٍ﴾، و﴿لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.
(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٥٦٠).
(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص: ١٥٣).
(٤) انظر (٣/٢٦)، (٣/٦٤٤).
(٥) ذكره المهدوي في كتابه التحصيل (٧/ ٥٥)، وذكر الثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٥٥) من قول مقاتل.

وقرئ ﴿خِتَـٰمُهُۥ﴾ بألف بعد التاء، و﴿خَـٰتَمُهُۥ﴾ بألف بعد الخاء، وبفتح التاء وكسرها.

وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه من الختم على الشيء، بمعنى جعل الطَّابع عليه، فالمعنى: أنه خُتم على فم الإناء الذي هو فيه بالمسك، كما يختم على أفواه آنية الدنيا بالطين إذا قصد حفظها وصيانتها.

الثاني: أنه من ختْم الشيء؛ أي: تمامه، فمعناه: خاتم شربه مسك؛ أي: يجد الشارب عند آخر شُربه رائحة المسك ولذَّته.

الثالث: أن معناه: مزاجه مسك؛ أي: يمزج الشراب بالمسك، وهذا خارج عن اشتقاق اللفظ.

﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَـٰفِسُونَ﴾ التنافس في الشيء: هو الرغبة فيه، والمغالاة في طلبه، والتزاحم عليه.

﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ ﴿تَسْنِيمٍ﴾: اسم علَم لعين في الجنة، يشرب منها[1] المقربون صِرْفًا، ويُمزج منه الرحيق الذي يَشرب منه الأبرار، فدل ذلك على أن درجة المقربين فوق درجات الأبرار، فالمقربون هم السابقون، والأبرار أصحاب اليمين.

﴿عَيْنًا﴾ منصوب:

على المدح بفعل مضمر.

---

(١) في ب، د: «منه».

أو على الحال من ﴿تَسْنِيمٍ﴾ .

﴿يَشْرَبُ بِهَا﴾ بمعنى: يشربها، فالباء زائدة.

ويحتمل أن يكون بمعنى: «يشرب منها»، أو كقولك: «شربت الماء بالعسل».

﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾﴾ نزلت هذه الآية في صناديد قريش، كأبي جهل وغيره، مرَّ بهم عليُّ بن أبي طالب ﷺ وجماعة من المؤمنين، فضحكوا منهم واستخفوا بهم.

﴿وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ معنى ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ : يغمز بعضهم إلى بعض ويشير بعينه.

والضمير في ﴿مَرُّوا﴾ يحتمل أن يكون: للمؤمنين أو للكفار.

والضمير في ﴿يَتَغَامَزُونَ﴾ للكفار لا غير.

﴿فَكِهِينَ﴾ من الفَكاهة، وهي اللهو؛ أي: يتفكهون بذكر المؤمنين، والاستخفاف بهم، قاله الزمخشري[1].

ويحتمل أن يريد: يتفكهون بنعيم[2] الدنيا.

﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾﴾ أي: إذا رأى الكفار المؤمنين نسبوهم إلى الضلال.

وقيل: إذا رأى المؤمنون الكفار نسبوهم إلى الضلال.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٣٥١).

(٢) في ج، هـ: «بنعم».

والأول أظهر وأشهر.

﴿وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ﴾ أي: ما أرسل الكفار حافظين على المؤمنين يحفظون أعمالهم ويشهدون برشدهم أو ضلالهم، فكأنه قال: كلامهم بالمؤمنين(١) فضول منهم.

﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ يعني: بـ﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾ يوم القيامة؛ إذ تقدم ذكره، فيضحك المؤمنون فيه من الكفار، كما ضحك الكفار منهم في الدنيا.

﴿هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾ معنى ﴿ثُوِّبَ﴾: جوزي، يقال: ثوَّبه وأثابه: إذا جازاه.

وهذه الجملة يحتمل:

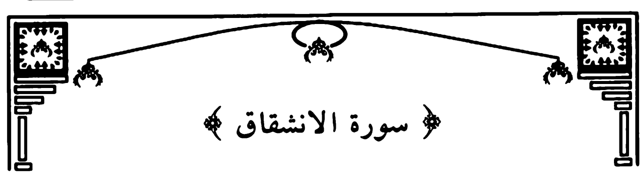
أن تكون متصلة بما قبلها، في موضع معمول ﴿يَنظُرُونَ﴾، فتوصل مع ما قبلها.

أو تكون توقيفًا، فيوقف قبلها، ويكون معمول ﴿يَنظُرُونَ﴾ محذوفًا، حسَبما ذكرنا في ﴿يَنظُرُونَ﴾ الذي قبل هذا، وهذا أرجح؛ لاتفاق الموضعين.

* * *

---

(١) في ب: «في المؤمنين».



﴿ سورة الانشقاق ﴾

[﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۝٤ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ۝٢١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٤ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾].

﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ اختُلف في هذا الانشقاق:

هل هو تشققها[1] بالغمام؟

أو انفتاحها أبوابًا؟

وجواب ﴿إِذَا﴾ محذوف؛ ليكون أبلغ في التهويل؛ إذ يقدِّر السامع أقصى ما يتصوره.

---

(١) في ب: «انشقاقها».

أو حذف للعلم به؛ اكتفاءً بما في سورة «التكوير» و«الانفطار» من الجواب.

وقيل: الجواب: ما دل عليه: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ أي: إذا السماء انشقت لقِي[1] الإنسان ربه.

وقيل: الجواب: ﴿أَذِنَتْ﴾ على زيادة الواو، وهذا ضعيف.

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ معنى ﴿أَذِنَتْ﴾ في اللغة: استمعت، وهو عبارة عن طاعتها لربها، وأنها انقادت إليه حين أراد انشقاقها.

وكذلك طاعة الأرض لما أراد مدَّها وإلقاءَ ما فيها.

﴿وَحُقَّتْ﴾ أي: حُقَّ لها أن تسمع وتطيع لربها.

أو حق لها أن تنشق من أهوال القيامة.

وهذه الكلمة من قولهم: «هو حقيقٌ بكذا»، أو «محقوقٌ به»؛ أي: يجب عليه أن يفعله.

فالمعنى: يحِقُّ على السماء أن تسمع وتطيع لربها، أو يحق عليها أن تنشق.

ويحتمل أن يكون أصله: «حَقُقَتْ» بفتح الحاء وضم القاف على معنى التعجب، ثم أدغمت القاف في القاف التي بعدها، ونقلت حركتها إلى الحاء.

---

(١) في ج، هـ: «لاقى».

﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾ أي: زال ما عليها من الجبال حتى صارت مستوية.

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ أي: ألقت ما في جوفها من الموتى، فخرجوا للحشر.

وقيل: ألقت ما فيها من الكنوز، وهذا ضعيف؛ لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال قبل القيامة، والمقصود ذكر يوم القيامة.

﴿وَتَخَلَّتْ﴾ أي: بقيت خالية مما كان فيها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ خطاب للجنس.

﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ **الكَدْح في اللغة:** هو الجد والاجتهاد والسرعة.

فالمعنى: إنك في غاية الاجتهاد في السير إلى ربك؛ لأن الزمان يطير[1]، وأنت في كل لحظة تقطع حظًّا من عمرك القصير، فكأنك سائر مسرع إلى الموت، ثم تلاقي ربك.

وقيل: المعنى: إنك ذو جِد فيما تعمل من خير أو شر، ثم تلقى ربك فيجازيك به.

والأول أظهر؛ لأن ﴿كَادِحٌ﴾ تعدى بـ ﴿إِلَىٰ﴾؛ لمَّا تضمَّن معنى السير، ولو كان بمعنى العمل لقال: «لربك».

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ ذكر في «الحاقة»[2].

---

(١) في د: «يُدْبر».

(٢) انظر صفحة ٤٧٢.

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾ يحتمل أن يكون اليسير:

بمعنى قليل.

أو بمعنى هيِّن سهل.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «من نوقش الحساب عُذِّب»، فقالت عائشة: ألم يقل الله: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾. فقال رسول الله ﷺ: «إنما ذلك العرض، وأما من نوقش الحساب فيَهلِك»[1]، وفي الحديث أيضًا عن رسول الله ﷺ: «إن الله يدني العبد يوم القيامة حتى يضع كنَفه عليه فيقول: فعلتَ كذا وكذا، ويعدد عليه ذنوبه، ثم يقول: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[2]، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «من حاسب نفسه في الدنيا هوَّن الله حسابه يوم القيامة»[3].

﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩﴾ أي: يرجع إلى أهله في الجنة مسرورًا بما أعطاه الله.

والأهل: زوجاته في الجنة من نساء الدنيا، أو من الحور العين.

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٥)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٣) لم أقف عليه مرفوعًا، ووجدته من قول عمر ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون عليكم في الحساب غدا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية»، أخرجه أحمد في الزهد (ص: ١٢٠)، وابن أبي الدنيا في محاسبة النفس (ص: ٢٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ١٥٧).

ويحتمل أن يريد: قرابته من المؤمنين، وبذلك فسره الزمخشري[١].

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠﴾ يعني: الكافر.

وروي أن هاتين الآيتين نزلتا في أبي سلمة ابن عبد الأسد، وكان من فضلاء المؤمنين، وفي أخيه أسود، وكان من عتاة الكافرين.

ولفظها أعم من ذلك.

فإن قيل: كيف قال في الكافر هنا إنه يؤتى كتابه ﴿وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾، وقال في «الحاقة»: ﴿بِشِمَالِهِۦ﴾ [الحاقة: ٢٥]؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن يديه تكونان مغلولتين إلى عنقه، وتجعل شماله وراء ظهره[٢] فيأخذ بها كتابه.

وقيل: تدخل يده اليسرى في صدره وتخرج من ظهره، فيأخذ بها كتابه.

﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١﴾ أي: يصيح بالويل والثبور.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣﴾ أي: كان في الدنيا مسرورًا مع أهله، متنعِّمًا غافلًا عن الآخرة.

وهذا في مقابلة ما حكَى عن المؤمن أنه ينقلب إلى أهله مسرورًا في الجنة، وهو ضد ما حكَى عن المؤمنين في الجنة من قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ [الطور: ٢٦].

---

(١) الكشاف (١٦/٣٥٨).

(٢) في الكشاف (١٦/٣٥٨): «تُغلُّ يمناه إلى عنقه، وتجعل شماله وراء ظهره».

﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾﴾ أي: لن يرجع إلى الله، والمعنى: أنه يكذب بالبعث.

﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: يحور ويُبعث.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ ذكر في نظائره(١).

﴿بِٱلشَّفَقِ﴾ هو الحمرة التي تبقى بعد غروب الشمس.

وقال أبو حنيفة: هو البياض.

وقيل: هو النهار كله، وهذا ضعيف.

والأول هو المعروف عند الفقهاء وأهل اللغة.

﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾﴾ أي: جَمع وضَمَّ، ومنه الوَسْقُ، وذلك الليل يَضم الأشياء ويسترها بظلامه.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾﴾ أي: إذا كمل ليلة أربع عشرة.

ووزن ﴿ٱتَّسَقَ﴾ افْتَعل، وهو مشتقٌّ من الوسق، فكأنه امتلأ نورًا.

وفي الآية من أدوات البيان: لزوم ما لا يَلزم؛ لالتزام السين قبل القاف في ﴿وَسَقَ﴾ و﴿ٱتَّسَقَ﴾.

﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾ الطبق في اللغة له معنيان:

أحدهما: ما طابق غيره، يقال: هذا طبقٌ لهذا: إذا طابقه.

والآخر: جمع طبَقةٍ.

---

(١) انظر صفحة ٢٩٧، ٤٧٨.

فعلى الأول يكون المعنى: لتركبن حالًا بعد حال، كل واحدة منها مطابقة للأخرى.

وعلى الثاني يكون المعنى: لتركبن أحوالًا بعد أحوال، هي طبقات بعضها فوق بعض.

ثم اختلف في تفسير هذه الأحوال، وفي قراءة: ﴿تَرْكَبُنَّ﴾:

فأما من قرأه بضم الباء: فهو خطاب لجنس الإنسان، وفي تفسير الأحوال على هذا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها شدائد الموت، ثم البعث، ثم الحساب، ثم الجزاء.

والآخر: أنها كون الإنسان نطفة، ثم علقة، إلى أن يخرج إلى الدنيا، إلى أن يَهرَم، ثم يموت.

والثالث: لتركبن سَنَنَ من كان قبلكم.

وأما من قرأ ﴿تَرْكَبَنَّ﴾ بفتح الباء:

فهو خطاب للإنسان على المعاني الثلاثة التي ذكرنا.

وقيل: هو خطاب للنبي ﷺ، ثم اختلف القائلون بهذا على ثلاثة أقوال:

أحدها: لتركبَن مكابدة الكفار حالًا بعد حال.

والآخر: لتركبَن فتح البلاد شيئًا بعد شيء.

والثالث: لتركبَن السماوات في الإسراء سماءً بعد سماء.

وقوله: ﴿عَن طَبَقٍ﴾:

في موضع الصفة لـ ﴿طَبَقًا﴾.

أو في موضع حال من الضمير في ﴿تَرْكَبُنَّ﴾.

قاله الزمخشري[١].

﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٠﴾ الضمير لكفار قريش، والمعنى: أيُّ شيء يمنعهم من الإيمان؟

﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ۩﴾ هذا موضع سجدة عند الشافعي وغيره؛ لأن رسول الله ﷺ سجد فيها، وليست عند مالك من عزائم السجَدات.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني: المذكورين، ووضع الظاهر موضع المضمر؛ ليصفهم بالكفر.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ۝٢٣﴾ أي: بما يجمعون في صدورهم من الكفر والتكذيب.

أو بما يجمعون في صحائفهم (من الأعمال القبيحة)[٢].

يقال: أوعيت المال وغيره: إذا جمعتَه.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وضع البشارة موضع النذارة؛ تهكُّمًا بهم.

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يعني: من قضَى له بالإيمان من هؤلاء الكفار، فالاستثناء على هذا متصل، وإلى هذا أشار ابن عطية[٣].

---

(١) الكشاف (١٦/ ٣٦٣).

(٢) سقط من أ، ج، هـ.

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٥٧٤).

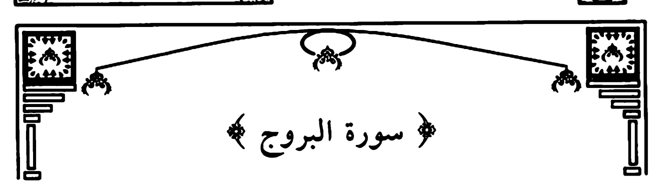
وقال الزمخشري: هو منقطع[١].

﴿أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قد ذكر[٢].

* * *

(١) الكشاف (١٦/ ٣٦٥).

(٢) انظر صفحة ٦.



﴿ سورة البروج ﴾

[﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ۝٤ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝١٧ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ۝١٨ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾].

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ۝١﴾ البروج: هي المنازل المعروفة، وهي اثنا عشر، تقطعها الشمس في السنة.

وقيل: هي النجوم العظام؛ لأنها تتبرَّج؛ أي: تظهر.

﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ هو يوم القيامة باتفاق، وقد روي عن رسول الله ﷺ[1].

﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ يحتمل الشاهد والمشهود:

أن يكون من الشهادة على الأمر.

---

(١) أخرجه أحمد (٧٩٧٢)، والترمذي (٣٣٣٩).

أو يكون من معنى الحضور.

وحذف المعمول، وتقديره: مشهود عليه، أو مشهود به، أو مشهود فيه.

وقد اضطرب الناس في تفسير الشاهد والمشهود اضطرابًا عظيمًا، ويتلخَّص من أقوالهم في الشاهد ستة عشر قولًا، يقابلها في المشهود اثنان وثلاثون قولًا[1]:

الأول: أن الشاهد: هو الله تعالى لقوله: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٧٩].

والمشهود على هذا يحتمل ثلاثة أوجه:

[١-] **أحدها:** أن يكون الخَلْق، بمعنى أنه يشهد عليهم.

[٢-] **والآخر:** أن يكون الأعمال، بمعنى أنه يَشهد بها.

[٣-] **والثالث:** أن يكون يوم القيامة، بمعنى أنه يشهد فيه؛ أي: يحضر، للحساب والجزاء، أو تقع فيه الشهادة على الناس.

القول الثاني: أن الشاهد: محمد ﷺ لقوله: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ [الحج: ٧٨].

والمشهود على هذا يحتمل أن تكون:

[٤-] أمته؛ لأنه يشهد عليهم.

[٥-] أو أعمالهم؛ لأنه يشهد بها.

---

(١) الذي ظهر لي واحد وثلاثون قولًا!.

[٦-] أو يوم القيامة؛ لأنه يشهد فيه؛ أي: يحضر، أو تقع فيه الشهادة على الأمة.

القول الثالث: أن الشاهد: أمة محمد ﷺ؛ لقوله: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣].

والمشهود على هذا:

[٧-] سائر الأمم؛ لأنهم يشهدون عليهم.

[٨-] أو أعمالهم.

[٩-] أو يوم القيامة.

القول الرابع: أن الشاهد: عيسى عليه السلام.

والمشهود:

[١٠-] أمته؛ لقوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

[١١-] أو أعمالهم.

[١٢-] أو يوم القيامة.

القول الخامس: أن الشاهد: جميع الأنبياء.

والمشهود:

[١٣-] أممهم؛ لأن كل نبيٍّ يشهد على أمته.

[١٤-] أو يشهد بأعمالهم.

[١٥-] أو يوم القيامة؛ لأنه يشهد فيه.

القول السادس: أن الشاهد: الملائكة الحفَظة.

والمشهود على هذا:

[١٦-] الناس؛ لأن الملائكة يشهدون عليهم.

[١٧-] أو الأعمال لأن الملائكة يشهدون بها.

[١٨-] أو يوم القيامة.

[١٩-] أو صلاة الصبح؛ لقوله: ﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

القول السابع: أن الشاهد: جميع الناس؛ لأنهم يشهدون القيامة؛ أي: يحضرونها.

[٢٠-] والمشهود: يوم القيامة؛ لقوله: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

القول الثامن: أن الشاهد: الجوارح.

والمشهود عليه:

[٢١-] أصحابها؛ لقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم﴾ [النور: ٢٤].

[٢٢-] أو الأعمال؛ لأن الجوارح تشهد بها.

[٢٣-] أو يوم القيامة؛ لأن الشهادة تقع فيه.

القول التاسع: أن الشاهد: الله والملائكة وأولوا العلم؛ لقوله: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

[٢٤-] والمشهود به: الوحدانية.

القول العاشر: أن الشاهد: جميع المخلوقات.

[٢٥-] والمشهود به: وجود خالقها، وإثبات صفاته من الحياة والقدرة وغير ذلك.

القول الحادي عشر: أن الشاهد: النجم؛ لما ورد في الحديث: «**لا صلاة بعد العصر حتى يطلع الشاهد**»، وهو النجم[١].

[٢٦-] والمشهود على هذا: الليل والنهار؛ لأن النجم يشهد بانقضاء النهار ودخول الليل.

القول الثاني عشر: أن الشاهد: الحجر الأسود.

[٢٧-] والمشهود: الناس الذين يحجُّون.

القول الثالث عشر: روي عن النبي ﷺ: أن الشاهد: يوم الجمعة.

[٢٨-] والمشهود: يوم عرفة[٢].

وذلك أن يوم الجمعة يشهد بالأعمال، ويوم عرفة يَشهده جمعٌ عظيم من الناس.

القول الرابع عشر: أن الشاهد: يوم عرفة.

[٢٩-] والمشهود: يوم النحر، قاله علي بن أبي طالب.

---

(١) أخرجه مسلم (٨٣٠).

(٢) أخرجه أحمد (٧٩٧٣)، والترمذي (٣٣٣٩).

القول الخامس عشر: أن الشاهد: يوم التروية.

[٣٠-] والمشهود: يوم عرفة.

القول السادس عشر: أن الشاهد: يوم الاثنين.

[٣١-] والمشهود: يوم الجمعة.

﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾ **الكلام هنا في ثلاثة فصول:**

الأول: في جواب القسم، وفيه أربعة أقوال:

أحدها: أنه قوله: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢﴾.

وثانيها: أنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

وهذان القولان ضعيفان؛ لبعد القسَم من الجواب.

وثالثها: أنه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾، تقديره: لقد قتل.

ورابعها: أنه محذوفٌ، يدلُّ عليه: ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤﴾، تقديره: لقد قتل هؤلاء الكفار كما قتل أصحاب الأخدود، وذلك أن الكفار من قريش كانوا يعذبون من أسلم من قومهم ليرجعوا عن الإسلام، فذكر الله قصة أصحاب الأخدود؛ وعيدًا للكفار، وتأنيسًا للمسلمين المعذَّبين.

الفصل الثاني: في تفسير لفظها:

فأما ﴿قُتِلَ﴾ فاختلف هل هو دعاء أو خبر؟

واختلف هل هو بمعنى القتل حقيقة، أو بمعنى: لُعِن؟

وأما ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾: فهو الشَّق في الأرض، كالخندق وشبهه.

وأما ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ فيحتمل أن يريد به:

الكفارَ الذين كانوا يحرقون المؤمنين في الأخدود.

أو يريد به المؤمنين الذين حُرقوا فيه، فيكون القتل حقيقةً خبرًا.

والأول أظهر.

الفصل الثالث: في قصة أصحاب الأخدود، وفيها أربعة أقوال:

القول الأول: ما ورد عن رسول الله ﷺ في حديث طويل معناه: أن ملكًا كافرًا أسلم أهلُ بلاده، فأمر بالأخدود فخُدَّ في أفواه السكك، وأضرم فيها النيران فقال: من لم يرجع عن دينه فألقوه فيها، ففعلوا ذلك، حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها، فقال لها الغلام: يا أُمَّه! اصبري فإنك على الحق[1].

القول الثاني: أن ملكًا زنى بأخته، ثم أراد أن يُحِلَّ للناس نكاح الأخوات، فأطاعه قوم، ومنهم[2] أخذ المجوس ذلك، وعصاه قوم، فحفر لهم الأخدود وأحرقهم فيه بالنار.

القول الثالث: أن نبيَّ أصحابِ الأخدود كان حبشيًا، وأن الحبشة بقية أصحاب الأخدود.

القول الرابع: أن صاحب الأخدود: ذو نُوَاس المذكور في قصة عبد الله

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

(٢) في ب: «ومنه».

ابن التامر(١) التي وقعت السِّيَر.

ويَحتمل أن يكون ذو نواس هو الملك الذي ذكره النبي ﷺ، فيتفق هذا القول مع الأول، فإنَّ ذا نواسٍ حفر أخدودًا فأوقد فيه نيرانًا(٢)، وألقى فيها كل من وحَّد الله تعالى واتبع العبد الصالح عبد الله بن التامر.

﴿ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥﴾ ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدل من ﴿ٱلْأُخْدُودِ﴾، وهو بدل اشتمال.

و﴿ٱلْوَقُودِ﴾: ما توقد به النار.

والقصد: وصف النار بالشدة والعظمة.

﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦﴾ الضمير: للكفار الذين كانوا يحرقون المؤمنين في الأخدود، وهم أصحاب الأخدود على الأظهر.

والعامل في ﴿إِذْ﴾: قوله: ﴿قُتِلَ﴾.

فروي أن النار أحرقت من المؤمنين عشرين ألفًا، وقيل: سبعين ألفًا، فـ﴿قُتِلَ﴾ على هذا بمعنى: لُعن؛ أي: لعنوا حين قعدوا على النار لتحريق المؤمنين.

وروي أن الله بعث على المؤمنين ريحًا قبضت أرواحهم وخرجت النارُ(٣) فأحرقت الكفار الذين كانوا عليها، فـ﴿قُتِلَ﴾ على هذا بمعنى القتل الحقيقي أي: قتلتهم النار.

---

(١) الذي في سيرة ابن هشام (١/ ٣٦): «الثامر» بالثاء.

(٢) في ب، د: «فيها نارًا».

(٣) في ب، د: «وأخرجت النارَ».

وقيل: الضمير في ﴿إِذْ هُمْ﴾ للمؤمنين.

والأول أشهر وأظهر؛ لقوله: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾﴾ يحتمل أن يكون:

بمعنى الشهادة:

أي: يشهد بعضهم لبعض عند الملِك بأنه فعل ما أمره الملِك من التحريق.

أو يشهدون بذلك على أنفسهم يوم القيامة.

أو يكون بمعنى الحضور؛ أي: كانوا حاضرين على ذلك الفعل.

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾ أي: ما أنكر الكفار على المؤمنين إلا أنهم آمنوا بالله، وهذا لا ينبغي أن يُنكر.

فإن قيل: لم قال ﴿أَن يُؤْمِنُوا﴾ بلفظ المضارع ولم يقل: «آمنوا» بلفظ الماضي؛ لأن القصة قد وقعت؟

فالجواب: أن التعذيب إنما كان على دوامهم على الإيمان، ولو كفروا في المستقبل لم يعذبوهم، فلذلك ذكره بلفظ المستقبل، فكأنه قال: إلا أن يدوموا على الإيمان.

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ إن كانت هذه الآية في أصحاب الأخدود: فالفتنة هنا بمعنى الإحراق.

وإن كانت في كفار قريش: فالفتنة بمعنى المحنة والتعذيب، وهذا أظهر؛ لقوله: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾؛ لأن أصحاب الأخدود لم يتوبوا، بل ماتوا على كفرهم، وأما قريش فمنهم من أسلم وتاب.

وفي الآية دليل على أن الكافر إذا أسلم يغفر له ما فعل في حين كفره؛ كقوله ﷺ: «الإسلام يجبُّ ما قبله»[١].

﴿وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ يحتمل أن يريد:

في الآخرة، فيكون:

تأكيدًا لعذاب جهنم.

أو نوعًا من العذاب زيادةً إلى عذاب جهنم.

ويحتمل أن يريد في الدنيا، وذلك على رواية أن الكفار أصحابَ الأخدود أحرقتهم النار.

﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾﴾ البطش: هو الأخذ بقوة وسرعة.

﴿إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ أي: يبدئ الخلق بالنشأة الأولى، ويعيدهم بالنشأة الآخرة للبعث.

وقيل: يبدئ البطش ويعيده؛ أي: يبطش بهم في الدنيا والآخرة.

والأول أظهر وأرجح؛ لقوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤، الروم: ١١].

وقد ذكرنا ﴿الْوَدُودُ﴾ في «اللغات»[٢].

---

(١) أخرجه أحمد بهذا اللفظ (١٧٧٧٧)، وأخرجه مسلم (١٢١) بلفظ: «الإسلام يهدم ما كان قبله».

(٢) انظر المادة (٥٦٦).

﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ أضاف العرش إلى الله، وخصه بالذكر؛ لأن العرش أعظم المخلوقات.

و﴿ٱلْمَجِيدُ﴾: من المجد، وهو الشرف ورفعة القدر.

وقرئ ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾:

بالرفع: صفة لـ ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.

وبالخفض: صفة لـ ﴿ٱلْعَرْشِ﴾.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ توقيف يراد به التنبيه وتعظيم الأمر.

والمقصود بذكر الجنود: تهديد الكفار، وتأنيس النبي ﷺ.

﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾﴾ تهديد لهم، معناه: لا يفوتونه، بل يصيبهم عذابه إذا شاء.

﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ يعني: اللوح المحفوظ الذي في السماء.

وقرئ ﴿مَّحْفُوظٍ﴾:

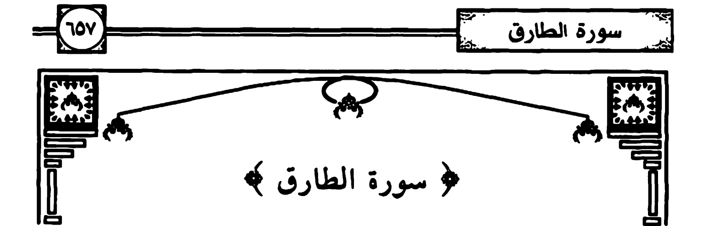
بالخفض: صفة للوح.

وبالرفع: صفة للقرآن؛ أي:

حفظه الله من التبديل والتغيير.

أو حفظه المؤمنون في صدورهم.

* * *



﴿ سورة الطارق ﴾

[﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ۝٤ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ۝٧ إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ ۝٨ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ۝٩ فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ۝١١ وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ۝١٢ إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ۝١٤ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ۝١٧﴾].

﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١﴾ هذه السماء التي أقسم الله بها: هي(١) المعروفة.

وقيل: أراد المطر؛ لأن العرب قد تسميه سماء، وهذا بعيد.

والطارق في اللغة: ما يَطرق؛ أي: يجيء ليلًا.

وقد فسره الله هنا بأنه ﴿النَّجْمُ الثَّاقِبُ ۝٣﴾ وهو يطلع ليلًا.

ومعنى ﴿الثَّاقِبُ﴾: المضيء أو المرتفع:

فقيل: أراد جنس النجوم.

وقيل: الثريا؛ لأنه الذي تطلق عليه العرب النجم.

وقيل: زحل؛ لأنه أرفع النجوم؛ إذ هو في السماء السابعة.

---

(١) في ب زيادة: «السماء».

﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾ هذا جواب القسم، ومعناه عند الجمهور: إنَّ كل نفس من بني آدم عليها حافظ يكتب أعمالها، يعني: الملائكة الحفظة.

وروي عن النبي ﷺ في تفسير هذه الآية: «أن لكل نفس حفظة من الله يَذبُّون عنها كما يُذَبُّ عن العسل، ولو وُكِل المرء إلى نفسه طرفة عين لاختطفته الآفات والشياطين»[1]، وإن صح هذا الحديث فهو المعوَّل عليه.

وقرئ ﴿لَمَا عَلَيْهَا﴾:

بتخفيف الميم: وعلى هذا تكون ﴿إِن﴾ مخففة من الثقيلة، واللام للتأكيد، و«ما» زائدة.

وقرئ ﴿لَّمَّا﴾ بالتشديد: وعلى هذا تكون ﴿إِن﴾ نافية، و﴿لَّمَّا﴾ بمعنى الإيجاب بعد النفي.

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ حذف ألف «ما»؛ لأنها استفهامية، وجوابها ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾.

وسمي المنيُّ ماء دافقًا؛ من الدفْق، بمعنى الدفع:

فقيل: معناه: مدفوق، وصاحبه هو الدافق في الحقيقة.

وقال سيبويه: هو على النسَب؛ أي: ذو دفق.

وقال ابن عطية: يصح أن يكون الماء دافقًا؛ لأن بعضه يدفع بعضًا[2].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٦٧)، وابن أبي الدنيا في مكائد الشيطان (ص: ٩٦).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٥٨٤ - ٥٨٥).

ومقصود الآية: إثبات الحشر، فأُمر الإنسان أن ينظر أصلَ خِلقته؛ ليعلم أن الذي خلقه من ماء دافق قادر على أن يعيده.

ووجه اتصال هذا الكلام بما قبله: أنه لما أخبر أن كل نفس عليها حافظ يحفظ أعمالها؛ أعقبه بالتنبيه على الحشر حيث تجازَى[1] كل نفس بأعمالها.

﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ۝٧﴾ الضمير في ﴿يَخْرُجُ﴾ للماء.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون للإنسان[2]، وهذا بعيد جدًّا.

والترائب: عظام الصدر، واحدها: تَرِيبة.

وقيل: هي الأطراف، كاليدين والرجلين.

وقيل: هي عُصارة القلب، ومنها يكون الولد.

وقيل: هي الأضلاع التي أسفل الصلب.

والأول هو الصحيح المعروف في اللغة، ولذلك قال ابن عباس: هي موضع القلادة ما بين ثَدْيي المرأة.

ويعني صلب الرجل وترائبه، وصلب المرأة وترائبها.

وقيل: أراد: صلب الرجل، وترائب المرأة.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝٨﴾ الضمير في ﴿إِنَّهُۥ﴾ لله تعالى، وفي ﴿رَجْعِهِۦ﴾ للإنسان.

---

(١) في ب: «يجازي».
(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٥٨٥).

والمعنى: أن الله قادر على رجع الإنسان حيًّا بعد موته، والمراد: إثبات البعث.

وقيل: إن المعنى: ردُّه ماءً كما كان أول مرة.

وقيل: ردُّه من الكِبَر إلى الشباب.

وقيل: الضمير في ﴿رَجْعِهِۦ﴾ للماء الدافق، والمعنى: ردُّه في الإحليل أو في الصلب.

وهذا كله ضعيف بعيد، والقول الأول هو الصحيح المشهور.

﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩﴾ يعني: يوم القيامة.

و﴿ٱلسَّرَآئِرُ﴾: جمع سريرة، وهي ما أسرَّ العبد في قلبه من العقائد(١) والنيات، وما أخفى من الأعمال.

وبلاؤها: هو تعرُّفها والاطلاع عليها.

وروي عن النبي ﷺ أن السرائر: الإيمان والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة(٢)، وهذه معظمها؛ فلذلك خصَّها بالذكر.

والعامل في ﴿يَوْمَ﴾ قوله: ﴿رَجْعِهِۦ﴾؛ أي: يَرجعه يوم تبلى السرائر.

واعتُرض: بالفصل بينهما.

وأُجيب: بقوة المصدر في العمل.

---

(١) في د زيادة: «والعزائم».

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٦٦).

وقيل: العامل ﴿لَقَادِرٌ﴾.

واعتُرض: بتخصيص القدرة بذلك اليوم.

وهذا لا يلزم؛ لأن القدرة وإن كانت مطلقة فقد أخبر الله أن البعث إنما يقع في ذلك اليوم.

وقال من احترز من الاعتراضين في القولين المتقدمين: العامل فعل مضمر من المعنى، تقديره: يَرجعه يوم تبلى السرائر.

وهذا كله على المعنى الصحيح في ﴿رَجْعِهِۦ﴾.

وأما على الأقوال الأخر: فالعامل في ﴿يَوْمَ﴾ مضمر تقديره: اذكر.

﴿فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ۝١٠﴾ الضمير للإنسان.

ولما كان دفع المكاره في الدنيا إما بقوة الإنسان أو بنصرة غيره له؛ أخبره الله أنه يَعدَمهما يوم القيامة.

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ۝١١﴾ المراد بـ ﴿ٱلرَّجْعِ﴾ عند الجمهور: المطر، وسماه رجعًا بالمصدر:

لأنه يرجع كل عام.

أو لأنه يرجع إلى الأرض.

وقيل: الرجع: السحاب الذي فيه المطر.

وقيل: هو مصدرُ رجوع الشمس والكواكب من منزلة إلى منزلة.

﴿وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ ﴿١٢﴾﴾ يعني: ما تتصدع[١] عنه الأرض من النبات.

وقيل: يعني: ما في الأرض من الشّقاق والخنادق وشبهها.

﴿إِنَّهُ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾﴾ الضمير للقرآن؛ لأن سياق الكلام يقتضيه.

والفصل معناه: الذي فَصل[٢] بين الحق والباطل، كما قيل له: فرقان.

والهزل: اللهو، يعني: أنه جِدٌّ كلُّه.

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾﴾ الضمير لكفار قريش.

وكيدهم: هو ما دبروا في شأن رسول الله ﷺ من الإضرار به، وإبطال أمره.

﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ هذا تسمية للعقوبة باسم الذنب؛ للمشاكلة بين الفعلين[٣].

﴿فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا تستعجل عليهم بالعقوبة لهم، أو بالدعاء عليهم.

وهذا منسوخ بالسيف.

﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا﴾ أي: إمهالًا يسيرًا قليلًا يعني:

إلى قتلهم يوم بدر.

أو إلى الدار الآخرة، وجعله يسيرًا؛ لأن كل آتٍ قريبٌ.

ولفظ ﴿رُوَيْدًا﴾ هنا: صفة لمصدر محذوف، وقد تقع بمعنى الأمر بالتماهل

---

(١) في أ، د: «تصدع»، وفي ب: «يتصدع».

(٢) في ب: «يفصل».

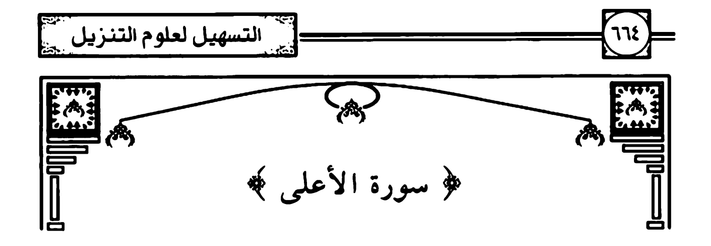
(٣) انظر (٢٧٥/١)، (٥٤٥/١)، (٤٢٢/٢)، (٥١٢/٢).

كقولك: رويدًا يا فلان.

وكرَّر الأمر في قوله: ﴿أَمْهِلْهُمْ﴾، وخالف بينه وبين لفظ ﴿مَهِّلِ﴾؛ لزيادة التسكين والتصبير، قاله الزمخشري[1].

* * *

(١) الكشاف (١٦/ ٣٨٩).



﴿ سورة الأعلى ﴾

[﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ۝٤ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ۝٥ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ۝٨ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٢ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۝١٣ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ۝١٥ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝١٦ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ۝١٩﴾].

﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾ التسبيح في اللغة: التنزيه.

وذكر الاسم هنا يَحتمل وجهين:

أحدهما: أن يكون المراد المسمى، ويكون الاسم صلة كالزائد، ومعنى الكلام: سبح ربك؛ أي: نزِّهه عما لا يليق به، وقد يتخرَّج ذلك على قول من قال: إن الاسم هو المسمى.

والآخر: أن يكون الاسم مقصودًا بالذكر، ويحتمل المعنى على هذا أربعة أوجه:

الأول: تنزيه أسماء الله تعالى عن المعاني الباطلة، كالتشبيه والتعطيل.

الثاني: تنزيه أسماء الله عن أن يُسمى بها صنم أو وثن.

الثالث: تنزيه أسماء الله عن أن تُذكر في حال الغفلة دون خشوع.

الرابع: أن المراد قول[١]: «سبحان الله»، ولما كان التسبيح باللسان لا بدَّ فيه من ذكر الاسم أوقع التسبيح على الاسم، **وهذا القول هو الصحيح**.

ويؤيده: ما ورد عن النبي ﷺ أنه كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحان ربي الأعلى»[٢]، وأنها لما نزلت قال: «اجعلوها في سجودكم»[٣]، فدل ذلك على أن المراد هو التسبيح باللسان مع موافقة القلب، ولا بدَّ في التسبيح باللسان من ذكر اسم الله تعالى؛ فلذلك قال: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١﴾، مع أن التسبيح في الحقيقة إنما هو لله تعالى لا لاسمه، وإنما ذكر الاسم؛ لأنه هو الذي يوصَل به إلى التسبيح باللسان.

وعلى هذا: يكون موافقًا في المعنى لقوله: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [الواقعة: ٧٤] لأن معناه: نزِّه الله بذكر اسمه، ويؤيد هذا: ما روي عن ابن عباس أن معنى ﴿سَبِّحِ﴾: صلِّ باسم ربك؛ أي: صل واذكر في الصلاة اسم ربك.

و﴿ٱلْأَعْلَى﴾ يحتمل أن يكون صفة:

للرب.

أو للاسم.

والأول أظهر.

---

(١) في د: «قل».

(٢) أخرجه أحمد (٢٠٦٦)، وأبو داود (٨٨٣).

(٣) أخرجه أحمد (١٧٤١٤)، وأبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧).

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ حذف مفعول ﴿خَلَقَ﴾ و﴿سَوَّىٰ﴾؛ لقصد الإجمال الذي يفيد العموم، والمراد: خلق كل شيء فسوَّاه؛ أي: أتقن خِلقته.

وانظر ما ذكرنا في قوله: ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَّلَكَ﴾ [الانفطار: ٧][(١)].

﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾ ﴿قَدَّرَ﴾ بالتشديد: يحتمل أن يكون:

من القدر والقضاء.

أو من التقدير والموازنة بين الأشياء.

وقرئ بالتخفيف: فيحتمل أن يكون:

من القدرة.

أو التقدير، وحذف المفعول؛ ليفيد العموم.

فإن كان من التقدير فالمعنى: قدر لكل حيوان ما يصلحه، فهداه إليه وعرَّفه وجه الانتفاع به.

وقيل: هدى ذكور الحيوان إلى وطء الإناث؛ لبقاء النسل.

وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي.

وقيل: هدى الناس للخير والشر، والبهائمَ للمراتع.

وهذه الأقوال أمثلة، والأول أعم وأرجح، فإن هداية الإنسان وسائر الحيوانات إلى مصالحها[(٢)] باب واسع فيه عجائب وغرائب.

---

(١) انظر صفحة ٦٢٤.

(٢) في هـ: «منافعها».

وقال الفراء: المعنى: هدى وأضلّ، واكتفى بالواحدة؛ لدلالتها على الأخرى[١]، وهذا بعيد.

﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ۝ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ۝﴾ المرعى: هو النبات الذي ترعاه البهائم.

والغثاء: هو النبات اليابس المتحطم، وقد يقال للزِّبْل غثاء.

و﴿أَحْوَى﴾ معناه: أسود، وهو صفة لـ ﴿غُثَاءً﴾.

والمعنى: أن الله أخرج المرعى أخضر، فجعله بعد خضرته غثاء أسود؛ لأن الغثاء إذا قَدُمَ تعفَّن واسودَّ.

وقيل: إن ﴿أَحْوَى﴾ حال من ﴿الْمَرْعَى﴾، ومعناه: الأخضر الذي يضرب إلى السواد، وفي الكلام على هذا تقديم وتأخير تقديره: الذي أخرج المرعى أحوى فجعله غثاء، وفي هذا القول تكلف.

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَى ۝﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، وعده الله أن يُقرئه القرآن فلا ينساه، وفي ذلك معجزة له ﷺ؛ لأنه كان أميًّا لا يكتب، وكان مع ذلك لا ينسى ما أقرأه جبريل عليه السلام من القرآن.

وقيل: معنى الآية كقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ﴾ الآيةَ [القيامة: ١٦]؛ فإن ﷺ كان يحرك به لسانه إذا أقرأه جبريل؛ خوفًا أن ينساه فضمن الله له أن لا ينساه.

وقيل: ﴿فَلَا تَنسَى﴾ نهيٌ عن النسيان، وقد علم الله أن ترك النسيان ليس في

---

(١) معاني القرآن للفراء (٣/ ٢٥٦).

قدرة البشر، فالمراد: الأمر بتعاهده حتى لا ينساه. وهذا بعيد؛ لإثبات الألف في ﴿تَنسَىٰٓ﴾.

﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه: لا تنسى؛ إلا ما شاء الله أن تنساه، كقوله: ﴿أَوۡ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

والآخر: أنه لا ينسى شيئًا، ولكن قال: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾؛ تعظيمًا لله بإسناد الأمر إليه، كقوله: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأنعام: ١٢٨] على بعض الأقوال.

وعبر الزمخشري عن هذا بأنه من استعمال التقليل في معنى النفي[١].

والأول أظهر؛ فإن النسيان جائز على النبي ﷺ فيما أراد الله أن يرفعه من القرآن، أو فيما قضى الله أن ينساه ثم يذكره، ومن هذا قول النبي ﷺ حين سمع قراءة عبَّاد بن بِشرٍ: «يرحمه الله؛ لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت قد أُنسيتها»[٢].

﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ٨﴾ عطف على ﴿سَنُقۡرِئُكَ﴾، ومعناه: نوفقك للأمور المرضية التي توجب لك السعادة.

وقيل: معناه للشريعة اليسرى، من قوله ﷺ: «دين الله يسر»[٣] أي: سهل لا حرج فيه.

---

(١) الكشاف (١٦/٣٩٦).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٥٥)، ومسلم (٧٨٨).

(٣) أخرجه البخاري (٣٩).

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَىٰ﴾ المراد بهذا الشرط: توبيخ الكفار الذين لا تنفعهم الذكرى، واستبعاد تأثير الذكرى في قلوبهم، كقولك: قد أوصيتك لو سمعتَ.

وقيل: إن المعنى: فذكر إن نفعت الذكرى وإن لم تنفع، واقتصر على أحد القسمين؛ لدلالة الآخر عليه، وهذا بعيد وليس عليه الرَّونق الذي على الأول.

﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠﴾ أي: من يخاف الله.

﴿وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى ۝١١﴾ يعني: الكافر.

وقيل: نزلت في الوليد بن المغيرة وعتبة بن ربيعة.

والضمير المفعول لـ ﴿الذِّكْرَىٰ﴾.

﴿النَّارَ الْكُبْرَىٰ﴾ هي نار جهنم، وسماها كبرى بالنظر إلى نار الدنيا.

وقيل: سماها كبرى بالنظر إلى غيرها من نار جهنم؛ فإنها تتفاضل، وبعضها أكبر من بعض.

وكلا القولين صحيح، إلا أن الأول أظهر، ويؤيده قول رسول الله ﷺ: «ناركم هذه التي توقدون جزءٌ من سبعين جزءًا من نار جهنم»[1].

﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ أي: لا يموت فيستريح، ولا يحيا حياة هنيئة.

وعطف هذه الجملة بـ ﴿ثُمَّ﴾؛ لأن هذه الحالة أشد من صَلْي النار،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٥)، ومسلم (٢٨٤٣).

فكأنها بعده في الشدة.

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾﴾ يحتمل أن يكون ﴿تَـزَكَّىٰ﴾:

بمعنى الطهارة من الشرك والمعاصي.

أو بمعنى الطهارة للصلاة.

أو بمعنى أداء الزكاة، وعلى هذا قال جماعة: إنها في يوم الفطر، والمعنى: أدَّى زكاة الفطر، وذكر اسم ربه في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام، وصلى صلاة العيد، وقد روي هذا عن النبي ﷺ[١].

وقيل: المراد: أدى زكاة ماله وصلى الصلوات الخمس.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ الإشارة:

إلى ما ذكر قبلُ من التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة.

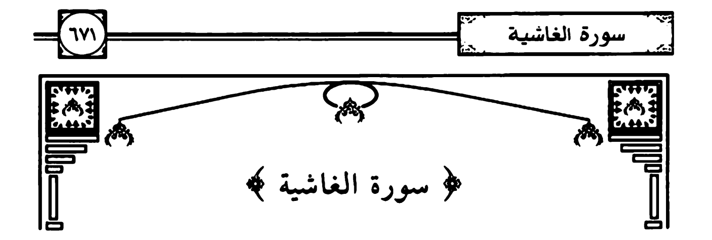
أو إلى ما تضمنته السورة.

أو إلى القرآن بجملته.

والمعنى: إنه ثابت في كتب الأنبياء المتقدمين كما ثبت في هذا الكتاب.

---

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١٠/ ١٨٥).



﴿ سورة الغاشية ﴾

[﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ۝١ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝٢ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ۝٤ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ ۝٥ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ۝٧ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ۝٨ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ۝٩ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ۝١٢ فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ۝١٣ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ۝١٥ وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝١٨ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝١٩ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝٢٠ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ۝٢٢ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾].

﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ توقيف يراد به التنبيه والتفخيم للأمر.

وقيل: ﴿هَلْ﴾ بمعنى «قد»، وهذا ضعيف.

﴿ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ هي القيامة؛ لأنها تغشى جميع الخلق.

وقيل: هي النار، من قوله: ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [إبراهيم: ٥٠]، وهذا ضعيف؛ لأنه ذكر بعد ذلك قسمين: أهل الشقاوة وأهل السعادة.

﴿خَٰشِعَةٌ﴾ أي: ذليلة.

﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ هو من النصَب بمعنى التعب.

وفي المراد بهم ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنهم الكفار، ويحتمل على هذا يكون عملهم ونصَبهم:

في الدنيا؛ لأنهم كانوا يعملون أعمال السوء ويتعبون فيها.

أو يكون في الآخرة، فيعملون فيها عملًا يتعبون فيه؛ من جرِّ السلاسل والأغلال وشبه ذلك، ويكون زيادة في عذابهم.

الثاني: أنها في الرهبان الذين يجتهدون في العبادة ولا تقبل منهم؛ لأنهم على غير الإسلام، وبهذا تأولها عمر بن الخطاب ﷺ، وبكى رحمةً لراهب نصراني رآه مجتهدًا، فـ ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ۝٣﴾ على هذا: في الدنيا.

و﴿نَّاصِبَةٌ﴾ إشارة:

إلى اجتهادهم في العمل.

أو إلى أنه لا ينفعهم، فليس لهم منه إلا النصَب.

الثالث: أنها في القدرية، وقد روي أن رسول الله ﷺ ذكر القدرية فبكى وقال: «**إن فيهم المجتهد**»[1].

﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ أي: شديدة الحر، ومنه ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ [الرحمن: ٤٤]، ووزن ﴿ءَانِيَةٍ﴾ هنا فَاعِلة، بخلاف ﴿بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان: ١٥] فإن وزنه: أَفْعِلة.

﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾ في الضريع أربعة أقوال:

أحدها: أنه شوك يقال له: الشِّبْرق، وهو سَمٌّ قاتل، وهذا أرجح

---

(١) ذكره ابن عطية في المحرر الوجيز(٨/ ٥٩٧)، ولم أقف على إسناد له.

الأقوال؛ لأن أرباب اللغة ذكروه، ولأن النبي ﷺ قال: «الضريع شوك في النار»[(١)].

الثاني: أنه الزقوم؛ لقوله: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ۝٤٣ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴾ [الدخان: ٤٣-٤٤].

الثالث: أنه نبات أخضر مُنتنٌ يَنبت في البحر، وهذا ضعيف.

الرابع: أنه واد في جهنم، وهذا ضعيف؛ لأن ما يجري في الوادي ليس بطعام، إنما هو شراب.

ولله درُّ من قال: الضريع طعام أهل النار، فإنه عمَّ وسَلِم من عُهدة التعيين.

واشتقاقه عند بعضهم من المضارعة بمعنى المشابهة؛ لأنه يشبه الطعام الطيب وليس به.

وقيل: بمعنى: مُضْرِع للبدن، أي: مُضْعِف.

وقيل: إن العرب لا تعرف هذا اللفظ.

فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ۝٦﴾، وقال في «الحاقة»: ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦﴾ [الحاقة: ٣٦]؟

فالجواب: أن الضريع لقوم، والغسلين لقوم.

أو يكون أحدهما في حال، والآخر في حال.

﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ هذه الجملة صفة لـ﴿ضَرِيعٍ﴾، أو لـ﴿طَعَامٌ﴾.

---

(١) أخرجه ابن مردويه بسند واهٍ كما في الدر المنثور (١٥/ ٣٨٥).

نفى عنه منفعة الطعام، وهي التسمين وإزالة الجوع.

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾﴾ أي: متنعمة في الجنة.

أو يظهر عليها نضرة النعيم.

﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾﴾ أي: رضيت في الآخرة؛ لأجل سعيها، وهو عملُها في الدنيا.

﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾﴾ يحتمل أن يكون:

من عُلُوِّ المكان.

أو من علو المقدار.

أو الوجهين.

﴿لا تُسْمَعُ فيها لَـٰغِيَةٌ﴾ هو من لغو الكلام، ومعناه الفحش[1] وما يُكره، فيحتمل أن يريد:

كلمة لاغية.

أو جماعة لاغية.

﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾ يحتمل أن يريد:

جنس العيون.

أو واحدةً شرَّفها بالتعيين.

---

(١) في ب، د: «اللحن».

﴿وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ۝١٤﴾ قد ذكرنا ﴿وَأَكْوَابٍ﴾[1].

ومعنى ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾: حاضرة معدَّة بشرابها.

وفي قوله: ﴿مَّرْفُوعَةٌ﴾ و﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ مطابقة.

﴿وَنَمَارِقُ﴾ جمع نمرقة، وهي الوسادة.

﴿وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ۝١٦﴾ هي بُسُطٌ فاخرة.

وقيل: هي الطَّنَافِس.

واحدها: زَرْبِيَّة.

﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ أي: متفرقة، وذلك عبارة عن كثرتها.

وقيل: مبسوطة.

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ حض على النظر إلى خلقتها؛ لما فيها من العجائب في قوتها، وانقيادها مع ذلك لكل ضعيف، وصبرها على العطش، وكثرة المنافع التي فيها من الركوب والحمل عليها، وأكل لحومها وشرب ألبانها وأبوالها وغير ذلك.

وقيل: أراد بالإبل السحاب، وهذا بعيد، وإنما حمل قائلَه عليه مناسبتُها للسماء والأرض والجبال.

والصحيح أن المراد الحيوان المعروف، وإنما ذكره لما فيه من العجائب ولاعتناء العرب به؛ إذ كانت معايشهم في الغالب منه، وهو أكثر المواشي في بلادهم.

---

(١) انظر صفحة ٢٨٥.

﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: قاهر متسلط.

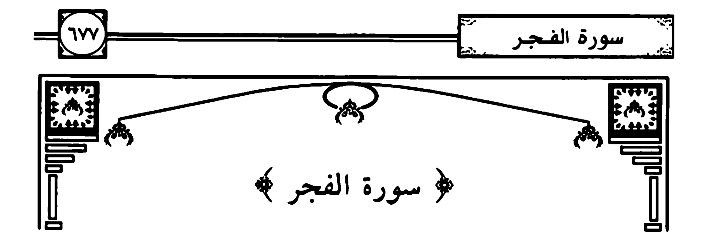
وهذا من المنسوخ بالسيف.

﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ﴾ استثناء منقطع، معناه: لكن من تولى وكفر فيعذبه الله.

وقيل: هو استثناء من مفعول ﴿فَذَكِّرْ﴾، والمعنى: ذكر كل أحد إلا من تولى حتى يئستَ منه، فهو على هذا متصل.

وقيل: هو استثناء من قوله: ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ أي: لا تتسلط إلا على من تولى وكفر، وهو على هذا متصل ولا نسخ فيه؛ إذ لا موادَعة فيه، وهذا بعيد؛ لأن السورة مكية والموادعة بمكة ثابتة.

﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ أي: رجوعَهم، والآية تهديد.



﴿ سورة الفجر ﴾

[﴿وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ (٣) وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ (٤) هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (٥) أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (٨) وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (٢٠) كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا (٢١) وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا (٢٢) وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى (٢٣) يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦) يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾].

﴿وَالْفَجْرِ﴾ أقسم تعالى بالفجر، وهو الطالع كل يوم، كما أقسم بالصبح.

وقيل: أراد صلاة الفجر.

وقيل: أراد النهار كله.

وقيل: فجر يوم الجمعة.

وقيل: فجر يوم النحر.

وقيل: فجر ذي الحجة.

ولا دليل على هذه التخصيصات.

وقيل: أراد انفجار العيون من الحجارة، وهذا بعيد.

والأول أشهر وأظهر.

﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢﴾ هي عشر ذي الحجة عند الجمهور.

وقيل: العشر الأوَّل من المحرم، وفيها عاشوراء.

وقيل: العشر الآخِر من رمضان.

وقيل: العشر الأول منه.

﴿وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ۝٣﴾ روي عن النبي ﷺ: أن الشفع يوم النحر والوتر يوم عرفة[1]؛ وذلك لأن يوم النحر عاشر فعدده شفعٌ، ويوم عرفة تاسع فعدده وتر.

وروي عنه ﷺ: أن الشفع يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر ليلة النحر[2].

وروي عنه ﷺ: أنها الصلوات، منها شفع ووتر[3].

وقيل: الشفع التنفل بالصلاة مثنى مثنى، والوتر الركعة الواحدة المعروفة.

وقيل: الشفع العالَم، والوتر الله؛ لأنه واحد.

---

(١) أخرجه أحمد (١٤٥١١)، والنسائي في الكبرى (٤/ ١٩٤).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٤/ ١٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (١٩٩١٩).

وقيل: الشفع آدم وحواء، والوتر الله تعالى.

وقيل: الشفع الصفا والمروة، والوتر البيت الحرام.

وقيل: الشفع أبواب الجنة؛ لأنها ثمانية، والوتر أبواب النار؛ لأنها سبعة.

وقيل: الشفع قران الحج، والوتر إفراده.

وقيل: المراد الأعداد، منها شفع ووتر.

فهذه عشرة أقوال.

وقرئ ﴿وَٱلْوَتْرِ﴾ بفتح الواو وكسرها، وهما لغتان.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ۝٤﴾ أي: إذا يذهب، فهو كقوله: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ۝٣٣﴾ [المدثر: ٣٣].

وقيل: أراد: يُسرَى فيه، فهو على هذا كقولهم: «ليلُهُ قائمٌ»، والمراد على هذا: ليلة جمع؛ لأنها التي يُسرَى فيها.

والأول أشهر وأظهر.

﴿هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ۝٥﴾ هذا توقيف يراد به تعظيم الأشياء التي أقسم بها.

والحجر هنا: هو العقل، كأنه يقول: إن هذا لقسمٌ[1] عظيمٌ عند ذوي العقول.

---

(١) في ب، د، هـ: «القسمَ».

وجواب القسم محذوف، وهو: «ليأخذنَّ الله الكفار»، ويدل على ذلك: ما ذكر بعده من أخْذ عاد وثمود وفرعون.

﴿إِرَمَ﴾ هي قبيلة عاد، سميت باسم أحد أجدادها، كما يقال: «هاشم»: لبني هاشم.

وإعرابه: بدل من ﴿عَادٍ﴾، أو عطف بيان.

وفائدته: أن المراد عادٌ الأولى، فإن عادًا الثانية لا يسمَّون بهذا الاسم.

وقيل: ﴿إِرَمَ﴾ اسم مدينتهم، فهو على حذف مضاف تقديره: «بعادٍ عادِ إرمَ»، ويدل على هذا: قراءة ابن الزبير: «بعادِ إرمَ» على الإضافة من غير تنوين «عاد».

وامتنع ﴿إِرَمَ﴾ من الصرف على القولين: للتعريف والتأنيث.

﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ من قال ﴿إِرَمَ﴾ قبيلةٌ: قال ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾: أعمدة بنيانهم أو أعمدة بيوتهم من الشعر؛ لأنهم كانوا أهل عمود.

وقال ابن عباس: ذلك كناية عن طول أبدانهم.

ومن قال ﴿إِرَمَ﴾ مدينة: فـ ﴿ٱلۡعِمَادِ﴾ الحجارة التي بنيت بها.

وقيل: القصور والأبراج.

﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨﴾ صفة للقبيلة؛ لأنهم كانوا أعظم الناس أجسامًا، يقال: كان طول الرجل منهم أربع مئة ذراع.

أو صفة للمدينة، وهذا أظهر؛ لقوله: ﴿فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، ولأنها كانت أحسن مدائن الدنيا.

وروي أنها بناها شدَّاد بن عاد في ثلاث مئة عام، وكان عمره تسع مئة عام، وجعل قصورها من الذهب والفضة، وأساطينها من الزَّبرجد والياقوت، وفيها أنواع الشجرات والأنهار الجارية.

وروي أنه سَمع ذكر الجنة، فأراد أن يعمل مثلها، فلما أتمَّها وسار إليها بأهل مملكته أهلكهم الله بصيحة.

وكانت هذه المدينة باليمن، وروي أن بعض المسلمين مر بها في خلافة معاوية.

وقيل: هي دمشق.

وقيل: الإسكندرية.

وهذا ضعيف.

﴿جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ﴾ أي: نقَبوه ونحَتوا فيه بيوتًا.

والوادي: ما بين الجبلين، وإن لم يكن فيه ماء.

وقيل: أراد وادي القرى.

﴿وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾﴾ ذكر في «داود»[1].

﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟﴾ صفة لعاد وثمود وفرعون.

ويجوز أن يكون:

منصوبًا على الذم.

---

(١) انظر: (٣/٧٠٠).

أو خبرَ ابتداء مضمر.

﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ استعار[١] السوطَ للعذاب؛ لأنه يقتضي من التكرار ما لا يقتضيه السيف وغيره. قاله ابن عطية[٢].

وقال الزمخشري: ذِكْر السوط إشارةٌ إلى عذاب الدنيا؛ إذ هو أهون من عذاب الآخرة، كما أن السوط أهون من القتل[٣].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ عبارة عن أنه تعالى حاضر بعلمه في كل مكان وكل زمان، ورقيبٌ على كل إنسان، وأنه لا يَفوته أحد من الجبابرة والكفار، وفي ذلك تهديد لكفار قريش وغيرهم.

والمرصاد: المكان الذي يَترقب[٤] فيه الرصَدُ.

﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ﴾ الابتلاء: هو الاختبار، واختبار الله لعبده؛ لتقوم الحجة على العبد بما يبدو منه، وقد كان الله عالمًا بذلك قبل كونه.

و﴿الْإِنسَانُ﴾ هنا: جنس.

وقيل: نزلت في عتبة بن ربيعة.

وهي مع ذلك على العموم فيمن كان على هذه الصفة.

وذكر الله في هذه الآية ابتلاءه للإنسان بالخير، ثم ذكر بعد ابتلاءه بالشر،

---

(١) في أ، هـ: «استعارة».

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٦٠٩).

(٣) الكشاف (١٦/ ٤٢٤).

(٤) في ب، د: «ترتقب».

كما قال في: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وأنكر عليه قوله حين الخير: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ وقوله حين الشر: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾.

ويتعلق بالآية سؤالان:

السؤال الأول: لم أنكر الله على الإنسان قوله: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ و﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾؟

والجواب من وجهين:

أحدهما: أن الإنسان يقول: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾ على وجه الفخر بذلك والكبر، لا على وجه الشكر، ويقول: ﴿رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ على وجه التشكي من الله وقلة الصبر والتسليم لقضاء الله، فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك، فإن الواجب عليه أن يشكر على الخير ويصبر على الشر.

والآخر: أن الإنسان اعتبر الدنيا فجعل بسْط الرزق فيها كرامة، وتضييقه إهانة، وليس الأمر كذلك؛ فإن الله قد يبسط الرزق لأعدائه، ويضيقه على[1] أوليائه، فأنكر الله عليه اعتبار الدنيا والغفلة عن الآخرة.

وهذا الإنكار من هذا الوجه على المؤمن، وأما الكافر فإنما اعتبر الدنيا؛ لأنه لا يصدق بالآخرة، ويرى أن الدنيا هي الغاية، فأنكر عليه ما يقتضيه كلامه من ذلك.

السؤال الثاني: إن قيل: قد قال الله: ﴿فَأَكْرَمَهُۥ﴾ فأثبت إكرامه، فكيف أنكر عليه قوله: ﴿رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ﴾؟

---

(١) في ب: «ويقبضه عن».

فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: أنه لم ينكر عليه ذكره للإكرام، وإنما أنكر عليه ما يدل عليه كلامه من الفخر وقلة الشرك، أو من اعتبار الدنيا دون الآخرة حسَبما ذكرنا في معنى الإنكار.

الثاني: أنه أنكر عليه قوله: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ إذا اعتقد إن إكرام الله له باستحقاقه للإكرام، لا على وجه التفضُّل والإنعام، كقول قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: ٧٨].

الثالث: أن الإنكار إنما هو لقوله: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾، لا لقوله: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾؛ فإن قوله: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ﴾ اعترافٌ بنعمة الله، وقوله: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ﴾ شكاية من فعل الله.

﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ أي: ضيقه.

وقرئ بتشديد الدال وتخفيفها بمعنى واحد، وفي التشديد مبالغة.

وقيل: معنى التشديد: جعَله على قدر معلوم.

﴿كَلَّاۖ﴾ زجرٌ عما أنكر من قول الإنسان.

﴿لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ﴾ هذا ذمٌّ لما ذكر من الأعمال القبيحة.

ومعنى هذا الإضراب بـ﴿بَل﴾: كأنه أنكر على الإنسان ما تقدم، ثم قال: بل تفعلون ما هو شر من ذلك، وهو أن لا تكرموا اليتيم وما ذكر بعده.

قال رسول الله ﷺ: «أحب البيوت إلى الله بيت فيه يتيم مكرم»[1].

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ٣٩١).

﴿وَلَا تَحُضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ الحض على الأمر: هو الترغيب فيه، ومن لا يحض غيره على أمر فلا يفعله هو، فكأنه ذم لترك طعام المسكين.

والطعام هنا: بمعنى الإطعام.

وقيل: هو على حذف مضاف تقديره: لا تحضون على بذل طعام المسكين.

وقرئ ﴿تَحَٰٓضُّونَ﴾ بفتح الحاء وألف بعدها، بمعنى لا يحضُّ بعضكم بعضًا.

﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا﴾ التراث: ما يُورَث عن الميت من المال، والتاء فيه بدل من واو.

واللمُّ: الجمع واللف.

والتقدير: أكلًا ذا لمٍّ، وهو أن يأخذ في الميراث نصيبه ونصيب غيره؛ لأن العرب كانوا لا يعطون من الميراث أنثى ولا صغيرًا، بل ينفرد به الرجال.

﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ أي: شديدًا كثيرًا، وهذا ذم للحرص على المال وشدة الرغبة فيه.

﴿دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: سُوِّيت بذهاب جبالها.

﴿دَكًّا دَكًّا﴾ أي: دكًّا بعد دكٍّ، كما تقول: تعلمت العلم بابًا بابًا.

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ تأويله عند المتأولين: جاء أمره وسلطانه.

وقال المنذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك.

وهذه الآية وأمثالها من المشكلات التي يجب الإيمان بها من غير تكييف ولا تمثيل[١].

﴿وَالْمَلَكُ﴾ هو اسم جنس، فإنه روي أن الملائكة كلهم يكونون صفوفًا حول الأرض.

﴿صَفًّا صَفًّا﴾ أي: صفًّا بعد صف، قد أحدقوا بالجن والإنس.

﴿وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ قال رسول الله ﷺ: «يؤتى يومئذ بجهنم معها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرُّونها»[٢].

﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَٰنُ﴾ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾، و﴿يَتَذَكَّرُ﴾ هو العامل، وهو جواب ﴿إِذَا دُكَّتِ﴾.

والمعنى: أن الإنسان يتذكر يوم القيامة لأعماله في الدنيا، ويندم على تفريطه وعصيانه.

و﴿الْإِنسَٰنُ﴾ هنا: جنس.

وقيل: يعني: عتبة بن ربيعة.

وقيل: أمية بن خلف.

﴿وَأَنَّىٰ لَهُ الذِّكْرَىٰ﴾ هذا على حذف تقديره: «أنى له الانتفاع بالذكرى»، كما تقول: «ندم حين لم تنفعه الندامة».

---

(١) انظر (٤٢٧/١)

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

﴿يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ۝٢٤﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أنه يريد الحياة في الآخرة، **فالمعنى**: يا ليتني قدَّمت عملًا صالحًا للآخرة.

والآخر: أنه يريد الحياة الدنيا، **فالمعنى**: يا ليتني قدَّمت عملًا صالحًا وقْتَ حياتي، فاللام على هذا كقولك: كتبتُ لعشْرٍ من الشهر.

﴿فَيَوۡمَئِذٖ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٞ ۝٢٥﴾ من قرأ بكسر الذال من ﴿يُعَذِّبُ﴾ والثاء من ﴿يُوثِقُ﴾: فالضمير في ﴿عَذَابَهُۥٓ﴾ و﴿وَثَاقَهُۥٓ﴾: لله تعالى.

والمعنى: أنه الله يتولى عذاب الكفار ولا يَكِله إلى أحد.

ومن قرأ بالفتح: فالضمير للإنسان؛ أي: لا يعذَّب أحد مثل عذابه، ولا يوثَق أحد مثل وَثاقه.

وهذه قراءة الكسائي، وروي أن أبا عمرٍو رجع إليها، وهي قراءة حسنة، وقد رويت عن رسول الله ﷺ[1].

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ۝٢٧﴾ أي: الموقنة يقينًا قد اطمأنت به، بحيث لا يتطرَّق إليها شك في الإيمان.

وقيل: المطمئنة: التي لا تخاف حينئذ، ويؤيد هذا: قراءة أبيِّ بن كعب: «يا أيتها النفس الآمنة المطمئنة».

﴿ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ هذا الخطاب والنداء يكون: عند الموت.

وقيل: عند البعث.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٣٩١) وقال: «إسناده واهٍ»

وقيل: عند انصراف الناس إلى الجنة أو النار.

والأول أرجح؛ لما روي أن أبا بكر سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال له: «يا أبا بكر إن الملك سيقولها لك عند موتك»[١].

﴿رَاضِيَةً﴾ معناه: راضية بما أعطاك الله، أو راضية عن الله.

ومعنى المرضية: مرضية عند الله، أو أرضاها الله بما أعطاها.

﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾﴾ أي: ادخلي في جملة عبادي الصالحين.

وقرئ: ﴿فَادْخُلِي فِي عَبْدِي﴾ بالتوحيد، ومعناه: ادخلي في جسده وهو خطاب للنفس.

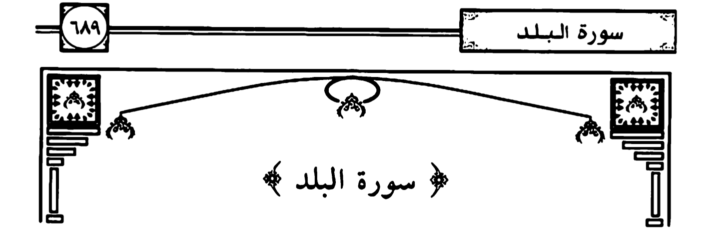
ونزلت هذه الآية في حمزة.

وقيل: في خُبيب بن عَديٍّ الذي صلبه الكفار بمكة.

ولفظها يعم كل نفس مطمئنة.

* * *

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٣٩٦).



﴿ سورة البلد ﴾

[﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهۡلَكۡتُ مَالٗا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحۡسَبُ أَن لَّمۡ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾﴾].

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿١﴾﴾ أراد مكة باتفاق، وأقسم بها تشريفًا لها، و﴿لَآ﴾ زائدة.

﴿وَأَنتَ حِلُّۢ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ﴿٢﴾﴾ هذه جملة اعتراض بين القسم وما بعده، وفي معناها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المعنى أنت حالٌّ[1] بهذا البلد؛ أي: ساكن؛ لأن السورة نزلت والنبي ﷺ بمكة.

والآخر: أن معنى ﴿حِلُّۢ﴾: تُستحَلُّ حرمتُك ويؤذيك الكفار، مع أن مكة

---

(١) في ب، د، هـ: «حلٌّ».

لا يحل فيها قتل صيد ولا بشرٍ، ولا قطع شجر.

وعلى هذا قيل: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾ نفيٌ؛ أي: لا أقسم بهذا البلد وأنت تلحقك فيه إذاية.

الثالث: أن معنى ﴿حِلُّۢ﴾: حلالٌ، يجوز لك في هذا البلد ما شئت من قتل كافر وغير ذلك مما لا يجوز لغيرك، وهذا هو الأظهر؛ لقوله ﷺ: «**إن هذا البلد حرام حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض، لم يَحِلَّ لأحد قبلي ولا يحلُّ لأحد بعدي، وإنما أُحل لي ساعة من نهار**»[١]، يعني: يوم فتح مكة، وفي ذلك اليوم أمر ﷺ بقتل ابن خطَلٍ وهو متعلق بأستار الكعبة[٢].

فإن قيل: إن السورة مكية، وفتح مكة كان عام ثمانية من الهجرة؟

فالجواب: أن هذا وعدٌ بفتح مكة، كما تقول لمن تَعِدُه بالكرامة: «أنت مُكْرَمٌ»، يعني: فيما يستقبل.

وقيل: إن السورة على هذا مدنية نزلت يوم الفتح، وهذا ضعيف.

﴿وَوَالِدٖ وَمَا وَلَدَ ۝٣﴾ فيه خمسة أقوال:

أحدها: أنه أراد آدم وجميع ولَده[٣].

الثاني: نوح وولده.

الثالث: إبراهيم وولده.

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٣٤)، ومسلم (١٣٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (١٨٤٦)، ومسلم (١٣٥٧).

(٣) في د: «أولاده».

الرابع: محمد ﷺ وولده.

الخامس: جنس كل والد ومولود.

وإنما قال: ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ولم يقل: «ومن ولد»؛ إشارةً إلى تعظيم المولود كقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ﴾ [آل عمران: ٣٦]، قاله الزمخشري[١].

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِي كَبَدٍ﴾ أي: يكابد المشقَّات من هموم الدنيا والآخرة. قال بعضهم: لا يكابد أحد من المخلوقات ما يكابده[٢] ابن آدم.

وأصل الكبَد: من قولك: كَبِدَ الرجلُ فهو أكبد: إذا وَجِعَت كَبِدُه.

وقيل: معنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾: واقفًا منتصب القامة، وهذا ضعيف.

و﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ على هذين القولين: جنس.

وقيل: الإنسان آدم عليه السلام، ومعنى ﴿فِي كَبَدٍ﴾ على هذا: في السماء، وهذا ضعيف، والأول هو الصحيح.

﴿أَيَحۡسَبُ أَن لَّن يَقۡدِرَ عَلَيۡهِ أَحَدٞ ۝٥﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن معناه: أيظن أن لن يقدر أحد على بعثه وجزائه.

والآخر: أيظن أن لن يقدر أحد أن يغلبه.

فعلى الأول: نزلت في جنس الإنسان الكافر.

وعلى الثاني: نزلت في رجل معيَّن، وهو أبو الأشَدِّ، رجل من قريش كان شديد القوة.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٤٤٣).

(٢) في ج، د، هـ: «يكابد».

وقيل: عمرو بن عبد ودٍّ، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة، وقتله علي ابن أبي طالب.

﴿يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ۝٦﴾ أي: كثيرًا.

وقرئ ﴿لُّبَدًا﴾ بضم اللام وكسرها، وهو جمع لبْدَةٍ - بالضم والكسر - بمعنى الكثرة.

ونزلت الآية عند قوم في الوليد بن المغيرة؛ فإنه أنفق مالًا في إفساد أمر رسول الله ﷺ.

وقيل: في الحارث بن عامر بن نوفل، وكان قد أسلم وأنفق في الصدقات والكفارات، فقال: لقد أهلكت مالي منذ تبعت محمدًا.

﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ۝٧﴾ يحتمل أن يكون هذا:

تكذيبًا له في قوله: ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾.

أو إشارة إلى أنه أنفقه رياء.

﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ أي: طريقَي الخير والشر، فهو كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣]، وليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد.

وقيل: يعني: ثديَي الأم.

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١﴾ الاقتحام: الدخول بشدَّة ومشقة.

و﴿ٱلْعَقَبَةَ﴾ عبارة عن الأعمال الصالحة المذكورة بعد، وجعلها عقبةً استعارة من عقبة الجبل؛ لأنها تصعب ويشق صعودها على النفوس.

وقيل: هو جبل في جهنم له عقبة لا يجاوزها إلا من عمل هذه الأعمال.

و﴿لَا﴾ هنا: تحضيضٌ بمعنى: «هلَّا».

وقيل: هي دعاء.

وقيل: هي نافية.

واعتُرض هذا القول: بأن «لا» النافية إذا دخلت على الفعل الماضي لزم تكرارها.

وأجاب الزمخشري بأنها مكرَّرة في المعنى، والتقدير: فلا اقتحم العقبة ولا فك رقبة ولا أطعم مسكينًا(١).

وقال الزجاج: قوله: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يدل على التكرار؛ لأن التقدير: فلا اقتحم العقبة ولا آمن(٢).

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾﴾ تعظيم للعقبة، ثم فسَّرها بفك الرقبة، وهو إعتاقها، وبالإطعام.

وقرئ ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾:

بضم الكاف وخفض الرقبة، وهو على هذا تفسير للعقبة.

وبفتح الكاف ونصب الرقبة، وهو تفسير لـ ﴿ٱقْتَحَمَ﴾.

وفك الرقبة: هو عتقها، قال رسول الله ﷺ: «من أعتق رقبة مؤمنة أعتق

---

(١) الكشاف (١٦/ ٤٤٨).

(٢) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥/ ٣٢٩).

الله بكل عضو منها عضوًا منه من النار»[١].

وقال أعرابي لرسول الله ﷺ: دلني على عمل أنجو به، فقال: «فُكَّ الرقبة وأَعتِق النسمة»، فقال الأعرابي: أليس هذا واحدًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، عتق النسمة أن تنفرد بعتقها، وفك الرقبة أن تعين في ثمنها»[٢].

وأما فداء أسارى المسلمين من أيدي الكافرين فإنه أعظم أجرًا من العتق؛ لأنه واجب، ولو استغرقت فيه أموال المسلمين، ولكنه لا يجزئ في الكفارات عن عتق رقبة.

﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ﴾ من قرأ ﴿فَكُّ﴾ بالرفع قرأ ﴿إِطْعَٰمٌ﴾، فعطف مصدرًا على مصدر.

ومن قرأ ﴿فَكَّ﴾ بالفتح قرأ ﴿أَطْعَمَ﴾ بفتح الهمزة والميم، فعطف فعلًا على فعل.

﴿فِي يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾ أي: ذي مجاعة، يقال: سَغب الرجلُ: إذا جاع.

﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾﴾ أي: ذا قرابة، ففيه أجر إطعام اليتيم وصلة الرحم.

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ أي: ذا حاجة، يقال: تَرِبَ الرجل: إذا افتقر، وهو مأخوذ من لُصُوقِه بالتراب.

وروي عن النبي ﷺ: أنه الذي مأواه المزابل[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٧١٥)، ومسلم (١٥٠٩).

(٢) أخرجه ابن حبان (٢/ ٩٧)، والحاكم (٢/ ٢٣٦).

(٣) أخرجه ابن مردويه في تفسيره كما في تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٤/ ٢١٤).

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للتراخي في الرتبة لا في الزمان، وفيها إشارة إلى أن الإيمان أعلى من العتق والإطعام.

ولا يصح أن تكون للترتيب في الزمان؛ لأنه يلزم أن يكون الإيمان بعد العتق والإطعام!، ولا يُقبل عمل إلا من مؤمن.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ أي: وصَّى بعضهم بعضًا بالصبر على قضاء الله.

وكأن هذا إشارةٌ إلى صبر المسلمين بمكة على إذاية الكفار.

﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ أي: وصى بعضهم بعضًا برحمة المساكين وغيرهم.

وقيل: المرحمة: كل ما يؤدي إلى رحمة الله.

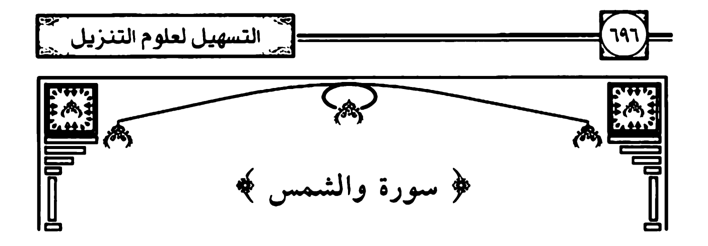
﴿ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ جهة اليمين و﴿ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ جهة الشمال.

وروي أن الميمنة عن يمين العرش.

ويحتمل أن يكونا من اليُمن والشؤم.

﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّوصَدَةٌۢ﴾ أي: مُطبَقة مُغلَقة، يقال: أوصدتُ الباب: إذا أغلقتَه.

وفيه لغتان: الهمز، وترك الهمز.



﴿ سورة والشمس ﴾

[﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ۝١٥﴾].

﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١﴾ الضحى: ارتفاع الضوء وكماله.

والضَّحَاء -بالفتح والمد-: بعد ذلك إلى الزوال.

وقيل: الضحى النهار كله.

والأول هو المعروف في اللغة.

﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢﴾ أي: تَبِعها، وفي تبَعِه لها ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه يتبعها في كثرة الضوء؛ لأنه أضوأ الكواكب بعد الشمس، ولا سيما ليلة البدر.

والآخر: أنه يتبعها في طلوعه؛ لأنه يطلع بعد غروبها، وذلك في النصف الأول من الشهر.

الثالث: أن تَبَعَهُ لها: أخْذُه من نورها.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣﴾ أي: كشفها وأظهرها.

والضمير المفعول للشمس، وضمير الفاعل للنهار؛ لأن الشمس تتجلَّى بالنهار، فكأنه هو الذي جلَّاها.

وقيل: الضمير الفاعل: لله.

وقيل: الضمير المفعول: للظلمة، أو للأرض، أو للدنيا.

وهذا كله بعيد؛ لأنه لم يتقدم ما يعود الضمير عليه.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤﴾ أي: يغطيها، وضمير المفعول للشمس، وضمير الفاعل للَّيل على الأصح.

﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥﴾ قيل: إن «ما» في قوله: ﴿وَمَا بَنَىٰهَا﴾ و﴿وَمَا طَحَىٰهَا﴾ و﴿مَا سَوَّىٰهَا﴾ موصولة بمعنى: «من»، والمراد الله تعالى.

وقيل: إنها مصدرية، كأنه قال: والسماء وبنيانها[1]، وضعف الزمخشري هذا بقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا﴾؛ فإن المراد الله باتفاق، فهذا القول يؤدي إلى فساد النظم[2].

وضعَّف بعضهم كونها موصولة بتقديم ذكر المخلوقات على الخالق.

فإن قيل: لم عدَل عن «من» إلى «ما» في قول من جعلها موصولة؟

فالجواب: أنه فعل ذلك لإرادة الوصفية، كأنه قال: والقادر الذي بناها.

﴿طَحَىٰهَا﴾ أي: مدَّها.

---

(١) في ا، هـ: «وبنيانها».

(٢) الكشاف (١٦/ ٤٥٩).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧﴾ تسوية النفس: إكمال عقلها وفهمها.

فإن قيل: لم نكّر النفس؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد الجنس، كقوله: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ [التكوير: ١٤].

والآخر: أنه أراد نفس آدم.

والأول هو المختار.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ أي: عرَّفها طرق[1] الفجور والتقوى، وجعل لها قوة يصح معها اكتساب أحد الأمرين.

ويحتمل أن تكون الواو بمعنى «أو»، كقوله: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان: ٣].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩﴾ **هذا جواب القسم عند الجمهور.**

وقال الزمخشري: الجواب محذوف تقديره: لَيُدَمْدِمَنَّ الله على أهل مكة لتكذيبهم النبيَّ ﷺ، كما دَمْدم على قوم ثمود لتكذيبهم صالحًا ﷺ، قال: وأما ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾ فكلام تابع لقوله: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨﴾ على سبيل الاستطراد[2]، وهذا بعيد.

والفاعل بـ﴿زَكَّىٰهَا﴾ ضمير يعود على ﴿مَن﴾، والمعنى: قد أفلح من زكى نفسه؛ أي: طهَّرها من الذنوب والعيوب.

---

(١) في ب، د: «طريق».

(٢) الكشاف (١٦/ ٤٦٤).

وقيل: الفاعل ضمير الله تعالى.

والأول أظهر.

﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ أي: حقَّرها بالكفر والمعاصي.

وأصله: دسَّسَ بمعنى: أخفى؛ فكأنه أخفى نفسه لما حقرها، وأُبدل من السين الآخرة حرف علة، كقولهم: «قصَّيْتُ أظفاري»، وأصله: قصَصْتُ.

﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾ هو مصدر بمعنى الطغيان، قلبت فيه الياء واوًا على لغة من يقول: «طَغَيْتُ».

والباء الخافضة:

كقولك: «كتبت بالقلم».

أو سببية، والمعنى: بسبب طغيانها.

وقال ابن عباس: معناه كذبت ثمود بعذابها، ويؤيده قوله: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾﴾ [الحاقة: ٥].

﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾﴾ العامل في ﴿إِذِ﴾: ﴿كَذَّبَتْ﴾ أو ﴿بِطَغْوَىٰهَآ﴾.

ومعنى ﴿ٱنۢبَعَثَ﴾: خرج إلى عقر الناقة بسرعة ونشاط.

و﴿أَشْقَىٰهَا﴾: هو الذي عقر الناقة، وهو أُحيمر ثمود، واسمه قُدَار بن سالف.

ويحتمل أن يكون ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ واقعًا على جماعة؛ لأن «أفعل» التي للتفضيل إذا أضفته يستوي فيه الواحد والجمع.

والأول أظهر وأشهر.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يعني: صالحًا عليه السلام.

﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: احفظوا ناقة الله، أو احذروا ناقة الله.

و﴿سُقْيَٰهَا﴾: شربها من الماء.

﴿فَعَقَرُوهَا﴾ نَسب العقر إلى جماعة؛ لأنهم اتفقوا عليه، وباشَره واحد منهم.

﴿فَدَمْدَمَ﴾ عبارة عن إنزال العذاب بهم، وفيه تهويل.

﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ أي: بسبب ذنبهم، وهو التكذيب، أو عقر الناقة.

﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ قال ابن عطية: معناه: فسوَّى القبيلة في الهلاك، لم يُفْلت[1] أحد منهم[2].

وقال الزمخشري: الضمير للدمدمة؛ أي: سواها بينهم[3].

﴿فَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ ضمير الفاعل لله تعالى، والضمير في ﴿عُقْبَٰهَا﴾ للدمدمة والتسوية وهو الهلاك؛ أي: لا يخاف عاقبة إهلاكهم، ولا درَك عليه في ذلك كما يخاف الملوك من عاقبة أعمالهم، وفي ذلك احتقار لهم.

وقيل: إن ضمير الفاعل لصالح، وهذا بعيد.

---

(١) في أ، د، هـ: «يفت».
(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٦٣٠).
(٣) الكشاف (١٦/ ٤٦٧).

وقرئ ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالفاء وبالواو.

وقيل في القراءة بالواو: إن الفاعل ﴿أَشْقَنْهَا﴾ والجملة في موضع الحال؛ أي: انبعث ولم يخف عقبى فعلته، وهذا بعيد.



﴿ سورة الليل ﴾

[﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝٤ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١ إِنَّ عَلَيۡنَا لَلۡهُدَىٰ ۝١٢ وَإِنَّ لَنَا لَلۡأٓخِرَةَ وَٱلۡأُولَىٰ ۝١٣ فَأَنذَرۡتُكُمۡ نَارٗا تَلَظَّىٰ ۝١٤ لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ۝١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٦ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ۝١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ۝٢١﴾].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝١﴾ أي: يغطِّي، وحذف المفعول وهو: الشمس؛ لقوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤﴾ [الشمس: ٤].

أو النهار لقوله: ﴿يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

أو كل شيء يستره[١] الليل.

﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢﴾ أي: ظهر وتبيَّن، والنهار: من طلوع الشمس، واليوم: من طلوع الفجر.

﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ ﴿مَا﴾ بمعنى «من»، والمراد بها: الله تعالى، وعدل عن «مَن» لقصد الوصف، كأنه قال: والقادرِ الذي خلق الذكر والأنثى.

---

(١) في أ: «ستره».

وقيل: هي مصدرية.

وروى ابن مسعود أن النبي ﷺ قرأ: «والذكرِ والأنثى»[١].

﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ هذا جواب القسم، ومعناه: إن عملكم مختلف، فمنه حسنات ومنه سيئات.

و﴿شَتَّىٰ﴾ جمع شَتيت.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥﴾ أي: أعطى ماله في الزكاة والصدقة وشبه ذلك، أو أعطى حقوق الله من طاعته في جميع الأشياء، واتقى الله.

﴿وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦﴾ أي: بالخَصلة الحسنة وهي الإسلام، ولذلك عبَّر عنه بعضهم بأنها: «لا إله إلا الله»، أو بالمثوبة الحسنى وهي الجنة.

وقيل: يعني: الأجر والثواب على الإطلاق.

وقيل: يعني: الخَلَف على المنفق.

﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ أي: نهيِّؤه للطريقة اليسرى، وهي فعل الخيرات وترك السيئات.

وضد ذلك ﴿فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾.

ومنه قوله ﷺ: «اعلموا فكل ميسر لما خلق له»[٢]، أي: يهيؤه الله لما قدَّر له، ويسهل عليه فعل الخير أو الشر.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٦١)، ومسلم (٨٢٤).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٤٩)، ومسلم (٢٦٤٧).

﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨﴾ أي: بخِل بماله، أو بطاعة الله على الإطلاق، فيحتمل الوجهين؛ لأنه في مقابلة ﴿أَعۡطَىٰ﴾، كما أن ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾ في مقابلة ﴿ٱتَّقَىٰ﴾، و﴿وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ في مقابلة ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦﴾، و﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ في مقابلة ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ﴾.

ومعنى ﴿وَٱسۡتَغۡنَىٰ﴾: استغنى عن الله فلم يطعه.

أو استغنى بالدنيا عن الآخرة.

ونزلت آية المدح في أبي بكر الصديق؛ لأنه أنفق ماله في مرضات الله، وكان يشتري من أسلم من العبيد فيُعتقهم.

وقيل: نزلت في أبي الدحداح، وهذا ضعيف؛ لأنها مكية، وإنما أسلم أبو الدحداح في المدينة.

وقيل: إن آية الذم نزلت في أبي سفيان بن حرب، وهذا ضعيف؛ لقوله: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾، وقد أسلم أبو سفيان بعد ذلك.

﴿وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝١١﴾ هذا نفيٌ، أو استفهام بمعنى الإنكار.

واختُلف في معنى ﴿تَرَدَّىٰٓ﴾ على أربعة أقوال:

الأول: تردى أي: هلك، فهو مشتقٌّ من الردى وهو الموت.

[٢-] أو تردَّى أي: سقط في القبر.

[٣-] أو سقط في جهنم.

[٤-] أو تردى بأكفانه، من الرِّداء.

﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ⑫﴾ أي: بيان الخير والشر، وليس المراد الإرشاد عند الأشعرية، خلافًا للمعتزلة[1].

﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ مخاطبة:

من الله.

أو من النبي ﷺ على تقدير: «قل».

﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ استدل المرجئة بهذه الآية على أن النار لا يدخلها إلا الكفار لقوله: ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑯﴾.

وتأولها الناس بثلاثة أوجه:

أحدها: أن المعنى: لا يصلاها صَلْيَ خلود إلا الأشقى.

والآخر: أنه أراد نارًا مخصوصة.

الثالث: أنه أراد بـ ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ كافرًا معينًا، وهو أبو جهل أو أمية ابن خلف، وقابل به ﴿ٱلْأَتْقَى﴾، وهو أبو بكر الصديق؛ فخرج الكلام مخرج المدح والذم على الخصوص، لا مخرج الإخبار على العموم.

﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ من أداء الزكاة.

أو من الزكاء؛ أي:

يصير زكيًا عند الله.

أو يتطهر من ذنوبه.

---

(١) انظر تعليق الشيخ عبد الرحمن البراك في صفحة ٥٦١.

وهذا الفعل:

بدل من ﴿ٱلَّذِى يُؤۡتِى﴾.

أو حال من الضمير.

﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩﴾ أي: لا يفعل الخير جزاءً على نعمة أنعم بها عليه أحد فيما تقدم، بل يفعله ابتداء خالصًا لوجه الله.

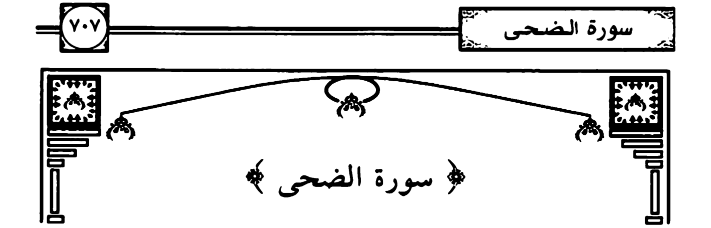
وقيل: المعنى لا يَقصِد جزاءً من أحد في المستقبل على ما يفعل.

والأول أظهر، ويؤيده ما روي أن سبب الآية أن أبا بكر الصديق لما أعتق بلالًا قالت قريش: كان لبلال عنده يد متقدمة، فنفى الله قولهم.

﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾ استثناء منقطع.

﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾ وعدٌ بأن يُرضيَه الله في الآخرة.

* * *



﴿ سورة الضحى ﴾

[﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾].

﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١﴾ ذكر في «الشمس وضحاها»[١].

﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢﴾ فيه أربعة أقوال:

[١-] إذا أقبل.

[٢-] وإذا أدبر.

[٣-] وإذا أظلم.

[٤-] وإذا سكن؛ أي:

استقر واستوى.

أو سكن فيه الناس والأصوات، ومنه: «ليلة ساجية»: إذا كانت ساكنة الريح، و«طَرْفٌ ساجٍ» أي: ساكن غير مضطرب النظر.

---

(١) انظر صفحة ٦٩٦.

وهذا أقرب في الاشتقاق، وهو اختيار ابن عطية[١].

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ بتشديد الدال: من الوداع.

وقرئ بتخفيفها بمعنى: ما تركك، والوداع مبالغة في الترك.

﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي: ما أبغضك.

وحذف ضمير المفعول من ﴿قَلَىٰ﴾ و﴿فَـَٔاوَىٰ﴾ و﴿فَهَدَىٰ﴾ و﴿أَغۡنَىٰ﴾ اختصارًا؛ لظهور المعنى، ولموافقة رؤوس الآي.

وسبب الآية: أن رسول الله ﷺ أبطأ عنه الوحي، فقالت قريش: إن محمدًا ودعه ربه وقلاه، فنزلت تكذيبًا لهم.

وقيل: رُمي ﷺ بحجر في إِصبَعه فدَمِيت، فمكث ليلتين أو ثلاثًا لا يقوم، فقالت امرأة: ما أرى شيطان محمد إلا قد تركه، فنزلت.

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ۝٤﴾ أي: الدار الآخرة خير لك من الدنيا.

قال ابن عطية: ويحتمل أن يريد بالآخرة: حالَه بعد نزول هذه السورة، ويريد بالأولى: حالة قبل نزولها[٢]، وهذا بعيد، والأول أظهر وأشهر.

﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾ روي أنه ﷺ قال لما نزلت: «إذَنْ لا أرضى أن يبقى واحد من أمتي في النار»[٣].

قال بعضهم: هذه أرجى آية في القرآن.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٦٣٨).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٦٣٩).

(٣) أخرجه الثعلبي بإسناده في تفسيره «الكشف والبيان» (٣٠/ ٤٨٢).

وقال ابن عباس: رضاه: أن الله وعده بألْف قصر في الجنة بما يحتاج إليه من النعم والخدم.

وقيل: رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره.

والصحيح أنه وعدٌ يعمُّ كل ما أعطاه في الآخرة، وكل ما أعطاه في الدنيا من النصر والفتوح وكثرة المسلمين وغير ذلك.

﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ⑥﴾ عدَّد الله نعمه عليه فيما مضى من عمره؛ ليقيس عليه ما يستقبل فتطيب نفسه، ويقوى رجاؤه.

و«وَجَدَ» في هذه المواضع تتعدى إلى مفعولين، وهي بمعنى: «علم»؛ فالمعنى: ألم تكن يتيمًا فآواك؟، وذلك أن والده عليه السلام توفي وتركه في بطن أمه، ثم ماتت أمه وهو ابن خمسة أعوام، وقيل: ثمانية، فكفِله جدُّه عبد المطلب، ثم مات وتركه ابن اثني عشر عامًا، فكفله عمه أبو طالب.

وقيل: لجعفر الصادق: لم نشأ النبي ﷺ يتيمًا؟ فقال: لئلا يكون عليه حقٌّ لمخلوق.

﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ⑦﴾ فيه ستة أقوال:

أحدها: وجدك ضالًّا عن معرفة الشريعة فهداك إليها، فالضلال عبارة عن التوقُّف في أمر الدين حتى جاءه الحق من عند الله، فهو كقوله: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وهذا هو الأظهر، وهو الذي اختاره ابن عطية[1] وغيره، ومعناه: أنه لم يكن يعرف تفصيل الشريعة وفروعها حتى

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٦٤٠).

بعثه الله، ولكنه ما كفر بالله ولا أشرك به؛ لأنه كان معصومًا من ذلك من قبل النبوة وبعدها.

الثاني: وجدك في قوم ضُلَّال، فكأنك واحد منهم، وإن لم تكن تعبد ما يعبدون، وهذا قريب من الأول.

الثالث: وجدك ضالًّا عن الهجرة فهداك إليها، وهذا ضعيف؛ لأن السورة نزلت قبل الهجرة.

الرابع: وجدك خامل الذكر لا تُعرف، فهدى الناس إليك وهداهم بك، وهذا بعيد عن المعنى المقصود.

الخامس: أنه من الضلال عن الطريق، وذلك أنه ﷺ ضلَّ في بعض شِعاب مكة؛ أي: تلِفَ وهو صغير، فردَّه الله إلى جده.

وقيل: بل ضلَّ من مرضعته حليمة، فرده الله إليها.

وقيل: بل ضل في طريق الشام حين خرج إليها مع أبي طالب.

السادس: أنه من الضلال بمعنى المحبة[1] أي: وجدك محبًّا لله فهداك إليه، ومنه قول إخوة يوسف لأبيهم، ﴿تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يوسف: ٩٥]؛ أي: محبتك ليوسف، وبهذا كان يقول شيخنا الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير.

﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ العائل: الفقير، يقال: عال الرجل فهو عائل: إذا كان محتاجًا، وأعال فهو مُعيل: إذا كثر عياله.

---

(١) في أ، هـ: «أنه بمعنى الضلال من المحبة»!.

وهذا الفقر والغنى هو في المال.

وغناه[١] ﷺ: هو أن أعطاه الله الكفاف.

وقيل: هو رضاه بما أعطاه الله.

وقيل: المعنى: وجدك فقيرًا إليه فأغناك به.

﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ۝٩﴾ أي: لا تغلبه على ماله وحقِّه لأجل ضعفه.

أو لا تقهره بالمنع من مصالحه.

ووجوه القهر كثيرة، والنهي يعمُّ جميعها.

﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ﴾ النَّهْرُ: هو الانتهار والزجر، فالنهي عنه أمر بالقول الحسن والدعاء للسائل كما قال تعالى: ﴿فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا﴾ [الإسراء: ٢٨].

ويحتمل ﴿ٱلسَّآئِلَ﴾ أن يريد به:

سائل الطعام والمال، وهذا هو الأظهر.

أو السائل عن العلم والدين.

وفي قوله ﴿تَقۡهَرۡ﴾ و﴿تَنۡهَرۡ﴾ لزوم ما لا يلزم من التزام الهاء قبل الراء.

﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ۝١١﴾ قيل: معناه: بُثَّ القرآن وبلِّغ الرسالة.

والصحيح أنه عموم جميع النعم، قال رسول الله ﷺ: «التحدث بالنعم شكر»[٢].

---

(١) في أ، هـ: «وغناؤه».

(٢) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٦/ ٢٤٢).

ولذلك كان بعض السلف يقول: «لقد أعطاني الله كذا، ولقد صليت البارحة كذا»، وهذا إنما يجوز إذا ذكره على وجه الشكر أو ليقتدى به، فأما على وجه الفخر والرياء فلا يجوز.

وانظر كيف ذكر الله في هذه السورة ثلاثَ نعمٍ، ثم ذكر في مقابلتها ثلاث وصايا:

[١-] فقابل قوله: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ بقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾﴾.

[٢-] وقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا﴾:

بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ على قول من قال إنه السائل عن العلم.

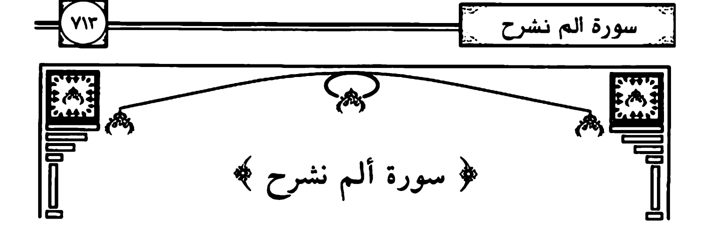
وقابله بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ على القول الآخر.

[٣-] وقابل قوله: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾:

بقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾﴾ على القول الأظهر.

وقابله بقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ على القول الآخر.

* * *



﴿ سورة ألم نشرح ﴾

[﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾].

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ هذا توقيف معناه: إثبات شرح صدره ﷺ، وتعديد ما ذكر بعده من النعم.

وشرح صدره ﷺ: هو اتساعه لتحصيل العلم، وتنويره بالحكمة والمعرفة.

وقيل: هو شق جبريل لصدره في صغره، أو في وقت الإسراء، حين أخرج قلبه وغسَله.

﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢﴾ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: - قول الجمهور -: أن الوزر: الذنوب، ووضْعُها: هو غفرانها، فهو كقوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]، وهذا على قول من جوَّز صغائر الذنوب على الأنبياء، أو على أن ذنوبه كانت قبل النبوَّة.

الثاني: أن الوزر: هو أثقال النبوة وتكاليفها، ووضعها على هذا: هو إعانته عليها، وتمهيد عذره بعد ما بلَّغ الرسالة.

الثالث: أن الوزر: هو تحيُّره قبل النبوة؛ إذ كان يرى أن قومه على

ضلال، ولم يأته من الله أمر واضح، فوضعه على هذا: هو بالنبوَّة والهدى للشريعة.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ عبارة عن ثِقَلِ الوزر المذكور وشدته عليه.

قال الحارث المحاسبي: إنما وُصفت ذنوب الأنبياء بالثِّقَل، وهي صغائر مغفورة لهم؛ لهمِّهم بها وتحسُّرهم عليها، فهي ثقيلة عندهم؛ لشدة خوفهم من الله، وهي خفيفة عند الله.

وهذا كما جاء في الأثر: «إن المؤمن يرى ذنوبه كالجبل يقع عليه، والمنافق يرى ذنوبه كالذبابة تطير فوق أنفه»(١).

واشتقاق ﴿أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾:

من نقض البنيان وغيره.

أو من النقيض، وهو الصوت؛ فكأنه يُسمع لظهره نقيض كنقيض ما يُحمل عليه شيءٌ ثقيل.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ أي: نوَّهنا باسمك وجعلناه شهيرًا في المشارق والمغارب.

وقيل: معناه اقتران ذكره بذكر الله في الأذان والخطب والتشهد وفي مواضع من القرآن، وقد روي في هذا حديث: إن الله قال له: «إذا ذكرتُ ذكرتَ معي»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨)

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٤٩٤).

فإن قيل: لم قال: ﴿لَكَ ذِكْرَكَ﴾ و﴿لَكَ صَدْرَكَ﴾ مع أن المعنى مستقل دون ﴿لَكَ﴾؟

فالجواب: أن قوله: ﴿لَكَ﴾ تدل على الاعتناء به والاهتمام بأمره.

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ هذا وعد باليُسر بعد العسر، وإنما ذكره بلفظ ﴿مَعَ﴾ التي تقتضي المقارنة[1]، ليدل على قرب اليسر من العسر.

فإن قيل: ما وجه ارتباط هذا مع ما قبله؟

فالجواب: أنه ﷺ كان بمكة هو وأصحابه في عُسر من إذاية الكفار ومن ضيق الحال، فوعده الله باليسر، وقدَّم تعديد النعم تسلية وتأنيسًا؛ لتطيبَ نفسُه ويقوى رجاؤه، كأنه يقول: إن الذي أنعم عليك بهذه النعم سينصرك ويظهرك ويبدِّل لك هذا العسر بيسر قريب، ولذلك كرر ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ مبالغةً، وقال رسول الله ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين»[2]، وقد روي ذلك عن عمر وابن مسعود.

وتأويله: أن العسر المذكور في هذه السورة واحد؛ لأن الألف واللام للعهد كقولك: «جاءني رجل فأكرمت الرجل»، واليسر اثنان؛ لتنكيره.

وقيل: إن اليسر الأول: في الدنيا، والثاني: في الآخرة.

﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧﴾ هو من النصَب بمعنى التعب، والمعنى: إذا فرَغت من أمر فاجتهد في آخر.

---

(١) في أ، هـ: «المقاربة».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٤٩٥).

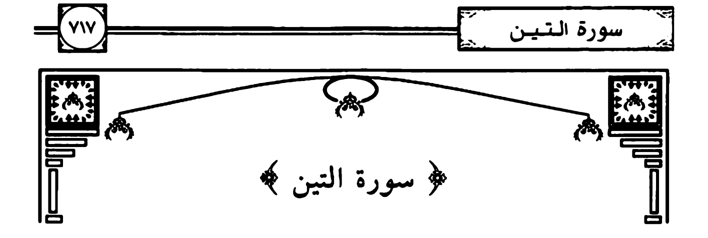
ثم اختُلف في تعيين الأمرين:

فقيل: إذا فرغت من الفرائض فانصب في النوافل.

وقيل: إذا فرغت من الصلاة فانصب في الدعاء.

وقيل: إذا فرغت من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك.

﴿وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ قدم الجار والجرور؛ ليدل على الحصر؛ أي: لا ترغب إلا إلى ربك وحده.



﴿ سورة التين ﴾

[﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٦ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ۝٧ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ۝٨﴾].

﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١﴾ فيها قولان:

الأول: أنه التين الذي يؤكل، والزيتون الذي يعصر، أقسم الله بهما؛ لفضيلتهما على سائر الثمار.

روي أن رسول الله ﷺ أكل مع أصحابه تينًا فقال: «لو قلتُ: إن فاكهةً نزلت من الجنة قلت هذه؛ لأن فاكهة الجنة بلا عَجَم، فكلوه فإنه يقطع البواسير وينفع من النِّقرس»(١)، وقال ﷺ: «نعم السواك الزيتون، من الشجرة المباركة، هي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي»(٢).

القول الثاني: أنهما موضعان، ثم اختلف فيهما:

فقيل: هما جبلان بالشام، أحدهما بدمشق ينبت فيه التين، والآخر بإيلياء ينبت فيه الزيتون، فكأنه قال: ومنابت التين والزيتون.

---

(١) أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في كتاب الطب (٢/ ٤٨٥).

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١٠/ ٢٣٩).

وقيل: التين: مسجد دمشق، والزيتون: مسجد بيت المقدس.

وقيل: التين: مسجد نوح، والزيتون: مسجد إبراهيم.

والأظهر أنهما الموضعان من الشام، وهما اللذان كان فيهما مولد عيسى أو مسكنه، وذلك أن الله ذكر بعد هذا الطورَ الذي كلم عليه موسى، والبلدَ الذي بعث منه محمدًا ﷺ، فتكون الآية نظير ما في التوراة: أن الله تعالى جاء من طور سيناء، وطلع من ساعر وهو موضع عيسى، وظهر من جبال فاران، وهي مكة[1].

وأقسم الله بهذه المواضع التي ذكر في التوراة؛ لشرفها بالأنبياء المذكورين.

﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ هو الجبل الذي كلَّم عليه موسى وهو بالشام، وأضافه الله إلى ﴿سِينِينَ﴾.

ومعنى ﴿سِينِينَ﴾: مبارك، فهو من إضافة الموصوف إلى الصفة.

وقيل: معناه: ذو الشجر، واحدها سينينة، قاله الأخفش.

وقال الزمخشري: ويجوز أن يعرب إعراب الجمع المذكر بالواو والياء، وأن يلزم الياء وتُحرَّك النون بحركات الإعراب.

﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝٣﴾ هو مكة باتفاق.

و﴿ٱلْأَمِينِ﴾:

من الأمانة.

---

(١) انظر ٢/٣٩٦.

أو من الأمن؛ لقوله: ﴿ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ فيه قولان:

أحدهما: أن حُسْن[1] التقويم: هو حسن الصورة وكمال العقل والشباب والقوة، و﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾: الضعف والهرم والخرَف، فهو كقوله تعالى: ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ [يس: ٦٨]، وقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

وقولُه: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بعد هذا: غير متصل بما قبله، والاستثناء على هذا القول منقطع، بمعنى: «لكن»؛ لأنه خارج عن معنى الكلام الأول.

والآخر: أن حُسْن التقويم: الفطرة على الإيمان و﴿أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ الكفر، أو تشويه الصورة في النار، والاستثناء على هذا متصل؛ لأن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لم يُرَدُّوا أسفل سافلين.

﴿غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ قد ذكر[2].

﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾﴾ فيه قولان:

أحدهما: أنه خطاب للنبي ﷺ، والدين: شريعته، **والمعنى**: أي شيء يكذِّبك بالدين بعد هذه الدلائل التي تشهد بصحة نبوَّتك؟

والآخر: أنه خطاب للإنسان الكافر، والدين على هذا: الشريعة أو الجزاء الأخراوي، ومعنى ﴿يُكَذِّبُكَ﴾ على هذا: يجعلك كاذبًا؛ لأن من

---

(١) في أ، هـ: «أحسن».

(٢) انظر صفحة ٦.

أنكر فهو كاذب، والمعنى: أيُّ شيء يجعلك كاذبًا بسبب كفرك بالدين بعد أن علمت أن الله خلقك في أحسن تقويم، ثم ردَّك أسفل سافلين، ولا شك أنه يقدر على بعثك كما قدَر على هذا؛ فلأيِّ شيء تكذب بالبعث والجزاء[1]؟

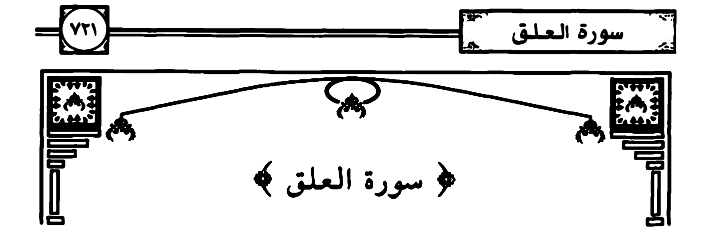
﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝٨﴾ تقرير ووعيد للكفار بأن يحكم عليهم بما يستحقون.

وكان رسول الله ﷺ إذا قرأها قال: «بلى، وأنا على ذلك من الشاهدين»[2].

---

(١) في ب، د: «والحساب».

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٥٢٥).



﴿ سورة العلق ﴾

نزل صدرها بغار حراء، وهو أول ما نزل من القرآن حسبما ورد عن عائشة في الحديث الذي ذكرناه في أول الكتاب(١).

[﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ⑥ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ⑦ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ ⑧ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ⑨ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ⑩ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ ⑪ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ⑫ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ⑬ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ⑭ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ⑮ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ⑯ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ⑰ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ⑱ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ۩ ⑲﴾].

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: أن معناه: اقرأ القرآن مفتتِحًا باسم ربك، أو متبرِّكًا باسم ربك.

وموضع ﴿بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ نصبٌ على الحال.

وإذا كان تقديره: مفتتحًا، فيحتمل أن يريد:

ابتداءَ القراءة بـ «بسم الله الرحمن الرحيم».

---

(١) انظر: (١/٦٣).

أو يريد الابتداء باسم الله مطلقًا.

والوجه الثاني: أن معناه: اقرأ هذا اللفظ وهو ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ فيكون ﴿بِٱسۡمِ رَبِّكَ﴾ مفعولًا، وهو المقروء.

﴿ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ حذف المفعول؛ لقصد العموم، كأنه قال: الذي خلق كل شيء، ثم خصَّص خِلقة الإنسان؛ لما فيه[1] من العجائب والعِبَر.

ويحتمل أن أراد: الذي خلق الإنسان، كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ [الرحمن: ١-٣]، ثم فسره بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢﴾.

والعلق: جمع علَقة، وهي القطعة[2] من الدم.

والمراد بـ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ هنا: جنس بني آدم، ولذلك جمع العلق لما أراد الجماعة، بخلاف قوله: ﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ﴾ [الحج: ٥]؛ لأنه أراد كل واحد على حدته.

ولم يدخل آدم في الإنسان هنا؛ لأنه لم يخلق من علقة وإنما خلق من طين.

﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣﴾ كرر الأمر بالقراءة تأكيدًا، والواو للحال.

والمقصود: تأنيس النبي ﷺ، كأنه يقول: افعل ما أُمرت به؛ فإن ربك كريم.

---

(١) في ب، د: «فيها».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «النطفة».

وصيغة «أفعل» للمبالغة.

﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ هذا تفسير للكرم، فدل على أن نعمة التعليم أكبر نعمة، وخصَّ من التعليمات الكتابة بالقلم؛ لما فيها من تخليد العلوم، ومصالح الدين والدنيا، وقرأ ابن الزبير: «علم الخط بالقلم».

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ يحتمل أن يريد بهذا:

تعليم الكتابة؛ لأن الإنسان لم يكن يعلمها في أول أمره.

أو يريد التعليم لكل شيء على الإطلاق.

وقيل: إن الإنسان هنا: محمد ﷺ.

والأظهر: أنه جنس الإنسان على العموم.

﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ نزل هذا وما بعده إلى آخر السورة في أبي جهل بعد نزول صدرها بمدة، وذلك أنه كان يطغى بكثرة ماله ويبالغ في عداوة رسول الله ﷺ.

و﴿كَلَّآ﴾ هنا يَحتمل أن تكون:

زجرًا لأبي جهل.

أو بمعنى حقًّا.

أو استفتاحًا.

﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ في موضع المفعول من أجله؛ أي: يطغى من أجل غناه[1].

---

(١) في ب: «ماله».

والرؤية هنا: بمعنى العلم، بدليل إعمال الفعل في الضمير، ولا يكون ذلك إلا في أفعال القلوب، والمعنى: رأى نفسه استغنى.

و﴿ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ هو المفعول الثاني.

﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ⁽٨⁾﴾ هذا تهديد لأبي جهل وأمثاله.

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ⁽٩⁾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ⁽١٠⁾﴾ اتفق المفسرون أن العبد الذي صلى: هو محمد ﷺ، وأن الذي نهاه: أبو جهل لعنه الله.

وسبب الآية: أن أبا جهل جاء إلى النبي ﷺ وهو يصلي في المسجد الحرام، فهمَّ بأن يصل إليه ويمنعه من الصلاة، وروي أنه قال: لئن رأيته يصلي، لأطأنَّ عنقه، فجاءه وهو يصلي ثم انصرف عنه مرعوبًا، فقيل له: ما هذا[١]؟ فقال: لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار وهَوْلٌ وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا»[٢].

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ⁽١١⁾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ⁽١٢⁾﴾ ﴿أَرَءَيْتَ﴾ في هذا الموضع وفي الذي قبله وفي الذي بعده: بمعنى «أخبرني»؛ فكأنه سؤال يَفتقر إلى جواب وفيها معنى التعجُّب[٣] والتوقيف.

والخطاب فيها يحتمل أن يكون:

للنبي ﷺ.

أو لكل مخاطب من غير تعيين.

---

(١) في د: «ما منعك».

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٩٧).

(٣) في أ، هـ: «التعجيب».

وهي تتعدى إلى مفعولين.

وجاءت بعدها ﴿إِن﴾ الشرطية في موضعين، وهما: قوله: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ وقوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

فيُحتاج إلى الكلام:

في مفعولي ﴿أَرَءَيْتَ﴾ في المواضع الثلاثة.

وفي جواب الشرطين.

وفي الضمائر المتصلة بهذه الأفعال، وهي ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾، و﴿أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾، و﴿كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، على من تعود هذه الضمائر؟

فقال الزمخشري: إن قوله: ﴿ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾ هو المفعول الأول لقوله: ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الأولى، وإن الجملة الشرطية بعد ذلك في موضع المفعول الثاني، وكررت ﴿أَرَءَيْتَ﴾ بعد ذلك للتأكيد، فهي زائدة لا تَحتاج إلى مفعول.

وإن قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾ هو جواب قوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، وإن جواب قوله: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ محذوف يدل عليه جواب قوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾، فهو في المعنى جواب للشرطين معًا.

وإن الضمير في قوله: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾﴾ للذي نهى عن الصلاة، وهو أبو جهل، وكذلك الضمير في قوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

وتقدير الكلام على هذا: أخبرني عن الذي ينهى عبدًا إذا صلى، إن كان هذا الناهي على الهدى أو إن كذب وتولى؛ ألم يعلم بأن الله يرى جميع

أحواله مِن هداه وضلاله وتكذيبه ونهيه عن الصلاة وغير ذلك؟[١]

فمقصود الآية: تهديد له وزجر وإعلام بأن الله يراه.

وخالفه ابن عطية في الضمائر، فقال: إن الضمير في قوله: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ للعبد الذي صلى، وإن الضمير في قوله: ﴿إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾ للذي نهى عن الصلاة.

وخالفه أيضًا في جعله ﴿أَرَءَيْتَ﴾ الثانية مكررة للتأكيد، وقال: إنها في المواضع الثلاثة توقيف، وإن جوابها في المواضع الثلاثة قوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾؛ فإنه يصلح مع كل واحد منها، ولكنه جاء به في آخر الكلام اختصارًا[٢].

وخالفهما الغزنوي أيضًا في الجواب فقال: إن جواب قوله: ﴿إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾ محذوف، فقال: إن تقديره: «إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أليس هو على الحق واتباعه واجب؟»، والضمير على هذا يعود على العبد الذي صلى، وفاقًا لابن عطية.

﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾﴾ أوعد أبا جهل إن لم ينته عن كفره وطغيانه أن يأخذ[٣] بناصيته فيُلقى في النار.

والناصية مقدَّم الرأس، فهو كقوله: ﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ [الرحمن: ٤١].

والسَّفْع: هو الجذب والقبض على الشيء.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٥١٥-٥١٨).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٦٥٤).

(٣) في ب: «يأخذه».

وقيل: هو الإحراق، من قولك: سفعته النار.

وأكد ﴿لَنَسْفَعًا﴾ باللام والنون الخفيفة، وكتبت في المصحف بالألف مراعاة للوقف عليها.

ويظهر لي أن هذا الوعيد نفَذ عليه يوم بدر حين قتل وأخذ بناصيته فجُرَّ إلى القَليب.

﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ أبدل ﴿نَاصِيَةٍ﴾ من ﴿النَّاصِيَةِ﴾، ووصفها بالكذب والخطيئة تجوزًا، والكاذب الخاطئ في الحقيقة: صاحبها.

والخاطئ: الذي يفعل الذنب متعمدًا، والمخطئ: الذي يفعله بغير قصد.

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ النادي والنَّدِيُّ: المجلس الذي يجتمع فيه الناس.

وكان أبو جهل قد قال: أيتوعدني محمد!، فوالله ما بالوادي أعظم ندِيًّا مني، فنزلت الآية تهديدًا وتعجيزًا له.

والمعنى: فليدع أهل ناديه لنصرته إن قدَروا على ذلك، ثم أوعده بأن يدعو له زبانية جهنم، وهم الملائكة الموكلون بالعذاب.

والزبانية في اللغة: الشُّرَط، واحدهم زِبْنِيَّة، وقيل: زِبْنِيٌّ.

وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «لو دعا ناديه لأخذته الزبانية عِيانًا»[1].

---

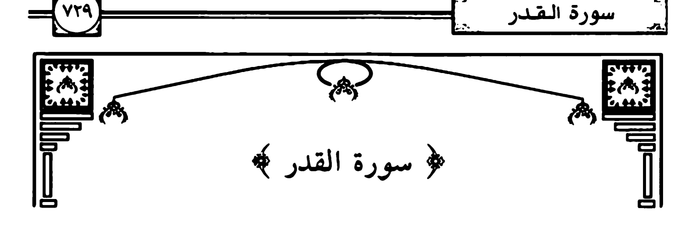
(١) أخرجه النسائي في الكبرى (١٠/ ٣٤٠).

﴿وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب﴾ أي: تقرَّب إلى الله بالسجود، كما قال رسول الله ﷺ: **«أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد، فاجتهدوا في الدعاء»**[1].

وهذا موضع سجدة عند الشافعي، وليست عند مالك من عزائم السجود.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٢).



﴿ سورة القدر ﴾

[﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥﴾].

اختلف الناس في ليلة القدر على ستة عشر قولًا؛ وهي:

[١-] أنها ليلة إحدى وعشرين من رمضان.

[٢-] وليلة ثلاث وعشرين.

[٣-] وليلة خمس وعشرين.

[٤-] وليلة سبع وعشرين.

[٥-] وليلة تسع وعشرين.

فهذه خمسة أقوال في ليالي الأوتار من العشر الأواخر(١) من رمضان، على قول من ابتدأ عدَّتها من أول العشر.

وقد ابتدأ بعضهم عدَّتها من آخر الشهر(٢)، فجعل ليالي الأوتار:

[٦-] ليلة ثلاثين؛ لأنها الأولى.

(١) في أ: «الآخر».

(٢) في د: «العشر».

[٧-] وليلة ثمان وعشرين؛ لأنها الثانية.

[٨-] وليلة ست وعشرين؛ لأنها الخامسة.

[٩-] وليلة أربع وعشرين؛ لأنها السابعة.

[١٠-] وليلة اثنين وعشرين؛ لأنها التاسعة.

فهذه خمسة أقوال أخر، فتلك عشرة أقوال.

والقول الحادي عشر: أنها تدور في العشر الأواخر، ولا تثبت في ليلة واحدة منه.

الثاني عشر: أنها مخفيَّة في رمضان كله، وهذا ضعيف؛ لقوله ﷺ: «التمسوها في العشر الأواخر»[١].

الثالث عشر: أنها مخفية في العام كله.

الرابع عشر: أنها ليلة النصف من شعبان.

وهذان القولان باطلان؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ وقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ [البقرة: ١٨٥]، فدل ذلك على أن ليلة القدر في رمضان.

القول الخامس عشر: أنها رفعت بعد النبي ﷺ، وهذا ضعيف.

القول السادس عشر: أنها ليلة سبع عشرة من رمضان؛ لأن وقعة بدر كانت صبيحة هذه الليلة.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٠٢١)، ومسلم (١١٦٥).

وأرجح الأقوال: أنها ليلة إحدى وعشرين من رمضان، أو ليلة ثلاث وعشرين، أو ليلة سبع وعشرين، فقد جاءت في هذه الليالي الثلاث أحاديث صحيحة خرجها مسلم[١] وغيره.

والأشهر: أنها ليلة سبع وعشرين.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ الضمير في ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ للقرآن، دل على ذلك سياق الكلام، وفي ذلك تعظيم للقرآن من ثلاثة أوجه:

أحدها: أنه ذكر ضميره دون اسمه الظاهر؛ دلالة على شهرته والاستغناء عن تسميته.

والثاني: أنه اختار لإنزاله أفضل الأوقات.

والثالث: أن الله أسند إنزاله إلى نفسه.

وفي كيفية إنزاله في ليلة القدر قولان:

أحدهما: أنه ابتدأ إنزاله فيها.

والآخر: أنه أنزل القرآن فيها جملة واحدة إلى السماء، ثم نزل به جبريل إلى الأرض بطول عشرين سنة.

وقيل: المعنى: أنزلناه[٢] في شأن ليلة القدرة وذِكْرها، وهذا ضعيف.

وسميت ليلةَ القدر:

من تقدير الأمور فيها.

---

(١) أخرجها مسلم (١١٦٧)، (١١٦٨)، (٧٦٢).

(٢) في ب، ج: «إنزاله».

أو من القَدْر بمعنى الشرف.

ويترجح الأول بقوله: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤].

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢﴾ هذا تعظيم لها.

قال بعضهم: كل ما قال فيه «ما أدراك» فقد علمه النبي ﷺ، وما قال فيه: «ما يدريك» فإنه لم يعلمه[١].

﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ معناه: أن من قامها كتب الله له أجر العبادة في ألف شهر.

قال بعضهم: يعني: في ألف شهر ليس فيها ليلة قدر[٢].

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه»[٣].

وسبب الآية: أن رسول الله ﷺ ذكر رجلًا ممن تقدم عبد اللهَ ألف شهر، فعجب المسلمون من ذلك ورأوا أن أعمارهم تَنقص عن ذلك، فأعطاهم الله ليلة القدر وجعلها خيرًا من العبادة في تلك المدة الطويلة.

وروي أن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما عوتب حين بايع معاوية فقال: إن رسول الله ﷺ رأى في المنام بني أمية يَنْزُون على منبره نَزْوَ القردة، وأعلمه أنهم يملكون أمر الناس ألف شهر، فاهتم لذلك، فأعطاه الله ليلة

---

(١) قاله ابن عيينة، كما في صحيح البخاري (٣/ ٤٥).

(٢) في أ، ج، د: «القدر».

(٣) اخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٦٠).

القدر، وهي خير من مدة ملك بني أمية ألف شهر [١]، ثم كَشف الغيب أنه كان من بيعة الحسن لمعاوية إلى قتل مروان الجَعْدي آخر ملوك بني أمية بالمشرق ألف شهر.

﴿تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ الروح هنا: جبريل عليه السلام.

وقيل: صنف من الملائكة لا تراهم الملائكة إلا تلك الليلة.

وتَنزُّلهم: هو إلى الأرض.

وقيل: إلى السماء الدنيا.

وهو تعظيم لليلة القدر، ورحمة للمؤمنين القائمين فيها.

﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ هذا متعلّق بما قبله، والمعنى: أن الملائكة ينزلون ليلة القدر من أجل كل أمر يقضي الله في ذلك العام، فإنه روي أن الله يُعْلم الملائكة بكل ما يكون في ذلك العام من الآجال والأرزاق وغير ذلك؛ ليمتثلوا ذلك في العام كله.

وقيل على هذا المعنى: إن ﴿مِّن﴾ بمعنى الباء؛ أي: ينزلون بكل أمر، وهذا ضعيف.

وقيل: إن المجرور يتعلق بما بعده، والمعنى: أنها سلام من كل أمر؛ أي: سلامة من الآفات.

قال مجاهد: لا يصيب أحدًا فيها داء.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٥٢٧)، والبيهقي في دلائل النبوة (٦/ ٥١١)، وأبو يعلى في مسنده (١١/ ٣٤٨).

والأظهر: أن الكلام تمَّ عند قوله: ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾، ثم ابتدأ قوله: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾.

واختلف في معنى ﴿سَلَٰمٌ﴾:

فقيل: إنه من السلامة.

وقيل: إنه من التحية؛ لأن الملائكة يسلمون على المؤمنين القائمين فيها.

وكذلك اختلف في إعرابه:

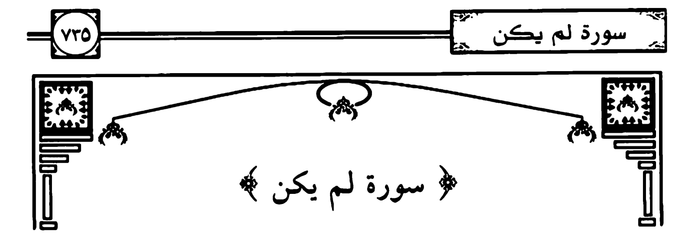
فقيل: ﴿سَلَٰمٌ هِيَ﴾ مبتدأ وخبر، وهذا يصح سواء جعلناه متصلًا مع ما قبله أو منقطعًا عنه.

وقيل: ﴿سَلَٰمٌ﴾ خبر مبتدأ مضمر، تقديره: أمرها سلام، أو: القول فيها سلام، و﴿هِيَ﴾ مبتدأ، خبره: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾؛ أي: هي دائمة إلى طلوع الفجر.

ويختلف الوقف باختلاف الإعراب.

وقال ابن عباس: إن قوله: ﴿هِيَ﴾ إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين؛ لأن هذه الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة.

* * *



﴿ سورة لم يكن ﴾

[﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾].

ذكر الله الكفار، ثم قسمهم إلى صنفين: أهل الكتاب، والمشركين، وذكر أن جميعهم لم يكونوا منفكين حتى تأتيهم البينة، وتقوم عليهم الحجة ببعث رسول الله ﷺ.

ومعنى ﴿مُنفَكِّينَ﴾: منفصلين، ثم اختلف في هذا الانفصال على أربعة أقوال:

أحدها: أن المعنى: لم يكونوا منفصلين عن كفرهم حتى تأتيهم البينة؛ لتقوم عليهم الحجة.

الثاني: لم يكونوا منفصلين عن معرفة نبوة محمد ﷺ حتى بعثه[1] الله.

---

(١) في ب: «يبعثه».

الثالث: -اختاره ابن عطية- وهو: لم يكونوا منفصلين عن نظر الله وقدرته، حتى يبعث الله إليهم رسولًا يقيم عليهم الحجة[١].

الرابع: - وهو الأظهر عندي -: أن المعنى: لم يكونوا لينفصلوا من الدنيا حتى بعث الله لهم محمدًا ﷺ، فقامت عليهم الحجة؛ لأنهم لو انفصلت الدنيا دون بعثه لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولًا، فلما بعثه لم يبق لهم عذر ولا حجة.

فـ ﴿مُنفَكِّينَ﴾ على هذا كقولك: لا تبرح أو لا تزول حتى يكون كذا وكذا.

﴿رَسُولٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ يعني: محمدًا ﷺ.

وإعرابه:

بدل من ﴿الْبَيِّنَةُ﴾.

أو خبر ابتداء مضمر.

﴿يَتْلُوا صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ يعني: القرآن في صحفه.

﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ۝٣﴾ أي: قائمة[٢] بالحق مستقيمة المعاني، ووزن ﴿قَيِّمَةٌ﴾: فَيْعِلَة، وفيه مبالغة.

قال ابن عطية: هذا على حذف مضاف تقديره: فيها أحكام كتب[٣].

ولا يحتاج إلى هذا الحذف؛ لأن الكتب بمعنى المكتوبات.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٦٦٢-٦٦٣).

(٢) في أ، هـ: «قيمة».

(٣) المحرر الوجيز (٨/ ٦٦٣).

﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ أي: ما اختلفوا في نبوة محمد ﷺ إلا من بعد ما علموا أنه حق.

ويحتمل أن يريد تفرقهم في دينهم كقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ [فصلت: ٤٥].

وإنما خص الذين أوتوا الكتاب بالذكر هنا بعد ذكرهم مع غيرهم في أول السورة؛ لأنهم كانوا يعلمون صحة نبوّة محمد ﷺ، بما يجدون في كتبهم من ذكره.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟﴾ الآيةَ؛ معناها: ما أمروا في التوراة والإنجيل إلا بعبادة الله، ولكنهم حرَّفوا وبدَّلوا.

ويحتمل أن يكون المعنى: ما أمروا في القرآن إلا بعبادة الله، فلأيِّ شيء ينكرونه ويكفرون به؟

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ استدل المالكية بهذا على وجوب النية في الوضوء، وهو بعيد؛ لأن الإخلاص هنا يراد به التوحيد وترك الشرك أو ترك الرياء، وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال، وضد الإخلاص في التوحيد: هو الشرك الجليُّ، وضد الإخلاص في الأعمال: هو الشرك الخفيُّ، وهو الرياء.

قال رسول الله ﷺ: «الرياء الشرك الأصغر»[1]، وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه إنه تعالى يقول: «أنا أغنى الأغنياء عن الشرك، فمن عمل عملًا

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠).

أشرك فيه غيري تركته وشريكه»[1].

واعلم أن الأعمال على ثلاثة أنواع: مأمورات ومنهيات ومباحات.

فأما المأمورات: فالإخلاص فيها: عبارة عن خلوص النية لوجه الله، بحيث لا يشوبها نية أخرى، فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول.

وإن كانت النية لغير وجه الله؛ من طلب منفعة دنيوية، أو مدح أو غير ذلك: فالعمل رياء محض مردود.

وإن كانت النية مشتركة: ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال.

وأما المنهيات: فإن تركها دون نية خرج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في تركها.

وإن تركها بنية وجه الله: حصل له الخروج عن عهدتها مع الأجر.

وأما المباحات: كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك: فإن فعلها بغير نية لم يكن له فيها أجر.

وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر؛ فإن كل مباح يمكن أن يصير قُربَةً إذا قصد به وجه الله؛ مثل أن يقصد بالأكل القوة على العبادة، ويقصد بالجماع التعفُّف عن الحرام.

﴿حُنَفَآءَ﴾ جمع حنيف، وقد ذكر[2].

﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ تقديره: الملة القيمة، أو الجماعة القيمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٨٥)، ولفظة: «أنا أغنى الشركاء..»، وليس: «الأغنياء».

(٢) انظر المقدمة في اللغات المادة (١٣١).

وقد فسرنا ﴿ٱلْقَيِّمَةِ﴾.

ومعناه: أن الذي أمروا به من عبادة الله والإخلاص له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة هو دين الإسلام؛ فلأيِّ شيء لا يدخلون فيه؟

﴿الْبَرِيئَةِ﴾ الخَلْق؛ لأن الله برَأهم؛ أي: أوجدهم بعد العدم.

وقرئ:

بالهمز، وهو الأصل.

وبالياء، وهو تخفيف من المهموز، وهو أكثر استعمالًا عند العرب.

﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ اختلف هل هذا في الدنيا أو في الآخرة؟

فرضاهم عن الله في الدنيا: هو الرضا بقضائه والرضا بدينه، قال رسول الله ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا»[١].

ورضاهم عنه في الآخرة: هو رضاهم بما أعطاهم الله فيها.

ورضا الله عنهم: كما ورد في الحديث أن الله يقول: «يا أهل الجنة هل تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا! وأي شيء نريد[٢] وقد أعطيتنا ما لم تعط أحدًا من العالمين، فيقول: عندي أفضل من ذلك، وهو رضواني فلا أسخط عليكم أبدًا»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٣٤).

(٢) في أ، هـ: «تزيد».

(٣) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).

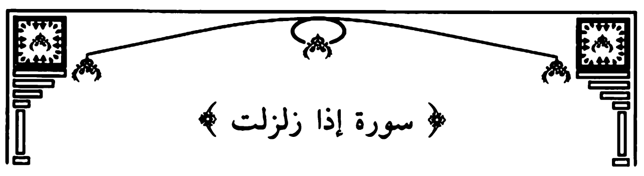
﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ أي: لمن خافه.

وهذا دليل على فضل الخوف، قال رسول الله ﷺ: «خوف الله رأس كل حكمة»[1].

* * *

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢/ ٢٠١) موقوفًا على ابن مسعود: «رأس الحكمة مخافة الله ﷻ»، وقال: «وقد روي من وجه آخر ضعيف مرفوعًا إلى النبي ﷺ».





﴿ سورة إذا زلزلت ﴾

[﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَـٰلَهُمْ ۝٦ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾].

﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: حُرِّكت واهتزت.

و﴿زِلْزَالَهَا﴾ مصدر، وإنما أضيف إليها تهويلًا؛ كأنه يقول: الزلزال الذي يليق بها على عظَمة جِرْمها[١].

﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢﴾ يعني: الموتى الذين في جوفها، وذلك عند النفخة الثانية في الصور.

وقيل: هي الكنوز، وهذا ضعيف؛ لأن إخراجها للكنوز وقت الدجال.

﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ أي: يتعجَّب من شأنها، فيَحتمل أن يريد: جنس الإنسان.

أو الكافر خاصة؛ لأنه الذي يرى حينئذ ما لم يظن.

---

(١) قال في المحرر الوجيز (٨/ ٦٦٦): «وقوله تعالى: ﴿زِلْزَالَهَا﴾ أبلغ من قوله: «زلزالًا» دون إضافة إليها، وذلك أن المصدر غير مضاف يقع على كل قدر من الزلزال وإن قل».

﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤﴾ هذا عبارة عما يحدث فيها من الأهوال، فهو مجاز وحديثٌ بلسان الحال.

وقيل: هو شهادتها على الناس بما عملوا على ظهرها، فهو حقيقة.

و﴿تُحَدِّثُ﴾ يتعدى إلى مفعولين، حذف الأول منهما، والتقدير: تحدث الخلْقَ أخبارها.

وانتزع بعض المحدِّثين من قوله: ﴿تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ أن قول المحدِّث «حدثنا» و«أخبرنا» سواءٌ.

وهذه الجملة هي جواب ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ﴾.

و﴿تُحَدِّثُ﴾ هو العامل في ﴿إِذَا﴾، و﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدل من ﴿إِذَا﴾.

ويجوز أن يكون العامل في ﴿إِذَا﴾ مضمرًا، و﴿تُحَدِّثُ﴾ عامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾.

﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ الباء سببية متعلقة بـ﴿تُحَدِّثُ﴾؛ أي: تحدث بسبب أن الله أوحى لها.

ويحتمل أن يكون ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ بدلًا من ﴿أَخْبَارَهَا﴾، وهذا كما تقول: «حدَّثتُ كذا» و«حدثت بكذا».

والمعنى على هذا: تحدِّث بحديث الوحي لها.

وهذا الوحي يحتمل أن يكون:

إلهامًا.

أو كلامًا بواسطة الملائكة.

و﴿لَهَا﴾ بمعنى: إليها.

وقيل: معناه: أوحى إلى الملائكة من أجلها، وهذا بعيد.

﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ معنى ﴿أَشْتَاتًا﴾: مختلفين في أحوالهم، وواحد الأشتات شَتٌّ.

وصدر[١] الناس: هو انصرافهم من موضع وِرْدِهم[٢]:

فقيل: الوِرْد: هو الدفن في القبور، والصَّدْر: هو القيام للبعث.

وقيل: الوِرْد: القيام للحشر[٣]، والصَّدر: الانصراف إلى الجنة أو إلى النار، وهذا أظهر، وفيه يعظم التفاوت بين أحوال الناس؛ فيظهر كونهم أشتاتًا.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ المثقال: هو الوزن، والذرة: هي النملة الصغيرة.

والرؤية هنا ليست برؤية بصر، وإنما هي عبارة عن الجزاء.

وذكَر الله مثقال الذرة؛ تنبيهًا على ما هو أكثر منه من طريق الأولى، كأنه قال: من يعمل قليلًا أو كثيرًا.

وهذه الآية هي في المؤمنين؛ لأن الكافر لا يُجازى في الآخرة على حسناته؛ إذ لم تقبل منه.

---

(١) في ب: «وصدور».

(٢) في ب: «ورودهم».

(٣) في ب، ج: «للمحشر».

واستدل أهل السنة بهذه الآية أنه لا يخلد مؤمنٌ في النار؛ لأنه لو خلد لم ير ثوابًا على إيمانه وعلى ما عمل من الحسنات.

وروي عن عائشة: أنها تصدقت بحبة عنب فقيل لها في ذلك؛ فقالت: كم فيها من مثقال ذرة؟

وسمع رجل هذه الآية عند رسول الله ﷺ فقال: حسبي، لا أبالي أن لا أسمع غيرها.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ هذا على عمومه في حق الكفّار.

وأما المؤمنون: فلا يُجزَون بذنوبهم إلا بستة شروط؛ وهي:

[١-] أن تكون ذنوبهم كبائرَ.

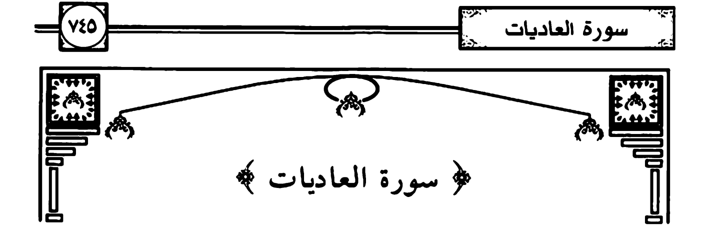
[٢-] وأن يموتوا قبل التوبة منها.

[٣-] وألا تكون لهم حسنات أرجح في الميزان منها.

[٤-] وأن لا يشفع فيهم.

[٥-] وأن لا يكونوا ممن استحق المغفرة بعملٍ، كأهل بدر.

[٦-] وأن لا يعفوَ الله عنهم، فإن المؤمن العاصي في مشيئة الله إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له.



﴿ سورة العاديات ﴾

[﴿ وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ۝١ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ۝٢ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ۝٣ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝٤ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ۝١١ ﴾].

اختُلف في العاديات والموريات والمغيرات؛ هل يراد بها الخيل أو الإبل؟

وعلى القول بأنها الخيل اختلف هل يعني:

خيل المجاهدين؟

أو الخيل على الإطلاق؟

وعلى القول بأنها الإبل اختلف هل يعني:

إبل غزوة بدر؟

أو إبل المجاهدين مطلقًا؟

أو إبل الحُجاج؟

أو الإبل على الإطلاق؟

ومعنى ﴿الْعَٰدِيَٰتِ﴾: التي تعدو في مشيها[١].

والضبح: هو تصويت جهير عند العدو الشديد، ليس بصُهال[٢].

وهو مصدر منصوب على تقدير: يضبحن ضبحًا.

أو هو مصدر في موضع الحال، تقديره: العاديات في حال ضبحها.

و﴿الْمُورِيَٰتِ﴾ من قولك: أوريت النارَ: إذا أوقدتَها[٣].

والقدح: صك الحجارة، فيخرج منها شعلة نارٍ، وذلك عند ضرب الأرض بأرجل الخيل أو الإبل.

وإعراب ﴿قَدْحًا﴾ كإعراب ﴿ضَبْحًا﴾.

و﴿الْمُغِيرَاتِ﴾ من قولك: أغارت الخيل: إذا خرجت للإغارة على أعدائها.

و﴿صُبْحًا﴾ ظرف زمان؛ لأن عادة أهل الغارة في الأكثر أن يخرجوا في الصباح.

﴿فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ۝﴾ هذه الجملة معطوفة على ﴿الْعَٰدِيَٰتِ﴾ وما بعده؛ لأنه في تقدير: التي تعدو.

والنقع: الغبار.

---

(١) في ب: «مشيتها».

(٢) في هـ: «بصهيل».

(٣) في ب: «أزندتها».

والضمير المجرور:

للوقت المذكور، وهو الصبح، فالباء ظرفية.

أو للمكان الذي يقتضيه المعنى، فالباء أيضًا ظرفية.

أو للعَدْو، وهو المصدر الذي يقتضيه ﴿الْعَـٰدِيَـٰتِ﴾، فالباء سببية.

ومعنى ﴿أَثَرْنَ﴾ حرَّكن.

والضمير الفاعل: للإبل أو للخيل؛ أي: حرَّكن الغبارَ عند مشيهنَّ.

﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ۝٥﴾ معنى ﴿وَسَطْنَ﴾: توسَّطن.

و﴿جَمْعًا﴾ اختلف هل المراد به:

جمعٌ من الناس؟

أو المزدلفة؟؛ لأن اسمها جمعٌ.

والضمير المجرور:

للوقت.

أو للمكان.

أو للعَدْو.

أو للنقع.

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ هذا جواب القسم.

والكنود: الكفور للنعمة، فالتقدير: إن الإنسان لنعمة ربه لكفور، و﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾: جنس.

وقيل: الكنود: العاصي.

وقال بعض الصوفية: الكنود: الذي يعبد الله على عِوَضٍ[(١)].

﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ۝٧﴾ الضمير للإنسان؛ أي: هو شاهد على نفسه بكُنوده.

وقيل: هو لله تعالى على معنى التهديد.

والأول أرجح؛ لأن الضمير الذي بعده للإنسان باتفاق، فيجري الكلام على نسق واحد.

﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ الخير هنا: المال، كقوله: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

والمعنى: إن الإنسان شديد الحب للمال، فهو ذمٌّ لحبه والحرص عليه.

وقيل: الشديد: البخيل، والمعنى على هذا: إنه لَبخيلٌ؛ من أجل حب المال.

والأول أظهر.

﴿إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ أي بُحث عنه، وذلك عبارة عن البعث.

﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ۝١٠﴾ أي: جُمِع في الصحف وأُظهر محصَّلًا.

أو مُيِّز خيره من شره.

---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله: «وقال بعض الصوفية: الكنود: الذي يعبد الله على عوض»، معناه عندهم: الذي يعبد الله رغبة في الثواب وخوفا من العقاب، وهذا مذموم عندهم، وقولهم هذا هو من بدعهم، لكن المصنف رحمه الله حكاه ولم يعلق عليه.

﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ۝﴾ الضمير في ﴿رَبَّهُم﴾ و﴿بِهِمْ﴾ يعود على الإنسان؛ لأنه يراد به الجنس.

وفي هذه الجملة وجهان:

أحدهما: أن هذه الجملة معمول ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾، فكان الأصل أن تفتح «إنَّ»، ولكنها كسرت من أجل اللام التي في خبرها.

والثاني: أن تكون هذه الجملة مستأنفة، ويكون معمول ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ محذوفًا، ويكون الفاعل ضميرًا يعود على الإنسان، والتقدير: أفلا يعلم الإنسان حاله وما يكون منه إذا بعثر ما في القبور؟

وهذا هو الذي قاله ابن عطية[1].

ويحتمل عندي: أن يكون فاعل ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ ضميرًا يعود على الله، والمفعول محذوف، والتقدير: أفلا يعلم الله أعمال الإنسان إذا بعثر ما في القبور؟، ثم استأنف قوله: ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ﴾ على وجه التأكيد، أو[2] البيان للمعنى المتقدم.

والعامل في ﴿إِذَا بُعْثِرَ﴾ على هذا الوجه هو: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾.

والعامل فيه على مقتضى قول ابن عطية: هو المفعول المحذوف.

و﴿إِذَا﴾ هنا ظرفية بمعنى: «حين» و«وقت»، وليست بشرطية.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٦٧٦).

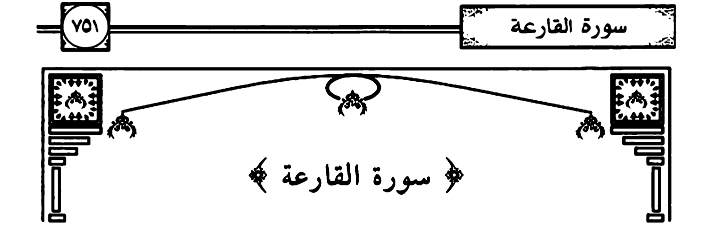
(٢) في ب، د: «و».

والعامل في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾: ﴿خَبِيرٌ﴾.

وإنما خص ذلك بيوم القيامة؛ لأنه يوم الجزاء، فقصَد التهديد[1]، مع أن الله خبير على الإطلاق.

* * *

(١) في أ، هـ: «التهويل».



﴿ سورة القارعة ﴾

[﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾].

﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾ من أسماء القيامة؛ لأنها تقرع القلوب بهولها.

وقيل: هي النفخة في الصور؛ لأنها تقرع الأسماع.

﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ مبتدأ وخبر(١)، في موضع خبر ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾.

والمراد به: تعظيم شأنها، وكذلك ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣﴾.

﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ العامل في الظرف: محذوف، دل عليه ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١﴾، تقديره: تَقرع في يوم.

والفراش: هو الطير الصغير الذي يشبه البعوض ويدور حول المصباح.

والمبثوث: هو المنتشر المتفرق، شبَّه الله الخلق يوم القيامة به في كثرتهم وانتشارهم وذِلَّتهم.

---

(١) في ب، د: «وخبره».

ويحتمل أنه شبههم به؛ لتساقطهم في جهنم كما يتساقط الفراش في المصباح.

قال بعض العلماء: الناس في أول قيامهم من القبور كالفراش المبثوث؛ لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام، ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر؛ فيكونون حينئذ كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد يقصد إلى جهة[1] واحدة.

وقيل: إن الفراش هنا: الجراد الصغار، وهو ضعيف.

﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ العهن: هو الصوف.

وقيل: الصوف الأحمر.

وقيل: الصوف الملون ألوانًا.

شبَّه الله الجبال يوم القيامة به؛ لأنها تُنسف فتصير لينة.

وعلى القول بأنه الملون يكون التشبيه أيضًا من طريق اختلاف ألوان الجبال؛ لأن منها بيضاء وحمراء وسوداء.

﴿مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ هو جمع ميزان، أو جمع موزون.

وميزان الأعمال يوم القيامة له لسان وكِفَّتان عند الجمهور.

وقال قوم: هو عبارة عن العدل.

﴿فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ معناه: ذات رضًا عند سيبويه.

---

(١) في د: «ناحية».

وثِقَلُ الموازين: بكثرة الحسنات، وخِفَّتها: بقلَّتها.

ولا يَخِفُّ ميزان مؤمن خفَّةً مُوبِقة؛ لأن الإيمان يوزن فيه.

﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الهاوية جهنم، سميت بذلك؛ لأن الناس يهوون فيها؛ أي: يسقطون.

و﴿أُمُّهُۥ﴾ معناه: مأواه، كقولك: «المدينة أم فلان»؛ أي: مسكنه، على التشبيه بالأمِّ الوالدة؛ لأنها مأوى الولد ومرجعه.

الثاني: أن الأم: هي الوالدة، و﴿هَاوِيَةٌ﴾: ساقطة، وذلك عبارة عن هلاكه، كقولك: «أمه ثكلى»: إذا هلَك.

الثالث: أن المعنى: أمُّ رأسِه هاوية في جهنم؛ أي: ساقطة فيها؛ لأنه يُطرح فيها منكوسًا.

وروي أن رسول الله ﷺ قال لرجل: «لا أُمَّ لك»، فقال: يا رسول الله تدعوني إلى الهدى وتقول: لا أمَّ لك؟، فقال رسول الله ﷺ: «إنما أردت: لا نار لك، قال الله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾»[1]، وهذا يؤيد القول الأول.

﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠﴾ الهاء للسكت، والضمير:

لجهنم على القول بأنها هي الهاوية.

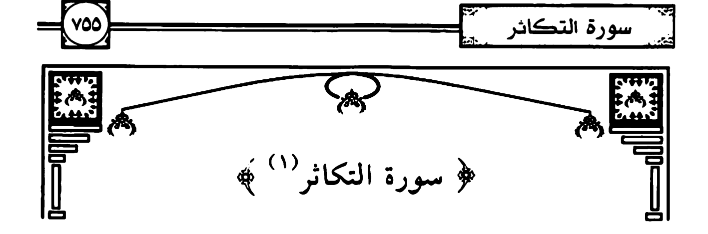
---

(١) ذكره ابن عطية في تفسيره (٨/ ٦٧٩) قال: «وروى المبرد أن النبي ﷺ قال: ...» إلخ، ولم أقف على إسناده.

وهو للفِعلة والخَصلة التي يراد بها العذاب على القول الثاني والثالث.

والمقصود: تعظيمها، ثم فسرها بقوله: ﴿نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾.

* * *



﴿ سورة التكاثر[١] ﴾

[﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾].

﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾ هذا خبر يراد به الوعظ والتوبيخ.

ومعنى ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾: شغلكم.

و﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾: المباهاة بكثرة المال والأولاد، وأن يقول هؤلاء: نحن أكثر، ويقول هؤلاء: نحن أكثر.

ولما قرأها النبي ﷺ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي!، وليس لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لَبِست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت»[٢].

﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أن معناه: حتى مُتُّم، فأراد بزيارة المقابر: الدفن فيها.

الثاني: أن معناه: حتى ذكرتم الموتى الذين في المقابر، فعبَّر بزيارتها عن التفاخر بمن فيها؛ لأن بعض العرب تفاخَر بآبائه الموتى.

---

(١) في ج، د: «سورة ألهاكم».

(٢) أخرجه مسلم (٢٩٥٨).

فالمعنى: ألهاكم التكاثر حتى بلغتم فيه إلى ذكر الموتى.

الثالث: أن معناه: زيارة المقابر حقيقةً؛ لتعظيم أهلها والتفاخر بهم، فيقول: هذا قبر فلان؛ ليُشْهَر ذِكرُه[١] ويعظم قدره.

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجر وتهديد، ثم كرره؛ للتأكيد، وعطفه بـ ﴿ثُمَّ﴾ إشارة إلى أن الثاني أعظم من الأول.

وقيل: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: في القبور، ﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾: يوم القيامة.

وقيل: الأول: تهديد للكفار، والثاني: تهديد للمؤمنين.

وحذف مفعول[٢] ﴿تَعْلَمُونَ﴾، وتقديره:

تعلمون ما يَحُلُّ بكم.

أو تعلمون أن القرآن حق.

أو تعلمون أنكم كنتم على خطإ في اشتغالكم بالدنيا.

وإنما حذفه؛ لقصد التهويل، فيقدِّر السامعُ أعظمَ ما يخطر بباله.

﴿لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، تقديره: لو تعلمون لازدجرتم واستعددتم للآخرة، فينبغي الوقف على ﴿ٱلْيَقِينِ﴾.

ومفعول ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ محذوف أيضًا.

---

(١) في ب: «ليشتهر أمره».

(٢) في أ، ب، ج، هـ: «معمول».

و﴿عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ مصدر، ومعنى علم اليقين: العلم الذي لا يُشك فيه.

قال بعضهم: هو من إضافة الشيء إلى نفسه، كقولك: دارُ الآخرةِ.

وقال الزمخشري: معناه: علم الأمور التي تتيقَّنونها بالمشاهدة(١).

﴿لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦﴾ هذا جواب قسم محذوف، وهو تفسير لمفعول ﴿لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ تقديره: لو تعلمون عاقبة أمركم، ثم فسرها بأنها رؤية الجحيم، والتفسير بعد الإبهام يدل على التهويل والتعظيم.

والخطاب: لجميع الناس، فهو كقوله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١].

وقيل: للكفار خاصة، فالرؤية على هذا: يراد بها الدخول فيها.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ هذا تأكيد للرؤية المتقدمة، وعطفه بـ﴿ثُمَّ﴾؛ للتهويل والتفخيم.

والعين هنا: من قولك: عين الشيء: نفسُه وذاته؛ أي: لترونها الرؤية التي هي نفس اليقين.

﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ هذا إخبار بالسؤال في الآخرة عن نعيم الدنيا:

فقيل: النعيم: الأمن والصحة.

وقيل: الطعام والشراب.

وهذه أمثلة، والصواب: العموم في كل ما يُتلذذ به، قال رسول الله ﷺ: «بيت يُكِنُّك، وخِرقةٌ تواريك، وكِسْرة تشدُّ قلبك، وما سوى ذلك فهو

---

(١) الكشاف (١٦/ ٥٦١).

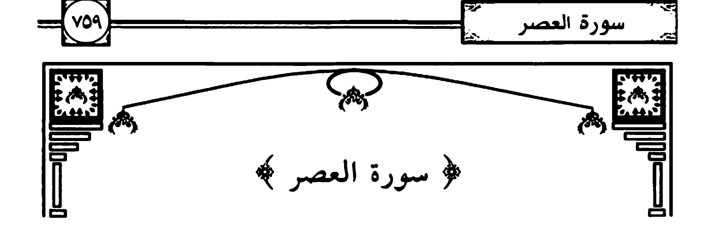
نعيم»[١]، وقال ﷺ: «كل نعيم فمسؤول عنه إلا نعيم في سبيل الله»[٢]، وأكل يومًا ﷺ مع بعض أصحابه رطبًا وشربوا عليه ماء، فقال لهم: «هذا من النعيم الذي تُسألون عنه»[٣].

* * *

(١) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١٠/ ٢٨١).

(٢) لم أقف على إسناده.

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٣٨).



﴿ سورة العصر ﴾

[﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾].

﴿وَالْعَصْرِ ۝١﴾ فيه ثلاثة أقوال:

الأول: أنه صلاة العصر، أقسم الله بها؛ لفضلها، قال رسول الله ﷺ: «الذي تفوته صلاة العصر كأنما وُتِر أهلَه وماله»[١].

الثاني: أنه العشيُّ، أقسم به كما أقسم بالضحى، ويؤيد هذا: قول أبيّ بن كعب: سألت رسول الله ﷺ عن العصر فقال: «أقسم ربكم بآخر النهار»[٢].

الثالث: أنه الزمان.

﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ ﴿الْإِنسَانَ﴾: جنس، ولذلك استثنى منه ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فهو استثناء متصل.

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ أي: وصَّى بعضهم بعضًا بالحق وبالصبر.

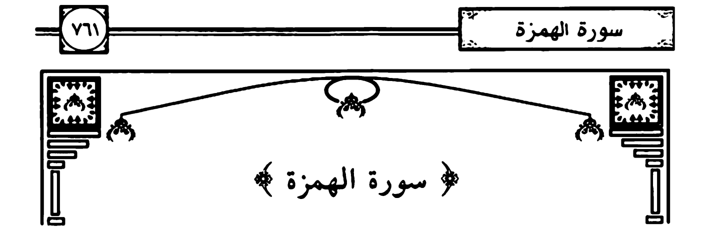
---

(١) أخرجه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).

(٢) ذكر ابن عطية في تفسيره (٨/ ٦٨٥) ولم أقف على إسناده.

فالحق هو الإسلام وما يتضمنه، وفيه إشارة إلى كذب الكفار.

وفي الصبر إشارة إلى صبر المؤمنين على إذاية الكفار لهم بمكة.



[﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ۝٥ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ۝٨ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ۝٩﴾].

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ هو على الجملة: الذي يَعيب الناس ويأكل أعراضهم.

واشتقاقه: من الهمز واللمز، وصيغة «فُعَلَة» للمبالغة.

واختلف في الفرق بين الكلمتين:

فقيل: الهمز في الحضور، واللمز في الغَيْبة.

وقيل بالعكس.

وقيل: الهمز باليد والعين، واللمز باللسان.

وقيل: هما سواء.

ونزلت السورة في الأخنس بن شَرِيق؛ لأنه كان كثير الوقيعة في الناس.

وقيل: في أمية بن خلف.

وقيل: في الوليد بن المغيرة.

ولفظها مع ذلك على العموم في كل من اتصف بهذه الصفات.

﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ أي: أحصاه وحافَظ على عدده أن لا ينقص، فمنعه من الخيرات.

وقيل: معناه: استعدَّه وذَخره[١] عُدَّةً لحوادث الدهر.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ أي: يظن بفرط جهله واغتراره أن ماله يُخلِّده في الدنيا.

وقيل: يظن أن ماله يوصله إلى دار الخلد.

﴿كَلَّا﴾ ردٌّ عليه فيما ظنه.

﴿لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾ هذا جواب قسم محذوف.

و﴿ٱلْحُطَمَةُ﴾ هي جهنم، وإنما سميت حُطَمةً؛ لأنها تَحْطِم ما يلقى فيها وتلتهبه، وقد عظَّمها بقوله: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ﴾، ثم فسَّرها بأنها ﴿نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ۝٦﴾.

﴿ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ۝٧﴾ أي: تبلغ القلوبَ بإحراقها.

قال ابن عطية: يحتمل أن يكون المعنى: أنها تطَّلع على ما في القلوب من العقائد والنيَّات بإطْلاع الله إياها[٢].

﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾ مغلقة.

---

(١) في ب: «وادخره».

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٦٨٨).

﴿فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ۝٩﴾ العَمَد: جمع عمود، وهو عند سيبويه اسم جمع.

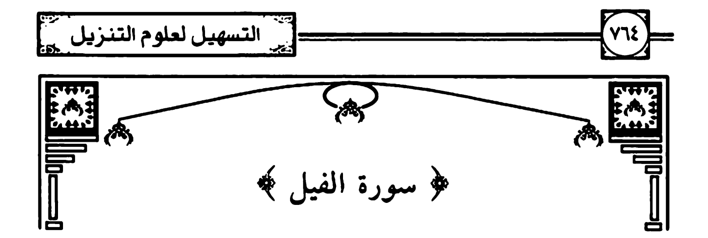
وقرئ ﴿عُمُدٍ﴾ بضمتين.

والعمود: هو المستطيل من حديد أو خشب، والممددة: الطويلة.

وفي المعنى قولان:

أحدهما: أن أبواب جهنم أغلقت عليهم، ثم مُدِّدت على أبوابها عَمَدٌ؛ تشديدًا في الإغلاق والثِّقَاف، كما تُثَقَّف أبواب البيوت بالعمد، وهو على هذا متعلق بـ ﴿مُّؤْصَدَةٌ﴾.

والآخر: أنهم موثوقون مغلولون في العَمَد، فالمجرور على هذا: في موضع خبر مبتدإ مضمر تقديره: هم موثوقون في عمد.



﴿ سورة الفيل ﴾

نزلت هذه السورة منبِّهةً على العبرة في قصة الفيل التي وقعت عام مولد رسول الله ﷺ، فإنها تدل على كرامة الله للكعبة، وإنعامه على قريش بدفع العدو عنهم، فكان يجب عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به، وفيها مع ذلك عجائبُ من[1] قدرة الله وشدة عقابه.

وقد ذُكِرت القصة في كتاب السِّيَر وغيره، واختصارها: أن أبرهة ملك الحبشة بنَى بيتًا باليمن، وأراد أن يحج الناس إليه كما يحجون إلى الكعبة، فذهب عَربيٌّ وأحدث في البيت، فغضب أبرهة وحلف أن يهدم الكعبة، فاحتفل في جموعه، وركب الفيل وقصد مكة، فلما وصل قريبًا منها فرَّ أهلها إلى الجبال وأسلموا له الكعبة، وأَخذ لعبد المطلب مئتي بعير فكلَّمه فيها، فقال له: كيف تكلمني في الإبل ولا تكلمني في الكعبة، وقد جئت لهدمها وهي شرفك وشرف قومك؟ فقال له: أنا رب الإبل، وإن للبيت ربًّا سيمنعه، فبرَكَ الفيل[2] بذي الغَمِيس، ولم يتوجه إلى مكة، فكانوا إذا وجهوه إلى غيرها هَرْول، وإذا وجهوه إليها توقف ولو بضَعوه[3] بالحديد، فبينما هم كذلك أرسل الله عليهم طيورًا سودًا، وقيل: خضرًا، عند كل طائر ثلاثة

(١) في ب: «من عجائب».
(٢) في د: «فلما توجه إليها برك الفيل».
(٣) أي: وخزوه بالمِبْضَع، وهو آلة يشق بها الجلد. تاج العروس.

أحجار في منقاره ورجليه، فرمتهم الطيور بالحجارة، فكان الحجر يقتل من وقع عليه، وروي: أنه كان يدخل في رأسه ويخرج من دبره، ووقع في سائرهم الجُدَري والأسقام، وانصرفوا فماتوا في الطريق متفرقين في المراحل، وتقطع أبرهة أَنمَلةً أنملة.

[﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ﴾ معناه: ألم تعلم، و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿فَعَلَ رَبُّكَ﴾، لا بـ ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

والجملة معمول ﴿أَلَمْ تَرَ﴾.

﴿فِى تَضْلِيلٍ﴾ أي: إبطال وتخسير.

﴿أَبَابِيلَ﴾ معناه: جماعات شيئًا بعد شيء.

قال الزمخشري: واحدها إِبَّالَةٌ(١).

وقال جمهور الناس: هو جمعٌ لا واحد له من لفظه.

﴿بِحِجَارَةٍ﴾ روي: أن كل حجر منها كان فوق العدسة ودون الحِمَّصة.

قال ابن عباس: إنه أدرك عند أم هانئ نحو قَفيز من هذه الحجارة، وإنها كانت مخططة بحُمْرة.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٥٨٢).

وروي: أنه كان على كل حجر اسمُ مَن يقع عليه مكتوبًا.

﴿سِجِّيلٍ﴾ قد ذكر[١].

﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ العصف: ورق الزرع وتِبْنه، والمراد: أنهم صاروا رميمًا.

وفي تشبيههم به ثلاثة أوجه:

الأول: أنه شبههم بالتبن إذا أكلته الدواب ثم راثته، فجمع التلف والخِسَّة ولكن الله كنَّى عن هذا على حسَب أدب القرآن.

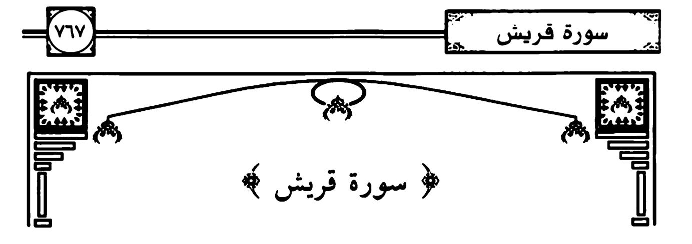
الثاني: أنه أراد ورق الزرع إذا أكلته الدود.

الثالث: أنه أراد كعصفِ مأكولٍ زرعُه، وبقي هو لا شيء.

* * *

---

(١) انظر: (٢/٦٠٤).



﴿ سورة قريش ﴾

[﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤ ﴾].

﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ ﴾ قريش: هم حيٌّ من عرب الحجاز الذين من ذرية معدِّ بن عدنان، إلا أنه لا يقال قريشٌ إلا لمن كان من ذرية النضر بن كنانة، وهم ينقسمون إلى أفخاذ وبيوت؛ نحو بني هاشم، وبني أمية، وبني مخزوم، وغيرهم.

وإنما سميت القبيلة قريشًا؛ لتقرُّشهم، والتقرُّش: التكسب، وكانوا تجارًا.

وعن معاوية أنه سأل ابن عباس: بم سمِّيت قريش؟ قال: بدابة في البحر تأكل ولا تؤكل، وتعلو ولا تُعلى.

وكانوا ساكنين بمكة، وكان لهم رحلتان في كل عام للتجارة، رحلة في الشتاء إلى اليمن، ورحلة في الصيف إلى الشام.

وقيل: كانت الرحلتان جميعًا إلى الشام.

وقيل: كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل، فيقيمون بها، ويرحلون في الشتاء إلى مكة؛ لسكناهم بها.

والإيلاف: مصدر من قولك: آلفتُ المكان: إذا أَلِفتَه.

وقيل: هو منقول منه بالهمزة، يقال أَلِف الرجل الشيءَ، وآلَفه إياه غيرُه.

فالمعنى:

على القول الأول: أن قريشًا أَلِفوا رحلة الشتاء والصيف.

وعلى الثاني: أن الله آلَفهم الرحلتين.

واختلف في تعلق قوله: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١﴾ على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه متعلق بقوله: ﴿فَلْيَعْبُدُوا﴾، والمعنى: فليعبدوا الله من أجل إيلافهم الرحلتين؛ فإن ذلك نعمة من الله عليهم.

الثاني: أنه يتعلق بمحذوف تقديره: اعجَبوا لإيلاف قريش.

الثالث: أنه يتعلق بسورة الفيل، والمعنى: أن الله أهلك أصحاب الفيل لإيلاف قريش، فهو يتعلق بقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ﴾ أو بما قبله من الأفعال.

ويؤيد هذا: أن السورتين في مصحف أبيٍّ بن كعب سورةٌ واحدة لا فصل بينهما، وقد قرأهما عمرُ في ركعة واحدة من المغرب.

وذكر الله الإيلاف أولًا مطلقًا، ثم أبدل منه الإيلاف المقيَّد بالرحلتين؛ تعظيمًا للأمر.

ونصْبُ ﴿رِحْلَةَ﴾؛ لأنه مفعول بـ ﴿إِۦلَٰفِهِمْ﴾.

وقال: ﴿رِحْلَةَ﴾ وأراد: «رحلتين»، فهو كقول الشاعر:

كلوا في بعضِ بطْنِكم تعِفُّوا[1]

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣﴾ هذا إقامة حجة عليهم، واستدعاء لهم

---

(١) هذا صدر بيت، وعجزه: «فإنَّ زمانَكم زَمَنٌ خَمِيصُ»، وهو من شواهد سيبويه في «الكتاب» (١/ ٢١٠) ولا يعرف قائله.

بملاطفة، وتذكير بالنعم.

والبيت: هو المسجد الحرام.

﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ يحتمل أن يريد:

إطعامَهم بسبب الرحلتين، فقد روي أنهم كانوا قبل ذلك في شدة وضيق حال حتى أكلوا الجيف.

ويحتمل أن يريد إطعامهم على الإطلاق، فقد كان أهل مكة ساكنين بوادٍ غير ذي زرع، ولكن الله أطعمهم مما يجلب إليهم من البلاد، بدعوة أبيهم إبراهيم ﷺ، وهو قوله: ﴿وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

﴿وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ يحتمل أن يريد:

آمنهم من خوف أصحاب الفيل.

ويحتمل أن يريد: آمنهم في بلدهم بدعوة إبراهيم في قوله: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقد فسرناه في موضعه[١].

أو يعني: آمَنهم في أسفارهم؛ لأنهم كانوا في رحلتهم آمنين، لا يتعرض لهم أحد بسوء، وكان غيرهم من الناس تؤخذ أموالهم وأنفسهم.

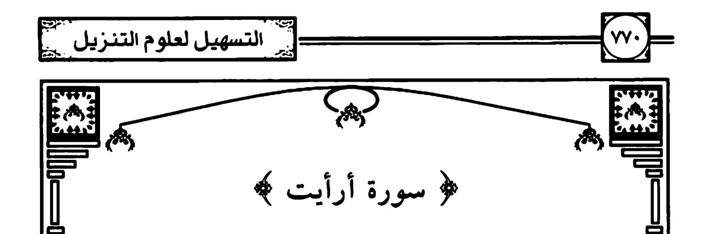
وقيل: آمنهم من الجُذَام، فلا ترى بمكة مجذومًا.

قال الزمخشري: التنكير في ﴿جُوعٍ﴾ و﴿خَوْفٍۭ﴾؛ لشدتهما[٢].

---

(١) انظر: (٣٦٢/١).

(٢) الكشاف (٥٨٩/١٦).



﴿ سورة أرأيت ﴾

[﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾].

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾﴾ قيل: إن هذا نزل في أبي جهل أو[1] أبي سفيان بن حرب.

وقيل: هو مطلق.

والدين هنا: الملة، أو الجزاء.

﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ أي: يدفعه بعنف، وهذا الدفع يَحتمل أن يكون:

عن إطعامه والإحسان إليه.

أو عن ماله وحقوقه، وهذا أشدُّ.

والذي لا يحضُّ على طعام المسكين لا يُطعمه من باب أولى.

وهذه الجملة هي جواب ﴿أَرَءَيْتَ﴾؛ لأن معناها: «أخبرني»، فكأنه سؤال وجواب.

---

(١) في أ، ب، د: «و».

والمعنى: انظر[1] الذي كذب بالدين؛ تجد فيه هذه الأخلاق القبيحة والأعمال السيئة.

وإنما ذلك؛ لأن الدين يحمل صاحبه على فعل الحسنات وترك السيئات.

فمقصود الكلام: ذمُّ الكفار وأحوالِهم.

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ قيل: إن هذا نزل في عبد الله بن أبيّ ابن سلول المنافق، والسورة على هذا نصفها مكي ونصفها مدني، قاله أبو زيد السهيلي[2].

وذلك أن ذِكْر أبي جهل وغيره من الكفار أكثر ما جاء في السور المكية، وذكر السهو عن الصلاة والرياء فيها، إنما هي من صفات الذين كانوا بالمدينة، لاسيما على قول من قال: إنها في عبد الله بن أبيّ.

وقيل: إنها مكية كلها، وهو الأشهر، ونزل آخرها - على هذا - في رجل أسلم بمكة ولم يكن صحيح الإيمان.

وقيل: مدنية.

والسهو عن الصلاة: هو تركها، أو تأخيرها تهاونًا بها.

وقد سئل رسول الله ﷺ عن ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ قال: «الذين يؤخرونها عن وقتها»[3].

---

(١) في ب زيادة: «إلى».

(٢) التعريف والإعلام، للسهيلي (ص: ٣٩١)، والسهيلي يُكْنى بأبي القاسم وأبي زيد.

(٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٦٦٣).

وقال عطاء بن يسار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ولم يقل: «في صلاتهم».

﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ هو من الرياء؛ أي: صلاتهم رياء للناس، لا لله.

﴿وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ فيه وصفٌ لهم بالبخل وقلة المنفعة للناس.

وفي ﴿ٱلْمَاعُونَ﴾ أربعة أقوال:

الأول: أنه الزكاة.

الثاني: أنه المال بلغة قريش.

الثالث: أنه الماء.

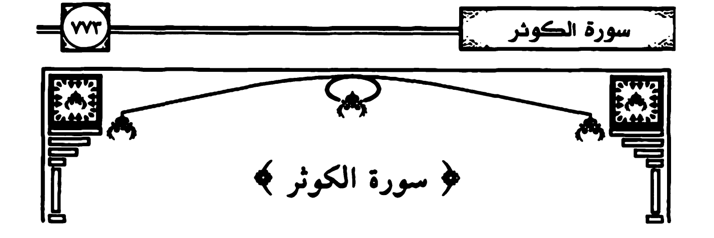
الرابع: أنه ما يتعاطاه الناس بينهم، كالآنية، والفأس، والدلو، والمِقَصّ.

وسئل رسول الله ﷺ: ما الشيء الذي لا يحل منعه؟ فقال: «الماء، والنار، والملح»[١] وزاد في بعض الطرق: «الإبرة، والخَمِير»[٢].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٢٤٧٣).

(٢) لم أقف على إسناد لهذه الرواية.



﴿ سورة الكوثر ﴾

[﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾].

﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ هذا خطاب للنبي ﷺ، والكوثر: بناء مبالغة من الكثرة.

وفي تفسيره سبعة أقوال:

الأول: حوض النبي ﷺ.

الثاني: أنه الخير الكثير الذي أعطاه الله في الدنيا والآخرة، قاله ابن عباس، وتمَّمه سعيد بن جبير بأن قال: إن النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله، فالمعنى: أنه على العموم.

الثالث: أن الكوثر القرآن.

الرابع: أنه كثرة الأصحاب والأتباع.

الخامس: أنه التوحيد.

السادس: أنه الشفاعة.

السابع: أنه نور وضعه الله في قلبه.

ولا شك أن الله أعطاه هذه الأشياء[١] كلها، ولكن الصحيح أن المراد بالكوثر الحوض، لما ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما الكوثر؟ هو نهر أعطانيه الله، وهو الحوض، آنيته عدد نجوم السماء»[٢].

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ فيه خمسة أقوال:

الأول: أنه أمَره بالصلاة على الإطلاق، وبنحر الهدي والضحايا.

الثاني: أنه ﷺ كان يضحي قبل صلاة العيد، فأمره أن يصلي ثم ينحر، فالمقصود على هذا: تأخير نحر الأضاحي عن الصلاة.

الثالث: أن الكفار كانوا يصلون مكاءً وتصدية، وينحرون للأصنام، فقال الله لنبيه ﷺ: صل لربك وحده وانحر له؛ أي: لوجهه لا لغيره، فهو على هذا أمر بالتوحيد والإخلاص.

الرابع: أن معنى ﴿وَٱنْحَرْ﴾: ضع يدك اليمنى على اليسرى عند صدرك في الصلاة، فهو على هذا من النَّحْر، وهو الصدر.

الخامس: أن معناه: ارفع يدك عند نحرك في افتتاح الصلاة.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ الشانئ: هو المبغِض، وهو من الشَّنآن بمعنى العداوة.

ونزلت هذه الآية في العاصي بن وائل - وقيل: في أبي جهل - على وجه

---

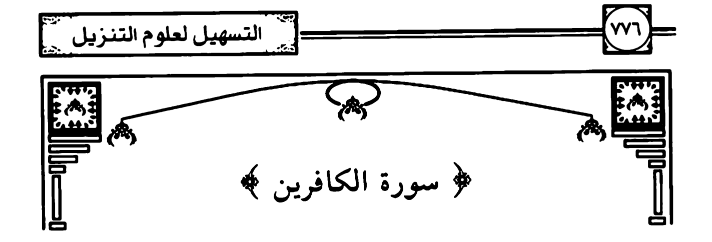
(١) في د: «الخصال».

(٢) أخرجه مسلم (٤٠٠).

الرد عليه؛ إذ قال: إن محمدًا أبترُ؛ أي: لا ولد له ذكَرٌ، فإذا مات استرحنا منه وانقطع أمره بموته، فأخبر الله أن هذا الكافر هو الأبتر وإن كان له أولاد؛ لأنه مبتور من رحمة الله؛ أي: مقطوع عنها، ولأنه لا يُذكر إذا ذُكر إلا باللعنة، بخلاف النبي ﷺ فإن ذكره خالد إلى آخر الدهر، مرفوع على المنابر والصوامع، مقرونٌ بذكر الله، والمؤمنون من زمانه إلى يوم القيامة أتباعه، فهو كالوالد لهم[1].

***

(١) في د: «فكأنه والدهم».



﴿ سورة الكافرين ﴾

سبب هذه السورة: أن قومًا من قريش، منهم الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف والعاصي بن وائل وأبو جهل ونظراؤهم؛ قالوا: يا محمد! اتبع ديننا ونتبع دينك، اعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة، فقال: «معاذ الله أن أشرك بالله شيئًا»(١)، ونزلت السورة في معنى البراءة من آلهتهم، ولذلك قال ﷺ: «من قرأها فقد برئ من الشرك»(٢).

[﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾].

﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ هذا إخبار أنه لا يعبد أصنامهم.

فإن قيل: لم كرر هذا المعنى بقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: - قاله الزمخشري -: وهو أن قوله: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ يريد في الزمان المستقبل، وقوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤﴾ يريد به فيما

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٧٠٣).

(٢) أخرجه النسائي في الكبرى (٧/ ٢٦٢).

مضى؛ أي: ما كنت قطُّ عابدًا ما عبدتم فيما سلف؛ فكيف تطلبون ذلك مني الآن؟[١]

الثاني: - قاله ابن عطية -: وهو أن قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ لما كان يحتمل أن يراد به زمان الحال خاصة قال: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾؛ أي: أبدًا ما عشتُ[٢].

وهذا مُعترَض؛ لأن «لا» النافية إذا دخلت على الفعل المضارع خلَّصته للاستقبال، فقوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ﴾ لا يَحتمل أن يراد به الحال.

ويحتمل عندي: أن يكون قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾ يريد به: في المستقبل، على حسَب ما تقتضيه «لا» من الاستقبال، ويكون قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ يريد به: في الحال، فيحصل من المجموع نفي عبادته الأصنام في الحال والاستقبال، ومعنى الحال في قوله: ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤﴾ أظهر من معنى المضيِّ الذي قاله الزمخشري، ومن معنى الاستقبال؛ فإن قولك: «ما زيد قائم» بنفي الجملة الاسمية يقتضي الحال.

﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ هذا إخبارٌ أن هؤلاء الكفار لا يعبدون الله، كما قيل لنوح: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤۡمِنَ مِن قَوۡمِكَ إِلَّا مَن قَدۡ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، إلا أن هذا في حق قوم مخصوصين ماتوا على الكفر، وقد روي أن هؤلاء الجماعة المذكورين هم: أبو جهل، والوليد بن المغيرة، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، وأبيُّ بن خلف، وابنا

(١) الكشاف (١٦/ ٦٠٧).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٧٠١).

الحَجاج[1]، وكلهم ماتوا كفارًا.

فإن قيل: لم قال ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ بـ«ما» دون «مَن» التي هي موضوعة لمن يَعقل؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن ذلك لمناسبة قوله: ﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢﴾؛ فإن هذا واقع على الأصنام التي لا تعقل ثم جعل ﴿مَآ أَعۡبُدُ﴾ على طريقته؛ لتناسب اللفظ.

الثاني: أنه أراد الصفة، كأنه قال: لا أعبد الباطل ولا تعبدون الحق، قاله الزمخشري[2].

الثالث: أن «ما» مصدرية، والتقدير: لا أعبد عبادتكم ولا تعبدون عبادتي، وهذا ضعيف.

فإن قيل: لم كرَّر هذا المعنى واللفظ؛ فقال بعد ذلك: ﴿وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣﴾ مرة أخرى؟

فالجواب: من وجهين:

أحدهما: - قول الزمخشري-: وهو أن الأوَّل في المستقبل والثاني فيما مضى[3].

---

(١) وهما: نَبيهٌ ومنبِّه ابنا الحَجاج بن عامر. سيرة ابن هشام (١/ ٢٦٥).

(٢) الكشاف (١٦/ ٦١١).

(٣) الكشاف (١٦/ ٦٠٧).

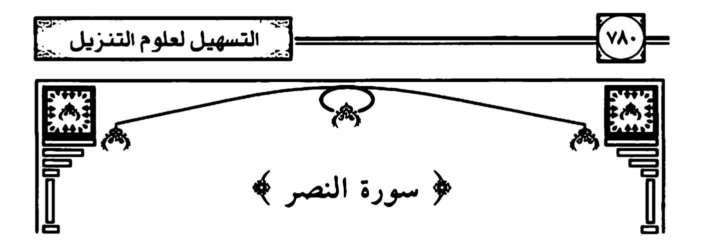
والآخر: - قاله ابن عطية -: وهو أن الأول في الحال والثاني في الاستقبال، فهو حتمٌ عليهم أن لا يؤمنوا أبدًا[١].

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ أي: لكم شِرْككم، ولي توحيدي، وهذه براءة منهم.

وفيها مسالَمة منسوخة بالسيف.

* * *

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٧٠١).



﴿ سورة النصر ﴾

سأل عمر بن الخطاب جماعةً من الصحابة ﷺ عن معنى هذه السورة، فقالوا: إن الله أمر رسول الله ﷺ بالتسبيح والاستغفار عند النصر والفتح، وذلك على ظاهر لفظها، فقال لابن عباس بمحضرهم: يا عبد الله ما تقول أنت؟ قال: هو أجلُ رسول الله ﷺ، أَعْلَمه الله بقربه إذا رأى النصر والفتح، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما علمتَ.

وقد قال بهذا المعنى ابن مسعود وغيره، ويؤيده قول عائشة: إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة وأسلم العرب جعل يكثر أن يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك اللهم إني أستغفرك**» يتأول القرآن[1]؛ أي هذه السورة، وقال لها مرة: «**ما أراه إلا حضور أجلي**»[2].

وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة بمنى أيام التشريق في حجة الوداع، وعاش رسول الله ﷺ بعدها ثمانين يومًا أو نحوها.

وقال ابن مسعود: هذه السورة تسمى «سورة التوديع».

[﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤).

(٢) أخرجه البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠).

﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ يعني بالفتح: فتح مكة والطائف وغيرهما من البلاد التي فتحها رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس:[1] النصر: صلح الحديبية، والفتح: فتح مكة.

وقيل: النصر: إسلام أهل اليمن.

والإخبار بذلك كله قبل وقوعه إخبارٌ بغيب، فهو من أعلام النبوَّة.

﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ أي: جماعاتٍ، وذلك أنه أسلم بعد فتح مكة بشرٌ كثير، فقد روي أن رسول الله ﷺ كان معه في فتح مكة عشرة آلاف، وكان معه في غزوة تبوك سبعون ألفًا.

وقال أبو عمر ابن عبد البر: لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر[2].

وقد قيل: إن عدد المسلمين عند موته: مئة ألف وأربعة عشر ألفًا.

﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ قد ذُكر التسبيح والاستغفار ومعنى ﴿بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾ فيما تقدم[3].

فإن قيل: لم أمره الله بالتسبيح والحمد والاستغفار عند رؤية النصر والفتح، وعند اقتراب أجله؟

فالجواب: أنه أمره بالتسبيح والحمد؛ ليكون شكرًا على النصر والفتح

---

(١) في أ، هـ زيادة: «من».

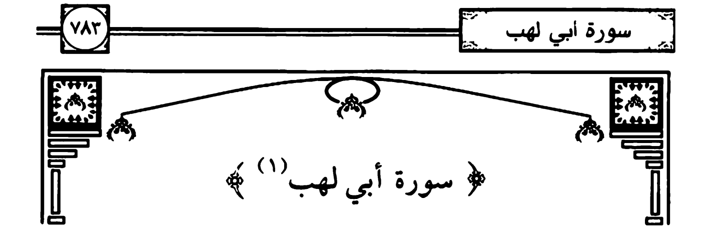
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر (٤/ ١٦٣٨).

(٣) انظر: (٣/١٢٧).

وظهور الإسلام، وأمره بذلك وبالاستغفار عند اقتراب أجله؛ ليكون ذلك زادًا للآخرة وعُدةً للقاء الله[1].

* * *

(١) في ج، د: «للقاء».



﴿ سورة أبي لهب[١] ﴾

سببها: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صَعِد رسول الله ﷺ على الصفا، فنادى بأعلى صوته: «يا صباحاه[٢]!»، فاجتمعت إليه قريش فقال لهم: «إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» ثم أنذرهم عمومًا وخصوصًا، فقال له أبو لهب: تبًّا لك! ألهذا جمعتنا؟ فنزلت السورة[٣].

[﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾].

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ معنى ﴿تَبَّتْ﴾: خسرت، والتباب: هو الخسران.

وأبو لهب: هو عبد العزى بن عبد المطلب بن هاشم، وهو عمُّ رسول الله ﷺ، وكان من أشد الناس عداوةً له.

فإن قيل: لم ذكره الله بكنيته[٤] دون اسمه؟

---

(١) قال الفيروزآبادي في «بصائر ذوي التمييز» (١/ ٥٥٢): «وتسمَّى سورة تبَّت، وسورة أبي لهب، وسورة المسد».
(٢) في أ، د، هـ: «يا صاحباه»!.
(٣) أخرجه البخاري (٤٧٧٠)، ومسلم (٢٠٨).
(٤) في أ، هـ: «بتكنيته».

فالجواب من ثلاثة أوجه:

أحدها: أن كنيته كانت أغلب عليه من اسمه كأبي بكر وغيره، ويقال: إنه كُنِّي أبا لهب لتلهُّب وجهه جمالًا.

الثاني: أنه لما كان اسمه عبد العزى عدل عنه إلى الكنية.

الثالث: أنه لما كان من أهل النار واللهب، كنَّاه أبا لهب، وليناسب ذلك قوله: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾.

﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ يحتمل أن تكون ﴿مَآ﴾: نافيةً، أو استفهامية يراد بها النفي.

و﴿مَالُهُۥ﴾: هو رأس ماله، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾: الربح.

أو ﴿مَالُهُۥ﴾: ما ورث، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾: هو ما اكتسبه لنفسه.

وقيل: ﴿مَالُهُۥ﴾: جميع ماله، ﴿وَمَا كَسَبَ﴾: أولاده.

﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣﴾ هذا حتمٌ عليه بدخول النار، ومات بعد ذلك كافرًا.

﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةُ ٱلْحَطَبِ ۝٤﴾ اسم امرأته: أم جميل بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان وعمة معاوية.

وفي وصفها بحمالة الحطب أربعة أقوال:

أحدها: أنها تحمل حطبًا وشوكًا فتلقيه في طريق النبي ﷺ لتؤذيه[1].

---

(١) في ب، ج زيادة: «به».

الثاني: أن ذلك عبارة عن مشيها بالنميمة، يقال: فلان يحمل الحطب بين الناس: أي: يوقد بينهم نار العداوة بالنمائم.

الثالث: أنه عبارة عن سعيها بالمضرة على المسلمين، يقال: فلان يحطِب على فلان: إذا قصد الإضرار به.

الرابع: أنه عبارة عن ذنوبها وسوء أعمالها.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝﴾ الجِيد: العنق.

والمسَد: الليف.

وقيل: الحبل المفتول.

وفي المراد به ثلاثة أقوال:

الأول: أنه إخبار عن حملها الحطب في الدنيا على القول الأول، وفي ذلك تحقيرٌ لها، وإظهار لخساسة حالها.

والآخر: أن حالها في جنهم يكون كذلك؛ أي: يكون في عنقها حبل.

الثالث: أنها كانت قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنَّها على عداوة محمد، فأخبر عن قلادتها بحبل المسد على جهة التفاؤل والذم لها بتبرُّجها.

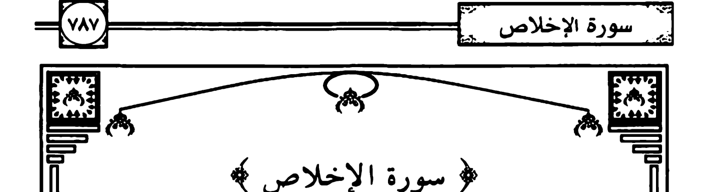
ويحتمل قوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ وما بعده وجوهًا من الإعراب يختلف الوقف باختلافها، وهي:

أن يكون ﴿وَامْرَأَتُهُ﴾ مبتدأً، و﴿حَمَّالَةُ الْحَطَبِ﴾ خبره.

أو يكون ﴿حَمَّالَةُ الْحَطَبِ﴾ نعتٌ، والخبر: ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾.

أو يكون ﴿ٱمۡرَأَتُهُۥ﴾ معطوفًا على الضمير في ﴿يَصۡلَىٰ﴾، و﴿حَمَّالَةُ ٱلۡحَطَبِ﴾: نعت، أو خبر مبتدأ مضمر.

* * *



﴿ سورة الإخلاص ﴾

سبب نزول هذه السورة: أن اليهود دخلوا على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد! صف لنا ربك وانسبه؟ فإنه وصف نفسه في التوراة ونسَبها!، فارتعد رسول الله ﷺ حتى خرَّ مغشيًا عليه، ونزل عليه جبريل عليه السلام بهذه السورة.

وقيل: إن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك؟ فنزلت.

وعلى الرواية الأولى: تكون السورة مدنية؛ (لأن سؤال اليهود بالمدينة)[1].

وعلى الرواية الثانية: تكون مكية.

واختلف في معنى قوله ﷺ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ تَعدِل ثلث القرآن»[2]:

فقيل: إن ذلك في الثواب؛ أي: لمن قرأها من الأجر مثل أجر من قرأ ثلث القرآن.

وقيل: إن ذلك فيما تضمنته من المعاني والعلوم؛ وذلك أن علوم القرآن ثلاثة: توحيد، وأحكام، وقَصص، وقد اشتملت هذه السورة على التوحيد،

---

(١) سقط من ج، د.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٣)، ومسلم (٨١١).

فهي ثلث القرآن بهذا الاعتبار، وهذا أظهر، وعليه حمل ابن عطية الحديث[(١)].

ويؤيده: أن في بعض روايات الحديث: «إن الله جزَّأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ جزءًا من أجزاء القرآن»[(٢)].

وخرج النسائي: أن رسول الله ﷺ سمع رجلًا يقرؤها فقال: «أما هذا فقد غفر له»[(٣)]، وفي رواية أنه قال: «وجبت له الجنة»[(٤)].

وخرج مسلم: أن رسول الله ﷺ بعث رجلًا على سرية، فكان يقرأ لأصحابه في الصلاة ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن؛ فأنا أحب أن أقرأها، فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أن الله يحبه»[(٥)].

وفي رواية خرَّجها الترمذي: أنه ﷺ قال للرجل: «حبك إياها أدخلك الجنة»[(٦)].

وخرج الترمذي أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٧١٣).
(٢) أخرجه مسلم (٨١١).
(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (٧/ ٢٦٢).
(٤) أخرجه النسائي في الكبرى (٢/ ١٨).
(٥) أخرجه مسلم (٨١٣).
(٦) أخرجه الترمذي (٢٩٠١).

مئتي مرة كل يوم غفرت له ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين»[١].

[﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾].

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ الضمير هنا عند البصريين: ضمير الأمر والشأن الذي يراد به التعظيم والتفخيم.

وإعرابه: مبتدأ، وخبره الجملة التي بعده، وهي المفسرة له، و﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿أَحَدٌ﴾ خبره.

وقيل: ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الخبر، و﴿أَحَدٌ﴾ بدل منه.

وقيل: ﴿ٱللَّهُ﴾ بدل، و﴿أَحَدٌ﴾ هو الخبر.

و﴿أَحَدٌ﴾ له معنيان:

أحدهما: أن يكون من أسماء النفي التي لا تقع إلا في غير الواجب، كقولك: «ما جاءني أحد»، وليس هذا موضع هذا المعنى، وإنما موضعه قوله: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

والآخر: أن يكون بمعنى واحد، وأصله: «وَحَد» بواو، ثم أبدل من الواو همزة، وهذا هو المراد هنا.

واعلم أن وصف الله تعالى بالواحد[٢] له ثلاثة معان كلها صحيحة

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٩٨).

(٢) في ب، د: «بالوحدانية».

في حق الله تعالى:

الأول: أنه واحد لا ثاني معه، فهو نفي للعدد.

والآخر: أنه واحد لا نظير ولا شريك، كما تقول: «فلان واحد عصره»؛ أي: لا نظير له.

والثالث: أنه واحد لا ينقسم ولا يتبعَّض[١].

والأظهر: أن المراد في السورة نفي الشريك؛ لقصد الرد على المشركين ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قال الزمخشري: ﴿أَحَدٌ﴾ وصفٌ بالوحدانية ونفيِ الشركاء[٢].

قلت: وقد أقام الله في القرآن براهين قاطعة على وحدانيته، وذلك في القرآن كثير جدًّا، وأوضحها أربعة براهين[٣]:

الأول: قوله: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧]؛ لأنه إذا ثبت أن الله تعالى خالق جميع الموجودات لم يمكن أن يكون واحدٌ منها شريكًا له.

والآخر: قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والثالث: قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٤٢].

---

(١) انظر (٣٨٤/١).

(٢) الكشاف (٦٣٨/١٦).

(٣) انظر تبيين هذه الأوجه في كتاب «النور المبين في قواعد عقائد الدين» للمؤلف رحمه الله (ص: ٣٩) وما بعدها.

والرابع: قوله: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وقد فسرنا هذه الآيات في مواضعها.

وتكلمنا على حقيقة التوحيد في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ [البقرة: ١٦٣][١].

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ في معنى الصمد ثلاثة أقوال:

أحدها: أن الصمد الذي يُصمَد إليه في الأمور؛ أي: يُلجأ إليه.

والآخر: أنه الذي لا يأكل ولا يشرب، فهو كقوله: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُۗ﴾ [الأنعام: ١٤].

والثالث: أنه الذي لا جوف له.

والأول هو المراد هنا على الأظهر.

ورجحه ابن عطية: بأن الله هو مُوجِد الموجودات وبه قِوامها، فهي مفتقرة إليه؛ أي: تصمد إليه؛ إذ لا تقوم بأنفسها[٢].

ورجَّحه شيخنا الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير بورود معناه في القرآن حيثما ورد نفي الولد عن الله تعالى كقوله في «مريم»: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾ [مريم: ٨٨] ثم أعقبه بقوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٣]، وقوله: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ﴾ [الأنعام: ١٠١]، وقوله: ﴿وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) انظر: (١/٣٨٤).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٧١١).

وَٱلْأَرْضِۖ﴾ [البقرة: ١١٦]، وكذلك هنا ذكره مع قوله ﴿لَمْ يَلِدْ﴾؛ ليكون برهانًا على نفي الولد.

قال الزمخشري: صَمَدٌ: فَعَلٌ بمعنى مفعول؛ لأنه مصمود إليه في الحوائج[1].

﴿لَمْ يَلِدْ﴾ هذا ردٌّ على كل من جعل لله ولدًا، فمنهم النصارى في قولهم: عيسى ابن الله، واليهود في قولهم: عزير ابن الله، والعرب في قولهم: الملائكة بنات الله.

وقد أقام اللهُ البراهين في القرآن على نفي الولد، وأوضحها أربعة:

الأول: أن الولد لا بد أن يكون من جنس والده، والله تعالى ليس له جنس، فلا يمكن أن يكون له ولد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ﴾ [المائدة: ٧٥] فوصفهما بصفة الحدوث؛ لينفي عنهما صفة[2] القِدَم فتبطل مقالة الكفار.

والثاني: أن الولد إنما يُتخذ للحاجة إليه، والله لا يفتقر إلى شيء، فلا يتخذ ولدًا، وإلى هذا أشار بقوله: ﴿قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًاۗ سُبْحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱلْغَنِيُّۖ﴾ [يونس: ٦٨].

الثالث: أن جميع الخلق عباد الله، والعبودية تنافي البنوَّة، وإلى هذا

---

(١) الكشاف (١٦/ ٦٣٥).

(٢) في ب، ج، هـ: «صفات».

أشار بقوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

الرابع: أنه لا يكون ولد إلا لمن له زوجة، والله تعالى لم يتخذ زوجة فلا يكون له ولد، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ﴾ [الأنعام: ١٠١].

﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ هذا ردٌّ على الذين قالوا: «انسُبْ لنا ربك»، وذلك أن كل مولود محدَث، والله تعالى هو الأول الذي لا افتتاح لوجوده، القديم، الذي كان ولم يكن معه شيء غيره، فلا يمكن أن يكون مولودًا تعالى عن ذلك.

﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ الكفؤ: هو النظير والمماثل.

قال الزمخشري: يجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح، فيكون نفيًا للصاحبة[1]، وهذا بعيد.

والأول هو الصحيح، ومعناه: أن الله ليس له نظير ولا شبيه ولا مثيل.

ويجوز في ﴿كُفُوًا﴾:

ضم الفاء، وإسكانها مع ضم الكاف، وقد قرئ بالوجهين.

ويجوز أيضًا كسر الكاف وإسكان الفاء.

ويجوز كسر الكاف وفتح الفاء والمدُّ.

ويجوز فيه: الهمز والتسهيل.

---

(١) الكشاف (١٦/ ٦٣٦).

وانتصب ﴿كُفُوًا﴾ على أنه خبر «كان»، و﴿أَحَدٌ﴾ اسمها.

قال ابن عطية: يجوز أن يكون ﴿كُفُوًا﴾ حالًا؛ لكونه كان صفة للنكرة فقُدِّم عليها[(١)].

فإن قيل: لم قدَّم المجرور وهو ﴿لَهُۥ﴾، على اسم كان وخبرها، وشأن الظرف إذا وقع غيرَ خبر أن يؤخَّر؟

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أنه قُدم للاعتناء به والتعظيم؛ لأنه ضمير الله تعالى، وشأن العرب تقديم ما هو أهم وأولى.

والآخر: أن هذا المجرور به يتم معنى الخبر وتكمل فائدته، فإنه ليس المقصود نفي الكفؤ مطلقًا، إنما المقصود نفي الكفؤ عن الله تعالى، فلذلك اعتنى بهذا المجرور الذي يَحوز[(٢)] هذا المعنى، فقدَّمه.

فإن قيل: إن قوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ يقتضي نفي الولد والكفؤ؛ فلم نصَّ على ذلك بعده؟

فالجواب: أن هذا من التجريد، وهو تخصيص الشيء بالذكر بعد دخوله في عمومٍ مُتقدِّمٍ، كقوله تعالى: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨]، ويُفعل ذلك لوجهين يصح كل واحد منهما هنا:

أحدهما: الاعتناء، ولا شك أن نفي الولد والكفؤ عن الله ينبغي

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٧١٢).

(٢) في ج، هـ: «يُحْرِز».

الاعتناء به؛ للرد على من قال خلاف ذلك من الكفار.

والآخر: الإيضاح والبيان؛ فإن دخول الشيء في ضمن العموم ليس كالنص عليه، فنص على هذا بيانًا، وإيضاحًا للمعنى، ومبالغةً في الرد على الكفار، وتأكيدًا لإقامة الحجة عليهم.

* * *



﴿ سورة الفلق ﴾

[﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ تقدم معنى ﴿أَعُوذُ﴾ في التعوُّذ[(١)]، ومعنى ﴿رَبِّ﴾ في «اللغات»[(٢)] و«الفاتحة»[(٣)].

وفي الفلق ثلاثة أقوال:

الأول: أنه الصبح، ومنه ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

قال الزمخشري: هو فَعَلٌ بمعنى مفعول[(٤)].

الثاني: أنه كل ما يَفلقه الله، كفلْق الأرض عن النبات، والجبال عن العيون، والسحاب عن المطر، والأرحام عن الأولاد، والحب والنوى وغير ذلك.

الثالث: أنه جُبٌّ في جهنم. وقد روي هذا عن رسول الله ﷺ[(٥)].

---

(١) انظر: (١/٢٣٩) والمادة (٣٩٠) في اللغات.

(٢) انظر المادة (٢٠٤) في اللغات.

(٣) انظر: (١/٢٥٤).

(٤) الكشاف (١٦/ ٦٤٤).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٧٤٢).

﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝﴾ هذا عمومٌ في جميع المخلوقات، وشرُّهم: أنواع كثيرة، أعاذنا الله منها.

و﴿مَا﴾ هنا:

موصولة.

أو موصوفة.

أو مصدرية.

﴿وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝﴾ فيه ثمانية أقوال:

الأول: أنه الليل إذا أظلم، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء: ٧٨] وهذا قول الأكثرين، وذلك لأن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الأنس والجن، ولذلك قيل في المثل: «الليل أخفى للويل»[١].

الثاني: أنه القمر، خرج النسائي: أن رسول الله ﷺ رأى القمر فقال: «يا عائشة! استعيذي بالله من شر هذا؛ فإنه الغاسق إذا وقب»[٢]، ووقوبه على هذا: كسوفه؛ لأن «وَقَبَ» في كلام العرب يكون بمعنى الظلمة والسواد وبمعنى الدخول، فالمعنى: إذا دخل في الكسوف، أو إذا أظلم به.

الثالث: أنه الشمس إذا غربت، والوقوب على هذا المعنى: الظلمة، أو الدخول.

---

(١) أي: افعَلْ ما تريد ليلا فإنه أسْتَرُ لسرِّك. انظر: مجمع الأمثال للميداني (٢/ ١٩٣)، وفيه قصة هذا المثل.

(٢) أخرجه أحمد (٢٤٣٢٣)، والترمذي (٣٣٦٦)، والنسائي (٩/ ١٢٢).

الرابع: أن الغاسق النهار إذا دخل في الليل، وهذا قريب من الذي قبله.

الخامس: أن الغاسق سقوط الثريا، وكانت الأسقام والطاعون تَهيج عنده، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «النجم هو الغاسق»(١) فيحتمل أن يريد الثريا.

السادس: أنه الذَّكَر إذا قام، حكى النقاش هذا القول عن ابن عباس.

السابع: قال الزمخشري: يجوز أن يراد بالغاسق: الأسود من الحيات، ووَقْبُه: ضَرْبه(٢).

الثامن: أنه إبليس، حكى ذلك السهيلي(٣).

﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ النفْث: شبه النفخ دون تفْل وريق. قاله ابن عطية(٤).

وقال الزمخشري: هو النفخ مع ريق(٥).

وهذا النفث ضربٌ من السحر، وهو أن ينفث على عُقَدٍ تُعقد في خيط أو نحوه على اسم مسحور فيضره ذلك.

وحكى ابن عطية أنه حدَّثه ثقة أنه رأى عند بعض الناس بصحراء المغرب خيطًا أحمر قد عُقدت فيه عقد على فِصْلان - وهي أولاد الإبل -، فمُنعت

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤/ ٧٤٨).
(٢) الكشاف (١٦/ ٦٤٧).
(٣) التعريف والإعلام للسهيلي (ص: ٣٩٩).
(٤) المحرر الوجيز (٨/ ٧١٥).
(٥) الكشاف (١٦/ ٦٤٨).

بذلك من رضاعَ أمهاتها، فكان إذا حلَّ عقدةً جرى ذلك الفصيل إلى أمه فرَضِعَ في الحين[١].

قال الزمخشري: إن في الاستعاذة من النفاثات ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يستعاذ من مثل عملهن وهو السحر، ومن إثمهنَّ في ذلك.

والآخر: أن يستعاذ من خداعهن للناس وفتنتهن.

والثالث: أن يستعاذ مما يصيب من الشر عند نفثهن[٢].

و﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ بناء مبالغة، والموصوف محذوف تقديره:

النساء النفاثات.

أو الجماعات النفاثات.

أو النفوس النفاثات.

والأول أرجح؛ لأنه روي أنه إشارة إلى بنات لَبيد بن الأعصم اليهودي، وكنَّ ساحرات سحرْنَ هُنَّ وأبوهن رسول الله ﷺ وعقَدْنَ له إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله المعَوِّذتين إحدى عشرة آية بعدد العقد، وشفَى الله رسوله ﷺ.

فإن قيل: لم عرَّف ﴿ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ﴾ بالألف واللام، ونكَّر ما قبله وهو ﴿غَاسِقٍ﴾ وما بعده وهو ﴿حَاسِدٍ﴾؛ مع أن الجميع مستعاذ منه؟

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٧١٥-٧١٦).

(٢) الكشاف (١٦/ ٦٤٩).

فالجواب: أنه عرَّف النفاثات؛ ليفيد العموم؛ لأن كل نفاثة شرِّيرة، بخلاف الغاسق والحاسد؛ فإن شرَّهما في بعضٍ دون بعض.

﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝﴾ الحسد خُلُق مذموم طبعًا وشرعًا، قال رسول الله ﷺ: «الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب»[1].

وقال بعض العلماء: الحسد أول معصية عُصِيَ الله بها في السماء والأرض، أما في السماء: فحسد إبليس لآدم، وأما في الأرض: فقتل قابيل لأخيه هابيل بسبب الحسد.

ثم إن الحسد على درجات:

الأولى: أن يحب الإنسان زوال النعمة عن أخيه المسلم وإن كانت لا تنتقل إليه، بل يكره إنعام الله على غيره ويتألم به.

الثانية: أن يحب زوال تلك النعمة؛ لرغبته فيها ورجاء انتقالها إليه.

الثالثة: أن يتمنى لنفسه مثل تلك النعمة من غير أن يحب زوالها عن غيره، وهذا جائز وليس بحسد، وإنما هو غِبْطة.

والحاسد يضرُّ نفسه ثلاث مضَرَّات:

أحدها: اكتساب الذنوب؛ لأن الحسد حرام.

الثانية: سوء الأدب مع الله تعالى، فإن حقيقة الحسد كراهةُ إنعام الله على عبده، واعتراضٌ على الله في فعله.

الثالثة: تألم قلبه، وكثرة همه وغمه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٩٠٣)، وابن ماجه (٤٢٠٩).

فنرغب إلى الله أن يجعلنا محسودين لا حاسدين، فإن المحسود ذو نعمة والحاسد في كرب ونقمة، ولله در القائل:

إني لأرحم حاسِديَّ لفَرْط ما ضمَّت صدورهمُ من الأوغارِ

نظروا صنيع الله بي فعيُونهم في جنةٍ وقلوبُهم في نارِ[1]

وقال آخر:

إن يحسدوني فإني غيرُ لائمِهم قبلي من الناس أهلِ الفضل قد حُسِدوا

فدام لي ولهم ما بي وما بهمُ ومات أكثرُنا غيظًا بما يَجِدُ[2]

ثم إن الحسود لا تزول عداوته، ولا تنفع مداراته، وهو ظالم يتشكَّى كأنه مظلوم، ولقد صدق القائل:

كل العداوة قد تُرجى إزالتها إلا عداوة من عاداك من حسَدِ[3]

وقال حكيم الشعراء:

وأَظلم خلق الله من بات حاسدًا لمن بات في نعمائه يتقلَّبُ[4]

قال ابن عطية: قال بعض الحذاق: هذه السورة خمس آيات، وهي مراد

---

(١) البيتان لأبي الحسن التهامي كما في ديوانه (ص: ٣١٦).
(٢) البيتان لبشار بن برد كما في ديوانه (٣/ ٩٧).
(٣) البيت للشافعي كما في مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ٧٤)، ونسبه في العقد الفريد إلى ابن المبارك (٢/ ١٧١).
(٤) البيت للمتنبي كما في شرح العكبري لديوانه (١/ ١٨٥).

الناس بقولهم للحاسد الذي يخاف منه العين: الخمسة على عينيك[١].

فإن قيل: لم قال ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، و﴿إِذَا حَسَدَ﴾ فقيد بـ «إذا» التي تقتضي تخصيص بعض الأوقات؟

فالجواب: أن شرَّ الحاسد ومضرَّته إنما تقع إذا أمضى حسده، فحينئذٍ يضر بقوله أو بفعله أو بإصابته بالعين، فإن عين الحسود قاتلة، وأما إذا لم يُمض حسده ولم يتصرف بمقتضاه فشره ضعيف، ولذلك قال رسول الله ﷺ: **«ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد، والظن، والطيرة»**[٢]. فمخرجه من الحسد أن لا يَبغِي، ومخرجه من الظن أن لا يُحقِّق، ومخرجه من الطيرة أن لا يرجع، فلهذا خصه بقوله: ﴿إِذَا حَسَدَ﴾.

وكذلك الشر المخوف في الليل إنما هو إذا أظلم، فلذلك خصه بقوله: ﴿إِذَا وَقَبَ﴾.

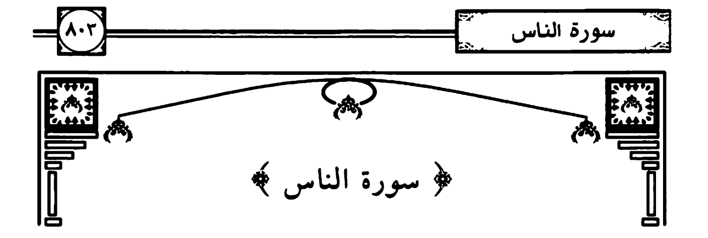
فإن قيل: إن قوله: ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ عمومٌ يدخل تحته كل ما ذكر بعده؛ فلأيِّ شيء ذَكر ما بعده؟

فالجواب: أن هذا من التجريد؛ للاعتناء بالمذكور بعد العموم، ولقد تأكد ما ذكر في هذه السورة بعد العموم بسبب السحر الذي سحر اليهودُ رسولَ الله ﷺ، وشدة حسدهم له.

---

(١) المحرر الوجيز (٨/ ٧١٦).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٢٢٨).



﴿ سورة الناس ﴾

[﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ إن قيل: لم أضاف الرب إلى الناس خاصة وهو رب كل شيء؟

فالجواب: أن الاستعاذة وقعت من شر الموسوِس في صدور الناس، فخصهم بالذكر لأنهم المعوَّذون بهذا التعويذ، والمقصودون هنا دون غيرهم.

﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣﴾ هذا عطف بيان.

فإن قيل: لم قدم وصفه تعالى بـ ﴿رَبِّ﴾ ثم بـ ﴿مَلِكِ﴾ ثم بـ ﴿إِلَـٰهِ﴾؟

فالجواب: أن هذا على الترتيب في الارتقاء إلى الأعلى، وذلك أن الرب قد يُطلق على كثير من الناس، فيقال: فلان رب الدار، وشبه ذلك، فبدأ به؛ لاشتراك معناه، وأما المَلِك فلا يوصف به إلا آحاد من الناس وهم الملوك، ولا شك أنهم أعلى من سائر الناس، فلذلك جاء به بعد الرب، وأما الإله فهو أعلى من الملك، ولذلك لا يَدَّعي الملوكُ أنهم آلهة، وإنما الإله واحد لا شريك له ولا نظير؛ فلذلك خَتم به.

فإن قيل: لم أظهر المضاف إليه وهو ﴿ٱلنَّاسِ﴾ في المرة الثانية والثالثة؛ فهلَّا أضمره في المرتين لتقدُّم ذكره في قوله: ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾؟ أو هلَّا اكتفى بإظهاره في المرة الثانية؟

فالجواب: أنه لما كان عطف بيان حسُن فيه البيان وهو الإظهار دون الإضمار، وقصَد أيضًا الاعتناء بالمكرَّر ذكرُه، كقول الشاعر:

لا أرى الموتَ يَسبق الموتَ شيءٌ نغَّص الموتُ ذا الغنى والفقيرَا(١)

﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾ وهو مشتق من الوسوسة، وهي الكلام الخفي.

فيحتمل أن يكون ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾:

[أ-] بمعنى الموسوِس فكأنه اسم فاعل، وهذا يظهر في قول ابن عطية: الوسواس من أسماء الشيطان(٢).

[ب-] ويحتمل أن يكون مصدرًا وصف به الموسوس:

على وجه المبالغة، كالوصف بعَدْلٍ وصَوْمٍ.

أو على حذف مضاف تقديره: ذي الوسواس.

وقال الزمخشري: إنما المصدر وِسواس بالكسر(٣).

﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ معناه: الراجع على عقبه المستتر أحيانًا، وذلك متمكِّن في الشيطان؛ فإنه يوسوس، فإذا ذَكر العبدُ الله وتعوذ به منه تباعد عنه، ثم رجع

---

(١) البيت لعدي بن زيد العبَادي كما في ديوانه (ص: ٦٥).

(٢) المحرر الوجيز (٨/ ٧١٧).

(٣) الكشاف (١٦/ ٦٥٣-٦٥٤).

إليه عند الغفلة عن الذكر، فهو يَخنَس في تباعده، ثم في رجوعه بعد ذلك.

﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥﴾ وسوسة الشيطان في صدر الإنسان بأنواع كثيرة؛ منها:

إفساد الإيمان والتشكيك في العقائد.

فإن لم يقدر على ذلك أمره بالمعاصي.

فإن لم يقدر على ذلك ثبَّطه عن الطاعات.

فإن لم يقدر على ذلك أدخل عليه الرياء في الطاعات؛ ليُحبطها.

فإن سلم من ذلك أدخل عليه العُجْب بنفسه واستكثار عمله.

ومن ذلك: أنه يوقد في القلب نار الحسد، والحقد، والغضب؛ حتى يقود الإنسان إلى شر الأعمال وأقبح الأحوال.

وعلاج وسوسته بثلاثة أشياء؛ وهي:

[١-] الإكثار من ذكر الله.

[٢-] والإكثار من الاستعاذة بالله منه، ومن أَنفع شيءٍ في ذلك قراءة هذه السورة.

والثالث: مخالفته والعزم على عصيانه.

فإن قيل: لم قال: ﴿فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ ولم يقل: «في قلوب الناس»؟

فالجواب: أن ذلك إشارة إلى عدم تمكن الوسوسة، وأنها غير حالَّة في القلب، بل هي محوِّمة في الصدر حول القلب.

﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ هذا بيان لجنس الوسواس، وأنه يكون من الجن، ومن الإنس.

ثم إن الموسوس من الإنس يحتمل أن يريد:

من يوسوس بخِدَعه، وأقواله الخبيثة؛ فإنه شيطان كما قال تعالى: ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ [الإنعام: ١١٢].

أو يريد به: نفس الإنسان إذ تأمره بالسوء؛ فإنها أمَّارة بالسوء.

والأول أظهر.

وقيل: إن ﴿ٱلنَّاسِ﴾ معطوف على ﴿ٱلْوَسْوَاسِ﴾؛ كأنه قال: أعوذ من شر الوسواس من الجنة، ومن شر الناس، وليس الناس على هذا ممن يوسوس.

والأول أظهر وأشهر.

فإن قيل: لم ختم القرآن بالمعوذتين، وما الحكمة في ذلك؟

فالجواب من ثلاثة أوجه:

الأول: قال شيخنا الأستاذ أبو جعفر ابن الزبير: لما كان القرآن من أعظم النعم على عباده، والنعم مَظِنة الحسد؛ فختم[1] بما يطفئ الحسد؛ من الاستعاذة بالله.

الثاني: يظهر لي: أن المعوِّذتين ختم بهما؛ لأن رسول الله ﷺ قال فيهما: «أنزلت عليَّ آيات لم ير مثلهن قط»[2]، كما قال في فاتحة

---

(١) في د، هـ: «ختم».

(٢) أخرجه مسلم (٨١٤).

الكتاب: «**لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلها**»[١]، فافتتح القرآن بسورة لم ينزل مثلها، واختتم بسورتين لم يُرَ مثلهما؛ ليجمع حسن الافتتاح والاختتام، ألَا ترى أن الخطب والرسائل والقصائد وغير ذلك من أنواع الكلام إنما ينظر فيها إلى حُسْن افتتاحها واختتامها.

الوجه الثالث: يظهر لي أيضًا: أنه لما أمر القارئ أن يفتتح قراءته بالتعوذ من الشيطان الرجيم، ختم القرآن بالمعوِّذتين؛ ليحصل الاستعاذة بالله عند أول القراءة وعند آخر ما يقرأ من القرآن، فتكون الاستعاذة قد اشتملت على طرفي الابتداء والانتهاء؛ ليكون القارئ محفوظًا بحفظ الله الذي استعاذ به من أول أمره[٢] إلى آخره.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٢٣١)، والترمذي (٢٨٧٥)، وأحمد في مسنده (٩٣٤٥) في ضمن حديث طويل.

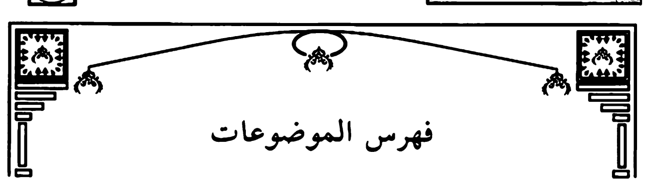
(٢) في ج، د: «مرة».

كمل كتاب «التسهيل لعلوم التنزيل» بعون الله وتوفيقه، فله الحمد كما هو أهله، فالخير بيده كله، وليس للعبد إلا إحسانه وطوله ورحمته وفضله، وأنا أرغب إلى الله كما أعانني بفضله على هذا الكتاب أن يجعله موجِبًا لدخولي الجنة من غير حساب ولا عذاب، بحرمة القرآن العظيم، وشفاعة محمد رسوله المصطفى الكريم[1]، عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

وكان تمام تقييده في يوم الاثنين الحادي عشر من شهر ربيع الثاني عام تسعة وثلاثين وسبع مئة، والحمد لله رب العالمين.

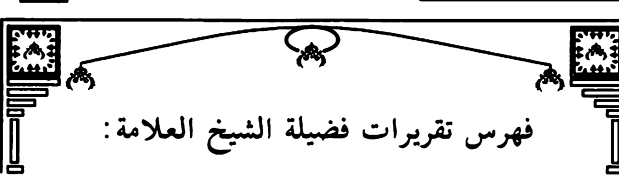
---

(١) قال الشيخ عبد الرحمن البراك: قوله: «بحرمة القرآن العظيم، وشفاعة محمد رسوله المصطفى الكريم»، أقول: كان الأولى بالمصنف رحمه الله التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾، وكما جاء في السنة: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت» الحديث، وما ذكره من التوسل بحرمة القرآن وشفاعة النبي ﷺ لا دليل عليه، فغفر الله له، ورحمه، وضاعف مثوبته.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



فهرس تقريرات فضيلة الشيخ العلامة:

عبد الرحمن بن ناصر البراك - حفظه الله -

٥٠	تفسير ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ وتمسك المعتزلة بها في قولهم بوجوب فعل الأصلح على الله	٣/ ٤٥٠
٥١	تفسير ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ بأنه هذا تقريب لفهم السامع وأن الأمور كلها متساوية عند الله ليس فيها تفاضل	٣/ ٤٩١
٥٢	نقد تفسير ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ بأنه عبارة عن إيجاد الحياة فيه، وما فيه من عدم إثبات إضافة النفخ إلى الله تعالى	٣/ ٥١٧
٥٣	نقد تفسير ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ بعلمه وإحاطته، وما فيه من جريٍ على مذهب الأشاعرة في عدم إثبات القرب الخاص	٣/ ٥٩٨
٥٤	تفسير ﴿بَلْ عجبتُ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ على القراءة بضم الباء، وصفة العجب لله تعالى	٣/ ٦٥٨
٥٥	تفسير ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ وهل الرضا هو الإرادة؟	٣/ ٧٤١
٥٦	تفسير ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وتأويلها بالنعمة أو القوة	٤/ ١٤٩
٥٧	تفسير ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ واستدلال المعتزلة بها على أن الفاسق غير مؤمن	٤/ ١٧٨